

شَرْحُ
كِتَابِ التَّوْحِيدِ
مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

تأليف

عبدالله بن محمد الغنيمان

رئيس قسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ

توزيع

مَكْتَبَةُ الدَّارِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

شارع الستين . أمام مسجد الإجابة

ص ب (٢٠٨) هاتف (٨٣٨٣٠٩٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له فى ألوهيته وربوبيته ولا ند له ، فى أسمائه وصفاته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أسأله بالهدى ، ودين الحق ، فدعا إلى توحيد الله الخالص من كل شائبة شرك ، فى حقه ، أو فعله ، أو أسمائه وصفاته ، وجاهد فى هذا السبيل حتى وضع الحق ، واستبان وكمل به الدين ، وتمت النعمة ، فترك الأمة على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

وسار على نهجه صحابته ، فلم يغيروا ، أو يبدلوا ، بل بذلوا جهدهم فى دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده ، حتى مضوا لسبيلهم .

فصلاة الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ، إمام الخنفاء وسيد الأصفياء ، ورضى الله عن صحابته أجمعين ، وعمن سلك نهجهم إلى يوم الدين .

كامل الهداية وتمام على النعمة على هذه الأمة

أما بعد ، فقد علم أن الله - بعث رسوله محمداً - ﷺ على حين فترة من الرسل ، « وفى جاهلية لا تعرف من الحق رسماً ، ولا تقم به فى مقاطع الحقوق حكماً » (١) وإنما ينتحلون ماتهاوا نفوسهم ، وما تزينه لهم شياطينهم ، وما

(١) انتزاعاً من خطبة الاعتصام للشاطبي ص ٢ .

وجدوا عليه آباءهم ، فجاهدهم وجادلهم بالدين والحكمة ، وقارعهم باللسان والحجة ، لمن كابر وعاند ، وكان نصر الله حليفه ، فاستقام أمره ، وانتصر على عدو الله ، وظهر دينه ، فجاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وبعد تمام نعمة الله - تعالى - عليه وعلى أمته ، وظهور ما جاء به من الحق ، ووضوح الطريق توفاه الله إليه ، فقام بعده صحابته بأمره خير قيام ، فجاهدوا في الله القريب والبعيد ، حتى تحقق ما أخبر به رسولهم - ﷺ - فيما رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « إن الله زوى ^(١) لي الأرض فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها مازري لي منها - وأعطيت الكنزين ، الأحمر ، والأبيض ^(٢) ، وأنى سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ^(٣) ، وإن ربي قال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ^(٤) ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلكهم بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً ^(٥) .

فتحت بلاد الروم ، وفارس في عهد الخليفة الثاني ، وأنفقت كنوزها في سبيل الله - تعالى - وواصلت جحافل التوحيد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، تفتح القلوب إلى معرفة الله وتوحيده قبل البلاد ، حتى تمت نعمة الله على أكثر أهل

(١) معناه جمعها لي فرأيت أقصاها من الشرق ومن الغرب .

(٢) المقصود بالكنزين كنوز الفرس ، والروم ، الأحمر الذهب ، والأبيض الفضة .

(٣) أى يهلكهم جميعاً ، ويستولى على بلادهم ، وذرائعهم ، وأموالهم .

(٤) أى لا أرسل عليهم عذاباً يعمهم ، ويستأصلهم .

(٥) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩ .

الأرض ، فاتجهوا إلى عبادة الله وحده ، بعد ما كانوا يعبدون كل شيء ، وكانت تستعبدهم شياطين الجن والإنس .

ولكن كثيرا من الناس لا يعجبهم ذلك ، بل يسؤوهم ويحزنهم .

ومن حكمة الله تعالى - أن جعل للباطل جنودا يناصرونه ، ويدافعون الحق ويردونه ، كما جعل للحق أنصارا يتفانون في الذياد عنه ، والدعوة إليه .

وقد كان ذلك منذ بقاء إبليس اللعين بالطرد عن رحمة الله ، والبعد عن كل خير ، فأقسم بعزة الله ليغوين بني آدم أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين ، كما قال الله تعالى عنه : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) (١) .

ومن المعلوم أن الله تعالى لم يقبض نبيه محمدا - ﷺ - حتى أكمل له دينه ، وأظهره على من عاداه بالحجج والبراهين ، وبقوة القتال لمن وقف في وجهه وعاند الحق ، كما قال تعالى في آخر ما أنزله الله عليه : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (٢) فإذا كان الله قد أكمل لهم دينهم ، فلا بد من أنه وضعه لهم بحيث لا يبقى فيه أى التباس أو اشتباه ، ولا بد من أنهم فهموه واعتقلوه على ما أريد منهم وعملوا به ، ولا بد من الاستغناء به عن كل ماسواه ، فلا يحتاجون معه إلى غيره ، وأعظم ما يحتاجونه وأشرفه هو معرفتهم ربهم بأسماء وصفاته ، وما يجب له ويستحقه ، ويحمد ويمجد به ، ويشئى به عليه ، لأن هذا من أفضل العبادة التى أوجبها الله عليهم ، كما قال تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (٣) .

(١) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص .

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

قد أوضح الله ورسوله العقيدة وضوحاً جلياً

فلا بد من إيضاح الواجب لله تعالى ، والممتنع عليه ، والجائز عليه ، حتى يكونوا على بينة من دينهم ، ومعبودهم ، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من الوحي ، إذ هو من الغيب ، الذى لا يعلم بالقياس ، ولا بالعقل .

وقد بين الله لنا طريقة الأنبياء التى كانوا يدعون بها أممهم ، كما قص الله تعالى عنهم فى القرآن ، فقد اتفقت طريقتهم فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وخطمهم جاء مقتفا أثرهم فى ذلك ، فدعا أمته إلى مادعت إليه الرسل قبله ، من توحيد الله ومعرفته ، فلم يفارقهم حتى وضح لهم الطريق ، واستبان الحق من الباطل .

روى ابن ماجه عن أبى الدرداء ، قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال : « آلفقر تخافون ؟ والذى نفسى بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلاهيه ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء »

قال أبو الدرداء : صدق والله رسول الله - ﷺ - « تركنا على مثل البيضاء ، ليلها ، ونهارها سواء » (١)

وقال الله تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢) ، وقال تعالى : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٣) وقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون) (٤) .

(١) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤ رقم ٥ .

(٢) النحل الآية ٨٩ .

(٣) سورة النحل الآية ٦٤ .

(٤) النحل الآية ٤٤ .

فالإيمان بالله وأسماء وصفاته أعظم الأشياء وكذلك عبادته ، فلا بد أن يبين الكتاب الذى هو تبيان لكل شىء ذلك أوضح البيان .

ولابد أن يدل على أعظم الهدى الذى هو معرفة الله - تعالى بأسماءه وصفاته - كما أن من أعظم ما وقع فيه الخلاف فى الأمة هو فى هذا الباب ، فلا بد أن يكون قد بينه ، لأنه تعالى أخبرنا أنه نزله ليبين لنا ما اختلفنا فيه ، ولابد أن نجد فيه ما يزيل كل شك ولبس ، لأنه هدى ورحمة - لكن ليس لكل أحد بل للمؤمنين فقط .

وأعظم ما أنزل إلينا هو الإيمان بالله ، ومعرفته ، وقد أخبرنا تعالى أنه أنزل الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم ، فكيف يترك أعظم الأشياء المنزلة إلينا بدون بيان .

فعلم بهذا ونحوه أن الله تعالى بين على لسان رسوله - ﷺ - للأمة كل ما تحتاج إليه فى دينها ، ومعرفة ربها ، ولم يكل ذلك إلى عقولهم ، أو قياساتهم . قال ابن عباس فى قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) (١) أخبر الله نبيه والمؤمنين ، أنه أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً » (٢) .

فإذا كان الله تعالى قد أكمل لهم الإيمان ، فكل ما لم يقله رسول الله - ﷺ - فى باب الإيمان ، ولم يأمر به وبيّنه للأمة فهو باطل ، وليس من الدين الكامل الذى جاء به .

وأصل الدين وأساسه معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ومعرفة ما يجب له على عباده .

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) رواه ابن جرير بسنده ، انظر تفسيره ج ٩ ص ٥١٨ ط المعارف .

ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله ، واليوم الآخر أن يظن برسول الله ﷺ أنه لم يبين ما يعتقد العبد في ربه ، لأن هذا هو الذي أمر بتبليغه .

قال شيخ الإسلام : « من المحال في العقل والدين أن يكون الرسول الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها ، ولم يميز بين ما يجب لله ، من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فإن معرفة هذا أصل الدين ، وأفضل الأعمال ، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة - وهم أفضل الخلق بعد النبيين - لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا .

ومحال أن يعلم النبي - ﷺ - أمته أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، ونحو ذلك ، ويترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ، وما يعتقدونه في قلوبهم ، في ربهم ومعبودهم ، مع كون ذلك غاية المعارف ، وأشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، مع قوله - ﷺ - : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » (١) .

ومحال أن يكون الذين كان فيهم رسول الله - ﷺ - والذين يلونهم غير علمين للحق في باب معرفة الله ، وغير قائلين به .

ومعلوم أن من في قلبه حياة ومحبة للعبادة ، أنه يحرص أشد الحرص على معرفة ذلك .

وقد صح عنه - ﷺ - أنه قال (٢) : « خير الناس قرني ، ثم الذين

(١) انظر صحيح مسلم ج ١٢ ص ٢٣٣ شرح النووي في الإمارة باب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ، وابن ماجه في الفتن ، انظر ج ٢ ص ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦ ، والنسائي في البيعة ج ٧ ص ١٥٣ .

(٢) البخاري ، انظر الفتح ج ٧ ص ٢ وج ١١ ص ٢٤٤ و ٥٤٣ .

يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » (١) .

بدء الانحراف

لما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد ، في آسيا ، وأفريقيا ، وغيرهما . دخل تحت حكمه أمم كثيرة ، رغبة ورهبة ، وكان لها أديان مختلفة ، من يهودية ، ومجوسية ، ونصرانية ، ووثنية ، وغير ذلك ، وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير ، مثل المجوس ، والرومان ، فسلبهم المسلمون ذلك ، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء ما يجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين ، ولاسيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم ، وأقلها شأنًا ، كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء ، وحاولوا القضاء عليه بأنواع من المكائد ، والمؤامرات . ولما يأس هؤلاء جميعاً من قدرتهم في مجابهة الإسلام بالقوة وجها لوجه انصرف جهدهم وكيدهم إلى الدسائس ، والمؤامرات ، والاعتيالات لرجال العظام .

ودخل في الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصده إفساده ، وتمزيق وحدة أهله ، ولا بد أن يكون ذلك عن دراسة ، وإعمال فكر وتخطيط . وربما يكون هناك جمعيات متعاونة ، من المجوس واليهود ، والنصارى والهنود ، وغيرهم ، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين ، لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين ، إلا بإفساد عقيدتهم . فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر ، شيئاً فشيئاً ، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيدي مجوسية ، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية .

ثم قتل الخليفة بعده ، بأيدي مشبوهة ، من غوغاء ، يدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس .

(١) الفتوى الحموية ، ملخصاً ، انظر مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٧٠٦ .

ثم ظهر القول بنفى القدر ، وأول من عرف بذلك رجل مجوسى يقال له : سيسويه ، من الأساورة ، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهنى (١) .

ثم أوقدت نار الفتنة بين المسلمين ، وقتال بعضهم بعضا .
ثم خرجت الخوارج بجهلهم ، وعتوهم ، وتكفيرهم المسلمين ، وقتلهم إياهم .

ثم نجم التشيع الشنيع ، من قبل يهود ومجوس يوقدون ناره ، وأظهروا القول بأن للرسول - ﷺ - وصياً ، هو عليّ بن أبى طالب ، ولكن الصحابة تمالؤا على ظلمه ، وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب .

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه ، وتشعبه ، حتى صار ملجئاً لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين ، وظهر فيه القول بأن القرآن مبدل ومحرف ، ومزبد فيه ، ومنقوص منه ، وأن أعظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم ، ماعدا عليّ بن أبى طالب ونفر قليل معه .

وقد يصل الضلال ببعضهم والجرأة على الله تعالى ، إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة ، وأنه أرسل إلى علي فعدل بها إلى محمد .

ولم يزل الرفض يبتعد بأهله عن الدين . والعقل والفطرة إلى يومنا هذا .

ثم ظهر القول بإنكار الصفات لله تعالى ، وأنه لا يجب أحداً من عباده ولا يحبه أحد ، ولا يتكلم ، وليس له يد ، ولا وجه ، ولا شيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله .

(١) معبد الجهنى البصرى تابعى كان داعية فى ضلال ، قال الدارقطنى : حديثه صالح ومذهبه ردىء . تكلم فيه كثير من السلف من أجل قوله بنفى القدر ، قتله عبد الملك سنة ثمانين ، انظر تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٢٥ .

وكان أول من عرف بذلك ، رجل يقال له : الجعد بن درهم . (١)

قال شيخ الإسلام : « أصل مقالة تعطيل الصفات ، مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام - أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة ، وأن الاستواء بمعنى الاستيلاء ونحو ذلك - هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه .

وقد قيل : إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر ، الذي سحر النبي ﷺ (٢) وهذه سلسلة يهودية لها سوابق في محاربة الإسلام .

وقال البخارى : « حدثنا قتيبة ، حدثنى القاسم بن محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيبة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : شهدت خالد بن عبد الله القسرى بواسط في يوم أضحى ... وقال : ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم ، ثم نزل فذبحه »
قال أبو عبد الله : قال قتيبة : بلغنى أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم » (٣) .

فتبين أن هذا الإلحاد جاء من قبل اليهود الذين أرادوا إفساد دين الإسلام ،

(١) عداده في التابعين ، قتله خالد بن عبد الله القسرى على الزندقة يذكر أنه جعل في قارورة ، ماء وتراباً ، فاستحال دوداً ، فقال : أنا خلقت وهو فارسي ، قتل سنة ١٢٤ . انظر البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٩٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٠ .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٩ - ٣٠ . ورواه عثمان بن سعيد في الرد على الجهمية

كما أن الرفض أول من عرف من دعائه يهودى ماكر ، حاقد وهو ابن سبأ ، يقال له ابن السوداء ، واسمه عبد الله بن وهب بن سبأ من يهود صنعاء ، ولابد أن هؤلاء الأفراد الذين شهروا بدعواتهم المنحرفة ، وراءهم من يدعمهم ، ويخطط لهم ، وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة فاحصة ، تبين الأمر بوضوح ، وهذا الذى أشرت إليه تدل عليه كثير من الوقائع ، والآثار عن السلف ، وغيرهم .

فكان هذا هو سبب التفرق الحقيقى ، إذ هو تفرق فى الاعتقاد ، وهو منشأ الخلافات ، والحروب الكلامية الممزقة ، التى لم تزل تنخر فى كيان المسلمين إلى يومنا هذا .

وقد ينضم إلى ذلك عوامل جديدة فى كل فترة زمنية ، من أنواع الإلحاد ومحاربة الإسلام بأساليب شتى ، وأسلحة مختلفة ، مقروءة ، ومرئية ومسموعة ، ولولا أن الله تعالى تكفل ببقاء هذا الدين إلى آخر وقت من الدنيا ، لقصى عليه منذ زمن بعيد ، وهذا بالإضافة إلى ما هو كامن فى طباع البشر مما يبعدهم عن الحق ، مثل التقليد ، واتباع المألوفات ، وما يكون عليه رؤساء القوم وعظماؤهم ، كما ذكر الله تعالى عن الأمم السابقة مع أنبياءهم قال تعالى : (أم آتيناهم كتابا من قبله ، فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) (١) فهذا يدل على أن الإنسان يصعب عليه ترك المألوف له ، كما أن شيخه ، ومن يعظمه قد يسيطر على توجيهه إلى مايعتقده ، كما هى طريقة المتكلمين ، حيث يأخذون بآراء شيوخهم ومعظمهم ، مع مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله .

ومن ذلك الجهل ، واتباع الهوى ، كما هو حال أكثر الخوارج ، فإنهم

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من سورة الزخرف .

جهلوا معاني الكتاب ، وأرادوا من عموم الأمة أن لا يكون لهم ذنوب ، وإلا أصبح عندهم كافراً مخلداً في النار .

وأما الهوى فبابه واسع ، وقد قال الله تعالى : (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) (١)

وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) (٢) إلى غير ذلك من الدوافع نحو الانحراف ، وسأذكر شيئاً مما ذكره أهل العلم يؤيد ما ذكر هنا :

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى : « وقد روى أن أول من ابتدع [القول بنفى القدر] بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له : سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهني » (٣)

وقال الإمام ابن حزم : « الأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر في أنفسهم ، حتى إنهم يسمون أنفسهم الأحرار ، والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم ، على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاضمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة ، في أوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق ، وكان من قائمتهم « منقاد » و « المقنع » ، و « استابين » ،

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوي ج ٧ ص ٣٨٤ ، وذكره المقرئ في الخطط ج ٣ ص ٣٦٠ ، وسيأتي ، وأما ما ذكره أبو لبابة حسين في كتابه « موقف المعتزلة من السنة » أن معبداً أخذ مقالته عن نصراني من أهل العراق أسلم ثم تنصر ، نقلها عن أدب المعتزلة فيه نظر ، إذ هو خلاف المشهور .

و « دبابك » (١) ، وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب « خدasha » ،
و « أبو مسلم السراج » .

فأروا أن كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستأثروا أهل
التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله - ﷺ - واستشناع ظلم (٢) علي -
رضي الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام ، فقوم
منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدي ، عنده حقيقة الدين ، إذ
لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار .

وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة .

وقوم سلكوا بهم المسلك الذي ذكرنا ، من القول بالحلول ، وسقوط
الشرائع .

وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة .
وآخرون قالوا : بل هي سبع عشرة صلاة ، في كل صلاة خمس عشرة
ركعة .

وهذا قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندي ، قبل أن يصير خارجيا ،
صفريا (٣)

(١) هذه الأسماء فيها اختلاف بين النسختين من الفصل المحققة والمطبوعة سابقاً ،
ففي القديمة « ستقادة » و « استاسيس » والملقب « بخدasha » و « أبو مسلم السراج » ولم
يشر المحققان إلى هذا الاختلاف .

(٢) لم يقع على علي بن أبي طالب ظلم من الصحابة كما زعمته الرافضة ، وإنما هو
شيء اختلق للتشيع والوصول إلى المقصد الخبيث .

(٣) يجوز أن يكون عبد الله هذا يهوديا ، لم يشف حقه مافعله من إفساده دين من
أفسد دينه ، فدخل في الخوارج ليروى ظمناً حقه بدماء المسلمين . فالله أعلم .

وقد سلك هذا المسلك أيضا عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى (١) فإنه لعنه الله ، أظهر الإسلام ليكيد أهله ، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان - رضى الله عنه ، وحرق علي بن أبى طالب طوائف أعلنوا بإهتيه .

ومن هذه الأصول الملعونة ، حدثت الاسماعيلية ، والقرامطة ، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة ، ثم مذهب مزدك الموبد ، الذى كان على عهد أنو شروان بن قباد ، ملك الفرس ، وكان يقول بوجود تواسى الناس في النساء ، والأموال .

قال أبو محمد : فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا ، إذ هذا هو غرضهم فقط » (٢)

وهذا الذى ذكره أبو محمد ابن حزم - رحمه الله - ظاهر فى أنه كان هناك جمعيات تنظيمية تخطط لهدم عقيدة المسلمين ، بشتى الوسائل .

قال البخارى رحمه الله - تعالى - : « حدثنا محمد بن عبد الله - أبو جعفر البغدادى قال : سمعت أبا زكريا ، يحيى بن يوسف الزمى ، قال : كنا عند عبد الله بن إدريس ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا محمد ، ماتقول فى قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصرارى ؟ قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ قال : لا ، من أهل التوحيد ، قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء الزنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله - تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، فالله لا يكون مخلوقا ، والرحمن لا يكون مخلوقا ، والرحيم لا يكون مخلوقا .

(١) إن فعل هذين الرجلين يدلنا على أن هناك منظمات تتعاون على حرب الإسلام من اليهود والمجوس وغيرهم ، كما أشرت إليه قبل ذلك .

(٢) الفصل ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ ، وانظر المحققة ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله ، لاتجالسوهم ، ولا تناكحوهم « (١) .

وقال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى : « لم يزل [أهل الباطل] مقموعين أذلة ، مدحورين ، حتى كان الآن بآخرة ، حيث قلت الفقهاء ، وقبض العلماء ، ودعا إلى البدع دعاة الضلال ، فشد ذلك طمع كل متعوذ في الإسلام من أبناء اليهود ، والنصارى ، وأنباط العراق ، ووجدوا فرصة للكلام ، فجدوا في هدم الإسلام ، وتعطيل ذى الجلال والإكرام ، وإنكار صفاته وتكذيب رسله ، وإبطال وحيه ، إذ وجدوا فرصتهم ، وأحسوا من الرعاع جهلا ، ومن العلماء قلة ، فنصبوا عندها الكفر للناس إماما ، بدعوتهم إليه . وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل ، وعمايات من الكلام ، يغالطون بها أهل الإسلام ، ليوقعوا في قلوبهم الشك ، ويلبسوا عليهم أمرهم ويشككوهم في خالقهم ، مقتدين بأئمتهم الأقدمين « (٢)

وقال البخارى : « حدثنى أبو جعفر ، حدثنى يحيى بن أيوب ، قال : سمعت أبا نعيم البلخى ، قال : كان رجل من أهل « مرو » صديقاً للجهم ، ثم قطعه وجفاه فقيلاً له : لم جفوته ؟ فقال : جاء منه مالا يحتمل ، قرأت يوماً آية كذا وكذا ، نسيها يحيى - فقال : ما كان أظرف محمداً ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة طه فلما قال : (الرحمن على العرش استوى) قال : أما والله لو وجدت سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة القصص فلما انتهى إلى ذكر موسى ، قال : ما هذا ؟ ذكر قصته في موضع فلم يتمها ، ثم ذكرها ها هنا فلم يتمها ، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه ، فوثبت عليه « (٣)

(١) خلق أفعال العباد ص ٣٠ .

(٢) الرد على الجهمية ص ٢٥٩ عقائد السلف .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٨ ، وانظر عقائد السلف ١٢٨ - ١٢٩ .

فهذه الوقائع - ومثلها كثير جداً - تدل على حقد دفين ، على هذا الدين ، وأنه دخل في المسلمين الدخيل ، ذى القلب الموتور ، والصدر الموغور ، والنفس التى تأكلها نار عداوة الإسلام ، ونبى الإسلام ، وأن هؤلاء يحاولون اجتثاث الإسلام من قلوب الناس ، بالتشكيك فى أصوله ، وأن كثيراً من علماء السلف علموهم ، وعرفوا أن مرادهم صدّ الناس عن الإسلام ، وإفساد عقائدهم . وأن تعاونوا يهوديا ، ومجوسيا ، ونصرانيا وإلحاديا لم يزل ينتهز الفرص ، جاهدا فى إطفاء نور الله - وبأى الله إلا أن يتم نوره .

ولاشك أن الصراع بين الحق والباطل قديم ، وأنه لا يخلو زمان ، ولا مجتمع من ذلك ، وأن الله تعالى جعل للباطل هواة ومحبين ، ينفقون أموالهم ويبدلون نفوسهم فى الدفاع عنه ، كما جعل للحق أنصاراً ، وهذا أمر ظاهر كما قال تعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (١)

وإذا كان الإنسان متظاهرا بمساندة الباطل ونصرته ، فأمره أسهل ممن يخفى ذلك ، ويتظاهر بالخير والإيمان ، وهو من أبعد الناس عنه ، وأشدهم عداوة له ، وإنما مقصده معرفة مواطن الضعف من الإسلام وأهله ، والمداخل التى تنفذ سمومه منها فيهم ، ثم يرميهم بكل ما يستطيع .

وربما يكون هناك تنظيمات تلبس لباس العلم والمعرفة ، والإصلاح ، والتجديد ، والمقصود منها القضاء على الدين ، وهم ينوعون أساليبهم فى كل وقت بما يناسبه ، وإن مصائب الإسلام بهؤلاء وأمثالهم ، من فجره إلى يومنا هذا تتوالى ، وقد وصف ذلك المقرئى - رحمه الله - وصفا مفيدا ألخصه فيما يلى :

قال :

(١) سورة النساء الآية ٧٦ .

« لما بعث الله محمداً - ﷺ - إلى الناس ، وصف لهم ربهم بما وصف به نفسه ، فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم ، قروبيهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك ، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة ، وشرائع الإسلام . إذ لو سأله أحد منهم عن شيء من الصفات لنقل ، كما نقلت أحاديث الأحكام وغيرها .

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث والآثار عن السلف ، علم أنه لم يرد قط لا من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل النبي ﷺ عن معنى شيء ، مما وصف الرب سبحانه به نفسه ، في القرآن وعلى لسان نبيه ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا سكوت فاهم مقتنع ، ولم يفرقوا بين صفة وأخرى ، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شيء منها ، بل أجروا الصفات كما وردت بأجمعهم ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به سوى كتاب الله ، وسنة رسوله .

ومضى عصرهم - رضی الله عنهم - على هذا ، وحدث القول بنفى القدر في عهد آخرهم .

وكان أول من فاه بذلك معبد الجهني ، أخذه عن رجل من الأساورة ، يقال له : أبو يونس سنسويه ، ويعرف بالأسواري ، وتبرأ من هذه المقالة الصحابة . ثم خرجت الخوارج ، وكفروا بالذنوب ، فقاتلهم أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب .

وحدث التشيع لعلي ، وغلا فيه طائفة بدعوة ابن سبأ اليهودي فحرقهم في النار ، كما أحدث ابن سبأ القول بالوصية لعلي بالإمامة من بعد الرسول - ﷺ - والقول بالرجعة - أي رجعة علي بعد موته ، وأن فيه جزء من الإلهية .

ومن دعوة هذا اليهودي تشعبت الغلاة من الرافضة ، كالإمامية الاثنى عشرية ، والإسماعيلية ، والقرامطة ، والنصيرية ، وغيرهم ، وهو الذي أثار الفتنة على أمير المؤمنين ، عثمان حتى قتل ، ولم يزل مذهب الرفض يستفحل حتى ملأ الدنيا فساداً .

ثم حدث مذهب الجهمية ، وتعطيل الرب - تعالى - عن صفاته ، والقول بخلق القرآن ، وغير ذلك من العظائم ، وعربت كتب الفلاسفة في عهد المأمون ، فعظمت الفتنة والضلال .

ثم ظهر الأشعري ، وكان أخذ عن الجبائي الاعتزال ، ولازمه دهرًا طويلًا ، ثم سلك طريق ابن كلاب في الصفات ، والقدر وغير ذلك .

وسلك طريقه جماعة من العلماء ، مثل الباقلاني ، وابن فورك ، والاسفرائيني والشيرازي ، والغزالي ، والشهرستاني ، والرازي وغيرهم ، وملئوا الدنيا بتصانيفهم ، يحتجون ، ويدعون أن طريقتهم هي طريقة أهل السنة والجماعة ، فانتشر هذا المذهب في البلاد الإسلامية ، وجاءت دولة بني أيوب ، وكانوا على هذا المذهب ، ثم مواليهم الأتراك ، وأخذ ابن تومرت إلى المغرب ، ونشره هناك ، فصار هذا المذهب هو المعروف في الأمصار ، بحيث نسي ماعداه من المذاهب ، أو جهل ، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة .

حتى جاء تقي الدين - أبو العباس ابن تيمية - ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ورد على الأشاعرة ، والرافضة ، والصوفية ، فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويرى أنه شيخ الإسلام حقا ، ومن أجل حفاظ أهل الملة الإسلامية .

وآخر يبذعه ، ويضله ، ويزرى عليه إثبات الصفات وغيرها .

ثم قال المقرئ :

« فهذا أعزك الله بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا ، قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار ، وأجملت ما فصلوا ، فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدي ، وأطلت بسببه سهري وكدي ، في تصفح دواوين الإسلام ، وكتب الأخبار ، فقد وصل إليك صفوا » (١)

(١) الخطط للمقرئ ملخصا ج ٣ ص ٣٠٩ - ٣١٤ .

وقال أحمد أمين في كلامه على ابن سبأ : « والذي يؤخذ من تاريخه ، أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته » (١)

وذكر الطبري : « أن ابن السوداء لما وصل إلى الشام لقي أباذر - رضى الله عنه - فقال له : ياأباذر ألا تعجب لمعاوية ، يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، يريد أن يحتججه دون المسلمين ، فذهب أبو ذر إلى معاوية وقال له : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله » ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهوديا ، وأتى عبادة بن الصامت فأخذه عبادة ، وذهب به إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الذي بعث عليك أباذر » (٢)

فإذا كان هذا اليهودى قد طمع بالصحابة ، فكيف بغيرهم .

ومن استقرأ التاريخ يرى أن أعداء الإسلام لم يدخروا وسعاً في محاولة القضاء عليه ، إلى يومنا هذا .

كبريات الفرق الإسلامية

كان من نتائج التآمر على عقيدة المسلمين من جهات متعددة ، كما سبقت الإشارة إليه ، أن انشطر من الأمة الإسلامية عدة فرق ، انحرفت عن الطريق الصحيح ، الذى رسمه لها نبيها - ﷺ - وأخذت بنيات الطريق ، كما سبق فى حكم الله القدرى الكونى قال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين * إلا من رجم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (٣)

(١) فجر الإسلام ص ٢٦٩ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٨٣ .

(٣) الآيتان ١١٨ و ١١٩ من سورة هود عليه السلام .

روى ابن جرير عن الحسن « قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلفين »

وروى عن مجاهد : قال : « ولايزالون مختلفين » أهل الباطل ، (إلا من رحم ربك) أهل الحق « (١)

وقال : « معنى ذلك : ولايزال الناس مختلفين في أديانهم ، وأهوائهم ، على أديان وملل ، وأهواء شتى ، إلا من رحم ربك ، فأمن وصدق رسله ، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله « وتصدق رسله ، وما جاءهم من عند الله » (٢)

وقال ابن كثير : « يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة ، من إيمان أو كفران ، كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) (٣) .

وقوله : « ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك » أى : ولايزال الخلف بين الناس في أديانهم ، واعتقاداتهم في مللهم ونحلهم ، ومذاهبهم ، وآرائهم . إلا المرحومون من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى جاءت به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية « (٤)

وقد أخبر النبي ﷺ بوقوع هذا الاختلاف ، محذرا منه ، فروى أبو داود ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « افتقرت اليهود على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » (٥)

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٥٣٤ ط المعارف .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٤ .

(٣) الآية ٩٩ من سورة يونس عليه السلام .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٠ - ٢٩١ ملخصا ط الشعب .

(٥) السنن ج ٥ ص ٤ رقم ٤٥٩٦ ، ورواه الترمذى التحفة ج ٧ ص

٣٩٧ ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه ج ٢ ص ١٣٢١ رقم ٣٩٩١ .

ورواه أيضا من حديث معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب ، افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة » (١) .

قال ابن كثير : « روى هذا الحديث فى السنن ، والمسانيد من طرق يشد بعضها بعضا » (٢) .

وأصل الفرق الذى ترجع إليه أربع كما قاله طائفة من السلف ، وهم الروافض ، والخوارج ، والقدرية [المعتزلة] ، والمرجئة ، وبعض العلماء يجعلها خمسا ويدخل أهل السنة ، كما قال أبو محمد بن حزم : « فرق المقرين بجملة الإسلام خمس : وهم : أهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، ثم افترت كل فرقة من هذه على فرق » (٣) .

ومراد غير أهل السنة فإنهم فرقة واحدة ، وهم الذين تمسكوا بكتاب الله واتبعوا سنة رسوله ﷺ .

وقال الطرطوشى : « اعلم أن علماءنا قالوا : أصول البدع أربعة ، وسائر الأصناف الاثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا ، وتشعبوا . وهم : الخوارج : وهى أول فرقة خرجت على علي بن أبى طالب ، والروافض والقدرية ، والمرجئة » (٤)

(١) السنن ج ٥ ص ٥ ، والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو مع بعض الاختلاف فى اللفظ ، وقال : حديث حسن مفسر ، انظر تحفة الأحوذى ج ٧ ص ٣٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩١ .

(٣) الفصل ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الحوادث والبدع ص ٣١ .

ومن هذه الفرق تشعبت سائر الفرق ، وقد أُلّف فيها وفي بيان نحلها مؤلفات قديما وحديثا .

وكان من أول هذه الفرق الشيعة فإنها حدثت في آخر عصر الصحابة ، ثم تطور التشيع الى الرفض ، ومبدأه من ابن سبأ اليهودى ، وغيره من المجوس ممن دخل في الإسلام ظاهرا وفي الباطن هم إما يهود ماكرون ، أو مجوس موتورون ، قصدهم إفساد الدين الإسلامي ، كما تقدم .

فكان الرفض في أوله يسمى التشيع ، فاشتهروا بالشيعة - أى شيعة علي ابن أبى طالب ، وكانوا في زمنه ثلاث فرق .

فرقة تقول : إنه إله ، وقد صرحوا له بذلك فحرق الذين تمكن منهم بالنار .

والثانية : الذين يسبون أبا بكر وعمر ، وقد توعد علي - رضى الله عنه - من فعل ذلك بأن يقيم عليه الحد - قيل : إنه القتل .

والثالثة المفضلة ، الذين يفضلون علياً على أبى بكر ، وعمر ، وبقيّة الصحابة ، وقد روى عنه أنه قال : « لا أتى برجل يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته الحد » (١) .

ولما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية ، سأله الشيعة عن أبى بكر وعمر ، فترضى عنهما ، وبين أنه يتولاهما ، تبرأ منه عند ذلك أكثرهم ، فقال : رفضتمونى ، فسموا الرافضة ، والذين اتبعوه سمو زيدية .

وأما القدريّة : فأصلهم فيما يبدو والله أعلم ، من المجوسية المتعاونة مع اليهودية والنصرانية على حرب الإسلام .

(١) انظر فضائل الصحابة للإمام أحمد ج ١ ص ٨٣ .

وحدثت هذه الضلالة أيضا في آخر عهد الصحابة - رضى الله عنهم - ثم تطورت إلى الاعتزال .

وقد اغتر بهذا المبدأ كثير من الناس ، الذين عجزت عقولهم عن استيعاب الإيمان بقدر الله ، وأمره ونهيه ، ووعدته ووعيده ، وظنوا امتناع الجمع بين ذلك ، فنفوا علم الله بالمستقبل لظنهم أنه لا يحسن أن يأمر من يعلم أنه يعصى أمره ثم يعذبه على ذلك ، حيث جعلوا هذا ظلما لا يجوز فقابلتهم الجبرية ، الذين هم صنو منهم ، ثم تطورت إلى التجهم ، والتعطيل بتغذية اليهودية ، المفسدة في الأرض .

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا عن الحق من جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهم كذلك كان ظهورهم في آخر عهد الصحابة رضى الله عنهم . وهم إنما أتوا من سوء فهمهم للنصوص ، ولم يقصدوا مخالفة القرآن ، ولكن فهمهم أدهم إلى ما لم يدل عليه القرآن ، وهو تكفير أهل الذنوب ، والقول بخلودهم في النار ، ولابد أنه اندس في صفوفهم من يضلهم من منظمات المتورين ، والحاقدين على دين الله وعباده المؤمنين .

وأما الإرجاء ، فإنه وإن كان أخف هذه البدع ، ومعتقوه من أقربهم إلى أهل السنة ، ففيه من الضلال ، والمخالفة لشرع الله تعالى ما هو معروف في مواطنه .

الأشعرية

من نتائج الافتراق والتشتت ، برزت الأشعرية ، وهى عبارة عن خليط من مذاهب عدة فرق ، كالمعتزلة ، والكلاية ، والجهمية ، وقد كان إمام هذه النحلة - أبو الحسن الأشعري - تلميذاً لأبي علي الجبائي ، قرأ عليه أصول المعتزلة ، ولازمه ما يقرب من أربعين عاما ، ولهذا كان خبيراً بمذاهب المعتزلة ، ثم انتقل إلى طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهى أقرب إلى مذهب أهل السنة من طريقة

المعتزلة ، وجعل يبين فساد مذهب الاعتزال ويرد عليهم ، ويوضح فساد أصولهم .
وتناقضهم ، ويعددهم عن الحق ، ومثلهم الرافضة والفلاسفة ، ولهذا صار له ذكر
حسن وقدر عند المسلمين .

والذين ينتسبون إليه من المتأخرين ليسوا على طريقته ، مع أنه لم يكن من
أهل السنة المحضة ، إذ لم يستطع أن يتخلص من بعض مسائل أهل الكلام .

قال شيخ الإسلام : « لا ريب أن الأشعرية إنما تعلموا الكتاب والسنة من
اتباع الإمام أحمد ، ونحوه ، ولهذا يوجد أكثر ألفاظه التي يذكرها عن أهل السنة
والحديث ، إما ألفاظ زكريا بن يحيى الساجي ، التي وصف بها مذهب أهل
السنة ، أو ألفاظ أصحاب الإمام أحمد ، وما ينقل عن أحمد في رسائله الجامعة
في السنة ، وإلا فالأشعري لم يكن له خبرة بمذهب أهل السنة ، وأصحاب
الحديث ، وإنما يعرف أقوالهم من حيث الجملة ، لا يعرف تفاصيل أقوالهم ،
وأقوال أئمتهم ، وقد تصرف فيما نقله عنهم باجتهاده في مواضع يعرفها البصير .
وأما خبرته بمقالات أهل الكلام فكانت تامة على سبيل التفصيل .

ولهذا لم يذكر عن أهل السنة في كتاب « مقالات الإسلاميين » إلا جملة
مقالاتهم ، مع أن لهم في تفاصيل تلك ما ليس لأهل الكلام .

ولا ريب أن للأشعري في الرد على أهل البدع كلاما حسناً ، هو من الكلام
المقبول ، الذي يحمد قائله إذا أخلص فيه النية .

وله أيضا كلام خالف به بعض السنة هو من الكلام المردود ، الذي يذم
قائله إذا أصر عليه بعد قيام الحجة « (١) والله يغفر لنا وله .

وقد انتسب إلى الأشعري أكثر العالم الإسلامي اليوم من أتباع المذاهب
الأربعة ، وهو يعتمد على تأويل نصوص الصفات تأويلا يصل أحيانا إلى

(١) التسعينية ج ٥ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ من الفتاوى المصرية . ملخصا .

التحريف ، وأحيانا يكون تأويلا بعيداً جداً ، وقد امتلأت الدنيا بكتب هذا المذهب ، وادّعى أصحابها أنهم أهل السنة ، ونسبوا من آمن بالنصوص على ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم .

هذا ولابد لعلماء الإسلام - ورثة رسول الله ﷺ - من مقاومة هذه التيارات الجارفة ، على حسب ماتقتضيه الحال ، من مناظرات ، أو بالتأليف ، وبيان الحق بالبراهين العقلية والنقلية ، وقد يصل الأمر أحيانا إلى شهر السلاح .

وقد أكثر علماء السنة من التأليف في الرد على أهل الأهواء والانحراف ، كما ظهر بعض الطوائف المقابلة لتلك البدع كالسالمية والكلابية ، الذين تولوا أيضا الرد على أهل تلك الانحرافات ، غير أنهم كثيراً ما يردون البدع ببدع مماثلة لما يرد أو قريبا منها ، فيزداد من أجل ذلك التباس الحق على كثير من الناس ، بخلاف ما إذا كان الرد بما دل عليه كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، كما هو نهج أهل السنة بالإضافة إلى المعقول الصريح .

ومن كبار علماء السنة الذين ردوا على أهل البدع ، الإمام البخارى - رحمه الله تعالى - في كتاب أفرد لذلك سماه « خلق أفعال العباد » ، ولم يقتصر فيه على ما يفهم من الاسم ، بل ردّ فيه على الجهمية والقدرية وغيرهم ، كما رد على المرجئة في كتاب الإيمان من الجامع الصحيح ، ورد على الجهمية والمعتزلة ومن سلك طريقهم في كتاب التوحيد ، الذى ختم به كتابه الجامع الصحيح ، وسلك فيه طريقا واضحا في الرد ، إذ اقتصر على ذكر النصوص ، من الكتاب والسنة ، التى فيها بيان بطلان مذاهب هؤلاء المشار إليهم ، فكأنه يقول : هذا كتاب ربنا الذى أنزله علينا وأمرنا باتباعه ، وحضّنا على تدبره وفهمه ، وجعله هدى ونورا وشفاء للمؤمنين به ، وهذه سنة نبينا الذى كلفنا بطاعته ، ومتابعته ، وفيهما العصمة عن الخطأ ، وهما صريحان في بيان الحق ، الذى ضل عنه هؤلاء المبتدعة ، وقد تكفلا برد ماجاؤا به ، فلا يسع المسلم إلا الأخذ بهما ، ورد ما خالفهما ، فقيهما الهدى والنور ، وفي تركهما الضلال والهلاك ، والله تعالى لم يكلنا إلى

عقولنا ، بل أرسل إلينا رسولا بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور ديننا ، وأنزل عليه كتابه ، فيه تبيان لكل شيء ، فرّق فيه بين الحق والباطل ، فلسنا نحتاج معه إلى غيره ، فإن تمسكنا به أوصلنا إلى الله من أقرب طريق وأهداه ، وإن أعرضنا عنه تخطفنا الشياطين من كل جانب كما قال الله تعالى : (ومن يَعِشْ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنيهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بُعدَ المشرقين فبئس القرين) (١) .

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (٢) .

قال النووى : « اتفق العلماء على أنه ولد بعد صلاة الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ، سنة أربع وتسعين ومائة ، وتوفى ليلة السبت ، عند صلاة العشاء ليلة الفطر ، سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن يوم الفطر بعد الظهر » (٣) .

طلب العلم من صغره ، وتبينت نجابته وذكاءه ، وفطنته ، وحفظه ، ونبهه من صغره ، وقد طوف البلاد مراراً لطلب الحديث ، وأخباره مشهورة ، واتفق العلماء على جلالة ، وإمامته في الحديث ، وفقهه ، وتميز بذلك عن غيره ، وقد كتب في ترجمته كثيرا ، في كتب الرجال ، والشروح ، وأفرد لذكر فضائله ، وشمائله كتب خاصة ، فلا نطيل في ذلك .

وأما كتابه « الجامع الصحيح » فقال النووى - رحمه الله - : « اتفق

(١) الآيات من ٣٦ - ٣٨ من سورة الزخرف .

(٢) هدى السارى ج ٢ ص ٢٥٠ ، وتاريخ بغداد ج ٢ ص ٤ .

(٣) شرح النووى للبخارى ص ٤ .

العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخارى ومسلم ، واتفق الجمهور على أن صحيح البخارى أصحهما صحيحا ، وأكثرهما فوائد « (١) »

قلت : هو كتاب عظيم ونافع جدا لمن قرأه ، وتدبره ، وقد أودعه من التراجم التي تعين على الفهم الشيء الكثير ، وهي تدل على عظيم فقهه في الحديث ، ودقة استنباطه ، وقد بلغت ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنين وثمانين ترجمة ، وتزيد على ذلك في بعض النسخ .

هذا ، وقد اعتنى العلماء به عناية فائقة ، قراءة ، وحفظاً ، وتدريساً ، وشرحاً . فحظي بشروح كثيرة جدا ، فذكر في كشف الظنون ما يقرب من ثمانين شرحا للبخارى (٢) ، وله أكثر من ذلك بكثير .

ومع هذا ، فإن كتاب التوحيد منه بحاجة إلى شرح يبين مقاصد البخارى - رحمه الله تعالى - ووجه الرد منه على أهل البدع ، لأن غالب من قام بشرحه ، على المذهب الأشعري ، ولاسيما الشروح المتداولة اليوم ، ولهذا تجد أحدهم يوجه الكلام من النصوص ، ليتفق مع ما يعتقده ، ولو بالتعسف .

وكثير من الصفات التي يثبتها البخارى ، مستدلا عليها بنص من كتاب الله ، أو عن رسوله ، يحاولون ردها ، إما بالتحريف الذي يسمونه تأويلا ، أو بدعوى الإجماع على خلافها ، كما ذكر الحافظ - رحمه الله تعالى - عن ابن بطال ، في قوله - صلى الله عليه وآله : « لا شخص أغير من الله » .

قال : « أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص » (٣) .

(١) شرح النووى للبخارى ص ٧ .

(٢) انظر كشف الظنون ج ١ ص ٥٤٥ .

(٣) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٠٠ وسيأتى إن شاء الله الكلام عليه وذكر من رواه .

وذكر عن الخطابي : أنه رد وصف الرب - تبارك وتعالى - بالأصابع كما في حديث عبد الله بن مسعود في ذكر الخبير الذي سأل رسول الله - ﷺ - ونسب ذلك إلى تخليط اليهود ، وتشبيههم ، وقال في قوله في الحديث « فضحك رسول الله - ﷺ - تصديقا لقوله » أنه ظن من ابن مسعود ، وحسبان ، وحاول عكس الأمر ، وأن الضحك من جرأة اليهود على التشبيه (١) ، وأمثال ذلك كثير ، مما هو خلاف ما أراد إثباته مؤلف الكتاب .

ولذلك أرى من الواجب أن يتولى شرح هذا الكتاب العظيم ، الذى ألقه ذلك الرجل السلفى الفاهم للحق تمام الفهم ، من هو على نهج المؤلف فى العقيدة ، ويفهم مقصده ، وماذا يريد من إيراده للنصوص .

ولما أعوزنى وجود شرح على هذا الوصف ، ولم يسعبنى من طلبت منه القيام بذلك من مشائخنا ، تطفلت على كتب العلماء ، وقمت بجمع ما أراه مناسباً لشرح ما أورده البخارى - رحمه الله تعالى - وأرجو من الله الإمداد بالعون والسداد ، فإنه لا يخيّب سألته ، ولا يحرم أمله ، ولست أزعم أننى أفهم من كتاب البخارى - رحمه الله - مالا يفهمه شارحوه ، أمثال ابن حجر ، والعينى والخطابى وابن بطلال ، والقسطلانى وغيرهم ، ولكن لكل منهم نهجه الخاص ، وعقيدته التى تلى عليه مسلوكا معيناً .

١ - وطريقتى فيه أنى أذكر نص الحديث بسنده ، ثم أتبعه بترجمة لراويهِ من الصحابة موجزة جداً .

٢ - أحاول بيان مراد البخارى - رحمه الله - من إيراده للنص ، وبيان وجه استدلاله بذلك ، حسب المستطاع .

(١) انظر الفتح ج ١٣ ص ٣٩٨ . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ذلك فى موضعه ، وإبطاله بالبراهين المعتمدة على الحق البقيني ، لا ظنون المتكلمين وشكوكهم ، والله المستعان .

٣ — أعزو الكلام إلى قائله ، مبينا مكانه من المصدر ، بالجرء والصفحة .
وأذكر رقم الآية واسم السورة ، ومكان الحديث في المصدر ، وأما صحيح البخارى
فغالبا أعزوما فيه إلى الفتح .

٤ — لا أتطرق إلى الكلام على رجال السند ، إذ هو أمر مفروغ منه ،
فكل ما فى البخارى ثابت ، عن المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تلقته الأمة بالقبول . فلا
يطعن فيه إلا من له غرض . أو فى قلبه مرض ، خلا بعض المعلقات ، وقد تولى
الحافظ رحمه الله وصل أسانيدها ، والإجابة عما قيل فيها فى كتابه تعليق
التعليق .

٥ — أحاول جهدى بيان مذهب السلف ، فى أسامى الله تعالى ،
وأوصافه ومدى تمسكهم بالكتاب والسنة ، مستعينا على ذلك بنقل ما تيسر لى
من كلامهم على سبيل الإيجاز .

٦ — أحاول رد القول الباطل ، أو الضعيف ، الذى لا تؤيده النصوص ،
إذ أن مبنى أوصاف الله تعالى على ثبوت النص فى ذلك ، ولادخل لقياس وعقل
فى ذلك ، وكل ذلك حسب المستطاع .

قال البخارى - رحمه الله تعالى :

« باب ماجاء فى دعاء النبى - ﷺ أمته إلى توحيد الله - تبارك وتعالى »

* * *

مقصده بهذا أن يبين أن النبى - ﷺ - قد أوضح مايجب على المسلم أن يعتقد فى حق الله - تعالى نفيا و إثباتا ، وأوضح مايجب لله على عباده ، من توحيد القصد والنية ، لأن قوله : « توحيد الله » يعم أنواع التوحيد ، فلم يترك الأمر مشتتها ، بل بينه ، فيجب أن يتبع بيانه فى ذلك ، فلا يصر إلى رأى متكلم ، أو عقل متفلسف ، أو قول مؤول .

وقوله : « دعاء النبى - ﷺ - أمته » أى الدعوة التى كلفه الله بها وأمره بإبلاغها .

يعنى : أن هذا مقصود الرسالة ، فلا بد أن يبينه ، ويبلغه أمته ، البلاغ المبين ، بحيث لا يبقى فيه التباس ، أو اشتباه .

وقد قام - صلوات الله وسلامه عليه - بهذا الواجب خير قيام ، فأوضحه غاية الإيضاح ، فلا عذر لمن انحرف عنه ، وتلقى توحيده من الفلاسفة والمتكلمين الذين كثر فى هذا الباب اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله تعالى حجابهم (١) .

وهو بهذا يبين أن معرفة التوحيد ، الذى جاء به رسول الله - ﷺ -

(١) اقتباس من كلام شيخ الإسلام فى أول الحموية ، انظر ص ٥ بتعليقات محمد عبد الرزاق حمزة .

ودعا أمته إليه ، لا يمكن الوصول إليها إلا بما جاء به - ﷺ - من كتاب الله تعالى ، وسنته التي هي شارحة ومبينة لكتاب الله تعالى .
والأمة هنا يقصد بها الأمة المطلقة - أى أمة الدعوة .

* * *

١ - « حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن يحيى ابن عبد الله بن صيفى ، عن أبى معبد ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي - ﷺ - بعث معاذًا إلى اليمن . »

٢ - وحدثنى عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا الفضل بن العلاء ، حدثنا إسماعيل بن أمية ، عن يحيى بن عبد الله بن صيفى ، أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول : سمعت ابن عباس يقول : « لما بعث النبي - ﷺ - معاذًا إلى نحو أهل اليمن ، قال له : إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم ، إلى أن يوحدوا الله تعالى . فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم ، أن الله فرض عليهم خمس صلوات ، في يومهم وليلتهم فإذا صلوا ، فأخبرهم ، أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم ، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقرؤا بذلك ، فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس . »

* * *

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، الهاشمى ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وخبير هذه الأمة ، من المكثرين عن النبي ﷺ ، وجل ما يرويه بواسطة أحد الصحابة ، دعا له النبي ﷺ - بأن يفقهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، فظهرت عليه آثار دعوته - ﷺ - حتى عرف بأنه ترجمان القرآن .

توفي النبي ﷺ - وهو ابن خمس عشرة سنة ، على الراجح .

وقد توفي سنة ثمان وستين - في الطائف (١) .

ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، الأنصاري ، الخزرجي ، من علماء الصحابة وساداتهم قال له رسول الله - ﷺ فيما رواه أبو داود ، والنسائي بإسناد صحيح : « والله يا معاذ إني أحبك » (٢)

وقال ابن مسعود : « إن معاذاً كان أمة ، قانتاً لله حنيفياً ، ولم يكن من المشركين إنا كنا لنشبهه معاذاً بإبراهيم ، عليه السلام » (٣)

شهد العقبة ، والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - توفي في الشام بطاعون عمواس ، سنة ثمان عشرة ، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة (٤)

قوله : « بعث معاذاً إلى اليمن » أى أرسله مبلغاً عنه ، وداعياً إلى عبادة الله وتوحيده

« وأصل البعث إثارة الشيء ، وتوجيهه .

ويختلف باختلاف ماعلق به .

فبعثت البعير : أثرته من مبركه ، وسيرته ، وقوله تعالى : (والموتى بيعثهم

(١) انظر الإصابة ج ٤ ص ١٤١ ، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٧ ، أسد الغابة ج ٣ ص ٢٩٠ ، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣١ وغيرها كثير .

(٢) السنن ج ٢ ص ١٨٠ الحديث رقم ١٥٢٢ ، وانظر المجتبى ج ٣ ص ٥٣ .

(٣) انظر الإصابة ج ٦ ص ١٣٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤٤٣ ، أسد الغابة ج ٥ ص ١٩٤ ، الإصابة ج

٦ ص ١٣٦ .

الله (١) أى يخرجهم من الأرض أحياء ، ويسيرهم إلى المحشر .
 وقوله تعالى : (ولكن كره الله انبعاثهم) (٢) أى توجههم ، ومضاهم معك .
 وقوله تعالى : (فبعث الله غربا يبحث فى الأرض) (٣) أى قيضه لذلك .
 وقوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) (٤) أى أرسلناهم لدعوة قومهم ، إلى الله تعالى ، فالبعث ضربان :

أحدهما يتعلق بفعل المخلوق ، كبعث البعير ، وبعث الإنسان فى حاجة .
 والثانى : إلهى ، وهو قسمان :

الأول إيجاد الأعيان ، والأجناس ، والأنواع من العدم ، على غير مثال سابق ، وهذا خاص بالله تعالى .

والثانى : إحياء الموتى ، وهذا قد أعطى جل وعلا بعض من يشاء من عباده شيئا منه ، كعيسى - عليه السلام - ليكون آية على صدقه « (٥) »

و « اليمن » اسم البلاد المعروفة الواقعة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب .

قال فى القاموس : « اليمن ماكان عن يمين القبلة من بلاد الغور » (٦) وفى المراصد : « سميت اليمن لتيانهم إليها ، لما تفرقت العرب من مكة ، كما سميت

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٥) المفردات للراغب بتصرف ص ٥٢ .

(٦) القاموس ج ٤ ص ٢٧٩ .

الشمام لأخذهم الشمال» (١) .

قلت : وفيه نظر . وذلك أن اليمن قديم ، قبل وجود مكة على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، إلا أن تكون التسمية حادثة وقال قطرب : « سمي اليمن ليمنه » (٢) .

قال الحافظ : « كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر ، قبل حجة الوداع » (٣) . وعند أهل المغازي ، أن ذلك في ربيع الآخر ، من سنة تسع ، والصحيح ما قاله الحافظ . وقد أشار البخاري - رحمه الله - إلى ذلك بقوله : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع » (٤)

وقيل : كان ذلك في اواخر سنة تسع ، عند منصرفه - صلى الله عليه وسلم من تبوك ، رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك ، وحكى ابن سعد أنه كان في ربيع الآخر سنة عشر » (٥) فالله أعلم .

قوله : « إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب » . تقدم بفتح الدال ماضيه ثلاثي مكسور العين ، ومصدره قدوما ، لأنه يدل على معالجة .

« القوم » الجماعة من الرجال ، والنساء ، أو من الرجال خاصة وتدخّل النساء على التبعية . قاله في القاموس (٦) .

« وأهل الكتاب » هم اليهود والنصارى ، « والمقصود هنا اليهود ، وكان

(١) المراصد ج ٣ ص ١٤٨٣ .

(٢) تاج العروس ج ٩ ص ٣٧١ .

(٣) الفتح ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٤) انظر البخاري ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٥) انظر الفتح ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٦) انظر القاموس ج ٤ ص ١٦٨ .

ابتداء دخولهم اليمن في زمن « أسعد ذى كرب » تبع الأصغر ، كما ذكر ذلك ابن إسحاق في السيرة « (١) » .

والمقصود بالكتاب : الجنس ، والمراد : التوراة ، والإنجيل .

وسمى اليهود ، والنصارى أهل الكتاب ، لأن الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل ، فيهما أوامر الله ، ونواهيه ، ليعملوا بهما - وهدى من الله ونور يخرجهم من ظلمات النقي والشهوات قال الله تعالى : (وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس) (٢) . فتوارثوه جيل عن جيل ، ثم إنهم حرفوه ، وغيروا فيه وزادوا ونقصوا ، فاختلف حقه في باطلهم ، ثم نسخه الله تعالى بالقرآن الذي أنزله على خاتم الرسل - ﷺ .

قال الحافظ : قوله : « إنك تقدم » الخ . كالتوطئة للوصية ، لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب ، أهل علم في الجملة ، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبة أهل الجهل من عبدة الأوثان « (٣) » . ولا يدل على أن كل من يقدم عليهم من أهل الكتاب ، بل أغلبهم من عبدة الأوثان ، كما هو معلوم .

قوله : « فليكن أول ماتدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى » اللام للأمر ، وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهي ساكنة في الغالب الأكثر .

وقوله : « إلى أن يوحدوا الله تعالى » ذكره في الزكاة بلفظ : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » (٤) .

وفي رواية : فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله

(١) فتح الباري ج ١٣ ص ٣٤٨ .

(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة آل عمران .

(٣) الفتح ج ٣ ص ٣٥٨ .

(٤) انظر الفتح ج ٣ ص ٢٦١ .

فأخبرهم « الخ (١)

وفي أخرى : « فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » (٢) .

وفي رواية لمسلم : « فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله - عز وجل - فإذا عرفوا الله فأخبرهم » الخ (٣) .

وهذه الروايات متفقة في المعنى .

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله ، توحيد الله بالعبادة ، والبعد عن عبادة ما سواه ، وهذا هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، الذى قال الله تعالى فيه : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) (٤) .

والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ، كما قال مالك - رحمه الله (٥) سواء كان من البشر ، أو من الحجر ، أو الشجر ، أو الحيوان ، أو الأضرحة والعتبات .

والكفر به : الابتعاد عن عبادته ، التى هى طلب البركات منه ، أو

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ وج ٨ ص ٦٤ الفتح .

(٣) انظر مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٩٩ .

(٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٥) قال ابن جرير : « الطاغوت كل ذى طغيان على الله لمن عبده من دونه ، إما بقره لمن عبده أو بطاعة من العبادة له ، إنسانا كان ذلك المعبود ، أو شيطانا ، أو وثنا ، أو صنما ، أو كائنا ما كان من أى شئ » انظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٤١٩ تحقيق أحمد ومحمود شاكر .

الشفاعات أو دفع البليات ، أو إنالة الحاجات ، أو التوجه إليه بالدعاء ، ولا بد من بغضه وعداوته ، وعداوة عابديه ومقاطعتهم ، والتبرئ منهم . لقول الله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُؤادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (١)

والإيمان بالله - تعالى - هو : إفراده بالعبادة ، التي تتضمن غاية الحب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه ، والانقياد لأمره ، والتسليم له .

وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، كما قال ﷺ لوفد عبد القيس « أمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا إله إلا الله » الخ (٢) .

وقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) (٣) ، أخذ البخارى رحمه الله من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل ، فقال : باب العلم قبل القول والعمل . لقول الله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (٤)

فالعلم بمعنى هذه الشهادة التي لا بد لكل داخل في دين الإسلام أن يشهد بها هو الإيمان المطلوب من العباد ، وهو معرفة حق الله على عباده ، الذي لا يجوز الإخلال بشيء منه ، وإلا استحقوا عذابه .

وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، فهو : العلم اليقيني بأنه رسول من الله كلفه إبلاغه العباد أوامر الله ونواهيه ، وطاعته في كل ما أمر به ، واجتناب ما نهاهم عنه ، وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به ، وأن كل من سلك طريقاً غير سنته

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) انظر الفتح البخارى ج ١ ص ١٢٩ ، ومسلم بشرح النووي ج ١ ص

(٣) الآية ١٩ من سورة محمد ﷺ

(٤) انظر الفتح ج ١ ص ١٥٩ .

فمصيره إلى النار ، وأنه بلغ العباد ما أرسل به ، وبين لهم دينهم أتم بيان ، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة ، وليس له من العبادة شيء ، بل العبادة كلها لله تعالى .

وهاتان الشهادتان متلازمتان ، لا تقبل إحداها دون الأخرى ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ولم يشرك به شيئاً ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، فهو كافر بالله وخالد في النار ، وإن جاء بعبادة أهل الأرض .

ومن شهد أن محمداً رسول الله ، وأشرك بالله شيئاً شركاً كبيراً ، فهو كافر خالد في النار ، فلا بد من اجتماع هاتين الشهادتين في العبد حتى يكون موحداً .

✓ وأما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، مع عبادة غير الله وتعلق القلب بمن يعتقدهم أولياء ، وطلب الحاجات منهم التي لا يقدر عليها إلا الله ، ومع مخالفة أوامر رسول الله - ﷺ - وارتكاب ما نهى عنه ، فإن ذلك لا يفيد شيئاً ، ولا يكون للإنسان به مسلماً .

قال النووي - رحمه الله : « واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ، ولا يخلد في النار ، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام ، اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق مع ذلك بالشهادتين ، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلاً ، بل يخلد في النار ، إلا أن يعجز عن النطق للخلل في لسانه » (١) .

وهذه الشهادة أيضاً تتضمن الإيمان بأسماء الله وصفاته ، لأن ذلك من عبادة الله التي تعبد الخلق بها .

وهذا الحديث دليل ظاهر على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده ، والبعد عن عبادة ما سواه ، والإيمان بأسمائه وصفاته كما جاءت في وحيه إلى رسوله - هو أول واجب على العباد .

(١) شرح النووي للبخارى ص ١١٣ .

لا كما يقول أهل الكلام ، من المعتزلة ، والأشعرية ، وغيرهم : أن أول ما يجب على العبد ، النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ، أو القصد إلى النظر أو الشك ، فهذا الحديث وأمثاله من نصوص الكتاب والسنة يبطل هذا الزعم الخاطيء .

« وذلك أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ، هو الإيمان بالله ورسوله ، والاهتداء بوجيهه ، كما قال تعالى : (قل إن ضللتُ فأنيما أضلّ على نفسي ، وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي إنه سميع قريب) (١) . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) (٢)

وقال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها » (٣)

ولهذا ابتدأ البخارى - رحمه الله تعالى - صحيحه ببدأ الوحي ونزوله ، الذى يحصل به الهدى ، والنور ، ثم أتبعه بكتاب الإيمان ، الذى هو الإقرار بالوحي والانقياد له ، ثم أتبعه كتاب العلم الذى هو معرفة ما جاء به الرسول ﷺ ، وفقهه ، فهذا هو الترتيب الحقيقى .

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب مما جعلوه أصل الدين الإسلامى ، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم .

(١) الآية ٥٠ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٣) رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ، انظر الفتح ج ١ ص

٧٥ ، وانظر مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٢١٢ ، وروى من حديث جماعة من الصحابة فى الصحيحين وغيرهما .

قال القرطبي : « لو لم يكن في الكلام إلا مسألتان ، هما من مبادئه لكان حقيقا بالذم ، إحداهما قول بعضهم : إن أول واجب الشك ، إذ هو اللازم لوجوب النظر ، أو القصد إلى النظر .

والثانية : قول جماعة منهم : من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام ، لم يصح إيمانه .

والقائل بهاتين المسألتين كافر ، لجعله الشك في الله - تعالى - واجبا ، ومعظم المسلمين كفارا ، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة ، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضرورى » (١) .

وقال الغزالي : « أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين ، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر ، فضيقوا رحمة الله الواسعة ، وجعلوا اللجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين » (٢) .

وقوله : « فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم » .

أى إذا عرفوا توحيد الله ، وعملوا به ، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده ، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه ، عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام ، ويؤمرون بها ، وأعظمها بعد التوحيد الصلوات الخمس .

وفى هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة .

ومعلوم أن بعث معاذ إلى اليمن في آخر حياة الرسول - ﷺ - كما سبق .

(١) من الفتوح ج ١٣ ص ٣٥٠ بتصرف .

(٢) نفس المصدر ج ١٣ ص ٣٤٩ بتصرف أيضا .

كما فيه : أنه يجب على إمام المسلمين بعث الدعوة إلى توحيد الله تعالى ،
وتعليم الناس شرائع الإسلام ، وأمرهم بالتزامها ، وجباية الزكاة ، ودفعها إلى
مستحقيها ، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)
الآية (١) .

وفيه : أن الإنسان لا يصير مسلماً إلا إذا وحّد الله تعالى بالعبادة ، بأن
لا يقصد بعبادته غير الله أحداً ، بل تكون عبادته كلها لله وحده ، وهذا هو معنى
شهادة أن لا إله إلا الله ، وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو أن يعبد الله
بما جاء به الرسول - ﷺ ، والإيمان بأن الله أوحى إليه أوامره ، ونواهيه ، وكلفه
إبلاغ الثقيلين ذلك .

وفيه : أن أى تعبد يتعبد به العبد غير معتبر ، ولا معتدّ به بدون التوحيد .

وفيه : أن أخذ خيار المال في الزكاة ظلم يجب اجتنابه .

وقصد البخارى - رحمه الله - بيان أن النبى - ﷺ - قد بين للناس
التوحيد بأنواعه ، وأنه أول واجب ، وأول ما يدعى إليه ، فلا حاجة بعد بيانه إلى
بيان أحد من الناس ، كما تقدم .

قال شيخ الإسلام : « وقد علم بالاضطرار من دين الرسول - ﷺ -
واتفقت عليه الأمة ، أن أصل الإسلام ، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدو ولياً ، والمباح دمه
وماله ، معصوم الدم والمال ، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان .

وإن قاله بلسانه دون قلبه ، فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان » (٢)
والبخارى - رحمه الله - في بدائة كتاب التوحيد بهذا الحديث ، يشير إلى الرد على

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة .

(٢) نقلاً من يثير العزيز الحميد ص ١٠١ .

المتكلمين الذين جعلوا عمدتهم ، في إثبات ما يشبتون ، ونفى ما ينفون العقل .
 فهذا الحديث دل على أن أول ما يجب على العبد ، عبادة ربه تعالى بامتثال
 أوامره ، واجتناب ما نهى عنه ، وأن المقصود من الدعوة : وصول العباد إلى ما خلقوا
 له ، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

ولا سبيل إلى ذلك إلا باتباع الوحي الذى جاء به محمد - ﷺ - فيجب
 أن يتبع ، وأن يكون هو الأصل المعول عليه في معرفة عبادة الله ، والإيمان به ،
 وبرسوله . وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها ،
 خلافاً لطريقة المتكلمين ، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم في إثبات وجود الله
 تعالى ، بناء على حدوث الكون ، ثم إثبات صفاته نفياً وإثباتاً بالقياس العقلى ، ثم
 إثبات النبوات ، ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات .

وهذه طريقة المعتزلة ، والكرامية ، والكلائية ، والأشعرية ، غير أن الأشعرية
 سلكوا هذه الطريقة في الأصول الاعتقادية العلمية ، دون العملية .

وأما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة ، والعمل في القياس العقلى . حتى إنهم
 ينظرون إلى القدر المشترك في الأفعال بين الرب والعباد ، فما كان حسناً من العباد
 في نظرهم ، فهو عندهم حسن من الله تعالى ، وما كان قبيحاً منهم ، فهو من الله
 تعالى قبيح ، ولهذا سماهم أهل السنة مشبهة الأفعال نفاة الصفات .

٣ - «حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن
أبي حصين ، والأشعث بن سليم ، سمعا الأسود بن هلال ، عن معاذ بن
جبل - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يامعاذ بن
جبل ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن
يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ما حقهم عليه ؟ قال الله ورسوله
أعلم ، قال : أن لا يعذبهم » .

* * *

جاء بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس ، وأبلغ في التعليم ، لأن
الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه ، ثم أخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك
أدعى لفهمه وحفظه .

وهذا من حسن تعليمه ، وإرشاده ﷺ ، وهذا الأسلوب ورد عنه ﷺ
كثيرا .

يقال : درى يدري ، دراية : إذا عرف ، فالدراية هى المعرفة .
و « الحق » : كل موجود متحقق ، أو ما سيوجد لا محالة ، ويقال للكلام
الصدق حق ، لأن وقوعه متحقق ، لا تردد فيه ، ولأنه مطابق للواقع ، وكذا
المستحق على الغير ، إذا كان لا تردد فيه ، فهو حق .
والمراد هنا « ما يستحقه الله تعالى على عباده ، مما جعله متحتما عليهم ،
وألزمهم إياه بخطابه » (١) .

فحقه تعالى على عباده ، أن يعبدوه ، مخلصين له العبادة ، ممثلين ما أمرهم
به وأوجبه عليهم ، وأعظمه التوحيد ، ومجتنبين ما نهاهم عنه ، وحرمة عليهم

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٣٣٩ .

وأعظمه الشرك ، فإذا فعلوا ذلك ، فحقهم عليه أن يغفر لهم ، ولا يعذبهم وأن يدخلهم الجنة ، وقد وعدهم ذلك ، ووعدهم حق لا يخلف .

قوله : « الله ورسوله أعلم » يؤخذ منه حسن الأدب في التعلم ، وأنه لا ينبغي لمن سئل عما لا يعلمه أن يتكلف الجواب بدون يقين ، ولكن يكمل العلم إلى عالمه .

« ذكر يعقوب بن سفيان بإسناده ، عن ربيعة قال : قال ابن خلدو : إذا جاءك الرجل يسأل ، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه ، وليكن همك أن تتخلص مما سألك عنه » (١)

قوله : « أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً » المراد بالعبادة : فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي .

والعبادة في اللغة هي : الذل ، والخضوع .

قال الأزهرى : « معنى العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع ، يقال طريق معبد ، إذا كان مذلاً بكثرة الوطاء ، ويعبر معبداً إذا كان مطلياً بالقطران » (٢)

وقال الجوهرى : « أصل العبودية : الخضوع والذلة ، والتعبد التذليل ، والعبادة الطاعة . والتعبد النسك » (٣) .

وأما العبادة الشرعية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ، والأعمال الباطنة ، والظاهرة » (٤)

(١) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٤٤٣ .

(٢) تهذيب اللغة ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) الصحاح ج ٢ ص ٥٠٣ ، هذا متفقة عليه كتب اللغة .

(٤) انظر أول فقرة من رسالة العبودية .

وقيل : هى كمال الحب مع كمال الخضوع . لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب ، والانقياد له ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبهه ، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذلله له .

وعطف على العبادة عدم الشرك ، لأن العبادة لاتنفع عند الله ، ولاتعتبر إلا إذا كانت خالصة من الشرك .

والمشركون كانوا يعبدون الله ، ويعبدون معه غيره ، ولهذا اشترط نفى الشرك . والجمله حالية ، والتقدير : يعبدونه فى حال عدم الإشراك به .

قال ابن حبان : عبادة الله : إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح .

ولهذا قال فى الجواب : « فما حق العباد إذا فعلوا ذلك . فعبر بالفعل ، ولم يعبر بالقول » (١)

قوله : « أتدرى ما حقهم عليه ؟ » فسره بقوله : أن لا يعذبهم .

وفى الرواية الأخرى : « أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » (٢) ، والتقدير : أن لا يعذب من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً ، لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لاينفع ، وهذا معلوم من نصوص الشرع .

قال الحافظ : « اقتصر على نفى الشرك ، لأنه يستدعى التوحيد بالافتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، أو هو مثل قول القائل : من توضع صحت صلته . أى مع سائر الشروط ، فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٣٣٩ .

(٢) انظر الفتح ج ٦ ص ٥٨ .

بجميع ما يجب الإيمان به » (١) .

وحق العباد على الله تعالى هو من فضله وكرمه ، وليس استحقاق عوض ،
وجزاء كما تقول المعتزلة .

والناس في هذه المسألة ثلاث فرق .

منهم من يقول : للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل .

فهم يقيسون الخالق تعالى على المخلوق - كما تقدمت الإشارة إليه .

ومنهم من يقول : لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال ، ولكن يعلم
مايفعله [بعبده] بحكم وعده وخبره . وهذا قول أتباع جهم ، والأشعري ، وبعض
من ينتسب إلى السنة .

ومنهم من يقول : بل أوجب الله تعالى على نفسه حقاً لعباده المؤمنين ، كما
حرم الظلم على نفسه ، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق .

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى ، بل هو برحمته ، وحكمته ، وعدله كتب على
نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم . كما في الحديث الذى فى صحيح مسلم
وغيره (٢) « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا
تظالموا » .

وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (٣) . وقال تعالى : (وكان
حقاً علينا نصر المؤمنين) (٤) .

فمن قال : ليس للمخلوق على ربه حق ، فهو صحيح ، إذا أراد أنه ليس

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٤ الحديث رقم ٢٥٧٧ .

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٧ من سورة الروم .

عليه حق بالاعتبار والقياس على خلقه ، كما يجب للمخلوق على مثله ، وكما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقاً بعبادتهم ، لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته ، وعلمه يصير له على الله حق ، من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق (١) كمن يطيع سيده ورئيسه فيجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، ويبقى يتقاضى العوض ، والمجازاة على ذلك ، ويقول عند الجفاء والإعراض : ألم أفعل كذا ؟ يمين عليه بما فعل معه ، وإن لم يقله بلسانه ، كان ذلك في قلبه ، وتخيل مثل هذا في حق الله من جهل الإنسان وظلمه .

ولهذا بين تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه ، وأن الله غنى عن الخلق .

قال تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنى كريم) (٢)

وقال تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (٣)

ومن قال للمخلوق على الله حق فهو صحيح ، إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته « . (٤) .

(١) ولهذا نجد الجهال ، وأنصاف المتعلمين يلهجون إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان ، وفلان . ويعتقدون أن هذا أقرب إلى حصول مطلوبهم ، وهو من جهل الإنسان بربه ، وعدم تقديره حق قدره ، وأكثر ما يقع الشرك في المسلمين من هذا الباب .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التمل .

(٣) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٤) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٢١٣ بتصرف .

وهذا القول : هو الحق الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وأما القول الأول فهو ضلال بئس ، حيث لم يفرق قائله بين ما يجب على الخالق تعالى ، وما يجب على المخلوق .

« والفروق بين الخالق والمخلوق لا تخفى إلا على من عميت بصيرته .

منها : أن الرب تعالى غنى بنفسه عن كل ما سواه ، ويمتنع أن يكون محتاجا إلى غيره ، بوجه من الوجوه ، وأما الخلق فسادتهم وملوكهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم ، حاجة ضرورية .

ومنها : أن الرب تعالى وإن كان يجب الأعمال الصالحة ، ويفرح بتوبة التائبين . فهو الذى يخلق ذلك ، ويسره ، فلا يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته ، والمخلوق كثيرا ما يحصل له ما يحبه بغير فعله بل بفعل غيره

ومنها : أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ، ونهاهم عما يفسدهم .

قال قتادة : « إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم ، بل أمر بما ينفعهم ، ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يأمر غيره بما يحتاج إليه هو وينهاه بخلاً عليه .

ومنها : أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحواس ، وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح . وهو الهادى لعباده ، والمخلوق لا يقدر على شيء من ذلك .

ومنها : أن نعمه تعالى على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدر أن العبادة جزاء لنعمه لم نقم بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمه .

ومنها : أن العباد لا يزالون مقصرين فى حقه ، محتاجين إلى عفوه ، ومغفرته ،

فلن يدخل أحد الجنة بعمله (١) ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه ؛ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) (٢) فممن ظن أنه قائم بما يجب عليه ، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه وعفوه وهدايته وتوفيقه فهو ضال » (٣)

والمقصود من الحديث هنا : بيان أن حق الله على عباده هو عبادته تعالى الخالصة من الشرك ، وهي طاعته بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، فلا يخالف ماجاء عن الله ، أو جاء عن رسوله لغرض أو منفعة عاجلة أو آجلة : وغير ذلك .

ومن ذلك - يعنى حق الله على عباده - اتباع ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله من غير تحريف ، ولا إلحاد فيه ، ولهذا ترجم على هذا الحديث في كتاب الرقاق بقوله : باب من جاهد نفسه في طاعة الله .

ومراده : أن الرسول ﷺ قد بين ما يجب لله على عباده من عبادته باتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وعبادته بأسمائه وصفاته ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق ، وما يستحقه من فعل ذلك .

★ ★ ★

(١) في صحيح مسلم ، عن جابر ، سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يخرج من النار ، ولا أنا إلا برحمة من الله » ج ٤ ص ٢١٧١ رقم الحديث ٢٨١٧ وأخرجه البخارى في عدة مواضع من صحيحه من حديث أبى هريرة وعائشة . انظر الفتوح ج ١١ ص ٢٩٤ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٣) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٢١٦ .

٤ - « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي - ﷺ - فذكر له ذلك ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله - ﷺ : - والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي سعيد - أخبرني أخي قتادة بن النعمان ، عن النبي ﷺ .

* * *

أبو سعيد الخدري هو : سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأبحر - وهو خدرة - الذي ينسب إليه ، أنصاري خزرجي ، بايع تحت الشجرة ، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات عدّة ، وكان أبوه من شهداء أحد . وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم ، والمكثرين الحديث عن رسول الله ﷺ .

توفى رضى الله عنه سنة أربع وسبعين (١)

قوله : « أن رجلا سمع رجلا » السامع هو أبو سعيد راوى الحديث ، والقارى هو قتادة كما بينه البخارى بقوله : « زاد إسماعيل » الخ . وقد جاء مصرحا به فى مسند أحمد .

ولفظه : « بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله : قل هو الله أحد ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال ﷺ : والذي نفسي بيده : لتعدل نصف القرآن أو ثلثه » (٢)

(١) الإصابة ج ٣ ص ٧٨ ، أسد الغابة ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المسند ج ٣ ص ٨٥ ، وانظر الفتح الربانى ج ١٨ ص ٣٤٦ .

« وقتادة هو أخو أبي سعيد لأمه ، وكانا متجاورين في السكن » (١)

قوله : « وكان الرجل يتقالها » بتشديد اللام أى يعدها قليلة بالنسبة إلى غيرها من سور القرآن « يقال : تقلل الشيء واستقله ، وقاله إذا رآه قليلا . والمراد أنه رآها قليلة في العمل . لا أنه عدّها ناقصة (٢)

قوله : « والذي نفسى بيده » كان ﷺ أكثر ما يحلف بهذه الصيغة ، وقد ذكر البخارى - رحمه الله - في الأيمان والنذور ، في باب كيف كانت يمين النبى ﷺ - عدة أحاديث بهذا اللفظ .

وقد روى الطبرانى ، وابن ماجه ، عن رفاعة بن عرابة : « كان النبى - إذا حلف ﷺ إذا حلف قال : والذي نفسى بيده » .

وروى ابن أبى شيبة ، عن أبى سعيد ، كان النبى - إذا اجتهد فى اليمين قال : « لا والذي نفس أبى القاسم بيده » . ورواه ابن ماجه من وجه آخر ، بلفظ : « كانت يمين رسول الله التى يحلف بها - أشهد عند الله - والذي نفسى بيده » (٣)

قلت : وحديث أبى سعيد رواه أبو داود فى السنن (٤)

فقوله : « والذي نفسى بيده » أى روحى ، وحياتى وموتى ، يتصرف فى كيف يشاء . وسيأتى إن شاء الله تعالى الكلام على صفة اليد ، وأنها من صفات الله الثابتة قطعاً ، وأنها يد حقيقة تليق بعظمة الرب وقدره تعالى وتقدس عن مشابهة الخلق ، وعن الظنون السيئة التى أوجب لأصحابها تعطيل الله - تعالى - عن

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٦١ .

(٢) المنهل العذب المورود ج ٨ ص ١١٣ .

(٣) فتح البارى ج ١١ ص ٥٢٦ .

(٤) انظر الحديث رقم ٣٢٦٤ .

صفاته ، ودعتهم إلى الإلحاد في أسمائه وصفاته .

قوله : « إنها لتعدل ثلث القرآن » عدل الشيء بفتح العين ، ما عادله من غير جنسه ، والعدل بكسر العين : المثل ، تقول : عندى عدل شاتك ، أو عدل مالك ، إذا كان عندك شاة مثل شاة من تخاطبه ، ومال مثل ماله ، فإن أردت ما يعادل ذلك من غير جنسه فتحت العين ، ذكر ذلك أهل اللغة (١) .

ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن : - أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام :

ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام .

وثلث منه الوعد والوعيد ، والجزاء ، وما وقع بمن كذب الله ورمله ، وما سيقع بهم في الآخرة ، وكذا ومن أطاعه .

وثلث منه في أسماء الله تعالى وصفاته ، وهذه السورة خالصة في الأسماء والصفات ، قاله أبو العباس ابن سريج ، وغيره من السلف .

واعترض ابن عبد البر على هذا : بأن في القرآن آيات كثيرة اشتملت على أكثر مما في هذه السورة من التوحيد ، كآية الكرسي ، وآخر سورة الحشر ، وأول سورة الحديد - قد أجاب عنه القرطبي في شرحه لمسلم : بأن سورة الإخلاص قد اشتملت على اسمين من أسماء الله متضمنين جميع أوصاف الكمال ، ولم يوجد في غيرها من السور ، وهما « الأحد » و « الصمد » .

« والقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أقسام : توحيد ، وقصص ، وأمر ونهى ، وكله كلام الله تعالى والكلام - إما انشاء ، وإما إخبار .

فالإنشاء : هو الأمر والنهى ، وما يتبع ذلك كالإباحة .

والإخبار : إما عن الخالق تعالى ، أو عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق ،

(١) انظر ترتيب اللسان ج ٣ ص ٧٠٧ .

هو التوحيد وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته .

والإخبار عن المخلوق ، هو القصص ، وهو الخبر عما كان ، وما يكون .

« وقل هو الله أحد » هي صفة الرحمن خالصة لذلك ، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن ، لما فيها من التوحيد ، الذي هو ثلث معاني القرآن ، وليس معنى ذلك أنه يكتفى بها عن سائر القرآن ، بمعنى أن من قرأها ثلاثا كفاها عن قراءة القرآن ، لأن النبي ﷺ قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » .

وقد تقدم أن عدل الشيء - بالفتح - يطلق على ما ليس من جنسه ، كما

قال تعالى :

(أو عدل ذلك صياما) فجعل الصيام عدل الكفارة ، وهما جنسان .

فتواب قراءة « قل هو الله أحد » وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن في القدر ، فلا يلزم أن يكون مثله في النوع والصفة ، لأنها لا تغني عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وسائر ما يحتاج إليه العباد . فالناس محتاجون إلى جميع القرآن . ومننتفعون به منفعة لا تغني عنها سورة الإخلاص ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن (١)

وفي هذا الحديث دلالة ظاهرة على تفاضل كلام الله تعالى ، وصفاته ، وهو المأثور عن السلف ، وعليه أئمة الفقهاء وغيرهم ، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد ذلك .

قال الله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) (٢) فأخبر تعالى أنه يأتي بخير منها أو مثلها ، فدل على أن الآيات تماثل مرة ، وتتفاضل أخرى ، والتوراة ، والإنجيل والقرآن كلها كلام الله تعالى ، وقد أجمع

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ بتصرف .

(٢) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

المسلمون على أن القرآن أفضلها كما قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) (١) أى هو المؤمن ، والشاهد ، والحاكم على ما سبقه من الكتب .

وأما الأحاديث فكثيرة . من جملتها هذا الحديث ، ومن تأمل كلام السلف ، ومن سار على نهجهم علم أن هذا من الأمور المستقرة في نفوسهم ، ولم يعرف من السلف من قال : لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، لأنه كله من صفات الله ، وإنما حدث ذلك لما ظهرت البدع من المعتزلة ، والجهمية ، ومن سلك طريقهم ، الذين اختلفوا في القرآن ، وجعلوه عضيين .

وتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه - سواء كان خيرا أو إنشاء - أمر معلوم بالفطرة ، والشرع ، فليس الخبر المتضمن حمد الله والثناء عليه بأسمائه الحسنى ، كالخبر المتضمن لذكر إبليس ، وفرعون وأبى لهب ، ونحوهم ، وإن كان الكل كلاما عظيما تكلم الله به .

وكذلك ليس الأمر بالتوحيد ، والإيمان بالله ورسله ، والنهى عن الشرك وقتل النفس بغير حق ، والزنا وغير ذلك مما أمرت به الشرائع كلها ، أو حرمتها كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، أو الأمر بالإنفاق على الحامل ، والنهى عن قول : « راعنا » وإن كان الكل واجبا .

وليس تفاضل الكلام باعتبار نسبه إلى المتكلم به ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التى يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه الميينة لمعانيه .

قال شيخ الإسلام : « الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضا ، فقل هو الله أحد ، و « تبت يدا أبى لهب » كلاهما كلام الله تعالى ، وهما مشتركان من هذه

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

الجهة ، ولكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، « فقل هو الله أحد » كلام الله وخبره الذى يخبر به عن نفسه ، وصفته التى يصف بها نفسه ، وكلامه الذى يتكلم به عن نفسه .

و « وتبت يدا أبى لهب » كلام الله الذى يتكلم به عن بعض خلقه ، ويصف به حاله ، فهما من هذه الجهة متفاضلان » (١) .

ولا يلزم من كثرة الحروف أفضلية ذلك ، كما توهمه بعض العلماء ، لأن الفضل يتبع تفاضل المعانى .

فحروف الفاتحة لقارئها بكل حرف حسنة أعظم من حسنات حروف (تبت يدا أبى لهب) .

فلا يلزم من مماثلة الشيء مساواته فى الفضل ، كما أخبر النبى ﷺ « أنه لو أنفق من جاء بعد السابقين مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مُدَّ أحد السابقين إلى الإسلام ، ولا نصيفه » (٢)

قال شيخ الإسلام : « فإذا قرأ الإنسان (قل هو الله أحد) حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن ، لكن لا يلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن ، لأن الإنسان يحتاج إلى ما يحصل له من ثواب الأمر ، والنهى والقصص وغير ذلك ، و « قل هو الله أحد » لا تسد مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه ، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك ، يختلف باختلاف حال الإنسان ، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر ، والصلاة بخشوع وحضور قلب ، أفضل من الصلاة بدون ذلك ، فإذا كانت « قل هو الله أحد » يعدل

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٥٧ .

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ولفظه : « لاتسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » انظر الفتح ج ٧ ص ٢١ ، ورواه مسلم فى الفضائل ج ٤ ص ١٩٦٧ .

ثوابها ثواب ثلث القرآن ، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات ، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل .

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما هم متفاضلون في فهم سائر القرآن » (١) .

وهذا الحديث يدل أيضا على تعدد صفات الرب تعالى ، وتفاضلها ، لأن القرآن كله كلامه ، وكلامه من صفاته .

والتفاضل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء ، وقد دلت النصوص الكثيرة على تعدد أسمائه تعالى وصفاته ، وأن لها معان متعددة ، وهذا المعنى هو الذى قصده البخارى بهذا الحديث ، فيما ظهر لى ، ولاشك أن فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أوصاف الله تعالى . ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

وقال الحافظ : « مراده ما فيه من التصريح بلفظ الأحديّة في وصفه تعالى ، كما في الذى بعده » (٢)

وقول ابن بطال : « ومذهب الأشعري ، وأبى بكر بن الطيب ، وابن أبى زيد ، والداودى ، وأبى الحسن القابسى ، وجماعة علماء السنة : أن القرآن لايفضل ، بعضه بعضا ، إذ كله كلام الله وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات »

ومثله قول ابن الدراج : « أجمع أهل السنة على أن ماورد مما ظاهره المفاضلة بين أى القرآن وسوره ، ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض ، إذ هو

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ١٣٨ - ١٤٠ بتلخيص وتصرف .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٥٥ بالمعنى .

كله كلام الله ، وصفة من صفاته » (١)

فهذا النقل عن ذكرهم ، والزعم بأن هذا مجمع عليه من أهل السنة هو بحسب ظن هؤلاء - يعنى ابن بطلال ومن يقول ذلك - لأنهم ظنوا : أن هذا القول الذى هو عدم المفاضلة لازم لمن يقول : إن القرآن كلام الله ، فهو من صفاته ، والتفاضل لا يكون إلا فى المخلوقات ، والقرآن عندهم غير مخلوق .

وهو ظن خطأ ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه نفى المفاضلة بين آيات القرآن وسوره ، ونحن نطالب مدعى الإجماع على نفي ذلك بالدليل ، ولن نجد ذلك ، والنصوص من الكتاب والسنة تبطل هذه الدعوى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وابن بطلال - عفا الله عنا وعنه - كثيراً ما يدعى الإجماع على مسائل ، الحق خلافها ، كما ستأتى الإشارة إلى بعضها إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٧٣ .

٥ - حدثنا محمد ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو ، عن ابن أبي هلال ، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن - وكانت في حجر عائشة زوج النبي - ﷺ - عن عائشة ، « أن النبي ﷺ ، بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته ، فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي - ﷺ - فقال : - سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسأله ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبي - ﷺ - : أخبروه إن الله يحبها »

* * *

عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وزوجة رسول الله - ﷺ - وحييته . كانت فقيهة ربانية ، وعالمة بأشعار العرب ، وأنسابهم ، وأيامهم . أكثرت عن رسول الله - ﷺ - الرواية ، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة في كثير من أمور الدين ، فهي من حفاظ الصحابة وعلمائهم . روى عنها خلق كثير من الصحابة ، والتابعين .

ولدت - رضی الله عنها - سنة أربع من البعثة النبوية ، وتزوجها رسول الله - ﷺ - بعد موت خديجة رضی الله عنها بثلاث سنوات ، ودخل بها في المدينة ، وهي ابنة تسع ، وتوفى عنها ولها من العمر ثمانى عشرة سنة ، ومات ﷺ وهي حاضنته على صدرها .

مناقها كثيرة ، توفيت في المدينة سنة سبع أو ست وخمسين ، وقيل ثمان

وخمسين ، وصلّى عليها أبو هريرة ، ودفنت في البقيع رضی الله عنها . (١)
 قوله : « بعث رجلا على سرية » هذا غير الرجل المتقدم ذكره في باب
 الجمع بين السورتين في ركعة واحدة ، للفروق الواضحة بين القصتين .
 والسرية قطعة من الجيش ، يقال : خير السرايا أربعمائة رجل ، وفي اللسان
 ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة ، سميت سرية لأنها تسرى ليلا في خفية لئلا ينذر
 بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا » (٢) .

قوله : فيختم بقل هو الله أحد » قال ابن دقيق العيد : يدل على أنه كان
 يقرأ بغيرها ، والظاهر أنه كان يقرأ : « قل هو الله أحد » ، مع غيرها في ركعة
 واحدة ، ويختم بها في تلك الركعة ، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها في
 آخر ركعة يقرأ فيها السورة » (٣) .

وقوله : « لأنها صفة الرحمن » قال ابن دقيق العيد : « يحتمل أن يراد : أن
 فيها ذكر صفة الرحمن ، كما إذا ذكر وصف ، فعبر عن ذلك الذكر بأنه
 الوصف ، وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف ، ويحتمل أن يراد به غير
 ذلك ، إلا أنه لا يختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » ، ولعلها خصت بذلك
 لاختصاصها بصفات الرب تعالى دون غيرها » (٤) .

قلت : يريد بيان وجه تخصيص الصحابي لها بما ذكر ، أنها خالصة للذكر
 وصف الرحمن تعالى وتقدس

-
- (١) انظر الحلية ج ٢ ص ٤٣ ، أسد الغابة ج ٧ ص ١٨٨ ، الاستيعاب ج ٤
 ص ١٨٨١ ، الإصابة ج ٤ ص ، سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٣٥ .
 (٢) ترتيب اللسان ج ٢ ص ١٤١ .
 (٣) شرح العمدة ج ١ ص ٢٤٦ .
 (٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٧ .

وقوله : إلا أنه لا يختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » . يعنى أن أوصاف الرحمن تعالى موجودة في آيات كثيرة من القرآن .

وهذه السورة وسائر سور القرآن هي صفة الرحمن ، لأنها كلامه ، وكلامه من صفاته ، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن تعالى - وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابي - رضى الله عنه - أى أنها خالصة لوصف الرحمن - تعالى - دون غيره .

« قال ابن التين : إنما قال : لأنها صفة الرحمن لأن فيها أسماءه ، وأسماءه مشتقة من صفاته » .

وقال غيره : يحتمل أن الصحابي قال ذلك : مستنداً إلى شيء سمعه من النبي ﷺ - إما بالنص ، أو بالاستنباط .

وروى البيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن اليهود أتوا النبي ﷺ - فقالوا : صف لنا ربك ؟ فأنزل الله - عز وجل « قل هو الله أحد » إلى آخرها ، فقال : هذه صفة ربي - عز وجل (١)

وفي الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفات ، وهو قول الجمهور ، وشذ ابن حزم فقال : هذه لفظة اصطلاح عليها أهل الكلام ، من المعتزلة ، ومن تبعهم ولم يثبت عن النبي ﷺ - ولا عن أحد من أصحابه ، فإن اعتراضوا بحديث الباب ، فهو من أفراد سعيد بن أبي هلال ، وفيه ضعف ، وعلى تقدير صحته فـ « قل هو الله » صفة الرحمن ، كما في هذا الحديث ، ولا يزداد عليه ، بخلاف الصفة التي يطلقونها ، فإنها في لغة العرب لاتطلق إلا على جوهر ، أو عرض (٢) وسعيد متفق على الاحتجاج به ، فلا يلتفت إلى تضعيفه .

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٧٩ ، وفيه تسمية بعضهم وقد ذكر عدة أحاديث بمعناه .

(٢) انظر الفصل ج ٢ ص ٢٨٤ ، وقد أطال الكلام على هذا المعنى ، واحتج بأشياء لا تدل على مراده .

وكلامه الأخير مردود ، باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنی ، قال الله تعالى : (والله الأسماء الحسنی فادعوه بها) . وقال تعالى : (له الأسماء الحسنی) والأسماء المذكورة فيها صفات ، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته (١)

قلت : كلام ابن حزم - رحمه الله - باطل ، ولا حجة له فيما ذكر ، لأن الصفة : مصدر وصفت الشيء أصفه وصفا ، وصفة ، مثل : وعد ، وعداً ، وعدة .

فإذا قيل : إن الله بكل شيء عليم ، وهو رحمن رحيم ، وعلى كل شيء قدير ، فالمعاني القائمة بالرب تعالى - التي دل عليها هذا الكلام ، من العلم ، والرحمة والقدرة ، هي الصفات المقصودة ، وإنكار ذلك مكابرة ، أو عناد وضلال ، وإلحاد .

وقد دلت نصوص كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - والفتوة والعقل على ذلك ، قال الله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه) (٢) .

وقال تعالى : (أنزله بعلمه) (٣) ، وقال تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٤)

وقال تعالى : (والله العزة ورسوله وللمؤمنين) (٥)

وقال تعالى : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (٦) .

(١) فتح الباری ج ١٣ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٦٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ٥٨ من سورة الذاریات .

(٥) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٦) سورة غافر الآية ٧ .

وفي الحديث الصحيح « اللهم إني أستخريك بعلمك ،
وأستقدرك بقدرتك » (١)

وفي حديث عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ : « واللهم بعلمك الغيب
وقدرتك على الخلق » (٢) .

وفي صحيح البخارى فى قصة أيوب : « قال : بلى وعزتك ، ولكن لاغنى
لنى عن بركتك » (٣)

وقال البخارى : « باب الحلف بعزة الله وصفاته ، وكلماته » . وقال ابن
عباس : كان النبي ﷺ - يقول : أعوذ بعزتك . وقال أبو هريرة : عن النبي
ﷺ : يبقى رجل بين الجنة والنار ، فيقول : يارب اصرف وجهى عن النار ، لا
وعزتك لا أسألك غيرها ، ثم ذكر حديث أنس : « لاتزال جهنم تقول : هل من
مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك » (٤)

وفي هذا الحديث الذى نحن بصدد الكلام عليه : « لأنها صفة الرحمن »
وقال الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (٥) وهذا من إضافة
الموصوف إلى صفته ، فثبت بهذه النصوص ، وغيرها كثير ، أن لله صفات ، وأن كل
اسم تسمى الله به يدل على الصفة ، لأن الأسماء مشتقة من الصفات .
وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة ، الذين ينفون أن يكون لله علم ، وقدرة
ومشيئة ، ويجعلون هذه الصفة هى الأخرى ، أو الصفة هى الموصوف . كما يتبين

(١) هو حديث جابر ، انظر البخارى ج ٢ ص ٥٠ ، وسنن أبى داود رقم
١٥٣٨ ، والترمذى رقم ٤٨٠ وسيأتى .

(٢) انظر سنن النسائى ج ٣ ص ٥٤ و ٥٥ فى السهو فى باب نوع آخر من
الدعاء .

(٣) صحيح البخارى كتاب التهجد باب ٢٠ ج ١ ص ٥٤ وفى مواضع أخرى
وسياتى .

(٤) الصحيح ، كتاب الأيمان والنذور باب ١٢ ج ٨ ص ١١٤ وسيأتى ذلك .

(٥) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

بهذا أيضا الفرق بين الأسماء والصفات .

١ — فالأسماء تدل على الذات ، والصفات تدل على معنى قائم بالذات ، وهذه المعاني أيضا أسماء .

٢ — وتقدم أن الأسماء مشتقة من الصفات .

قوله : « أخبروه أن الله يحب » قد يكون سبب محبة الله له ، محبته لهذه السورة أو محبته ذكر صفات الرب عز وجل ، وحسن فهمه وعقيدته في ذلك ، أو لمجموع الأمرين ، وهو الأولى .

وفيه ثبوت محبة الله تعالى لأهل طاعته من عباده ، والأدلة عليه كثيرة جداً ، فلذلك صار إنكاره ضلالاً بيناً .

قال المازري ، ومن تبعه : محبة الله لعباده : إرادته ثوابهم ، وتنعيمهم .

وقيل : هي نفس الإثابة ، والتنعيم .

ومحبتهم له ، لا يبعد فيها الميل منهم إليه ، وهو مقدس عن الميل .

وقيل : محبتهم له : استقامتهم على طاعته .

والتحقيق : أن الاستقامة ثمرة المحبة .

وحقيقة المحبة له : ميلهم إليه ، لاستحقاقه سبحانه المحبة من جميع

الوجوه .

قال الحافظ : « وفيه نظر ، لما فيه من الإطلاق في موضع التقييد » (١)

ومقصده من الإطلاق ، قوله : « لاستحقاقه - سبحانه - المحبة من جميع

الوجوه » لأنه قد يدخل فيه الحب المتضمن للشهوة ، ونحو ذلك .

وقول المازرى : إن محبة الله لعباده إرادته ثوابهم ، ونعيمهم ، أو هي نفس الثواب والنعيم ، ظاهر البطلان ، والنصوص فيه لا تقبل هذا التأويل لكثرتها ، وتواطؤها على أن الحب فيها هو ما يفهمه المخاطب الذى لم تفسد فطرتها بالعقائد المنحرفة عن الحق .

وهذه طريقة أهل التأويل فى كثير من صفات الله - تعالى - إما أن يجعلوها إرادة الثواب أو العقاب ، أو هي نفس الثواب ، والعقاب .
ومعلوم أن الثواب ، والعقاب ونحوهما مخلوق .

والإرادة التى يرجعون المحبة ، والرحمة ونحوهما من صفات الله - تعالى - إليها ، يلزمهم فيها نظير ما فروا منه فى المحبة والرحمة ، حيث قالوا : إن المحبة هي : الميل إلى المحبوب ، فيقال : والإرادة هي : ميل المرید إلى من يوافقه فى إرادته .
وأما تفسيرها بالثواب والعقاب ، فيلزم منه أن تكون صفته تعالى مخلوقة ، ثم نقول لسنا بحاجة إلى مثل هذا التأويل السخيف البارد ، لأن الله تعالى : ليس كمثل شئ فى صفاته ، كما أنه لا مثل له فى ذاته .

ومحبته تبارك وتعالى لعبده المؤمن شئ فوق إنعامه ، وإحسانه ، وعطائه وإثابته ، فإن هذا أثر المحبة وموجبها ، أما هي فأعظم من ذلك ، وأشرف . وهي التى يتسابق إليها أنبيائه وملائكته وأوليائه ، وعباده الصالحون . وكفى فى كتاب الله وسنة رسوله من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، كقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (١) وقوله تعالى : (إن الله يحب المتطهرين) (٢) (بلى من أوفى بعهده واتقى ،

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة .

فإن الله يحب المتقين (١) (والله يحب المحسنين) (٢) (فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (٣) والآيات في هذا كثيرة .

وأما الأحاديث عن رسول الله ﷺ التي تنص على أن الله يحب عباده المؤمنين فأحصاءها عسير ، كقوله ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله » (٤) وقوله - ﷺ : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » (٥)

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها ، إذ هي من الضروريات الثابتة بالشرع ، والعقل ، والفطرة ، وإنكارها إنكار للواقع المحسوس .

كما أن تأويل المخرفين بأنها الاستقامة على الطاعة ، كما ذكره المازني ، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم كما نقله الحافظ عن ابن التين (٦) مخالف للشرع ، والعقل ، والواقع المحسوس ، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام ، لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله .

ومعنى الإله : المحبوب الذي تأله القلوب ، وتجه ، وتعظمه وتجله ، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل ، والافتقار إليه ، والخوف منه ، ورجاءه .

فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله ، فقد أنكر حقيقة الإسلام . وهل الشرك الذي حرمت الجنة على صاحبه إلا أن يجعل للمخلوق

(١) الآية ٧٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران ، والآية ٩٣ من سورة المائدة . والآية ١٤٨

من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٥٩ من آل عمران .

(٤) رواه صاحبها الصحيحين ، انظر الفتح ج ٦ ص ١١١ وأماكن أخرى .

ومسلم ج ٤ ص ١٨٧١ و ١٨٧٢ .

(٥) رواه مسلم في الزهد ج ٤ ص ٢٢٧٧ رقم ٢٩٦٥ .

(٦) انظر الفتح ج ١٣ ص ٣٥٧ .

نصيباً مع الله تعالى في هذا الحب كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) (١)

فبين تعالى أن الذى يجب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ الله نداً ، وأخبر تعالى عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) (٢) ولا يجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا في الحب ، لأنه لا يمكن أن يقول عاقل أن أحداً من الخلق يساوى الله تعالى في الفعل والتصرف .

وقول ابن التين الذى نقله الحافظ : « إن معنى محبة المخلوقين لله : إرادتهم أن ينفعهم (٣) » من أبطل الكلام المخالف للواقع ، وللشرع والعقل ، ولولا أن هذا مسجل في الكتب المتداولة بين المسلمين ، لم يجز ذكره ، وهل يوجد أحد من الخلق لا يريد أن ينفعه الله ، حتى إبليس ، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد ، من الأولين والآخريين ، بل كلهم يريد أن ينفعهم الله ، فهل يقال : إنهم يحبون الله ؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله ، ونقص الإيمان بذلك .

« وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين ، وأن قوله الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وأن قوله الفصل ، ليس بالهزل ، وأنه الهدى ، والنور ، والشفاء لما في الصدور ، من الجهل والشكوك ، وأنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه .

وعلم أن الرسول - ﷺ - أعلم الخلق بالحق ، وأفصح الخلق في النطق

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٩٧ و ٩٨ من سورة الشعراء .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٥٧ .

والبيان . وأنه أنصح الخلق للخلق ، من علم ذلك تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق ، وكال القدرة على بيانه ، وكال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة ، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه .

فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله ، أبلغ مما يمكن ، وأتم ما يكون ، وأعظمه بيانا لأمر الدين ، من حقوق الله وأسمائه ، وصفاته ، وغير ذلك .

فمن وقر هذا في قلبه لم يجراً على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرها العاقل المنصف ، وجدها أبعد شيء عن كتاب الله ، وعن صفات الرسول ﷺ - وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص في علمه ، وإيمانه بكلام الله ، وكلام رسوله - ﷺ « (١)

وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هي حياة القلوب ، ونعيم الروح ، بل هي أعلى نعيم في الدنيا والآخرة ، وهي فوق كل محبة تفترض ، ولا نسبة لسائر المحاب إليها ، وهي حقيقة لا إله إلا الله ، وبتامها وإكلاها تتفاوت منازل العباد عند الله في الدنيا والآخرة ، وقد جاء في الحديث عنه - ﷺ - أنه قال : « أحبوا الله من كل قلوبكم » (٢) يعنى لا يبقى في القلب موضع لغير محبة الله تعالى .

وفي الصحيحين : مرفوعاً : « ثلاث من كنَّ فيه ، وجد بهنَّ حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » (٣)

وأصل التأله التعبد ، والتعبد هو آخر مراتب الحب ، يقال : عبده

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ١٢٩ بتصرف وزيادة .

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة انظر مختصرها لابن هشام ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) انظر الفتح ج ١ ص ٧٢ وج ١٠ ص ٤٦٣ ، ومسلم ج ١ ص ٦٦ .

الحب وتيمه إذا ملكه ، وذلكه لمحبوئه .

فالحبة هى حقيقة العبودية ، ولا يمكن وجود العبادة التى يريدنا الله وبأمر بها عباده بدونها أبداً ، بل لا يوجد أى نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعا بدونها ، مثل الإنابة ، والخشية ، والخوف ، والرجاء ، والحمد ، والشكر ، والصبر ، والدعاء ، والاستغاثة ، والاستعانة ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، فمنكر الحبة فى الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهؤلاء المحرفين لمثل هذا النص فى الحبة ، يغالطون أنفسهم . وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعانى القرآن ، حيث قالوا عن سورة الصمد : إنها صفة الرحمن ، ووجه ذلك : أن هذه السورة تضمنت أنواع التنزيه لله تعالى والتحميد ، ونفى النقائص كلها ، وإثبات الكمال جميعه . ولهذا عدلت ثلث القرآن - كما تقدمت الإشارة إليه .

(الكلام على معنى أحد و صمد)

فالصمدية تثبت الكمال المنافى لكل نقص وعيب ، والأحدية تثبت الانفراد بذلك الكمال ، فهى تدل على أنه - تعالى - أحد ليس من جنس شىء من المخلوقات ، « وأنه صمد ليس من مادة ، بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد ؛ فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أول وأخرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من المولود من مادة أخرى » (١)

وقال أيضا : « وقد فسر السلف الصمد بأنه الذى لا جوف له ، كما فسروه : بأنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج ؛ والأول قول أكثر السلف ، من الصحابة ، والتابعين ، وطوائف من أهل اللغة .

والثانى : قول جمهور أهل اللغة ، وطوائف من السلف والخلف .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٤٥٢ .

قال الجوهرى : صمده يصمده صمداً إذا قصده ، والصمد بالتحريك : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج (١)

وقوله - تعالى - : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) أدخل اللام في « الصمد » ولم يدخلها في « أحد » لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ، بخلاف النفي ، وما في معناه كالشروط ، والاستفهام .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد في الدار ، ولا تقول : فيها أحد .
وأما « الصمد » فأدخل عليه الألف واللام ليبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال .

فالمخلوق وإن كان قد يطلق عليه بأنه صمد ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه فإنه يقبل التجزئة ، وهو محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله فقير محتاج إلى الله ، وليس أحد يصمد كل شيء إليه (٢) ، وهو لا يصمد إلى شيء إلا الله تعالى . وليس في المخلوقات شيء إلا يقبل التجزئة ، ويتفرق ، وينفصل بعضه من بعض ؛ والله سبحانه هو الصمد ، الذى لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكألها له وحده واجبة ولازمة ، لا يمكن عدمها بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تشية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه (٣) .

فقوله تعالى : « أحد » مع قوله : « لم يكن له كفواً أحد » ينفي المماثلة ، والمشاركة .

-
- (١) انظر الصحاح ج ٢ ص ٤٩٩ وتامه : « قال : علوته بحسام ثم قلت له : خذها حذيف فأتى السيد الصمد وبيت مصمد - بالتشديد - أى مقصود » .
(٢) الصمود هنا هو الطلب والقصد والتوجه إلى المصمود إليه بالحاجة .
(٣) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٢٣٧ ملخصاً .

وقوله تعالى : « الصمد » يتضمن إثبات جميع صفات الكمال . فالنقائص منتفية عن الله تعالى ، وكل ما يختص به المخلوق فهو من النقائص التي تنزه ربنا عنها جل وعلا .

وأما ما يوصف به العبد من بعض الكمالات مثل العلم ، والقدرة ، والرحمة ، ونحو ذلك ، فالذى يثبت لله تعالى من هذه المعاني يكون على وجه لا يقاربه فيه أحد من الخلق ، فضلاً عن أن يماثله فيه .

وقد ثبت أن ما خلقه الله في الجنة من المآكل وغيرها ، لا يماثل ما خلقه في الدنيا ، وإن اتفقا في الاسم ، مع أن كليهما مخلوق ، فالخالق تعالى وتقدس أبعد عن مماثلة المخلوقات .

والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل ، والشريك ، والند ، قد دل عليه قوله سبحانه (لم يكن له كفواً أحد) وقوله : (قل هو الله أحد) وقوله تعالى : (هل تعلم له سمياً)^(١) وأمثال ذلك ، فالمعاني الصحيحة لصفات الله نفيًا وإثباتًا ، ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك .

وقول بعض أهل الكلام : الأحد ، والصمد ، هو الذى لا ينقسم ، ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ، ونحو ذلك من العبارات ، إن عنى بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهو حق ، وإن عنى بها أنه لا يشار إليه بحال ، فهذا يمتنع وجوده ، وإنما يقدر وجوده في الذهن تقديراً .

وقد علمنا أن العرب حين أطلقوا لفظ الواحد ، والأحد نفيًا ، وإثباتًا لم يريدوا هذا المعنى .

ولهذا لما قال الذين جادلوا الإمام أحمد ، في نفى الصفات - مستدلين باسم الواحد - : لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا : كان الله ولا شيء .

(١) جزء من الآية ٦٥ سورة مريم .

قال أحمد : قلنا نحن نقول : كان الله ولا شيء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها ، أليس إنما نصف إلهاً واحداً ؟ .

وضربنا لهم في ذلك مثلاً ، فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، ونخوص ، وجمار ؟ . واسمها شيء واحد ؟ سميت نخلة بجميع صفاتها ؟ . فكذلك الله - وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد .

ولا نقول : إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه قدرة ، أو كان ولا علم له ، حتى خلق له علماً ، ولكن نقول : لم يزل عالماً ، قادراً ، مالكا ، لا متى ، ولا كيف « انتهى (١) »

وقال أيضاً : « ودل قوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد) على أنه لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولهذا فسر الصمد بأنه الذي لم يلد ، ولم يولد .

فإن الصمد : هو الذي لا جوف له ، ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ؛ فلا يأكل ولا يشرب ، كما قال تعالى : (وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ) (٢) وفي قراءة بفتح الياء الأخيرة .

وفسر بعض السلف « الصمد » بأنه الذي لا يخرج منه شيء ، وليس مرادهم أنه لا يتكلم فإنه يقال في الكلام : خرج منه ، كما في الحديث : « ما تقرب

(١) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٤٤٩ ، وانظر رد الإمام أحمد في مجموع عقائد السلف ص ٩١ .

(٢) الآية ١٤ من سورة الأنعام .

العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه « انتهى (١)

ودل الحديث على استحباب قراءة الآيات التي تشتمل على صفات الله تعالى ، خلافا للمبتدعة الذين يكرهون قراءة آيات الصفات عند العامة ، وفيه التصريح بأن الله يحب ذلك ويحب من يحبه .

★ ★ ★

(١) المصدر السابق والحديث أخرجه الترمذى ج ٤ ص ٢٤٩ ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ص ٢٠ .

« باب قول الله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (١) »

* * *

قال الطبري - رحمه الله تعالى - « يقول تعالى ذكره لنبية : قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن (ادعو الله) أيها القوم ، (أو ادعوا الرحمن ، أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى) بأى أسمائه جل جلاله تدعون ربكم فإنما تدعون واحدا ، وله الأسماء الحسنى وإنما قيل ذلك له ﷺ - لأن المشركين فيما ذكر ، سمعوا النبي - ﷺ - يدعوا ربه : ياربنا الله ، وياربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعوا إلهين ، فأنزل الله الآية ، ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وعن مكحول (٢) قال ابن حجر « كأنه لمح في هذه الترجمة بهذه الآية إلى ماورد في سبب نزولها ، وهو ما أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف ، عن ابن عباس : أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعوا ياالله يارحمن ، فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد ، وهو يدعوا إلهين . فنزلت ، وأخرج عن عائشة بسند آخر نحوه » (٣) .

قلت : يظهر لي أن مقصود البخارى - رحمه الله - بالترجمة بهذه الآية بيان اختصاص الله - تبارك وتعالى - بالأسماء الحسنى ، وأن أسمائه كاملة المعاني ، لايلحقها نقص ، أو عيب ، وأن اتصاف المخلوق ببعض مايتصف الرب تعالى به من المعاني ، لا يلزم منه نقص أو عيب في أسمائه ، وصفاته - تعالى - لأنها حسنى

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٨٢

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٦٠ .

كاملة تناسب عظمته ، وكبريائه ، فلا يتوهم أن في ذلك تشبيها كما يزعمه أهل البدع الذين ظنوا أن مجرد المشاركة في الاسم ، أو المعاني يفيد التشبيه . فنفوا صفات الله تعالى من أجل ذلك .

وأما المخلوق فأسمائه وصفاته ليست حسنى ، ولا كاملة فهى تناسب ضعفه وعجزه ، والذي يوضح مراد البخارى بذلك الحديثان اللذان ذكرهما « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » وفي الآخر « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، فإذا كان المخلوق يرحم ، ويسمى رحيمًا ، والله تعالى يرحم ويسمى رحيمًا ، فليس ما يخص الله تعالى من هذا الاسم أو الفعل مماثلا أو مقاربا لما يخص المخلوق ، فلا يجوز تأويل أو نفى رحمة الله تعالى وغيرها من صفاته ، من أجل توهم أن مجرد المشاركة في المعنى يلزم منها التشبيه ، والله أعلم .

قال ابن القيم : « أسماءه - تعالى - كلها مدح وثناء وتمجيد ، ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال » (١) .

وما ذكره بعض الشراح : من أن البخارى ذكر هذا الباب ليكون كالأصل لما بعده من الأبواب ، وما بعده كالفرع عليه ، وقال : إنه قصد الاسمين المذكورين في الآية وهما « الله » ، و « الرحمن » ، لأنهما خاصان بالله تعالى .

فليس بظاهر ، وهذان الاسمان جاء ذكرهما كثيرا فيما بعد ، والظاهر لى - والله أعلم - ما أشرت إليه فيما سبق قبل قليل ، يوضح ذلك ما جاء فى سبب النزول كما قال الحافظ ، والرحمن يأتي تابعا « لله » كغيره من الأسماء الحسنى .

فهو أراد بهذا الباب ما دلت عليه الآيات الأخرى كقوله - تعالى - : « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى » (٢) وقوله : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (٣) وقوله « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » (٤) .

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٨ من سورة طه .

٦ — قال : « حدثنا محمد ، أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد ابن وهب ، وأبي ظبيان ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »

* * *

جرير هو أبو عمرو ، جرير بن عبد الله بن جابر البجلي ، الأحمسي ، وأحمس بطن من بجيلة ، وبجيلة وختعم أخوان ، وهما من قحطان ، وقيل : من ربيعة بن نزار .

قدم جرير على النبي ﷺ في آخر حياته ، فبشّر به أصحابه ، وبسط له رداءه .

وكان - رضى الله عنه - صادق الإيمان ، صادقاً بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان يقول كما في الصحيحين ، وغيرهما « بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » (١)

وبعته النبي - ﷺ - لهدم ذى الخلصة ، وهو صنم كبير كان لدوس ، فهدمه .

ودعا له النبي ﷺ ، ولخيل أحمس ورجاله .

وكان حسن الوجه حيث كان يقال له : يوسف هذه الأمة ، وكان طويلاً إذا ركب الفرس تكاد تخط رجلاه في الأرض .

نزل الكوفة ، فأرسله علي رسولاً إلى معاوية ، ثم اعتزل الحروب بينهما وتحول إلى جزيرة ابن عمر ، توفي بقرقيسيا سنة إحدى وخمسين ، وقيل بعدها رضي

(١) انظر الفتح ج ١ ص ١٣٧ وغيره ، ومسلم ج ١ ص ٧٥ في الإيمان رقم

الله عنه . (١)

« قوله : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » في رواية لمسلم « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »

وعند الطبراني « من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من في السماء » ورواته ثقات .

ولأبي داود ، والترمذي ، والحاكم « ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء » .

وفي الطبري « من لا يرحم المسلمين لم يرحمه الله » (٢) .

قلت : ومعنى هذه الروايات واحد ، ففي هذه الأحاديث وأمثالها كثير ، دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله من عباده ، الذين يريد جل وعلا رحمتهم ، وتتخلف عن الأشقياء ، الذين لا يرحمهم الله تعالى .

وقد روى البخاري في الأدب المفرد ، من حديث أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (٣) .

وقد علم من دين الرسل ، وكتب الله تعالى أن الله متصف بالرحمة ، وليست رحمته ثوابه وجزاؤه ، كما يقوله أهل التحريف المؤولة ، من الأشعرية وغيرهم .

(١) انظر أسد الغاية ج ١ ص ٣٣٣ ، والاستيعاب ج ١ ص ٢٣٦ ، والإصابة ج ١ ص ٤٧٥ ، وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٢) الفتح ج ١٠ ص ٤٤٠ .

(٣) انظر الأدب المفرد ص ١٣٦ ، قال محققه أخرجه الترمذي ٢٥ كتاب البر والصلة ١٦ باب ما جاء في رحمة المسلمين وأبو داود ، كتاب الأدب ٥٨ باب في الرحمة ، وأحمد في المسند رقم ٧٩٨٨ ، ٩٧٠٠ ، ٩٩٤١ ، ٩٩٤٦ ، ١٠٦٤ وسنده صحيح وغيرهم .

وقد قال الله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) (١)

فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة ، وفضل الله - تعالى - الذى هو الثواب والجزاء مخلوق ، ليس من صفات الله - تعالى - القائمة به .

وإذا كان الإجماع حاصل بين الأمة ، بأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ فى ذاته المقدسة ، فيجب أن تكون صفاته ليست كصفات خلقه ، لأن الصفة تتبع الموصوف ، فصفات الله - تعالى - من الرحمة ، والرضا ، والغضب وغير ذلك . تليق بعظمته ، وتناسبه ، وصفة المخلوق من ذلك وغيره تليق بضعفه ، وعجزه وفقره .

وإن من الضلال ، والبعد عن كتاب الله ، وهدى رسوله ، وسبيل المؤمنين حقا ، نفى صفات الله - تعالى - وتعطيله منها اعتلالا بأنها تفيد التشبيه . لأن المخلوق يوصف بتلك الصفات ، وهل هذا إلا مثل من يقول : أنا لا أقر بوجود الله تعالى لأن المخلوق موجود ؟ .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن مجرد الاشتراك فى الاسم أو فى المعانى العامة لا يقتضى تشبيها ، وسيأتى لذلك مزيد إن شاء الله تعالى .

٧ - قال : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي ، عن أسامة بن زيد ، قال : كنا عند النبي ﷺ - إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فأخبرها ، أن الله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ، ولتحتسب . فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأتيناها ، فقام النبي ﷺ - وقام معه سعد ابن عباد ، ومعاذ بن جبل ، فدفع الصبي إليه ، ونفسه تقعقع كأنها في شن ، ففاضت عيناه ، فقال له سعد : يارسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »

* * *

أسامة بن زيد بن حارثة بن سراهيل ، الكلبي ، حب رسول الله ﷺ - وابن حبه ومولاه ، وابن مولاته أم أيمن .
أمره رسول الله ﷺ - علي جيش فيه كبار المهاجرين ، والأنصار ، منهم أبو بكر وعمر ، وقال فيه ﷺ : « وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة » (١)
وفي البخاري ، وغيره أنه ﷺ قال له ، وللحسن : « اللهم إني أحبهما ، فأحبهما » (٢)

وزوجه فاطمة بنت قيس ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وتوفي رسول الله ﷺ - وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفضلّه عمر رضي الله عنهما في العطاء على

(١) أخرجه البخاري في مواضع من الصحيح ، انظر الفتح ج ٧ ص ٤٩٨ ، ٨٦ ،

و ج ١١ ص ٥٢١ .

(٢) انظر الفتح ج ٧ ص ٨٨ ، ٩٤ وج ١٠ ص ٤٣٤ .

ابنه عبد الله ، وحين راجعه قال له : إنه أحبُّ إلى رسول الله - ﷺ منك . واعتزل الحروب بين أهل الشام وأهل العراق ، ومات بوادى القرى سنة أربع وخمسين ، وقيل غير ذلك (١) .

قوله : « إحدى بناته » قال الحافظ : هي زينب ، كما جاء في مصنف ابن أبي شيبة (٢)

قلت : يشير إلى ما رواه ابن أبي شيبة بالسند المذكور هنا . قال : « دمعت عين رسول الله ﷺ حين أتى بابنة زينب ، ونفسها تقعقع كأنها في شن ، قال : فبكى قال : فقال له رجل : تبكى وقد نهيت عن البكاء » فذكر بقية الحديث كما ذكره البخارى (٣)

ثم قال الحافظ : « ووجدت في الأنساب للبلاذرى ، أن عبد الله بن عثمان ابن عفان من رقية بنت النبي - ﷺ - لما مات ، وضعه النبي ﷺ - في حجره وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، وفي مسند البزار ، عن أبي هريرة ، قال : ثقل ابن لفاطمة ، فبعثت إلى النبي ﷺ . فذكر نحو الحديث المذكور هنا .

فعلى هذا ، فالابن هو محسن بن علي بن أبي طالب ، وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيرا ، في حياة النبي - ﷺ - فهذا أولى أن يفسر به الابن لكن الصواب أن المرسله ؛ زينب ، وأن الولد صبية ، كما ثبت في مسند أحمد بالسند المذكور ، ولفظه : « أتى النبي - ﷺ - بأمامة بنت زينب ، ونفسها تقعقع

(١) انظر الإصابة ص ١ ص ٤٩ تحقيق الجاوى ، وسير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٩٦ وغيرها .

(٢) انظر الفتح ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) انظر مصنف ابن أبي شيبة ج ٣ ص ٣٩٢ .

كأنها في شن « وذكر بقية الحديث (١) . ومثله في معجم الطبراني ، وقد شفاها الله تعالى - فعاشت زمنا بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وتزوجها على بن أبي طالب ، بعد وفاة فاطمة ، وقتل وهى عنده رضى الله عنهم جميعا » (٢) .

قوله : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى » . قال النووى - رحمه الله - : هذا أحسن ما يعزى به . ثم قال : « وهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام ، لاشتماله على مهمات كثيرة من أصول الدين ، وفروعه ، والآداب ، والصبر على النوازل كلها ، والهموم ، والأسقام وغير ذلك ، ومعنى قوله : « إن لله ما أخذ » أن العالم كله ملك لله تعالى ، فلم يأخذ ماهو لكم ، بل أخذ ماهو له عندكم ، فى معنى العارية .

ومعنى : « وله ما أعطى » أن ما وهبه لكم ليس خارجا عن ملكه ، بل هو له يفعل فيه مايشاء ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فلا تجزعوا فإن من قبض فقد انقضى أجله المسمى ، فمحال تأخره أو تقدمه عنه ، فاعلموا ذلك ، واصبروا ، واحتسبوا ما نزل بكم » (٣)

وقوله : « وكل شىء عنده بأجل مسمى » من فقد محبوب ، أو حصول مرغوب ، وتصرف فى هذا الكون الذى هو بأسره ملك لله يفعل فيه ما يريد ، والأجل المسمى : هو المقدر بوقت معين لايتأخر عنه ، ولا يتقدم .

وفى هذه الجملة من الحديث دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شىء وكتبه ، وعلم وقته وحاله ، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق ، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم ، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامى ، يجب

(١) انظر المسند ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٢) الفتح ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) انظر الأذكار ص ٢١٢ - ٢١٣ .

أن يعلم . والإيمان به من أركان الدين لا بد منه ، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة .

قوله : « فلتصبر ، ولتحتسب » الصبر : حبس النفس عن الجزع ، والتسخط ، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب ، وخمش الوجوه ولطمها ، والكلام الذى ينافى التسليم لرب العالمين ، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار ، والاعتراض على القضاء الذى قضاه الله قبل وجود الخلق .

والاحتساب : هو نية طلب الثواب من الله على الإيمان بالقدر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، والإيمان بوعد الله تعالى ، فإنه وعد على الصبر الجزاء .

قال ابن القيم : « حقيقة الصبر : أنه حُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ، ولا يجمل » (١)

قوله : « فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأنيها » جاء فى بعض الروايات أنها راجعته ثلاث مرات ، وإنما ذهب إليها بعد الثالثة .

وإلحاحها لما علمت من أن حضور النبي ﷺ فيه الخير والبركة ، وأنه يتوقع أن يرفع الله ببركة دعائه وحضوره ماهى فيه وابتها من ألم وتوجع . وقد حقق الله تعالى أملها ورغبتها ، فشفها مريضها كما سبق .

ولا يعترض بهذا على أن القدر لا بد من وقوعه ، فكيف يتخلف من أجل الدعاء أو غيره ، فإن الله تعالى جعل لكل شئ سبباً ، ورتب المسببات على أسبابها فقدر أن هذا الشئ يقع فى وقت معين إذا تخلف السبب من دعاء أو غيره ، وإذا وجد ، هذا السبب مثلاً فإنه يتأخر إلى وقت آخر ، أى أن الله تعالى قد يجعل لوقوع هذا الحادث أجلين ، أجل إذا لم يفعل السبب - مثل الدعاء والعمل الصالح - وأجل آخر إذا فعل ذلك ، وقد علم الله أيهما يقع ، وهو جل

(١) عدة الصابرين ص ١٢ .

وعلا : يتلى خلقه بالمصائب ، تأديبا لهم ، وتكفيراً لذنوبهم ، رحمة منه بهم .
 قوله : « ونفسه تققعع كأنها في شن » القعقة صوت الشئ اليابس الجاف الخفيف إذا حرك . يعنى بذلك صوت نفسه عند صعوده ونزوله في صدره من شدة الألم .

والشن : بفتح الشين وتشديد النون ، القرية الخلقة اليابسة .
 قوله : « ففاضت عيناه » أى ذرفت عينا رسول الله - ﷺ - بالدموع رحمة لهذا الضعيف ، وتوجعا لما نزل به من الألم الشديد .

« فقال سعد : يارسول الله ما هذا » كان ﷺ ينهى عن البكاء على الميت ، فظن سعد - رضى الله عنه وغيره أن النهى يدخل فيه دمع العين ، وحزن القلب ، فبين لهم النبي ﷺ أن النهى عنه هو التسخط من المقدور ، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح ، وتعداد محاسن الميت ، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق ونحوه ، مما يدل على السخط من الواقع ، وعدم الصبر .
 وأما دمع العين وحزن القلب ، فهو من الرحمة للضعفاء التى هى سبب رحمة أرحم الراحمين جل وعلا .

قوله : « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده » أى الدمع الذى رأته من أقر الرحمة التى جعلها الله تعالى في قلوب عباده ، الذين أراد تعالى رحمتهم ، لأن الجزء من جنس العمل ، والإضافة هنا خاصة أى الذين عبدوه باتباع أمره ، واجتناب نهيه .

قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى رحمة الله تعالى للمحسنين إلى عباده برحمتهم ، والرحماء من صبيغ المبالغة ، ولهذا قال بعض الشراح : « المعنى أن الله تعالى لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة ، فالرحماء جمع رحيم ، وهو من صبيغ المبالغة » (١)

(١) المنهل العذب المورود ج ٨ ص ٢٧٧ .

قلت : هذا الحصر لا ينبغي ، وإن كان التركيب في الحديث يفيدُه ولكن فيما يظهر لي - والله أعلم - أنه غير مقصود للأدلة على أن رحمة الله وسعت كل شيء ، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد الذي سيق الحديث من أجله ، مع قوله « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده » وذلك أن القدر المشترك بين أسماء الله تعالى وصفاته ، وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم في اللفظ والمعنى لا يقتضى المشابهة ، لأن أسماء الله تعالى حسنى ، لا يلحقها نقص ، ولا عيب . بخلاف أسماء المخلوقين - وإن كان منها الحسن - فليست بحسنى ، ولأن الصفات تابعة للموصوف ، وكذلك الأسماء ، فالرحمن اسمه تعالى . والرحمة صفة ، والمخلوق يتصف بالرحمة التي يرحم بها ، وهى تابعة له في الخلق والمعنى ، فهى مخلوقة فيه ، لأنه مخلوق فصفاته مخلوقة ، وهو ضعيف فقير محتاج ، وصفاته تناسبه في ذلك مع أنه يسمى رحيم ، وراحم ، والله تعالى موصوف بالرحمة ويسمى رحيم ، ولا يكون في ذلك تشبيه ، لأن المخلوق اسمه وصفته يختص به ، والله تعالى اسمه وصفته يختص به ، فرحمة الله صفة له عليا صفة كمال ، وسالمة من كل نقص أو عيب يمكن أن يلحق المخلوق ، فليست رحمته تعالى عن ضعف أو عجز ، بل عن كمال فضله وإحسانه . ولا يجوز أن تؤول بالتوابع أو العطف ، أو إرادة ذلك وما أشبهه مما يقوله أهل التأويل . كما ذكر الحافظ ابن حجر عن شرح البخارى . وغيرهم ، كقول ابن بطال : « إن المراد برحمته إرادته تقع لمن سبق في علمه أنه ينفعه ، وأما الرحمة التي جعلها في قلوب عباده ، فهى من صفات الفعل (١) وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده وهى رقة على المرحوم ، وهو سبحانه منزّه عن

(١) صفات الفعل عند الأشعرية : ما فعله تعالى منفصلا عنه - يعنى مخلوقاته التي وجدت بصفة الخلق ، وليس هناك اشتباه بين ما يسميه ابن بطال صفات فعل ، وبين صفات الله حتى يلزم ما ذكره .

الوصف بذلك ، فتأول بما يليق به « (١) .

وذكر من هذا النوع أشياء تخالف نصوص كتاب الله ، ونصوص سنة رسوله ﷺ - كما هي عادته ، لأنه عفا الله عنا وعنه ، على المذهب الأشعري الذى يعتمد على تأويل صفات رب العالمين - وإن كان أحيانا يذكر مذهب السلف فيما ينقله ، ولكنه لا يتبناه ، بل يخلط بينه وبين ما يخالفه .

وهذا المذهب - يعنى مذهب الأشعرية الذى عليه أكثر المتأخرين - خالف لما عليه رسل الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالف لكتبه ، ولما عليه أتباع الرسل ، كما اعترف بذلك بعض كبار علماء هذا المذهب ، كالفخر الرازى ، والجوينى ، والغزالى ، والشهرستانى ، وغيرهم كما يأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وهكذا تبرر الأشعرية تأويل صفات رب العالمين بما تعرفه من صفات المخلوقين . فكأنهم لم يعرفوا من الرحمة إلا أنها رقة على المرحوم ، ولا من الغضب إلا أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام ، وما أشبه ذلك ، ولهذا لجأوا إلى التحريف الذى يسمونه تأويلا ، وجعلوه واجبا ضروريا ، حتى لا يلزم التشبيه ، فيسلم المسلم من التشبيه والتجسيم على ما زعموا .

زعموا هذا مع أنهم ينكرون على الفلاسفة تأويلهم نصوص المعاد ، وعلى الباطنية تأويلهم الشرائع أشد الإنكار ، فما الذى سَوَّغ لهم تأويل نصوص الصفات مع كثرتها ووضوحها ؟ وما ادعوه أن العقل يوجب ذلك بإمكان كل مبطل أن يدعيه .

فليس هناك عاصم من الضلال ، إلا الوقوف مع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى المقدمة .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٨ .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى البجائي - رحمه الله تعالى : « الأمر الثاني وهو النقص في الدين ، برد النصوص والظواهر ، ورد حقائقها إلى المجاز ، من غير حجة قاطعة ، تدل على ثبوت الموجب للتأويل ، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام في قواعد لم يتفقوا عليها ، وأفحش ذلك مذهب القرامطة الباطنية في تأويل الأسماء الحسنى كلها ، ونفيها عن الله تعالى ، على سبيل التنزيه له عنها ، وتحقيق التوحيد بذلك ، ودعوى أن إطلاقها يقتضى التشبيه ، حتى قالوا : لا يقال إنه موجود ، ولا معدوم .

فكما أن كل مسلم يعلم أن هذا كفر صريح ، فكذلك المحدث الذي طالت مطالعته للآثار ، قد يعلم أن تأويل بعض المتكلمين مثل ذلك .

ومن الضروري ورود أسماء الله الحسنى في كتابه على سبيل التمدح بها والثناء العظيم عليه بها ، ألا ترى - مثلاً أن الرحمن الرحيم متلوان في جميع الصلوات المذكوران في أكثر محافل المسلمين ، مجتمعين على أنهما أحسن الثناء على الله تعالى متقربين إلى الله تعالى بمدحه بهما .

وكرر تعالى التمدح بالرحمة في كتابه أكثر من خمسمائة ، مرة باسمه الرحمن أكثر من مائة وستين مرة ، وباسمه الرحيم أكثر من مائتي مرة ، وجمعهما مائة وستين مرة . وجاء الرحيم مقترنا مع التواب مراراً ، ومراراً مع الرؤوف ، والرأفة أشد الرحمة . ومراراً مع الغفور ، وهي كثيرة ، عرفت منها سبعة وستين موضعاً . وقد فطر الله العقول على معرفة رحمة الله ، وسعة علمه ، وكإل قدرته .

فما هو المانع من إثبات صفة الرحمة ونحوها مما أثبتته الله ورسوله ، مع نفي النقائص المتعلقة بصفات المخلوقين في حياتهم ، وكذلك كل صفة يتصف بها الرب ، تعالى ويوصف بها العبد . فإنه جل وعلا يوصف بها على أكمل وجه ، خالية عن جميع النقائص ، والعبد يوصف بها على ما يناسبه ، من نقص وضعف ، وبهذا فسر أهل السنة نفي التشبيه ، ولم يفسروه بنفي الصفات كما فعل المعطلة .

ومما يدل على بطلان التأويل ، كون المعتزلة يسخرون من تأويل الأشعرية للحكيم والأشعرية تسخر من تأويل بعض المعتزلة للسميع البصير ، وأهل السنة يسخرون من تأويل الفريقين للرحمن الرحيم ، وما أشبههما ، والكل يسخر من تأويل القرامطة . فيجب إثبات ما وصف الله به ذاته الكريمة ، من غير تأويل ، ولا تعطيل .

ولا يجوز القول بأن ظاهر هذه الأسماء كفر ، وضلال ، وأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك ، أو أنهم فهموه ولم يقوموا بالواجب من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق ، لأمرين :

الأول قاطع ضرورى ، وهو أن العادة توجب أن ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه ، من رسول الله - ﷺ - ومن أصحابه ، ويتواتر أعظم من تحذيرهم من الدجال الكذاب ، ولا يجوز مع كمال عقولهم ، وأديانهم أن يتركوا صبيانهم ونساءهم ، وعامتهم يسمعون ما ظاهره كفر ، منسوباً إلى الله - تعالى - ورسوله ويسكنون عليه ، مع بلادة الأكثرين .

ولو تركوا بيان ذلك ، ثقة بنظر العقول الدقيق ، لتركوا التحذير من فتنة الدجال ، فإن بطلان ربوبيته أظهر في العقول من ذلك ، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر ، تواتر عنهم التحذير عنها ، وتأويلها ، فصنفوا في ذلك ، وأيقظوا الغافلين ، وعلموا الجاهلين ، وكفروا المخالفين ، وأشاعوا ذلك بين المسلمين ، بل بين العالمين ، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين ، وأنصار الدين ، لو كان ذلك حقاً .

الثانى : أنه ثبت تحريم الزيادة في الدين ، فلا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه ، من مهمات الدين ، فالإسلام متبع ، لا مخترع ، ولذلك كفر من أنكر شيئاً من أركان الدين ، لأنها معلومة ضرورة ، فأولى وأحرى أن لا يجيء الشرع بالباطل منطوقاً متكرراً من غير تنبيه على ذلك ، لاسيما إذا كان ماسموه باطلا ، هو المعروف في جميع كتب الله ، ولم يأت ما يعارضه من طريق شرعى ، ولا عقلى ، حتى يجب التأويل .

وكثير منهم يزعم أنه ما جاء التصريح بالحق في آية واحدة تكون هي المحكمة التي رد إليها جميع المتشابه ، والله تعالى ذكر أنه أنزل في كتابه آيات محكمات ، ترد إليها المتشابهات ، ولم يذكر أن جميع كتابه متشابه ، فبطل ما يقولون .

وقد اعترف الرازي - في كتابه الأربعين ^(١) - وهو من أكبر خصوم أهل السنة : أن جميع الكتب السماوية جاءت بصفات الله - تعالى - ولم ينص الله - تعالى - في آية واحدة على أنه منزه عن الوصف بالرحمة ، والحلم والحكمة ، وما أشبه ذلك ، والأمر ظاهر وإن لم يعترف به ، وهذه الكتب السماوية موجودة .

وهبك تقول : هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء » ^(٢)

قلت : دعوى المجاز في اسمه تعالى « الرحمن » وغيره من الأسماء الحسنى - - من أبطل الدعاوى ، لأن ذلك يتضمن إنكار حقيقة صفة الرحمة ، وهو أعظم من إنكار الكفار لاسمه تعالى « الرحمن » ، كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك ، قال تعالى : (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) ^(٣)

وقال تعالى : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن) ^(٤)

فهؤلاء الذين كفروا بالرحمن ، وأنكروه ، لم يكفروا بذاته تعالى ، وربوبيته ولم ينكروا ما يدعيه المؤولة - أن معنى اسمه الرحمن هو الإحسان والإنعام إلى خلقه ،

(١) كتاب الأربعين في أصول الدين في علم الكلام .

(٢) إثبات الحق على الخلق ، بتلخيص وتصرف ص ١٢٩ - ١٣٩ .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٦٠ من سورة الفرقان .

وإنما أنكروا اسمه تعالى « الرحمن » أن يسمى به .

وإنكار صفة الرحمة أعظم من إنكار الاسم ، وهو من أعظم الإلحاد في أسماءه تعالى ، لأن وضع الاسم مقصود به الدلالة على المعنى المراد منه ، وهو الرحمة كما هو معلوم في جميع أسماءه تعالى .

وتعليقهم لنفى الرحمة عن الله تعالى بأنها رقة القلب التى تحمل على الميل إلى المرحوم .

جوابه : أن هذه رحمة المخلوق ، ووصفه ، وأما رب العالمين ، فليس كمثله شئ في ذاته وصفاته ، فليست رحمته تعالى من جنس رحمة خلقه جل وعلا .
ومما يعجب منه أن أهل التأويل (١) يجعلون الرحمة بالنسبة للمخلوق حقيقة ، وبالنسبة لله تعالى مجازا ، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين التى وسعت كل شئ مجازا ، ورحمة المخلوق الضعيف حقيقة ؟ .

وكل العقلاء يدركون آثار رحمة الله تعالى فى الخلق ، كما يدركون آثار ربوبيته أو أعظم ، وهذا من أظهر الأشياء وأوضحها .

ومعلوم أن الأسماء التى تسمى الرب - تعالى بها وهى كلها حسنى - لها معانٍ يستدل بها عليها ، لأنها مشتقة من تلك المعانى ، وهذه المعانى هى الصفات ، وليست أسماءه تعالى . مجرد إعلام ، فالرحمن يدل على الرحمة ، والعليم يدل على العلم ، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا جميع أسماءه تعالى .

(١) أقصد الذين يؤولون الصفات كما هى طريقة أكثر الأشعرية .

قال : باب قول الله تعالى : (أنا الرزاق ذو القوة المتين)

٨ — « حدثنا عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي عبد الرحمن السلمى ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال النبي - ﷺ - : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافهم ، ويرزقهم » .

* * *

أبو موسى الأشعري : هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري .
وأمه ظبية بنت وهب بن عك . هاجر إلى الحبشة قديماً ، ثم قدم على النبي ، ﷺ في خيبر ، مع جعفر وأصحابه ، وهو من سادات الصحابة وعلماءهم . عرف بالشجاعة والاجتهاد في طلب الخير ، وكان قارئاً حسن الصوت ، حتى قال فيه النبي ﷺ « لقد أعطى زمماراً من مزامير آل داود » (١)
توفى رضى الله عنه بمكة ، وقيل بالكوفة سنة اثنتين ، أو أربع وأربعين ، عن ثلاث وستين سنة (٢) .

أما الآية فهكذا قرأها ابن مسعود ، وقال : إنه أقرأه إياها رسول الله ﷺ « كما رواه الإمام أحمد بسند صحيح » (٣) وأبو داود ، والنسائي ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح (٤) .

(١) انظر البخارى ج ٦ ص ١٦١ فضائل القرآن .

(٢) انظر الاستيعاب ج ٣ ص ٩٧٩ ، أسد الغابة ج ٣ ص ٣٦٧ ، الإصابة ج

٦ ص ١٩٤ .

(٣) انظر المسند ج ١ ص ٣٩٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٠٢ ، وانظر سنن أبى داود ج ٤ ص ٢٩١ وفيه

« إني أنا الرزاق » الخ ، ومثله فى الترمذى ج ٤ ص ٢٦٢ .

وهذه الآية مرتبطة بالآية قبلها في المعنى ، وهى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (١) . والمعنى : أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، فمن أطاعه في ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسنه ، ومن أنى وعصاه عذبه أشد العذاب .

وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم « (٢) » .

فهو جل وعلا لم يخلقهم ليستعين بهم أو ليقوى بهم ، كما يقصد السادة من عبيدهم .

قوله : « إن الله هو الرزاق » هذه القراءة المجمع عليها ، المتواترة ، وقراءة ابن مسعود تنفق معها في المعنى .

والمعنى : أن الله تعالى هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم ؛ وأكد الجملة بإن ، والضمير ، لقطع توهم من يعتمد على قوته ، أو علمه وصنعتة ، أو غير ذلك في أمور الرزق ، ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده .

« ذو القوة » أى القوة العظيمة التى لا تضاهى ، ولا تقاس بقوة خلقه مهما بلغت قوتهم ، فهو تعالى على كل شيء قدير ، لا يمتنع عليه شيء .

« والمتين » الشديد القوة ، الذى لا يطرأ عليه عجز أو ضعف ، تعالى وتقدس ، وهذا المروى عن ابن عباس كما ذكره الطبرى (٣)

قال ابن الجوزى : « والمتين : الشديد القوة الذى لاتنقطع قوته ،

(١) الآيات من سورة الذاريات من الآية ٥٦ - ٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٢ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ١٣ .

ولايلاحظه في أفعاله مشقة» (١) .

ورفع « المتين » على أنه وصف لـ « الرزاق » أو لذو ، أو خير مبتدأ محذوف ، أو خير بعد خير ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش بجر « المتين » على أنه صفة للقوة .

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله - تعالى - موصوف بالصفات العليا ، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى ، فالقوة صفته ، والرزاق اسمه ، وتقدم أن كل اسم لا بد أن يتضمن الصفة ، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات ، كما سبقت الإشارة إليه . والله أعلم .

وأما معنى الحديث : فقال النووي : « قال العلماء : معناه : أن الله تعالى واسع الحلم حتى على الكافر الذى ينسب إليه الولد والند ، قال المازرى : حقيقة الصبر : منع النفس من الانتقام أو غيره ، فالصبر نتيجة الامتناع ، فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » (٢) .

قال القاضى : والصبور من أسماء الله تعالى ، وهو الذى لايعاجل العصاة بالانتقام . وهو بمعنى الحليم فى أسمائه سبحانه وتعالى ، والحليم : هو الصفوح مع القدرة على الانتقام » (٣)

قلت : قوله : « فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » . فيه نظر ، وذلك أن رسول الله - ﷺ - أطلق على ربه الصبر ، وأنه ما أحد أصبر منه وهو ﷺ أعلم الخلق بالله - تعالى - وأخشاهم له ، وأقدرهم على البيان عن

(١) تفسير ابن الجوزى ج ٨ ص ٤٤ .

(٢) قلت : هذا الكلام فيه نظر فقد جاء فى أسمائه تعالى الصبور ، وفى هذا الحديث : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى » .

(٣) شرح النووي على مسلم ج ١٧ ص ١٤٦ .

الحق ، وأنصحهم للخلق ، فلا استدراك عليه ، فيجب أن يبقى ما أطلقه ﷺ على الله تعالى بدون تأويل ، إلا إذا كان يريد بذلك تفسير معنى الصبر ، ولكن الأولى أن يبقى كما قال ، لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير .

قوله في الحديث : « أصبر » أفعال تفضيل من الصبر ، ومن أسمائه الحسنی « الصبور » ومعناه : الذى لا يعاجل العصاة بالعقوبة ، وهو قريب من معنى الحلیم . والحلیم أبلغ فى السلامة من العقوبة » (١) .

وقال الزجاج : « أصل الصبر فى الكلام : الحبس ، يقال : صبرته على كذا صبرا إذا حبسته ، ومعنى الصبر ، والصبور فى اسم الله - تعالى - قريب من معنى الحلیم » (٢)

وقال ابن الأثير : « الصبور : هو الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم ، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى ، فمعنى الصبور فى صفة الله - تعالى - قريب من معنى الحلیم ، إلا أن الفرق بين الأمرين أنهم لا يأمنون العقوبة فى صفة الصبور ، كما يأمنون منها فى صفة الحلیم » (٣) .

يقصد أن صفة الحلیم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده ، من صفة الصبور . والله أعلم .

قوله : « على أذى سمعه من الله » لفظ الأذى فى اللغة هو لما خف أمره ، وضعف أثره من الشرك والمكروه ، ذكره الخطابى ، قال شيخ الإسلام : وهو كما قال بخلاف الضرر ، فقد أخبر - سبحانه - أن العباد لا يضررونه ، كما قال تعالى (ولا يجزئك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا) (٤) فبين أن

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٦١ .

(٢) تفسير أسماء الله الحسنی ص ٦٥ .

(٣) جامع الأصول ج ٤ ص ١٨٣ .

(٤) الآية ١٧٦ من سورة آل عمران .

الخلق لا يضرونه ، لكن يؤذونه » (١)

فأبن آدم يؤذى الله تعالى ، ويسببه بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه ، مثل نسبة الولد إليه - تعالى - والند ، والشريك في العبادة ، التي يجب أن تكون خالصة له وحده ، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره . من الدهر ، والطبيعة ، والكون والمخلوقات ، وغير ذلك ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه ، فيقولون أصابهم قوارع الدهر ، وأبادتهم حوادثه ، وأهلكتهم كوارث الطبيعة ، وياخية الدهر ، وهذا زمان سوء ، وما أشبه ذلك .

وفي الصحيحين عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ : يقول الله - تعالى - « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (٢) .

وأذية الله - تعالى - بنسبة الحوادث ، والكوارث إلى الدهر ، أو الطبيعة ، وتوجيه اللوم ، والقدح والسب إلى ذلك كثيرة في كلام أهل الأدب وغيرهم ، مع أن ذلك صنع الله وفعله ، ولذلك يرجع السب إليه ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، كقول ابن المعتز :

يادهر ويحك ما أبقيت لى أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول أبى الطيب المتنبي :

قبحاً لوجهك يازمان كأنه وجه له من كل قبيح يرقع

وقول الطرقي :

إن تبلى بلثام الناس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد خاننا

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٥٤٢ .

(٢) انظر البخارى ج ٦ ص ١٦٦ وتفسير سورة الجاثية ج ٨ ص ٥٧٤ ، وج

١٠ ص ٥٦٤ الأدب وج ٩ ص ١٧٩ التوحيد ، ومسلم الأدب ج ٧ ص ٤٥ .

وقول التهامي :

ليس الزمان وإن حرصت مسالما خلق الزمان عداوة الأحرار

وقول الآخر :

وغاض رزقي ، وعاداني الزمان ، ولم ينظر لما بي من العليا ، ولا حسبي

وقول الحريري :

ولا تأمن الدهر الخؤون ، ومكره فكم عالم أخنى عليه ، ونابه

وقوله أيضا :

ولما تعامى الدهر ، وهو أبو الردى عن الرشد ، فى إيجابه ومقاصده
تعاميت ، حتى قيل : إني أخو عمى ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

وقوله أيضا :

ولو أنصف الدهر فى حكمه لما ملك الحكم أهل النقيصة

وقول موفق الدين ، عبد الله بن عمر الأنصارى فى تخميسه مقصورة ابن

دريد :

يا زمنى ماذا العمى فوقت لى من الرزايا أسهما

يا دهر كم هذى الحقود والإحس (١)

وقال تميم بن المعز :

يا دهر ما أقساک من متلون فى حالتیک ، وما أقلک منصفاً
أتروح للنكس الجهول ممهدا وعلى الحر اللیب سیفاً مرهفا
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل وإذا وفیت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضیک ، وإن كرمت لأننى أدرى بأنك لاتدوم على الصفا

(١) انظر تخميس مقصورة ابن دريد ص ٤٢ .

زمن إذا أعطى ، استرد عطاءه وإذا استقام ، بدا له فتحرفا
 ما قام خيرك يازمان بشره أولى بنا ما قل منك ، وما كفى

وقال عبد الرحيم الاسطنبولى :

أرى الدهر يسعف جهاله وأوفر حظ به الجاهل

ومثل هذا كثير جدا فى أشعار أهل الأدب قديما وحديثا ، وهو لايجوز لما دل عليه هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه ، وللأحاديث الأخرى الصحيحة الصريحة فى النهى عن ذلك ، كحديث أنى هريرة الآتى : « يقول الله تعالى : يؤذنى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، وأقلب ليله ونهاره » (١)

يعنى أن الدهر الذى هو الليل والنهار مخلوق لله مسخر ، وهو مؤتمر بأمر الله تعالى مطيع له ، فإذا سبه الساب ، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه . ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالى لأنها ظرف لوقوع الحوادث ، وما يؤلم ، فوجب اللوم إلى الدهر لذلك ، وإلا فغالب هؤلاء ، إن لم يكن كلهم لايعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدير ، والموجد لما يقع فيه ، فرجع اللوم فى الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة فى الليل والنهار ، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها ، وهو الله - تعالى - خالق كل شئ ، فليحذر المسلم من مجازات هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار ، وغيرهم ، فى القدح فى أفعال الله تعالى ، وسخط أقداره وتدبيراته .

قال ابن الجوزى - رحمه الله - تعالى - : « ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان ، وعيهم للدهر ، وقد كان هذا فى الجاهلية ، ثم نهى رسول الله ﷺ عنه ، فقال : لاتسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » (٢)

(١) سيأتى هذا فى باب قول الله « يريدون أن يبدلوا كلام الله » .

(٢) رواه مسلم فى الألفاظ من الأدب وغيره ج ٤ ص ١٧٦٢ رقم الحديث

٢٢٤٦ وله عدة طرق عنده .

ومعناه : أتم تسبون من فرّق شملكم ، وأمات أهليكم ، وتنسبونهم إلى الدهر ، والله - تعالى - هو الفاعل لذلك .

وهؤلاء إن أردوا بالدهر ، مرور الزمان ، فذلك لا اختيار له ، ولا مراد ، ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغي أن يلام ، فإنه زمان مدبر ، ولا يعقل أن يكون ذم هؤلاء يقصد به الزمان الذى لا تصرف له ، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربة الإسلام ، ونسبوا القبائح إلى الله - تعالى - فاعتقدوا قصور حكمته ، وأنه يفعل مالا يصلح كما اعتقده إبليس فى تفضيل آدم ، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام ، ولا فعل صلاة ، بل هم شر من الكفار » (١)

قلت : أكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله - تعالى - من الجور والظلم ، وإنما ساروا فى ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد ، بدون تبصر لذلك . والله أعلم .

وكذلك يؤذى ابن آدم ربه بمخالفته أوامره تعالى - وارتكابه نهيهِ ، والإصرار على ذلك ، وأذية رسله ، وأوليائه ، وعباده الصالحين ، بعيبيهم ، وتنقصهم ، كما فى مسند الإمام أحمد ، من حديث عبد الله بن مغفل المزنى - رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « الله ، الله ، فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم ، فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم ، فقد آذانى ، ومن آذانى ، فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » (٢) .

وقد قال الله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) (٣) .

(١) صيد الخاطر ص ٤٩٠ باختصار وتصرف يسير .

(٢) المسند ج ٤ ص ٨٧ .

(٣) الآية ٥٧ من سورة الأحزاب .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : « أى الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه ، وركوبهم ما حرم عليهم » (١) .

وفي قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » دليل واضح على تسميته تعالى بذلك ، أعنى « الصبور » كما جاء فى حديث الأسماء الحسنى .
قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « فقد أطلق عليه - تعالى - أعرف الخلق به ، وأعظمهم تنزيها له - هذه الصفة : وما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ، كما أن ما ورد فى الأسماء الحسنى « الصبور » من أمثلة المبالغة ، فهو أبلغ من « الصابر » والصابر .

ومعنى الصبر معلوم فى اللدنة ، والشرع ، والعرف ، فلنسا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين ، التى تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب .

وصبر الله - تعالى - لا يماثل صبر المخلوق ، بل يختلف عنه من وجوه .
منها : أنه عن قدرة تامة .

ومنها : أنه لا يخاف الفوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت .

ومنها : أنه - تعالى - لا يلحقه بصبره ألم ، ولا حزن ، ولانقص بوجه من الوجوه .

وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود فى العالم بالعيان ، كظهور اسمه - تعالى - الحليم .

والفرق بين الصبر والحلم : أن الصبر ثمرة الحلم ، وموجبه ، والحلم فى صفاته تعالى - أوسع من الصبر ، ولهذا جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، وجاء مقرونا مع اسمه العليم ، كقوله تعالى - : (وكان الله عليما حليما) (٢) ، وقوله - تعالى : (والله عليم حليم) (٣) ، وحلمه تعالى من لوازم ذاته .

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٤٤ .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية ١٢ من سورة النساء . وقد جاء اقترانه باسمه الغفور فى مواضع عدة =

وأما صبره - تعالى - فمتعلق بكفر عباده ، وشركهم ، ومسيبتهم له -
تعالى - وتقدس - وسائر معاصيهم ، وفجورهم ، فلا يدعوه ذلك إلى تعجيل
عذابهم ، بل يصبر عليهم ويمهلهم ، ويرفق بهم ، ويستصلحهم بحلمه وصبره
ونعمه ، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال ، ولم
ينبوا إليه ، لامن باب الإحسان والنعم ، ولا من باب البلاء والنقم أخذهم أخذ
عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليهم ، وبذل النصيحة لهم ، ودعاءهم من كل
باب .

وهذا كله من موجبات صفة حلمه ، وهي صفة ذاتية له لاتزول .
وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة
وتزول بزوالها ، فتأمله ، فإنه فرق لطيف قل من تنبه له .
وقد أشكل على كثير من العلماء مجيء هذا الاسم في أسماء الله الحسنى ،
وقالوا : لم يأت في القرآن ، فأعرضوا عن الاشتغال به .
ولو أنهم أعطوه حقه لعلموا أن الرب - تعالى - أحق به من جميع خلقه ،
كما هو أحق باسم العليم ، والرحيم ، والقدير ، والسميع ، وسائر أسمائه الحسنى
من المخلوقين ، وأن التفاوت الذي بين صبره - تعالى - وبين صبرهم كالتفاوت
الذي بين حياته وحياتهم ، وعلمه وعلمهم ، وهذا في سائر صفاته - تعالى -
ولهذا قال أعرف خلقه به : « لا أحد أصبر على أذى ، سمعه من الله » تعالى -
فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته ، وعفوه وستره ، مع أنه صبر
مع كمال علم وقدر ، وعظمة وعزة ، وهو صبر على أعظم مصبور عليه ، فإن
مقابلة أعظم العظماء ، وملك الملوك ، وأكرم الأكرمين ، ومن إحسانه فوق كل
إحسان - بغاية القبح ، وأعظم الفجور ، وأفحش الفواحش ، ونسبته تعالى إلى
كل مالا يليق به ، والقدح في كماله ، وفي أسمائه وصفاته ، والإلحاد في آياته ،
وتكذيب رسله - عليهم السلام - ومقابلتهم بالسب والشتم ، والأذى وتحريق
أولياؤه ، وقتلهم وإهانتهم . أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه ،
ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه وتعالى .

= من القرآن كقوله تعالى : (ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حلیم) ١٥٥ آل عمران .

ومما يعين على معرفة صبره - تعالى - وحلمه ، والفرق بينهما ، تأمل قوله تعالى : (إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً) (١) وقوله - تعالى - : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً) (٢) وقوله - تعالى : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) (٣) . على قراءة فتح اللام .

فأخبر تعالى أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه .

وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال ، لعظم ما يأتي به العباد ، فيمسكهما بحلمه ، ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم ، وهو حقيقة صبره - تعالى .

فالذي صدر عنه الإمساك ، هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر ، وهو حبس العقوبة ، ففرق بين حبس العقوبة ، وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله « (٤) .

قال ابن المنير : « وجه مطابقة الحديث للآية (٥) اشتماله على صفتي الرزق والقوة الدالة على القدرة ، أما الرزق ، فواضح من قوله : « ويرزقهم » ، وأما القوة فمن قوله : « أصبر » فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم ، مع إساءتهم بخلاف طبع البشر ، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسيء إلا من جهة تكلفه

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .

(٢) الآيات من ٨٨ إلى ٩٢ من سورة مريم .

(٣) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .

(٤) عدة الصابرين ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥) في الفتح : مطابقة الآية للحديث - والمناسب ما أثبتته .

ذلك شرعا ، وسبب ذلك أن خوف القوت يحمله على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة ، والله سبحانه قادر على ذلك حالا ، ومآلا ، لا يعجزه شيء ولا يفوته « (١) .

قلت : ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط ، بل ولأنه لا يستطيعه ولا يتحملة ، لأن ذلك يضره في نفسه أو غير ذلك .

والذى يظهر أن ما أراده البخارى - رحمه الله - من الحديث ، هو البيان بأن الله تعالى مسمى بالأسماء الحسنى ، ومتصف بالصفات العليا حقيقة على ما يليق به تعالى ، وعلى ما يفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة - الذى أطلقه تعالى على نفسه أو أطلقه عليه رسوله ، دون تكلف تأويل ، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم ، أو متفلسف كما بين ذلك قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيم ويرزقهم » فهذا هو حقيقة الصبر المعروف من اللغة ، ونصوص الشرع فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التى تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ ، ودل قوله : « ثم يعافيم ، ويرزقهم » على فضله على عباده بالعافية والرزق ، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه ، فهو الذى هيا أسبابه ويسر طريقه .

وقوله : « ثم يعافيم ويرزقهم » أى أنه تعالى يقابل إساءتهم بالإحسان ، فهم يسيئون إليه - تعالى - بالعيب والسب ، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس ، وتكذيب رسله ومخالفة أمره وفعل ما نهاهم عن فعله ، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم ، وشفاءهم من أسقامهم ، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم ، ويرزقهم بتسخير ما فى السماوات والأرض لهم ، وهذا غاية الصبر والحلم ، والإحسان ، والله أعلم .

قال : « باب قول الله - تعالى - : (عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا) (١) و (إن الله عنده علم الساعة) (٢) و (أنزله بعلمه) (٣) وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) (٤) (إليه يرد علم الساعة) (٥) .

* * *

أراد البخارى رحمه الله بيان ثبوت علم الله - تعالى - وعلمه تعالى من لوازم نفسه المقدسة ، وبراهين علمه تعالى ظاهرة مشاهدة فى خلقه ، وشرعه ، ومعلوم عند كل عاقل أن الخلق يستلزم الإرادة ، ولا بد للإرادة من العلم بالمراد ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (٦)

والخالق هو : المبدع بتقدير سابق الوجود فى الخارج ، وهذا يتضمن تقدير المخلوقات فى العلم قبل إيجادها فى الخارج ، وهو أيضا يستلزم الإرادة والمشئقة ، والإرادة مستلزمة تصور المراد والعلم به .

ووصف نفسه تعالى فى هذه الآية بأنه (لطيف) يدرك الدقيق ، (خبير) يدرك الخفى .

والأدلة على وصف الله بالعلم كثيرة ، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر . وفى هذه الآيات التى ذكرها البخارى مدح الله سبحانه وتعالى فيها نفسه

(١) سورة الجن الآية ٢٦ .

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٣) جزء من الآية ١٦٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ١١ من سورة فاطر والآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٦) الآية ١٤ من سورة الملك .

بأنه عالم الغيب ، وأنه استأثر به دون خلقه ، فكان ذلك دليلا على أنه لا يعلم الغيب سواه ، فعلمه تعالى وسع كل شيء في الماضي ، والمستقبل ، والحال . وفي الآية الأولى استثنى تعالى من ارتضاه من رسله ، فأطلعهم على ما يشاء من غيبه ، عن طريق الوحي إليهم ، وأعلامهم به ، وجعل ذلك معجزة لهم ، ودليلا على نبوتهم وصدقهم .

وليس المنجم والكاهن ، ومن ضاهاهما كالضارب بالحصى ، والناظر في الكتب والأكف ، وما أشبه ذلك ممن ارتضاه الله من الرسل ، حتى يطلعهم على ما يشاء من الغيوب ، بل هم مفترون على الله ، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتليس والحسد والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ .

« والغيب » مصدر غاب ، إذا استتر عن العين ، قال تعالى : (أم كان من الغائبين) ^(١) واستعمل في كل غائب عن الحاسة ، وعما يغيب عن علم الإنسان ، قال تعالى : (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) ^(٢) ويقال للشيء : غيب ، وغائب باعتبار تعلقه بالناس .

أما الله تعالى فإنه لا يغيب عنه شيء ، وقوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) ^(٣) أى ما يغيب عنكم ، وما تشهدونه ، والغيب في قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) ^(٤) مالا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بدائه العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام ^(٥) .

(١) الآية ٢٠ من سورة النمل .

(٢) الآية ٧٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٣ من سورة البقرة .

(٥) المفردات للراغب ص ٣٦٦ .

وقوله : « عالم الغيب » قال الحلیمی : معناه أنه يدرك الأشياء على ما هي عليه ، وإنما وجب أن يوصف - عز اسمه - لأنه قد ثبت أن ماعده من الموجودات فعل له ، وأنه لا يمكن أن يكون فعل إلا باختيار ، وإرادة ، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم ، كما لا يظهر إلا من حي » (١) .

فقوله : « عالم الغيب » أى المختص بعلم الغيب ، فلا يشاركه فيه أحد .

قال ابن جرير : عالم ما غاب عن أبصار خلقه ، فلم يروه ، « فلا يظهر على غيبه » أحدا فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يظهره على ما شاء من ذلك » (٢)

وقال القسطلانى : « عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه إلا من ارتضى من رسول لاطلاعه على بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له » (٣)

وقوله : و « إن الله عنده علم الساعة » الواو ليست من الآية وإنما جاء بها للعطف .

والمعنى : أن علم وقت مجيء الساعة - الذى هو النفخ فى الصور - لا يعلمه إلا الله تعالى ، وحده ، فهو خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد .

قال الخازن : « ومعنى الآية ، أن الله عنده علم الساعة ، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم ، فى أى سنة ، أو أى شهر ، أو أى يوم ، ليلا أو نهارا » (٤)

وقوله : « أنزله بعلمه » أى أنزل القرآن عالما بما يترتب على إنزاله من الخير

(١) المنهاج ج ١ ص ١٩١ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٢١ .

(٣) إرشاد السارى ج ١٠ ص ٣٦٣ .

(٤) تفسير الخازن ج ٥ ص ٢٢٠ .

والفلاح وغير ذلك ، وعالما بمن يؤمن به ويقبله ، ويسعد بذلك ، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك .

أو المعنى : أنزله فيه علمه الذى أراد أن يطلع عليه من يشاء من عباده من الإيمان به ، ومعرفة تعالى بأسمائه وصفاته ، وما رتب على ذلك من الجزاء فى الدنيا والآخرة ، ومعرفة حقه ، وأمره ونهيه ، والآية تدل على كلا المعنيين .

وقال ابن الجوزى : « فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنزله وفيه علمه ، قاله الزجاج .

الثانى : أنزله من علمه ، ذكره أبو سليمان الدمشقى .

الثالث : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه ، قاله ابن جرير ^(١) .

وقال الخازن : « يعنى أنه تعالى لما قال : لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، بين صفة ذلك الإنزال ، وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام ، وحكمة بالغة .

وقيل معناه : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك ، وأنتك مبلغه إلى عباده » ^(٢)

وقال ابن كثير : « أنزله بعلمه » أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه ، من البينات والهدى ، والفرقان ، وما يحبه ويرضاه ، وما يكره ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب ، من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء) ، وقال تعالى : (ولا يحيطون به علما) ^(٣)

(١) زاد المسير ج ٢ ص ٢٥٧ ، وانظر تفسير الطبرى ج ٦ ص ٣١ .

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ٦٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٨ .

قوله : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) اقتصر البخارى - رحمه الله تعالى على محل الشاهد من الآية ، وتماها :

(والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من مُعَمَّرٍ ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير) (١) يخبر تعالى العباد بأنه ابتداء خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب ، ثم جعل خلق ذريته من نطفة - من ماء مهين - وجعلهم أزواجا أى ذكرا وأنثى رحمة منه تعالى ولطفاً ، ثم أخبر تعالى أنه عالم بأطوار خلقهم ، لا يخفى عليه شيء من مبدأه ، ووضعه ، ونوعه ، وعمره وعمله ، وزيادة عمره ، ونقصانه ، وأن ذلك عنده فى كتاب ، وهو سهل عليه يسير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ففى هذه الآية بيان شمول علمه تعالى لكل شيء ، فلا تكون حياة ، ولا موت ، ولا حركة ، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته .

قوله : « إليه يرد علم الساعة » أى هو تعالى المختص بعلم الساعة أى وقت مجيئها .

قال ابن جرير - رحمه الله - تعالى - : « إلى الله يرد العالمون به علم الساعة ، فإنه لا يعلم قيامها غيره » (٢) .

ففى هذه الآيات ونحوها دلالة ظاهرة على ثبوت صفة العلم لله ، بحيث لا ينكر ذلك إلا معاند مكابر يجادل بالباطل ، ليدحض به الحق ، أو جاهل قد تنهى جهله ، ومن أوجه البيان فى ذلك أنه تعالى أضاف العلم إلى نفسه الكريمة إضافة حقيقة ، والمضاف إلى الله تعالى إما أن يكون أعيانا قائمة بنفسها كبيت

(١) الآية ١١ من سورة فاطر وقال - تعالى : (إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٥ ص ٢ .

الله ، وناقاة الله ، ورسول الله ، وعرش الرحمن ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه ، لتفضيلها على غيرها من المخلوقات .

وإما إضافة معان كعلم الله وقدره الله ، وحياة الله ، وسمع الله وبصره ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع لا يكون الإضافة صفة إلى من تقوم به لأنها لا تقوم بأنفسها كما هو معلوم .

ومراد البخارى - رحمه الله - فى إرادته هذه الآيات إثبات هذه الصفة لله - تعالى - والرد على من ينكرها من المعتزلة ، ونحوهم ممن عميت بصائرهم ، فابتعدوا عن الحق ، مغترين بعقولهم .

قوله : قال يحيى : « الظاهر على كل شىء علما ، والباطن على كل شىء علما » .

قال الحافظ : « يحيى هو ابن زياد الفراء النحوى المشهور ، ذكر ذلك فى كتاب « معانى القرآن له » (١)

قلت : هو يحيى بن زياد بن عبد الله ، بن مروان الديلمى ، أبو زكريا المعروف بالفراء إمام العربية ، وصفه مترجموه بأنه متدينا ورعا ، وكان ثقة ، له مصنفات كثيرة ، ضاع أكثرها ، توفى سنة ٢٠٧ سبيع ومأتين .

وقول الفراء هذا ، جزء من معنى هذين الاسمين الكريمين ، وقد كان من عادة السلف أنهم يفسرون الشىء بجزء من معناه . وإلا فهو تعالى الظاهر على كل شىء ذاتا ، وقوة وقهرا ، وعلما وحكما ، والباطن على كل شىء إحاطة وقربا وعلما ، وقد صح عن رسول الله ﷺ كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ - أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٦٢ ، وانظر معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٣٢ .

شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ » (١) .

فهذا أحسن ما يفسر به هذه الأسماء ، وأوضحه ، وأقربه إلى معنى الكلام مع كونه من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، فلا ينبغي العدول عنه إلى كلام الناس ، الذى هو عرضة للخطأ .

★ ★ ★

(١) انظر مسلم ج ٤ ص ٢٠٨٤ رقم ٦١ .

٩ — قوله : « حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ - قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ماتغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم مافى غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى »

* * *

ابن عمر : هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل ، القرشى ، العدوى . وأمه : زينب بنت مظعون الجمحية ، ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين ، وأول مشاهدته مع رسول الله ﷺ - الخندق ، وكان من سادات الصحابة ، وعبّادهم المجدين ، وهو من المكثرين فى الحديث عن رسول الله ﷺ - ، عرف بالعزوف عن الدنيا ، والاستعداد للآخرة ، كما عرف بشدة تمسكه بسنة رسول الله ﷺ - ، وتتبع آثاره . له فى الصحيحين مائتان وثمانون حديثا . توفى سنة ثلاث وسبعين فى مكة ، وقد بلغ من العمر سبعا وثمانين سنة رضى الله عنه (١)

« قوله : « مفاتيح الغيب » ذكر البخارى هذا الحديث فى الاستسقاء بلفظ « مفتاح » وفى بعض النسخ « مفاتيح » وفى تفسير سورة الأنعام ، وسورة الرعد بلفظ « مفاتيح » وفى بعض النسخ « مفاتيح » .

والمفاتيح جمع مفتاح ، بكسر الميم ، اسم الآلة التى يفتح بها ، مثل منجل ، ومناجل . وهى لغة قليلة ، والمشهور : مفتاح ، وجمعه « مفاتيح » ، وقد قرأ بها .

(١) الإصابة ج ٤ ص ١٨١ والرياض النظرة ص ١٩٤ .

ابن السميع ، ويطلق المفتاح على ما كان محسوسا مما يحل غلقا ، كالقفل ، وعلى ما كان معنويا ، كما جاء في الحديث الذى صححه ابن حبان : « إن من الناس مفاتيح للخير » الخ (١) .

قوله : « مفاتيح الغيب خمس ، لا يعلمها إلا الله » . قد بين هذه الخمس ، بأنها : ما يغيض من الأرحام - أى ما ينقص - ، وما يكون فى الغد من الحوادث ، والأعمال ، وغيرها ، ومجىء المطر ، والمكان الذى يموت به الإنسان ؛ ووقت مجىء الساعة .

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح . لتقريب الأمر من السامع ، لأن كل شئ جعل بينك وبينه حجاب ، فقد غيب عنك ، والتوصل إلى معرفته فى العادة من باب الحجاب ، فإذا كان المفتاح الذى لا يمكن الوصول إلى ما فى داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم ، فكيف بما فى داخل الحجاب ؟ .

ودل الحديث على أن هذه الأمور ليست هى الغيب ، وإنما هى منه ؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى .

وأما ماجاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات ، كماخبر الرسول - ﷺ - بما يقع بعده من الفتن ؛ والفتوح على أمته ؛ وبعض أشراف الساعة ، وكماخبر عيسى عليه السلام - بما يأكله بنو إسرائيل ، ومايدخرونه فى بيوتهم ، ونحو ذلك ، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات رهم) (٢) ، وهو من معجزاتهم التى تدل على صدقهم .

(١) فتح البارى ج ٨ ص ٢٩١ .

(٢) الآية من ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .

وبهذا ، وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقا من الناس ممن يدعون لهم الولاية . أنهم يعلمون الغيب ، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول الله - ﷺ - فإنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، وقد أمره الله أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون) (١) فنفى تعالى علم الغيب عن الخلق عموما من في السماوات كالملائكة ، ومن في الأرض كالأنبياء ، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم .

وأما أصحاب الدجل والتمويه ، الذين يحتالون على اكل أموال الناس بالباطل ، كالذين يزعمون معرفة ما في المستقبل ، بواسطة النجوم ، أو بقراءة الكف ، أو فنجان القهوة ، ونحو ذلك . فهؤلاء لا يخفى ضلالهم ، وكذبهم إلا على أجهل الناس ، والمغفلين منهم .

وأما الإخبار عما يسمى « بالطقس » أحوال الجو من أمطار ، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك ، فهي توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد الأحوال الجوية التي تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك ، ولهذا كثيرا ما يكون الأمر على خلاف ما قالوا .

« وأراد بالغيب في الحديث المذكور ، الغيب الحقيقي ، إذ لبعض الغيوب علامات ومقدمات يستدل بها على شيء من ذلك ، وهذا ليس غيبا حقيقيا ؛ فالغيب الحقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى .

ثم الغيب نوعان : أحدهما ما يتعلق بذات الله تعالى وحقائق صفاته . والثاني يتعلق بمخلوقاته ، وهي كلها لديه معلومة ، وقد قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٢) .

(١) الآية ٦٥ من سورة النمل .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

فلما كان كل شيء محصى في كتاب كتبه الله تعالى عنده ، وعلمه محيط وسابق لكل شيء ، شبه الرسول - ﷺ - ذلك بالخازن التي لها أبواب ، والباب له مفتاح ، فإذا كان المفتاح لا يعلمه أحد ولا يصل إليه ، فكيف بما وراءه ؟ .
وقد قال تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (١) وحصر - ﷺ - مفاتيح الغيب بالخمس لأنها تشمل العوالم كلها .

فقوله : « ما تغيض الأرحام » إشارة إلى ما يزيد في النفوس ، وما ينقص منها ؛ وذكر الأرحام لأن للناس عليها عوائد يعرفونها ؛ وتجارب أدركوها . وقد قرر عليها أحكام شرعية ، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها ، ومتى تزيد ومتى تنقص إلا الله تعالى ، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله تعالى » إلى أمور العالم العلوى ، فذكر منه المطر لأن له مقدمات ، وعلامات يستدل بها عليه عادة ، أجراها الله تعالى ، ومع ذلك لا يعلم حقيقة الحال إلا الله تعالى - فكيف بما وراء ذلك مما في السماوات ، وما بينهما ، وما يجد هناك من المخلوقات ، والحوادث ، والأوامر التي يريدتها الله - تعالى - ويأمر بها ؟ .

وأشار بقوله : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » إلى الحوادث الأرضية ، وذكر موضع الموت من الأرض ، مع أن العادة قد جرت في الغالب أن الإنسان يموت في الأرض التي يستقر فيها ؛ ومع ذلك لا أحد يتيقن أنه يموت في مكانه الذي يعيش فيه ، ولا يدري أين موضعه الذي يوارى فيه .

فإذا كان الأمر في مثل هذا غير معلوم ، فكيف بالأمور الأخرى التي لا علامات لها ، ولا مقدمات يستدل بها عليها ؟ .

(١) الآية ٢١ من سورة الحجر .

وأشار بقوله : « ولا يعلم ما في غد إلا الله » إلى أنواع الزمان ، وما فيه من الحوادث والتقلبات الطارئة ، وخص منه غداً لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب ، فإذا خفى ما فيه فما بعده أخفى ، وأبعد عن معرفته .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » إلى أمور الدار الآخرة . وذكر منها يوم القيامة لأنه أولها وأقربها إلى الدنيا ، ولا يعلم وقت مجيئه إلا الله ، فما بعده أولى بأن لا يعلم ، فهذا من أبداع الكلام ، وأبلغه ، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب ، وأبطل جميع الدعاوى الفاسدة ^(١) .

ويقصد بالدعاوى الفاسدة كل من يدعى شيئاً في علم الغيب ، وهذا الحديث إيضاح لقوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) ^(٢) .

(١) انتهى ملخصاً من بهجة النفوس ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

١٥ - « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة - رضی الله عنها - قالت : من حدثك أن محمداً - ﷺ - رأى ربه فقد كذب ، وهو يقول : لا تدركه الأبصار ، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول : « لا يعلم الغيب إلا الله » .

* * *

« كأن سبب هذا القول من عائشة - رضی الله عنها - ما أخرجه عبد الرزاق في هذا الحديث من طريق مجالد عن الشعبي ، قال : لقي ابن عباس كعباً ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم نقول : إن محمداً رأى ربه مرتين ، فكبر كعب ، وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ، فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين ، قال مسروق : فدخلت على عائشة ، فقلت : هل رأى محمد ربه « ؟ فذكر الحديث .

قال النووي - تبعاً لغيره - : لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ، ولو كان معها لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية ، وقد خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابي إذا قال قولاً ، وخالفه غيره منهم ، لم يكن ذلك حجة اتفاقاً .

والمراد بالإدراك : الإحاطة ، وهو لا ينافي الرؤية .

وهذا عجيب من النووي رحمه الله - فإن في صحيح مسلم الذي شرحه هو : « قال مسروق وكنت متكئاً ، فجلست فقلت : ألم يقل الله : (ولقد رآه نزلة أخرى) (١) » ؟

(١) الآية ١٣ من سورة النجم .

فقلت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله - ﷺ - عن ذلك ، فقال : إنما هو جبريل .

وأخرجه ابن مردويه بسند مسلم . فقلت : « أنا أول من سأل رسول الله - ﷺ - عن هذا . فقلت : يارسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا ، إنما رأيت جبريل منهبطا » (١)

قلت : أعجب من كلام النووى ما قاله ابن خزيمة - رحمه الله - فإنه ذكر هذا الحديث بعينه - أعنى قول عائشة : « أنا سألت رسول الله - ﷺ - عن هذا قال : رأيت جبريل نزل فى الأفق ، على خلقه ، وهيته ، ساداً ما بين الأفق » ثم بعد أسطر قال : « إن عائشة لم تحك أن النبى ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه » (٢) فهذا ونحوه هو الذى غير النووى - رحمه الله - ودعاها إلى رد قول عائشة من غير تأمل للأدلة ؛ والله المستعان .

وكثير من العلماء يذكر الخلاف فى أن النبى ﷺ - رأى ربه ليلة - المعراج . « وليس فى الأدلة ما يقضى بأنه رآه بعينه ، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة صريحاً ، ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك ، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل ، كما فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، قال : سألت رسول - الله ﷺ - هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » (٣)

وقد قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) . ولو كان قد رأى ربه بعينه لكان ذكر ذلك أولى ، وكذلك قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٤) . لو كان رآه لكان ذكر ذلك أولى .

(١) الفتح ج ٨ ص ٦٠٧ .

(٢) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٢٢٦ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٢ بشرح النووى .

(٤) الآية ١٨ من سورة النجم .

وفي الصحيحين ، عن ابن عباس ، في قوله - تعالى - : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن) (١) قال : هي رؤيا عين ، أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به ، وهذه رؤيا الآيات ، لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج ، فكان ذلك فتنة لهم ، حيث صدقه قوم ، وكذبه قوم ، ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه ، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه « ١ هـ (٢) »

وبهذا تبين أن قول عائشة - رضی الله عنها - هو الراجح ، الذي تؤيده الأدلة والله أعلم ، وظاهر أن مرادها أنه تعالى لا يرى في الدنيا .

قوله : « وهو يقول : ولا تدركه الأبصار » استدلت عائشة - رضی الله عنها - بظاهر الآية على نفي الرؤية ، وقد قال بذلك بعض المفسرين ، كما رواه ابن جرير بسنده ، عن السدي ، قال : « لا يراه شيء ، وهو يرى الخلائق » (٣) .
وذكر ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم بسنده إلى إسماعيل بن علي أنه قال : « هذا في الدنيا ، وعن هشام بن عبيد الله نحوه (٤) » .

وذكر السيوطي : أن الحسن قال مثل ذلك ، قال : أخرجه أبو الشيخ ، والبيهقي في كتاب الرؤية . (٥)

وبهذه الآية تعلق المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى في الآخرة ، ووجه ذلك أنه جعل متعلق الإدراك البصر ، فلما نفاه عنه كان ظاهر ذلك نفي الرؤية . والحق ثبوت رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة ، كما تواترت النصوص في ذلك .

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٥٨٠ .

(٣) انظر تفسير الطبري ج ٧ ص ٣٠١ قال السيوطي : أخرجه ابن أبي حاتم .

الدر المنثور ج ٣ ص ٣٣٥ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٥) الدر المنثور ج ٣ ص ٣٣٥ .

والجواب عما استدلوا به : أن الرؤية ثبتت في آيات أخر ، كقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (١) ، وقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (٢) والأخبار بذلك ثابتة عن رسول الله - ﷺ - بل متواترة ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

فيتعين أن المراد بالإدراك المنفى في الآية هو الإحاطة . وبذلك فسره ابن عباس - رضى الله عنه - وغيره من السلف .

قوله : « ومن حدثك ، أنه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول : ولا يعلم الغيب إلا الله » الضمير في قوله : « أنه يعلم » يعود على محمد - ﷺ - أى من زعم أن محمداً - ﷺ - يعلم الغيب ، فقد كذب ، لأن علم الغيب يختص بالله تعالى . كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ وأمرأ له أن يقول : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) (٣) والآيات في هذا كثيرة .

وعلم الغيب من خصائص الرب تعالى التى بعث رسله وأنزل كتبه لبيانها ، ونفى ذلك عن سواه تعالى .

وأما قوله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) (٤) فهى كقوله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٥) فهى تبين أن الله تعالى يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات ، وذلك بوحيه إليهم ، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية ، وما أصيبوا به من

(١) الآية ٢٢ من سورة القيامة .

(٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .

(٣) الآية ٥٠ من سورة الانعام .

(٤) الآية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

(٥) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

العذاب وغيره ، كما قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) (١) وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد ، والجنة والنار ، التي أطلع الله عليها رسوله فأمن بها المؤمنون ، وعرفوها من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ﷺ إجمالاً .

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها ، وما يكون . فهذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق ، فمن ادعى شيئاً من ذلك لغير الله تعالى ، فقد أعظم الفرية على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ .

« فعلم الغيب لله وحده ، ولا يقال لغيره عالم الغيب ، ومن أطلع على شيء منه بواسطة الوحي أو غيره يقال : أطلعه الله عليه ، كالإخبار عن حال البرزخ ، والحساب ، والجنة والنار ، وما أشبه ذلك ، وما يدعيه المتصوفة في مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم ، وكذا ما يسمونه الكشوف لا أصل له » اهـ (٢)

« وقول الداودي : (ما أظن قوله : من حدثك أن محمداً يعلم الغيب محفوظاً ، وما أحد يدعي أن رسول الله ﷺ يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى) متعقب بأن بعض من لم يرسخ إيمانه يظن ذلك ، حتى ظن بعضهم أن صحة النبوة تستلزم اطلاع النبي ﷺ على جميع المغيبات ، كما في مغازي ابن إسحاق ، أن ناقة النبي ﷺ ضلت ، فقال ابن الصلبي : يزعم محمد أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ، فقال النبي ﷺ : « إن رجلاً يقول : كذا وكذا ، إني والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دنى الله عليها ، وهي في شعب كذا ، قد حبستها شجرة ، فذهبوا فجاءوا بها » فأخبر ﷺ أنه

(١) الآية ٤٩ من سورة هود عليه السلام .

(٢) غاية الأمانى بتصرف / ح ١ / ص ٣٤ .

لا يعلم من الغيب إلا ما علّمه الله « (١)

قلت : قد ادعى كثير من المتصوفة ، والغلاة أن مشايخهم ومعبودهم من دون الله تعالى ، يعلمون الغيوب وكتبهم مشحونة بذلك مثل الطبقات الكبرى للشعراني ، وجامع كرامات الأولياء للنهائي ، وغيرهما من الكتب الخرافية

★ ★ ★

(١) القسطلاني بعض التصرف ج ١٠ / ص ٣٦٥ .

قال : باب قول الله تعالى : (السلام المؤمن)

* * *

أي أن ذلك من أسماء الله تعالى التي سمي بها نفسه ، ومعناه :
السلام من كل نقص وعيب . وسيأتي بيان ذلك

(قال ابن بطال : غرضه بهذا الباب إثبات أسماء من أسماء الله تعالى ،
قال الحافظ : وفيما ذكره نظر ، ولو سلم له ذلك ، فإن وظيفة الشارح بيان وجه
تخصيص هذه الأسماء بالذكر ^(١) دون غيرها ، وإفرادها بالترجمة ، ويمكن أنه أراد
بهذا القدر جميع الآيات الثلاث ، في آخر سورة الحشر ، فإنها ختمت بقوله
تعالى : (له الأسماء الحسنى) .

وقد قال في سورة الأعراف : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ^(٢) وكأنه
رحمه الله تعالى بعد إثبات القدرة ، والقوة ، والعلم ، أشار إلى أن الصفات
السمعية ليست محصورة في عدد معين ، بدليل الآية المذكورة ^(٣)

أو أراد الإشارة إلى ذكر الأسماء التي تسمى الله تعالى بها ، وأطلقت بعد
ذلك على المخلوقين ، والسلام ثبت في القرآن ^(٤) وفي الحديث « أنه من أسماء الله
تعالى » .

(١) يعني أنه قصر في بيان وجه إيراد البخارى هذين الإسمين من بين الأسماء
الأخرى .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) هي قوله تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

(٤) كما في الآية المترجم بها .

وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين .

والمؤمن يطلق على من اتصف بالإيمان ، وقد وقعا معاً من غير تخلل بينهما في الآية المشار إليها ، فناسب أن يذكرهما في ترجمة واحدة (أ . هـ (١)

قلت : ما ذكره من أن السلام أطلق على المخلوقين ، كالتحية الواقعة بين المؤمنين غير ظاهر ، لأن السلام الذى جعل تحية للمؤمنين اسم من أسماء الله تعالى ، كما رواه البخارى - رحمه الله تعالى - فى الأدب المفرد ، من حديث أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله فى الأرض ، فافشوا السلام بينكم » (٢) وإسناده صحيح ، وترجم به البخارى فى الصحيح فقال : [باب السلام اسم من أسماء الله تعالى] (٣)

وفى حديث عبد الله بن مسعود المتفق عليه « إن الله هو السلام فإذا جلس أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله » وسيدكره فى الباب . وقال ابن عباس : « السلام اسم الله وهو تحية أهل الجنة » أخرجه البيهقى فى الشعب (٤) ويدل على ذلك حديث المهاجر بن قنفذ ، لما سلم على النبى ﷺ لم يرد حتى توضأ ، وقال : « إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه (٥)

قال الحافظ : صححه ابن خزيمة وغيره (٦) .

(١) فتح البارى ج ١٣ / ص ٣٦٦ .

(٢) الأدب المفرد ص ٣٤٣ .

(٣) انظر الفتح ج ١١ / ص ١٣ .

(٤) انظر الفتح ج ١١ / ص ١٢ .

(٥) انظر سنن أبى داود ج ١ / ص ٢٣ الحديث السابع عشر ، النسائى ج ١ /

ص ٣٧ ، ابن ماجه رقم ٣٥٠ .

(٦) انظر الفتح ج ١١ / ص ١٣ .

قال الخطابي « وفيه دليل على أن السلام الذى يحيى به الناس بعضهم بعضاً اسم من أسماء الله تعالى » (١)

وقد اختلف فى معناه . فنقل عياض أن معناه : اسم الله أي كلاءته عليك وحفظه كما يقال : الله معك ومصاحبك .

وقيل : معناه : أن اسم الله يذكر على الأعمال ، توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيها ، وانتفاء عوارض الفساد .

وقيل معناه : السلامة . كما قال تعالى : (فسلام لك من أصحاب اليمين) (٢) أن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه ، والأخوف عليه منه (٣)

قلت : هذه المعاني متلازمة ، لأنه إذا حصل حفظ الله لعبده وكلاءته ، وكان معه ، فقد حصل له الخير ، والبركة والسلامة .

قال ابن دقيق العيد : « السلام يطلق على معان ، منها السلامة ، ومنها التحية ، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، قال : وقد يأتي بمعنى التحية محضاً ، وقد يأتي بمعنى السلامة محضاً ، وقد يأتي متردداً بين المعنيين ، كقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم) (٤)

فإنه يحتمل التحية ، والسلامة وقوله تعالى : (ولهم ما يدعون ... سلام قولاً من رب رحيم) ا . هـ (٥)

(١) معالم السنن على هامش السنن / ج ١ / ص ٢٣ .

(٢) الآية ٩١ من سورة الواقعة .

(٣) الفتح ج ١١ ص ١٣ .

(٤) الآية ٩٤ من سورة النساء ، فى الآية قراءتان فى إحداهما السلم بمعنى الاستسلام والانقياد أى استسلم وانقاد لطاعة الله وتوحيده ، والأخرى السلام ، وفسرت بالتحية بأن يقول : السلام عليكم .

(٥) الفتح ج ١١ / ص ١٣ والآيتان من سورة يس رقم ٥٧ - ٥٨ .

قلت : يمكن إرجاع هذه الإطلاقات إلى معنى واحد ، إذ كلها في الحقيقة تدور على طلب السلامة ، والخلاص من الشر والأذى ، وهذا ما تضمنته التحية المشروعة بين المسلمين .

فالصواب : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى كما تقدم . وقد أمر المسلمون أن يفشوه فيما بينهم ، فعندما يُلقى المسلم على أخيه ذلك ، فإنه يذكر الله تعالى طالباً منه السلامة متوسلاً إليه بذكر اسمه تعالى المناسب لطلبه ، فكأنه يقول : أنا مسالم لك أيها الأخ محب وداع لك وطالب حصول البركة والخير ، والسلامة من كل مؤذٍ ، ممن يملك ذلك متوسلاً إليه في حصول ذلك باسمه السلام .

فتضمن ذلك ثلاثة أشياء : أحدها ذكر اسم الله تعالى .

الثاني : إعلام المسلم عليه : أنه مسالم له لا يناله منه أذى .

الثالث : طلب السلامة والخير له ، وبهذا يظهر أن قول من قال : إنه يطلق على التحية بين المخلوقين ، أنه لا يخالف كونه اسماً من أسماء الله ، أي أنه ليس قسيماً له ، بل التحية الواقعة بين المؤمنين هي ذكر اسم الله تعالى ، المطلوب به حصول السلامة ، وذلك أن السائل يسأل في كل مطلوب من بالاسم المناسب لمطلوبه ، كما يعلم ذلك عند تأمل الأدعية الواردة في كتاب الله تعالى ، وفي أحاديث رسوله ﷺ . والله أعلم .

والصواب : أن مراد البخارى - رحمه الله تعالى - بهذه الترجمة : تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوق ، وأن اشتراكه تعالى مع المخلوق في الاسم ، أو في معنى من المعاني لا يكون فيه تشبيه ، نحو اليد ، والرجل ، والاستواء ، والحجى ، والضحك ، والسخط ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك مما أثبتته تعالى لنفسه ، وأثبتته له رسوله ، لأنه تعالى السلام ، أي السالم من كل عيب ونقص يلحق المخلوق .

« قال ابن قتيبة : سمي نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق المخلوق من العيب والنقص والفناء ، وقال الخطابي : (معناه ذو السلام ، والسلام في صفة الله تعالى هو الذي سلم من كل عيب ، وبراؤه من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين ، وقد قيل : هو الذي سلم الخلق من ظلمه » ا . هـ (١)

قلت : هذا القول الأخير لا ينافي الذي قبله ، بل كلاهما يدخل في اسمه تعالى : السلام .

قال ابن كثير : « السلام من جميع العيوب والنقائص بكماله في ذاته وصفاته وفي أفعاله » (٢)

فالسلم من الكلمات الجامعة . وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذا اللفظ ، فمن ذلك (سلمك الله) وسلم فلان من الشر ، ومنه دعاء الرسل على الصراط « اللهم سلم سلم » وسلم الشيء لفلان أي خلص له وحده من ضرر الشركة فيه ، قال تعالى : (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً مسلماً لرجل) (٣) أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . والسلم ضد الحرب قال تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) (٤) لأن كل واحد من المتحاربين يسلم من أذى الآخر ويخلص منه ، والقلب السليم هو النقي من الغل والدغل ، الذي قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فاستقام على حب الله وحسن معاملته . ولذلك ضمن له النجاة من عذابه ، والفوز بكرامته .

(١) زاد المسير ج ٨ / ص ٢٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ / ص ١٠٥ .

(٣) آية ٢٩ سورة الزمر .

(٤) آية ٦١ سورة الأنفال .

والإسلام أخذ من هذا المعنى ، فإنه الاستسلام لله والانتقياد له والتخلص من شوائب الشرك ، والبدع المضلة .

والجنة دار السلام ، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه أولى من هذا كله ، وهو أحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته تعالى من كل عيب ونقص من كل وجه ، فهو تعالى السلام الحق بكل اعتبار سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم .

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص ، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة ، فهو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ، ونزهه به رسوله ، فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل ، والسلام من الشريك .

ولهذا إذا نظرت إلى أفراد صفات كإله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كإلهها .

فحياته تعالى سلام من الموت ، والسنة والنوم ، وقيومته وقدرته سلام من الحاجة والتعب واللغوب ، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر أو تفكير ، وإرادته تعالى ، سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته تعالى سلام من الكذب ، والخلف ، والظلم ، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً وغناه تعالى سلام من الحاجة إلى غيره في وجه من الوجوه ، بل كل ماسواه ، فقير إليه محتاج ، وملكه تعالى سلام من منازع فيه أو مشارك ، أو معاون مظاهر ، أو شافع عنده بدون إذنه . وإلهيته تعالى سلام من مشارك له فيها ، بل هو الله الذي لا إله إلا هو وحلمه ، وعفوه ، وصفحته ، ومغفرته ، وتجاوزه ، سلام من أن تكون عن حاجة ، أو ذل ، أو مصانعة ، كما يكون من غيره ، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه .

وكذلك عذابه ، وانتقامه ، وشدة بطشه ، وسرعة عقابه ، سلام من أن يكون ظلماً ، أو تشفياً ، أو غلظة أو قسوة ، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها ، فهو يستحق عليه الحمد والثناء ، كما يستحق على إحسانه ونعمه .

وقدره وقضاؤه سلام من العبث والجور ، والظلم .

وشرعه ودينه ، سلام من التناقض والاختلاف ، والاضطراب وعدم مصلحة العباد ورحمتهم « (١)

وهكذا جميع صفاته وأفعاله سلام من كل ما يتوهمه معطل أو تخيله مشبه - تعالى ربنا السلام - عما يضاد كإله .

وأما ذكره (المؤمن) مع السلام فليبين أن ما تسمى الله به ، وأطلق على غيره من خلقه ، فإنه لا يكون بينه وبين من أطلق عليه مشابهة ، فالله تعالى سمي نفسه المؤمن ، ومن اتصف بالإيمان من عباده يسمى مؤمناً ، ولكن الله تعالى سالم من النقائص والعيوب التي تلزم الخلق لأنه تعالى هو السلام .

وهكذا كل ما يطلق على غيره تعالى مما سمي به نفسه أو اتصف به نحو العزيز ، والكريم ، والرؤوف ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، والعليم . وهو كثير . فله تعالى ما يليق به من المعاني الكاملة السالمة من النقائص والعيوب وللمخلوق ما يناسبه ويليق بضعفه ، فهو محل كل عيب ونقص . والله أعلم .

المؤمن من أسمائه تعالى وهو على أحد التفسيرين المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون للدلائل التي دل بها على صدقهم - قضاءً وخلقاً - فإنه سبحانه أخبر - وخبره الصديق وقوله الحق - أنه لا بد أن يرى

(١) بدائع الفوائد ملخصاً ج ٢ / ص ١٣٢ - ١٣٦ .

عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما بين لهم أن الوحي الذى بلغته رسله حق كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) (١) فشهد لرسوله أن ما جاء به حق ، ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية والحلقية : ما يشهد بذلك أيضاً ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته تعالى على كل شىء ، فإن من أسمائه « الشهيد » الذى لا يغيب عنه شىء ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بل هو مطلع على كل شىء وشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، الأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته » (٢)

وقال ابن الجوزي : « فأما المؤمن ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنه الذى أمن الناس ظلمه ، وأمن من آمن به عذابه .

الثانى : أنه المحيب .

الثالث : أنه الذى يصدق المؤمنين إذا وحّدوه .

الرابع : أنه الذى وحّد نفسه ، لقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا

هو) (٣)

الخامس : أنه الذى يصدق عباده وعده .

السادس : أنه الذى يصدق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيب آمالهم «

ا.هـ (٤)

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) مدارج السالكين ج ٣ / ص ٤٦٦ .

(٣) الآية ١٨ سورة آل عمران .

(٤) زاد المسير / ج ٨ / ص ٢٢٥ .

قلت : هذه الأقوال كلها حق ، ويدل عليها اسمه تعالى « المؤمن » فهو المصدق الذى يصدق رسله بما يقيمه من الدلائل التى تدل على صدقهم ، فيما جاؤا به وبلغوه عنه تعالى ، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم ، ويصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم ما يستحقونه جزاء أعمالهم ، ولا يضيع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم ، فلا يخافون ظلماً ولا هضماً ، فهو الذى يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف ، وهو الذى شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

★ ★ ★

١١ — قال : « حدثنا أحمد بن يونس ؛ حدثنا زهير ، حدثنا مغيرة ، حدثنا شفيق بن سلمة قال : قال عبد الله : كنا نصلي خلف النبي - ﷺ - فنقول : السلام على الله ، فقال النبي - ﷺ - : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين ؛ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

* * *

عبد الله ، هو عبد الله بن مسعود بن غافل ، الهذلي ، من أهل السوابق ، هاجر قديما إلى الحبشة ، وقد شهد مع رسول الله - ﷺ - جميع غزواته ، ولازمه ، وخدمه فكان يقال له : صاحب السواك ، والنعل ، لأنه كان يحمل سواك رسول الله - ﷺ - ونعله .

وفي الصحيحين أن أبا موسى قال : « قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حينما وما نرى ابن مسعود ، وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - ﷺ - لما نرى من كثرة دخولهم على رسول الله - ﷺ - ولزومهم له »

وقال حذيفة : « ما نعلم أحداً أقرب سمياً ، ودلاً ، وهدياً برسول الله - ﷺ - من عبد الله بن مسعود ، ولقد علم المحظوظون من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة » .

وهو من علماء الصحابة ، وفقهاءهم ، توفي في الكوفة ، وقيل : في المدينة سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين ، وله بضع وستون سنة هـ (١)

(١) الرياض المستطابة ملخصاً ، وانظر الإصابة ج ٤ ص ٢٣٣ ، وتهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٧ ، وسير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤٦١ .

قوله : « فنقول : السلام على الله » . كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد ، والشكر ، فجوزوا ثبوته لله تعالى - وهو تعالى السلام ، والسلام منه بدأ وإليه يعود ، إذ هو تعالى واهب السلام لعباده ، الذى به يسلمون من شرور أنفسهم ، وشرور أعدائهم من الجن والإنس ، وهو تعالى السالم من كل ما فيه نقص أو شين ، فلا يطلب له السلام ، ولهذا قال لهم معلم الهدى ﷺ : « إن الله هو السلام » أى السالم من أن يلحقه حاجة ، أو يناله تغير أو آفة ، بل هو الكامل فى أوصافه العليا ، وأسمائه الحسنى ، وهو الغنى بذاته عن كل ما سواه .

وهذا الجزء من الحديث هو محل الشاهد الذى سيق من أجله ، لأنه يدل على أن الله - تعالى - سالم من جميع العيوب ، والنواقص التى تلحق الخلق ، فإذا سمى نفسه باسم قد يتسمى به بعض خلقه ، أو وصف نفسه بصفة قد يتصف بها بعض خلقه ، فالمعاني التى يدل عليها اسمه أو صفته تخصه تعالى لا يشاركه فيها المخلوق .

وكل نقص فى المخلوق فهو - تعالى - سالم منه ، ومنتزه عنه كما تقدم ، فهو السلام المؤمن .

قوله : « التحيات لله » قال فى اللسان : « التحيات لله » معناه : البقاء لله ، والسلامة من الآفات كلها التى تلحق العباد من العناء ، وأسباب الفناء ^(١) .

وكذا قال غيره من أهل اللغة .

وجيء بلفظ الجمع ليدل على أن الله تعالى يستحق جميع الكمالات ، من العظمة ، والبقاء ، والملك ، والسلامة من الآفات والنقص ، وغير ذلك .

قال الخطاىي : « لم يكن فى تحياتهم شئ يصلح به الثناء على الله تعالى ،

(١) لسان العرب ج ١ ص ٧٧٥ - المرتب .

فلهذا أبهت ألفاظها ، واستعمل منها معنى التعظيم ، فقال : « قولوا التحيات لله » أى أنواع التعظيم له « اهـ (١) .

وقوله : « لله » يفيد وجوب الإخلاص فى العبادة ، أى أن ذلك لا يجوز أن يكون لغير الله منه شىء .

« والصلوات » أى جميع العبادات له استحقاقا بمقتضى العقل ، وبالشرع ، وذلك مثل الركوع ، والسجود ، والقيام ، والدعاء ، وأنواع العبادة له وحده لا شريك له فى ذلك .

« والطيبات » أى الأعمال الطيبات له تعالى يتوسل بها إليه ، وهو تعالى لا يقبل إلا طيبا ، « وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله ، دون ما لا يليق بصفاته » (٢) ، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك ، وشوائبه ، وسلامتها من البدع .

« السلام » اسم الله - تعالى - الدال على سلامته من كل نقص وعيب ، فيدعى الله - تعالى - به ليسلم من ذكر عليه هذا الاسم الشريف ، من المكاره ، والمخاوف .

« عليك أيها النبى » أمرهم أن يفردهم بالسلام ، ويقدموه على أنفسهم لوجوب حقه عليهم ، ووجوب محبته التى يجب أن تكون مقدمة على النفس ، وما دونها .

والأحاديث متفقة على لفظ الخطاب ، وذكر حرف النداء « عليك أيها النبى » وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - إلى لفظ خطاب الغائب فقالوا : « السلام على النبى » كما ذكره البخارى فى الاستئذان (٣) وأبو عوانة فى

(١) فتح البارى ج ٢ ص ٣١٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر الفتح ج ١١ ص ٥٦ .

مسنده (١) ، وغيرهما .

وقال عبد الرزاق : « عن ابن جريج ، عن عطاء : أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله كانوا يسلمون - والنبي - صلى الله عليه وآله - حي - السلام عليك أيا النبي ورحمة الله ، وبركاته ، فلما مات قالوا : السلام على النبي ورحمة الله وبركاته » (٢)

وبهذا السند أيضا ، سمعت ابن عباس ، وابن الزبير ، يقولان في التشهد في الصلاة : التحيات ، المباركات لله ، الصلوات ، الطيبات لله ، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته » (٣) .

والأولى : اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة . ومن بعدهم من أهل العلم ، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه في وقت حياته ، وبين من كان غائبا فكذلك بعد وفاته .

والنداء لطلب استحضر المنادى في القلب ، فيخطبه كأنه شاهد في قلبه ، ومثل هذا معروف في كلام العرب ، وأشعارهم ، يخاطب أحدهم من يتصوره في نفسه ، وإن لم يكن في الخارج من يسمع خطابه ، قال حسان بن ثابت رضى الله عنه - في رثائه لرسول الله - صلى الله عليه وآله - :

كحلت مآقيها بكحل الأرمد	ما بال عينك لا تنام كأنها
ياخير من وطىء الحصى لاتبعد	جزعا على المهدي ، أصبح ثاويا
غيبت قبلك ، في بقيع الغرقد	وجهى يقيق ، لهفى ، ليتنى
يالتيتى صبحت سم الأسود (٤)	أقيم بعدك بالمدينة بينهم

(١) انظر مسند أبى عوانة ص ٢٢٩ .

(٢) انظر المصنف ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

(٤) انظر ديوان حسان ص ٩٧ .

وقال امرؤ القيس :

يأبها الساعى ليدرك مجدنا ثكلتك أمك هل ترد قتيلاً (١)

وقالت الخنساء فى أخيها صخر :

ألا ياصخر إن أبكيت عيني لقد أضحكتنى دهرأ طويلاً
بكيتك فى نساء معولات وكنت أحق من أبدا العويلاً
دفعت بك الجليل وأنت حى فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلاً (٢)

وهذا كثير جداً ، ولا يحتاج إلى ذكر الشواهد عليه ، لشهرته .

وبهذا وأمثاله يتبين ضلال المغرورين الذين يستغيثون بالأنبياء ، والأولياء ويتعلقون بشبه واهية ، مثل استدلالهم بلفظ النداء ، والخطاب المذكور فى هذا الحديث ، على حضور النبى - ﷺ - عند كل من يناديه ، ويخاطبه ولذلك جَوَّزوا التوجه إليه ، ومناداته ، فى كل ملة فضلاً بذلك وأضلوا كثيراً .

مع أن هذه الصيغة هى التى كان النبى ﷺ - يقولها فى تشهده والأمة تبع له ، تقول مثل ما كان يقول ، كما فى شرح الآثار للطحاوى بسنده إلى عبد الله بن الزبير ، قال : « إن تشهد رسول الله - ﷺ - الذى كان يتشهد به .

بسم الله ، وبالله خير الأسماء ، التحيات ، الطيبات ، الصلوات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ، ونذيراً ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اللهم اغفر لى

(١) انظر ديوان امرؤ القيس ص ١٧٨ .

(٢) انظر ديوان الخنساء ص ١٢٠ .

واهدنى « اهـ (١) .

وهو أيضا عند البزار (٢) .

قال الحافظ : « فإن قيل : لم عدل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنبوة ، مع أن الوصف بالرسالة أعم في حق البشر ؟
 أجب بعضهم : بأن الحكمة فيه أن يجمع له الوصفين ، لأنه وصفه بالرسالة في آخر التشهد ، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة ، لكن الجمع بينهما أبلغ » (٣) ولأنها وجدت في الخارج مقدمة على الرسالة في الوحي كما في قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) .

(١) شرح معاني الآثار ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) انظر كشف الأستار ج ١ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح ج ٢ ص ٣١٤ .

قال : « باب قول الله تعالى : « ملك الناس » .

* * *

الملك هو المتصرف بالأشياء حسب إرادته ، ومشئته ، لا راداً لأمره ، ولا معقّب لحكمه .

وخص الناس لأنهم الذين يملكون بعض الأشياء ، وفيهم ملوك . فهو تعالى ملك من يملك ، وملك الملوك ، فدخل غيرهم في المعنى وملكه تعالى دائم لا يزول .

قال الطبري : أخبر أنه ملك الناس « وهو ملك جميع الخلق ، إنسهم وجنهم وغير ذلك ، إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس ، تعظيم المؤمنين ربهم - أنه ملك من يعظمه ، وأن ذلك في ملكه وسلطانه ، تجرى عليه قدرته ، وأنه أولى بالتعظيم ، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ، وتعبد له من الناس » اهـ (١)

قال الراغب : « الملك هو المتصرف بالأمر والنهي » (٢) .

وقال الزجاج : « قال أصحاب المعاني : الملك : النافذ الأمر في ملكه ، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه ، فالملك أعم من المالك ، والله تعالى مالك المالكين كلهم ، والملاك إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى » (٣) .

(١) تفسير الطبري ج ٣٠ ص ٣٥٤ .

(٢) المفردات ص ٤٧٢ .

(٣) تفسير الأسماء الحسنی ص ٣٠ .

وقال الطبري : « ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من المُلْك مشتق ؛ وأن المالك من المِلْك (١) مأخوذ ، فتأويل قراءة من قرأ « ملك يوم الدين » أن لله الملك يوم الدين خالصا ؛ دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكا جبابرة ، ينازعونه الملك ، ويدافعونه الانفراد بالكبراء ، والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا بقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة . الأذلة ، وأن له - دونهم ودون غيرهم - الملك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال جل ذكره وتقدسست أسماءه : (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار) (٢) ، فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالملك ، دون ملوك الدنيا ، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار ، ومن دنياهم في معادهم إلى خسار » (٣)

قوله : « فيه ابن عمر » أى يدخل في هذا الباب حديث ابن عمر ، وهو كحديث أبي هريرة المذكور في هذا الباب سواء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) الأول بضم الميم والثاني بكسرها .

(٢) الآية ١٦ من سورة غافر .

(٣) تفسير الطبري ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

١٢ — قال : « حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن سعيد - هو ابن المسيب - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ »

* * *

أبو هريرة عرف بكنيته ، واختلف في اسمه واسم أبيه اختلافا كثيرا ، وصحح البخارى والنوى وغيرهما من الحفاظ أن اسمه عبد الرحمن بن صخر .
قدم على النبي - ﷺ - مسلماً - وهو يقسم غنائم خيبر ، ثم لازم رسول الله ﷺ - حضرا وسفرا ، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال .
وهو أحفظ الصحابة ، بل أحفظ الأمة ، ولهذا صار هدفا لأهل الإلحاد بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته .

قال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث دهرا (١) .

جاء فى صحيح مسلم فى قصة إسلام أمه ، أنه قال : قلت : يارسول الله ادع الله أن يجيبني الله أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويجيبهم إلينا ؟ فقال النبي ﷺ : « اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين . »

قال أبو هريرة : فما خلق الله مؤمنا يسمع لى ، ولا يرانى إلا أحنى (٢) .
ولهذا صار حبه علامة الإيمان ، وبغضه علامة النفاق والكفر .

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات ص ١ ص ٢٧٠ .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٣٩ .

توفى - رضى الله عنه - فى المدينة ، وقيل بالعقيق ، سنة سبع أو تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة . (١) .

قوله : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء يمينه » . المقبض هو أخذ الشئ باليد وجمعه ، والطفى هو ملاقة الشئ بعضه على بعض ، وجمعه وهو قريب من القبض . وهذا من صفات الله تعالى الاختيارية ، التى تتعلق بمشيئته وإرادته ، وهى ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ، وهى مما يجب الإيمان به . لأن ذلك داخل فى الإيمان بالله تعالى ، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها ، وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضاً ، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد ، لأن الفعل لا بد له من فاعل ، والفاعل لا بد له من فعل ، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل ، سواء كان لازماً كالنزول والحجى ، أو متعدياً كالقبض والطفى . فحدث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى .

وهو تعالى حى قيوم ، فعال لما يريد ، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به تعالى (٢) فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد ، وغير المشاهد وينكر قوله إنه على كل شئ قدير ، فالعقل دل على ما جاء به الشرع (٣) .

وما صرح به فى هذا الحديث من القبض والطفى ، قد جاء صريحاً أيضاً فى كتاب الله تعالى ، كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) . (٤) .

(١) انظر الإصابة ج ٧ ص ٤٢٥ ، سير أعلام النبلا ج ٢ ص ٥٧٨ ، الاستيعاب ج ٤ ص ١٧٦٨ ، أسد الغابة ج ٦ ص ٣١٨ وغيرها .

(٢) قلنا الاختيارية لأنها تقع باختيارية تعالى وإرادته ومشيئته .

(٣) أنصح القارئ إلى الرجوع فى هذه المسألة العظيمة : إلى كتب شيخ الإسلام

ابن تيمية كدرء تعارض العقل والنقل والرسالة الكمالية وغيرها من كتبه .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية ، والحديث المذكور في الباب كثيرة وظاهرة جلية ، لا تحتمل تأويلاً ولا تحتاج إلى تفسير ، ولهذا صار تأويلها تحريفاً وإلحاداً فيها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ما تيسر من ذلك في باب قوله تعالى : (لما خلقت بيدي) .

وقوله : « ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » أى أنه تعالى ينفرد بالملك ، فهو الملك حقاً الذى لا منازع له ، ولا معاون ، ولا ظهير ولا شريك ، وفي ذلك اليوم ، عندما يقبض الأرض بيده ، ويطوى السموات يمينه ، ويصبح كل شيء في قبضته ، ينادى الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه ، ويتعدون على سلطانه ، من المتكبرين ، والمتجبرين ، من ملوك الدنيا ، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ، ذى السلطان - وهو متفرد به في كل آن - غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً - فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم - أين ملوك الدنيا ؟ فهل يستطيعون منعاً أو رداً ؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى ؟ لقد ذهب منهم كل شيء ، وبقيت التبعات والذلل والحسرات .

قال بعض شراح البخارى : « قوله ملك الناس داخل في معنى التحيات لله أى الملك لله ، وكأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بأن يقولوا التحيات ، امثالاً لأمر ربه (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس)

ثم قال : « وفي الحديث إثبات اليمين صفة لله تعالى ، من صفات الذات ، وليست جارحة ، خلافاً للمجسمة » (١) .

قلت : قوله : « وليست جارحة » من كلام أهل البدع ، الذين عدلوا عما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ إلى ما ابتدعوه من الألفاظ الموهمة للنقص - تعالى الله - توهماً منهم أن تلك الألفاظ الواردة في كتاب الله ، وسنة رسوله ،

(١) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٦٨ .

يتضمن ظاهرها التشبيه لصفات الخلق ، وهذا من ظن السوء بالله وبكتابه وبرسوله الذى أرداهم فضلوها سواء السبيل ، وأضلوا كثيراً من عباد الله .

وقوله : « خلافاً للمجسمة » يقال له : من هم المجسمة الذين تقصدهم ؟ وهل تستطيع أن تعين طائفة تؤمن بكتاب الله وسنة رسوله تقول : إن يمين الله جارحة ؟ أو أن الله جسم ؟ (١) فهؤلاء لا وجود لهم ، ولكن مراده الذين آمنوا بمثل هذا النص على ظاهره ، وقالوا : إن لله يدين حقيقتين بدون تأويل ، كما هو الواجب على المسلم ، لأنه صريح النصوص ، وأيقنوا أن تأويل اليد واليمين ، ونحوها من صفات الله ، بالقوة أو القدرة ، أو النعمة ، أو ما أشبه ذلك ، تحريف كتحرير اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه .

فهذا الشارح ومن على نهجه إلى اليوم يسمون هؤلاء مجسمة ، ظناً منهم أن من أثبت هذه الصفات على ظاهرها ، لزمه أن يكون مجسماً ، لربه ومشبهاً له بأجسام الخلق تعالى الله أن يكون له مثل أو شبيه .

قال شيخ الاسلام : (وليس هناك من أطلق لفظ الجسم ، لكن نفات الصفات يسمون كل من أثبتها مجسماً ، بطريق اللزوم ، إذ كانوا يقولون : إن الصفات لا تقوم إلا بالجسم ، وذلك أنهم اصطالحوا في معنى الجسم على غير المعنى المعروف في اللغة ، فإن الجسم في اللغة هو البدن ، وهم يسمون كل ما يشار إليه مجسماً ، فيلزم على قولهم أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده ، وما [عليه] سلف الأمة ، وأئمتها تجسيماً ، فهم يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة ، على اتباع السلف » . (٢)

(١) الذين نسبوا إلى التجسيم وذكرهم أصحاب المقالات بأسماءهم هشام ابن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقي ومقاتل بن سليمان ، وداود الجوارى ، وكلهم رافضة .

(٢) بيان تلبس الجهمية ج ١ ص ٦٢٦ .

وقال : « لفظ الجسم لم يتكلم به أحد من الأئمة والسلف ، في حق الله تعالى - لا نفيًا ولا إثباتًا ، ولا ذموا أحداً ولا مدحوه بهذا الاسم ، ولا ذموا مذهباً ولا مدحوه بهذا الاسم ، وإنما تواتر عنهم ذم الجهمية ، الذين ينفون الصفات وذموا طوائف منهم ، مثل المشبهة وبينوا مرادهم بالمشبهة » (١) .

قال الحافظ : « الذى يظهر لى أنه أشار [بهذه الترجمة] إلى ما قاله شيخه نعيم بن حماد : « يقال للجهمية أخبرونا عن قول الله تعالى بعد فناء خلقه ، (لمن الملك اليوم) فلا يجبه أحد ، فيرد على نفسه ، (لله الواحد القهار) ، وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم ، أفهذا مخلوق ؟ » (٢) .

قلت : يظهر لى أن مراده بهذا الباب كالباب الذى قبله أن هذا الاسم الكريم (الملك) من أسماء الله الحسنى ، وقد أطلق على بعض خلقه ولم يكن في ذلك تشبيه ، إذا المعنى الذى يختص به الله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، فهو مالك الملك ، وله الملك التام المطلق ، وهو الذى يهب للمخلوق الملك ، مع أن ملك المخلوق ناقص يناسب نقصه ، قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) (٣) .

وأما التوفيق بين الحديث ، والترجمة فظاهر ، وهو أن الناس الذين يوجد

(١) نفس المصدر ح ١ ص ٤٧ ، ومراد السلف بالمشبهة : الذين يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه ، نحو اليد والوجه فيجعلون يده تعالى كيد المخلوق ووجهه كوجه المخلوق - تعالى الله عن ذلك .

(٢) الفتح ح ١٣ ص ٣٦٨ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

منهم الملوك والجبابة ، والذين يذل لهم ويخضع بعض العباد ، وقد يصرفون لهم ما هو خالص حق الله من العبادة ، هؤلاء ملك له ، تحت قهره ، آخذ بنواصيهم ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، ويظهر ذلك جلياً لكل أحد ، يوم يقبض الله الأرض ويطوى السموات يمينه ، ويقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذى أورثهم الذل والصغار . والله أعلم .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو العزيز الحكيم (١) - سبحان ربك رب العزة عما يصفون (٢) والله العزة ، ولرسوله - (٣) ومن حلف بعزة الله ، وصفاته »

* * *

« العزيز » هو الذى له العزة التامة ، والقوة الكاملة ، فلا يعجزه شئ ، القاهر لكل شئ ، فلا يمتنع من قوته شئ ، المنيع الذى لا ينال ولا يغالب . « فالعزة تتضمن القوة ، والله القوة جميعا ، يقال : عز يعزُ بفتح العين إذا اشتد وقوى ، ومنه الأرض العزاز - الصلبة الشديدة - ويعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه ، ويعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر . فأعطوا أقوى الحركات - وهى الضمة - لأقوى المعانى - وهو الغلبة ، والقهر للغير ، وأضعفها - وهى الفتحة لأضعف هذه المعانى - وهو كون الشئ فى نفسه صلبا ، والحركة المتوسطة - وهى الكسرة للمعنى المتوسط - وهو القوى الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ، ويغلبه .

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم و ٦٠ من سورة النحل و ٢٦ من سورة العنكبوت ، و ٤٢ منها أيضا و ٢٧ من سورة الروم و ٩ من سورة لقمان و ٢ من سورة فاطر و ١ من سورة الحديد و ١ من سورة الحشر والأخيرة منها ، والأولى من سورة الصف ، و ٣ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

(٣) الآية ٨ من سورة المنافقون .

والعز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضى كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ، ولا يكون ذمًا له ، بخلاف الكبير .

قال رجل للحسن البصرى : « إنك متكبر ، فقال : لست بمتكبر ، ولكنى عزيز » .

وقال تعالى : (والله العزة لرسوله وللمؤمنين) (١) .

وقال ابن مسعود : « ما زلنا أعزة ، منذ أسلم عمر » (٢) .

وقال النبي ﷺ - « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين ، عمر ابن الخطاب ، أو أبى جهل بن هشام » (٣) .

وفى بعض الآثار : « إن الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا فى طاعة الله - عز وجل » .

وفى الحديث : « اللهم أعزنا بطاعتك ، ولا تذلنا بمعصيتك » .

وقال بعضهم : « من أراد عزاً بلا سلطان ، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة » .

فالعزة من جنس القوة « اهـ (٤) » .

قال الحافظ : « العزيز الذى يقهر ولا يقهر ، فأن العزة التى لله - تعالى - هى الدائمة الباقية ، وهى العزة الحقيقية الممدوحة ، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة ، فيوصف بها الكافر والفاستق ، وهى صفة مذمومة ، ومنه قوله تعالى (أخذته العزة بالإثم) (٥) ، وأما قوله : (من كان يريد العزة فلله

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) رواه البخارى وغيره ، انظر الفتح ج ٧ ص ٤١ .

(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير ، والأوسط ، انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ٦١ .

(٤) طريق الهجرتين ص ١٠٩ .

(٥) الآية ٢٠٦ من سورة البقرة .

العزة جميعا) (١) فمعناه : من كان يريد أن يعز ، فليكتسب العزة من الله ، فإنها لا تنال إلا بطاعته ، ومن ثم أثبتنا لرسوله وللمؤمنين ، فقال تعالى : (والله العزة ، ولرسوله وللمؤمنين) (٢) . وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة ، كقوله تعالى : (عزيز عليه ما عنتم) (٣) ، وبمعنى الغلبة ومنه (وعزني في الخطاب) (٤) ، وبمعنى القلة : كقولهم : شاة عزوز إذا قلّ لبنها وبمعنى الامتناع ، ومنه قولهم : أرض غزاز ، بفتح أوله مخففا « اهـ (٥)

« الحكيم » هو الذى يضع الأشياء مواضعها التى يحسن أن توضع فيها ، ولا يدخل تديبه خلل ولا زلل ، وهذا من أسماءه تعالى الحسنى التى كثر ذكرها ، فى القرآن ، وما جاء عن رسول الله - ﷺ - وهو تعالى موصوف بالحكمة ، وقد دل على ذلك شرعه - تعالى - وخلقه ، فمن الضلال إنكار ذلك ، وكفى بالمرء ضلالا أن ينفى عن الله تعالى ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله .

« سبحان ربك » « أصل التسييح عند العرب ، التنزيه لله عن إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرى من ذلك ، كما قال أعشى بن ثعلبة :

أقول لما جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر

أى سبحان الله من فخر علقمة ، أى تنزيها لله مما أتى علقمة من الافتحار على وجه التكبر منه لذلك » (٦) .

(١) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٨ من سورة المنافقين .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٤) جزء من الآية ٢٣ من سورة ص .

(٥) الفتح ج ١٣ ص ٣٦٩ وذكر أن هذا كلام الراغب ، ولكن الحافظ تصرف

فيه وغير وزاد ونقص ولهذا أضفته إليه .

(٦) ابن جرير الطبرى فى تفسيره ج ١ ص ٢١١ .

وقال أيضا : « وسبحان : مصدر ، لا تصرف له ، ومعناه :
نسبحك » (١)

وفي تاج العروس : « وسبحانه تنزيها لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به ، قال الزجاج : سبحان في اللغة تنزيها لله - عز وجل عن السوء » (٢) .
فالتسبيح : تنزيه الله تعالى عمالا يليق بعظمته ، مأخوذ من السبح ، وهو الأبعاد والسرعة في السير ، يقال فرس سبوح إذا كانت تسرع في السبح الذي هو السير والجرى ، ومنه قوله تعالى : (والسابحات سبحا) فسرت بالخيال ، وبالسفن ، وبالنجوم ، وكلها تسبح وتبعد في سبحها .

وقوله : « رب العزة » أى ذى العزة وصاحبها ، فرب هنا بمعنى ذى وصاحب ، والعزة صفته فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وأخذ اسمه تعالى « العزيز » منها .

وقوله : « عما يصفون » أى تنزيها وتقديساً لذى العزة التى لا ترام ، عن الذى يصفه به المشركون ، من أن له صاحبة أو ولدا ، أو شريكا ، أو وليا من الذل ، أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن أحدا يتصرف فى ملكه بدون إرادته ومشيقته .

وتنزيها لذى العزة التى غلب بها كل شىء عما يقوله المعطلون لصفاته ، حيث أنكروها أو أولوها تأويلا يؤول إلى إنكارها ، وتنزيها له تعالى عما يقوله المحرفون الملقدون فى صفاته الظانون بالله ظن السوء ، حيث توهموا أن اتصافه - تعالى - بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله - ﷺ - يقتضى التشبيه ، فحرفوا صفاته عما أراد بناء على أوهامهم الباطلة .

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) تاج العروس ج ٢ ص ١٥٦ .

وقوله : « والله العزة والرسوله وللمؤمنين » أى الله القوة والغلبة والقهر .

والعزة من صفات ذاته تعالى التى لا تنفك عنه ، فغلب بعزته وقهر بها كل شئ وكل عزة حصلت لخلقه فهى منه ، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره ، ولهذا قال تعالى : (والله العزة والرسوله وللمؤمنين) وسبب نزول هذه الآية الكريمة قول رأس المنافقين : عبد الله بن أبى بن سلول الذى ذكره الله عنه : (لكن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) (١) ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما (٢) ، يقصد بالأعز نفسه وذويه ، وبالأذل رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

وقوله : « ومن حلف بعزة الله وصفاته » . وصفاته من عطف العام على الخاص . ومراده : أنه قد ثبتت النصوص بالحلف بعزة الله وبصفاته نحو كلماته ، وقد تقرر فى دين الإسلام أنه لا يحلف بغير الله - تعالى - وأن الحلف بغيره شرك كما صح عن الرسول ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك » (٣) وعند أبى داود ، « من حلف بغير الله فقد أشرك » (٤) .

وعنده أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » (٥)

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٨ ص ٦٤٤ ، ومسلم ج ٤ ص ١٩٩٩٨ .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن ، انظر الترمذى مع تحفة الأحمذى ج ٢ ص

. ٣٧١

(٤) السنن ج ٣ ص ٥٧٠ ، ورواه أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٤ .

(٥) السنن ج ٣ ص ٥٦٩ .

وفي الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله - ﷺ - أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب ، يحلف بأبيه ، فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » (١) .

وهذا يتبين أن الحلف بقدره الله ، وعزته وسائر صفاته ، أنه كالحلف به تعالى ، وأن صفاته ليست مخلوقة ، لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق ، ولا منفصلة عنه تعالى .

وهذا يظهر مراد البخارى - رحمه الله - بهذا الباب وهو إثبات الصفات لله تعالى ، والرد على من أنكروها كالمعتزلة ، ومن تابعهم ، وقد تقدم الكلام في ذلك .

قال الحافظ : « والذي يظهر أن مراد البخارى بالترجمة إثبات العزة لله راداً على من قال : إنه عزيز بلا عزة ، كما قالوا : العليم بلا علم » (٢) .
قلت : لا يقصد إثبات العزة بخصوصها ، بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر .

قوله : « وقال أنس : عن النبي - ﷺ - تقول جهنم قط قط وعزتك »
وقال أبو هريرة : عن النبي - ﷺ - يبقى رجل بين الجنة ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة ، فيقول : رب اصرف وجهي عن النار ، لا أسألك غيرها .
قال أبو سعيد : أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال الله : عز وجل - : لك ذلك وعشرة أمثاله » .

وقال أيوب : « وعزتك لا غنى لى عن بركتك » .

هذه المعلقات قد رواها موضلة ، فحديث أنس سيذكره في هذا الباب

(١) انظر البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٥٣٠ ، ومسلم ج ٤ ص ١٢٣٩ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٠ .

موصولاً ، وحديث أبي هريرة يأتي كذلك ، وقد تقدم أيضاً في الرقاق ، وقول أيوب عليه السلام قد رواه في الوضوء ، وفي أحاديث الأنبياء .

والمراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر ، إذ فيها الحلف بعزة الله تعالى ولا يحلف إلا بالله أو بصفاته . ولكن حديث أبي هريرة لم يذكر محل الشاهد منه ، وإنما أشار إليه وهو قول الرجل يخاطب رب العالمين « وعزتك لا أسألك غيرها » .

★ ★ ★

١٣ — قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا حسين المعلم ، حدثني عبد الله بن بريدة ، عن يحيى بن يعمر ، عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ - كان يقول : « أعوذ بعزتك ، الذي لا إله إلا أنت ، الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون » .

* * *

قوله : « كان يقول » يدل على أنه سمع ذلك من النبي ﷺ مراراً ، لما يفهم من لفظة « كان » .

وقوله : « أعوذ بعزتك » العوذ : هو الالتجاء والاعتصام ، وحقيقته الهرب من المخوف إلى المحير العاصم ، فالعائد بالله - تعالى - قد هرب مما يخافه ، ويؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكة العزيز الذي لا يغالب ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويجير من احتضى به .

فالاستعاذه هي : الالتجاء إلى الله ، والاحتفاء بجنابه من شر كل ذي شر ، والعوذ يكون لدفع الشر ، واللوذ يكون لطلب الخير ، كما قال بعض الشعراء :
يا من ألوذ به فيما أمله ويا من أعوذ به فيما أحاذره

وعزة الله تعالى صفته كما تقدم ، فالنبي - ﷺ - وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له - يتعوذ بصفاته تعالى ، لأن ذلك من عبادة الله بل هو من أفضلها امتثالاً لقوله - تعالى - : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) . ومثل الاستعاذة بصفات الله - تعالى - الحلف بها كما مر قريباً .

وقوله : « الذي لا إله إلا أنت » أي أنت الإله الحق ، الذي تجب عبادته على عباده وكل تأله لغيره فهو ضلال ، يوجب الشقاء الأبدى ، والخلود في النار ، فلذلك لا أتوجه بتألهي إلا إليك يارب . فلا إله لي غيرك ، فبك أعوذ ، وإليك ألوذ .

« الذى لا يموت » أى فأنت ياإلهى الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك ، وأنت الغنى بذاتك عن كل ما سواك ، والخلق كلهم فقراء إليك ، وكانوا عدما قبل إيجادك إياهم ، وهم عرضة للأمراض ، والآفات والتغيرات والفناء ، وأنت يارب الباقى وحدك ، والخلق كلهم يموتون ، فلارب سواك يتصرف بالخلق كيف يشاء ، ويغير ولا يتغير جل وعلا .

قوله : « والجن والإنس يموتون » . المقصود بذكر الجن والإنس جنس الخلق ، والمعنى أن الخلق كلهم يموتون ، ولا يبقى إلا الحى القيوم كما قال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) وسمى الجن جناً لاستتارهم عن أعين الناس . من الاجتنان ، كما قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) (٢) وأما الإنس فسموا بذلك لأن بعضهم ينأس ببعض غالباً ، أو لأنهم يرون ويؤنسون أى يحس بهم ويشاهدون ، وذكر الجن والإنس لا ينفى عن الملائكة الموت ، لأن هذا خاص قصد به الجن والإنس ، أو على ما تقدم ذكر الجنس ، والمقصود عموم الخلق . وقد جاء ما يدل على هلاك عموم الخلق كقوله تعالى : (كل شىء هالك إلا وجهه) (٣)

وقد قيل : إن الملائكة يدخلون فى الجن ، لاجتنانهم واستتارهم عن أعين الناس فالله اعلم .

★ ★ ★

(١) الآية ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) آخر آية من سورة القصص .

١٤ — قال : « حدثنا ابن أبي الأسود ، حدثنا حرمي ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : « يلقى في النار . ح .

وقال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ح .

وعن المعتمر ، سمعت أبي ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : « لا يزال يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد ، بعزتك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة » .

* * *

أنس هو ابن مالك بن النضر ، بن ضمضم ، الأنصاري ، الخزرجي ، خادم رسول الله - ﷺ - وأحد المكثرين من الرواية عنه ؛ قدم النبي - ﷺ - المدينة وهو ابن عشر سنين ، فأتمت به أمه إلى رسول الله - ﷺ - وعرضت عليه أن يخدمه ، فقبل ذلك النبي - ﷺ - فلأزم النبي في السفر ، والحضر عشر سنوات ، ودعا له رسول الله - ﷺ - بأن يكثر ماله وولده ، وأن يدخله الجنة ، قال أنس « قد رأيت اثنتين ، وأنا أرجو الثالثة » توفي في البصرة سنة ثلاث وتسعين ، وله مائة وثلاث سنوات ، وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة (١)

(١) الإصابة ج ١ ص ١٢٧ .

قوله : « لا يزال يلقي فيها » الضمير « فيها » يعود إلى جهنم ، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها ، وهي تطلب الزيادة منهم ، قال الله تعالى : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟) (١)

قال ابن كثير : يخبر تعالى : أنه يقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين . فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى [فيها] وهي تقول : هل من مزيد ؟ أى هل بقى شئٌ يزيدنى ، هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث « (٢) يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث ، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة ، وهو الصحيح الذى يدل عليه ظاهر القرآن ، والأحاديث الصحيحة .

قوله : « حتى يضع فيها رب العالمين قدمه » فى رواية « حتى يضع رب العزة فيها قدمه » وهذه الرواية هى المناسبة لهذا الباب ، ولكن البخارى اكتفى بالإشارة إليها على عادته ، وفى رواية أبى هريرة : « يقال لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها » ، وفى رواية « حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ » وفى أخرى « حتى يضع رجله ، فتقول قط قط » وهذه الروايات كلها فى البخارى واتفق معه مسلم عليها (٣)

وعند الدارقطنى فى الصفات : « فأما النار فليلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد - ثلاث مرات - حتى يأتها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها ، فتنزوى ، وتقول فدىنى فدىنى » (٤) .

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨١ .

(٣) انظر مسلم ج ٤ ص ٢١٨٧ و ٢١٨٨ .

(٤) الصفات ص ١٤ و ١٧ .

وفي رواية « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار تبارك وتعالى - فيها قدمه ، فهناك تنزوى » (١)

وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم في المستخرج بلفظ « حتى يضع الله فيها قدمه » (٢) ففي مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل - وكلاهما عبارة عن شيء واحد - صفة لله تعالى حقيقة على ما يليق بعظمته .

كما فيها إبطال تأويل المؤولة نحو قولهم : « إن القدم : عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت في الطغيان ، وقولهم : إن المراد بالقدم ، الفرط السابق من المعذنين - أى يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب ، وقولهم : المراد بالقدم : قدم بعض المخلوقين ، وقولهم : يجوز أن يكون مخلوقا اسمه القدم ، وقولهم المراد بالقدم الأخير من أهل النار ، وقولهم : إنه اسم مكان عصى الله فيه ، فيلقى في النار .

وقول الداودي : إن المراد بالقدم ، قدم صدق ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - والإشارة بذلك إلى شفاعته ، وقال بعضهم : إن المراد بالقدم : قدم إبليس إلى غير ذلك من السخافات المضحكة ، الدالة على ضلال قائلها .

وزعم ابن الجوزي ، وابن فورك : أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم وذهب مرة إلى التحريف المسمى بالتأويل ، فقال : يحتمل أن يراد بالرجل الجماعة » (٣) فهذه التأويلات الباردة يكفى العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها ، فهي في الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين ، كتحريف اليهود حينما قيل لهم : « ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا : حبة حنطة .

(١) الصفات للدارقطنى ص ١٥ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٠ .

(٣) انظر الفتح فقد ذكر جميع هذه التأويلات وسكت عليها ج ٨ ص ٥٩٦ .

فبطلان قول هؤلاء المعطلة ، الذين جعلوا صفات الله تعالى نوعا من المخلوقات ، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة - واضح وظاهر وذلك من وجوه :

« الأول : أن النبي - ﷺ - قال : حتى يضع ، ولم يقل حتى يلقى [فيها] كما في قوله : « لا يزال يلقى في النار » .

الثاني : أن قوله : « قدمه » لا يفهم منه هذا [الذى قالوه] لا حقيقة ، ولا مجازا كما تدل عليه الإضافة .

الثالث : أن أولئك المؤخرين ، إن كانوا من الأصاغر المعذنين ، فلا وجه لانزواتها واكتفائها بهم ، فإن ذلك ، إنما يكون بأمر عظيم ، وإن كانوا من الأكابر المجرمين ، فهم في الدرك الأسفل من النار ، وفي أول المعذنين ، لا في أواخرهم .

الرابع : أن قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم ، من دون أن يلقى فيها شيء .

الخامس : أن قوله : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها قدمه » جعل وضع القدم الغاية التى إليها ينتهى الإلقاء ، ويكون عند ذلك الانزواء ، فيقتضى أن تكون الغاية أعظم مما قبلها ، وليس في قول [هؤلاء] المعطلة معنى للفظ [قدمه] إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر ، والأول أحق به من الآخر « (١)

يضاف إلى ذلك : أن هذا الكلام الواضح البين الذى إذا سمعه السامع لم يتبادر إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله تعالى ؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم ، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون ، لصار إلى الألباس والتعمية أقرب ، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان ؛ وهذا

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٧ .

من أبطل الباطل . وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد ، وهو أيضا أنصحهم لأمته ، وأعلمهم بالله وبما يجب له ، وما يمتنع عليه ، وهو أيضا أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق ، ودفع الشر عنهم ، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلا يدل على الكفر والتشبيه - كما زعم المعطلة المؤولة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) (١) فظهر بذلك بطلان قول المعطلة والحمد لله رب العالمين

قال أبو سعيد الدارمي : « وأما دعوى المعطل بأن القدم ، أهل الشقوة الذين تقدم في علم الله أنهم يلقون في جهنم ، واستدلالة بما روى عن ابن عباس ، في قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » (٢) قال : ما قدموا من أعمالهم .

فيقال : من المشهور عن ابن عباس ، أنه قال : « الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله » . وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس . (٣) ودعوى المعطل أنها لا تمتلىء حتى يلقى الله فيها الأشقياء ، الذين هم قدم الجبار - عند أهل التأويل - دعوى باطلة ، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها ؟ أفيلقيهم فيها ثانية ؟ أو أنه تعالى حبس عنها الأشقياء ، وألقى فيها السعداء ؟ فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة ؟ .

وأما ردهم الحديث بقوله - تعالى : « لأملأن جهنم من الجنة والناس

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٢ من سورة يونس عليه السلام .

(٣) رواه أبو سعيد الدارمي في الرد المرسى ص ٤٢٥ مجموع عقائد السلف ، والحاكم في المستدرک ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي ج ٢ ص ٢٨٢ وابن جرير في التفسير ج ٥ ص ٣٩٨ .

أجمعين» (١) قالوا : إن جهنم لا تمتلئ بغير الجن والإنس ، ومن زعم غير ذلك فقد كفر . فيقال : إن هذه الآية لا تخالف قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » (٢) ؟ . ويصح في الكلام أن يقال للمتلئ : استزاد ، كما يمتلئ الرجل من الطعام ، والشراب ، وهو يقدر أن يستزيد ، ويقال : امتلأ المسجد من الناس وفيه فضل وسعة ، وامتلاً الوادى ماءً ، وهو يحتمل أكثر مما فيه ، وكما في الحديث « يخرج المهدي ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً » وفي الأرض سعة لأكثر من ذلك ، فكذلك جهنم تمتلئ بما يلقي الله فيها من الجن والإنس ، وتقول : هل من مزيد ؟ لفضل فيها ، غضباً لله - تعالى على الكفار ، حتى يفعل الجبار بها ما أخبر به رسوله ، من وضعه قدمه فيها كما يشاء ، وكما عنى رسول الله ، فحينئذ تقول : حسبي حسبي ، ولها خزنة يدخلونها غير معذيين بها ، وفيها حيات ، وعقارب .

وقال - تعالى : « عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » (٣) .

فقوله تعالى : « لأملأَنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين » لا يخالف هذه الآية ، كما أنه لا يخالف قول الرسول - ﷺ : « يضع الجبار فيها قدمه ، وإذا كانت جهنم لاتضر الخزنة الذين يدخلونها ، ويقومون عليها فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه » (٤) .

وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - تدل على أن كلامها حقيقة ، فلا وجه للعدول عن ذلك ، كقوله ﷺ - : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا الضعفاء ، وقالت النار : مالي يدخلني

(١) الآية ١١٩ من سورة هود عليه السلام .

(٢) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٣) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة المدثر .

(٤) رد عثمان ابن سعيد على بشر المريسي ملخصاً بتصرف .

الجبارون ، والمتكبرون » (١) أخرجاه في الصحيحين .

وفي مسند الإمام أحمد بسند فيه عطية العوفى - وهو ضعيف - عن أبى سعيد عن النبى - ﷺ - « أنه قال : يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة ، بكل جبار ، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر ، وبمن قتل نفساً بغير نفس ، فينطوى عليهم ، فيقذفهم فى غمرات جهنم » (٢)

وفيه أيضاً من طريق ابن لهيعة - وفيه كلام معروف - عن عائشة رضى الله عنها عن النبى - ﷺ - أنه قال : « يخرج عنق من النار ، فينطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، فتنطوى عليهم وتطرحهم فى غمرات جهنم » (٣) وقد ذكر ابن رجب أحاديث بهذا المعنى (٤) وقد صح عن النبى - ﷺ - أن حجراً كان يسلم عليه (٥) ، كما صح أن الصحابة كانوا يسمعون تسييح الطعام وهم يأكلونه ، ومن المشهور حين الجذع الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه حين تركه ، فكيف يستنكر كلام جهنم ؟ .

قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » أى يلتصم بعضها على بعض ، وتتضايق على من فيها ، فلا يبقى فيها متسع لغير من فيها .

(١) انظر البخارى مع الفتح ١٣ ص ٤٣٤ وج ٨ ص ٥٩٥ ، ومسلم ج ٤ ص

. ٢١٨٦

(٢) المسند ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) المسند ج ٦ ص ١١٠ .

(٤) انظر التخويف من النار ص ١٣٠ .

(٥) انظر فتح البارى ج ١٣ ص ٣٧١ .

قوله : « وتقول : قَدْ قَدْ » بفتح القاف ، وسكون الدال ، وفي رواية « قط قط » وهو اسم فعل ، ومعناه حسى ، وكفانى ما ألقى فنى ، فلا متسع لغيرهم أى قد امتلكت .

قوله : « بعزتك وكرمك » هذا محل الشاهد من الحديث لما ترجم به ، وهو قسم من النار بعزة الله وكرمه ، أنها قد امتلكت ، وأصبحت ليس فيها متسع . وقد تقرر عند المسلمين أن القسم بغير الله لا يجوز .

قوله : « لا يزال يلقي فيها ، وتقول » هذا القول من جهنم حقيقة ، فالله تعالى ينطقها بكلام مسموع منها ، كما ينطق جل وعلا الجوارح وغيرها . والله على كل شيء قدير ، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس في الدنيا ، والقسم بأسماء الله وصفاته قسم به - تعالى - والمقصود أن الله تعالى متصف بالصفات ، فأراد أن يبين ذلك بما ثبت منها في كتاب الله تعالى ومنها العزة ، وبالأحاديث التي تبين ذلك وتوضحه ، وقد تقدم البحث فيها في الباب الأول .

قال الحافظ : « يؤخذ منه مشروعية الحلف بكرم الله ، كما شرع الحلف بعزة الله » (١)

قوله : « ولا تزال الجنة تفضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »

أى أن أهل الجنة الذين يدخلونها ينتهون ، وفيها فضل مساكن لم يصبا أحد لعظم سعتها ، قال الله تعالى : (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض) (٢) وقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) (٣)

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٧١ .

(٢) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٢١ من سورة الحديد .

وقد وعد الله تعالى : « الجنة والنار أن يملأهما من الجنة والناس ، ومما يشاء فأما النار . فإن الله تعالى لا يدخل فيها إلا من يستحقها ، ولا يظلم أحداً ، ولسعتهما أيضا ينتهي أهلها دخولا فيها مع كثرتهم ، وهي تطلب الزيادة ، وتسأل الله وعده ، فعند ذلك يضع عليها تعالى قدمه . فتضايق على أهلها . وينزوى بعضها إلى بعض - أى تجتمع - فتصبح ليس فيها موضع لأحد فيحصل بذلك ملكها .

وأما الجنة فإن الله تعالى يخلق لها خلقا جديدا فيسكنهم فضلها ، أى المساكن التى فضلت عن دخلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لا راد لفضله ، ولا مانع لعطائه .

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق » (١)

* * *

قال القرطبي : « بالحق - أى بكلمة الحق - يعنى قوله كن » (٢)
ومثله قال القسطلانى ثم قال : « وقال ابن عادل فى لبابه ، قيل الباء بمعنى اللام أى إظهاراً للحق ، لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته ، فهو نظير قوله تعالى :

(ما خلقنا هذا باطلا) (٣) .

وقال الخازن : « يعنى إظهاراً للحق ، فعلى هذا تكون الباء ، بمعنى اللام ، لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته ، وقيل خلقها بكمال قدرته ، وشمول علمه ، وإتقان صنعه ، وكل ذلك حق .

وقيل خلقها بكلامه الحق ، وهو قول « كن » وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق ، لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق » (٤)

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٩ .

(٣) هدى السارى ج ١٠ ص ٣٦٩ .

(٤) تفسير الخازن ج ٢ ص ١٤٧ .

وقال ابن الجوزى : « فيه أربعة أقوال :

أحدها : خلقهما للحق .

والثاني : خلقهما حقا .

والثالث : خلقهما بكلامه ، وهو الحق .

والرابع : خلقهما بالحكمة « (١) .

قلت هذه الأقوال ليس فيها اختلاف ، وهي داخلة في معنى الآية ، إلا أن الطبرى جعل القول الثانى والرابع قولاً واحداً كما سيأتى . وهو الأظهر .

وقال ابن جرير : « واختلف أهل التأويل فى قوله : « بالحق » .

فقال بعضهم : معنى ذلك : وهو الذى خلق السماوات والأرض حقا وصواباً ، لا باطلاً وخطأً كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) (٢) وأدخلت الباء والألف ، كما فى قولك : فلان يقول بالحق - يعنى - أنه يقول الحق ، أى يصيب فى قوله ، فالحق صفة للقول ، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله تعالى ، والله موصوف بالحكمة فى خلقهما ، وخلق ما سواهما من سائر الخلق .

وقال آخرون : معنى ذلك : خلق السماوات والأرض بكلامه ، وقوله لهما :

(اثبتا طوعاً أو كرهاً) (٣) فالحق فى هذا الموضع معنى به كلامه .

(١) زاد المسير ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .

(٣) جزء من الآية ١١ من سورة فصلت .

واستشهد لذلك بقوله : (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) (١) . فالحق هو قوله وكلامه ، فالله تعالى خلق الأشياء بكلامه وقوله ، فما خلق به الأشياء فهو غيرها ، فكلام الله - تعالى - الذى خلق به الخلق غير مخلوق « (٢) .

قلت : وبهذا يظهر مراد البخارى - رحمه الله تعالى - فقول الله تعالى حق ، وهو صفة له ، وما وجد بقوله فهو غير القول ، بل هو المفعول المخلوق ، فقوله تعالى الذى خلق به الأشياء ، لا يجوز أن يكون ماثلا لها ، فلا بد من التفريق بين قوله الذى هو صفته وبين مفعولاته التى وجدت بقوله ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض .

وهو تعالى خلق السماوات والأرض وغيرها بقوله لها : كوني كما قال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين) (٣) .

قال الحافظ : « كأنه أشار بهذه الترجمة إلى ما ورد فى تفسير هذه الآية ، أن معنى قوله : « بالحق » أى بكلمة الحق ، وهو قوله : « كن » ويدل عليه ما فى أول الحديث - « وقولك الحق » فكأنه أشار إلى أن القول [فى الحديث] الكلمة ، وهى « كن » والله أعلم « (٤) .

وقال ابن المرتضى : « هذا إشارة من البخارى إلى مذهب أهل السنة فى إثبات الحكمة » (٥)

(١) جزء من الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ تحقيق محمود شاكر ملخصا .

(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٣٧١ .

(٥) إثبات الحق على الخلق ص ٢٠٥ .

قلت : هذا لاينافي ما ذكرنا ، فيجوز أن يقصد المعنيين ولكنه في الأول أظهر وأليق بمراد البخارى ، لأن القول بنفى الحكمة في خلق الله وفعله ظاهر البطلان .

قال البخارى : « الفعل إنما هو إحداث الشيء ، والمفعول ، هو الحدث . لقوله تعالى (خلق السماوات والأرض) (١)

قلت : يريد بذلك التفريق بين ما هو صفة لله تعالى ، وبين ما هو مفعول له مخلوق .

وقال الراغب : « أصل الحق : المطابقة والموافقة ، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة ، والحق يقال على أوجه :

الأول : يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله تعالى - هو الحق - قال تعالى - : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) (٢) ، (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون) (٣) .

الثاني : يقال لما وجد بمقتضى الحكمة ، ولهذا يقال : فعل الله تعالى - كله حق ، قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) (٤) .

الثالث : الاعتقاد المطابق لما عليه الشيء في نفسه ، كما في الحديث « ووعدك حق ، ولقائك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » قال الله تعالى : (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) (٥) .

(١) خلق أفعال العباد ص ٢١٠ ضمن العقائد السلفية .

(٢) الآية ٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .

(٤) الآية ٥ من سورة يونس .

(٥) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

الرابع : الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، ويقدر ما يجب ، وفي الوقت الذى يجب ، قال الله تعالى : (كذلك حققت كلمة ربك) ^(١) (حق القول منى لأملأن جهنم) ^(٢) (^(٣) .

قلت : يأتى أيضا موصوفا به دين الله وشرعه ، وأمره . كما فى قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى ورى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين) ^(٤) أى وعده أن يعثنكم ويجازيكم . وقال : - تعالى - (وتكتمون الحق) ^(٥) (الحق من ربك) ^(٦) (وإنه للحق من ربك) ^(٧)

قال الحلیمی : « الحق » ما لايسع إنكاره ، ويلزم إثباته والاعتراف به .

وجود البارى - تعالى - أولى مايجب الاعتراف به ، ولا يسع جحده ، إذ لامثبت تظاهرت عليه الدلائل البينة مثل ما تظاهرت على وجود البارى جل جلاله » ^(٨)

وقال أيضا : « الحق فى الأسماء الحسنى معناه : كما قال ابن برجان : الواجب الوجود بالبقاء الدائم ، الجامع للخير والمجد ، والمحامد كلها ، والثناء الحسن ، والأسماء الحسنى والصفات العلى »

(١) الآية ٦ من سورة غافر .

(٢) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٣) المفردات ص ١٢٥ بتصرف .

(٤) الآية ٥٣ من سورة يونس .

(٥) الآية ٧١ من آل عمران .

(٦) الآية ١٤٧ من سورة البقرة و ٦٠ من آل عمران .

(٧) الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

(٨) المنهاج ج ١ ص ١٨٨ .

ومعنى واجب الوجود : أنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده ، وهو الذى أوجدها ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير) (١) . ولما أظهر جملة المخلوقات التى خلقها بالحق وللحق قال تعالى : (خلق الله السماوات والأرض بالحق) (٢) .

فإنه تعالى هو الحق المبين ، ووجوده الحق ، وقوله الحق ، وصفاته الحق ، وأسماؤه الحق « ا هـ (٣) .

★ ★ ★

(١) الآية ٦ من سورة الحج .

(٢) الآية ٣ من سورة النحل .

(٣) المنهاج ج ١ ص ٣٦٩ .

١٥ — قال : « حدثنا قبيصة ؛ حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن سليمان ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، قال : كان النبي ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وأسرت ، وأعلنت ، أنت إلهي لا إله لي غيرك » .

* * *

حدثنا ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان بهذا وقال : « أنت الحق ، وقولك الحق » .

كان النبي ﷺ - يقول هذا الدعاء بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام في تهجده كما بينه ابن خزيمة حيث قال :

« باب ذكر الدليل على أن النبي - ﷺ - كان يحمد بهذا التحميد بعد أن يكبر . ثم ساق بالسند إلى ابن عباس ، قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا قام للتهجد قال بعد ما يكبر : اللهم لك الحمد الخ » (١) .

قوله : « اللهم لك الحمد » . الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية و« ال » فيه للاستغراق ، والاستقصاء ، أى جميع الحمد واجب ، ومستحق لله تعالى . فهو المحمود على صفاته ، وأسمائه ، وعلى نعمه ، وأياديه ، وعلى خلقه وأفعاله ، وعلى أمره وحكمه ، وهو المحمود أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

(١) صحيح ابن خزيمة ج ٢ ص ١٨٤ .

وأما الشكر : فلا يكون إلا على الصفات المتعدية ، ويكون بالقلب ،
واللسان والجوارح ، قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) (١) .

وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني ، والضمير المحجبا

قوله : « أنت رب السماوات والأرض » أى أنت مالكهما ومن فيهما ،
والمتصرف بهما بمشيئتك ، وأنت موجدتهما من العدم ، فالملك لك ، وليس لأحد
معك اشتراك أو تدبير ، تباركت وتعاليت .

قوله : « لك الحمد أنت قيم السماوات ، والأرض ومن فيهن » أى أنت
الذى أقمتهما من العدم ، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما ، فأنت الخالق
الرازق ، المالك المدبر ، المحي المميت ، الغنى عن كل شئ ، وكل من سواك فقير
إليك ، ومصيره إليك ، كما أنك أنت الذى أوجدته ، فلك الحمد .

وفى رواية « قيام » ، وفى أخرى « قيوم » ، وكلها من أبنية المبالغة .

« والقيم معناه : القائم بأمور الخلق ، ومدبرهم ، ومدبر العالم فى جميع
أحواله .

والقيوم : هو القائم بنفسه مطلقا ، لا بغيره ، ويقوم به كل موجود ، حتى
لا يتصور وجود الشئ ولا دوام وجوده إلا به .

وقال النوربشتى : معناه : أنت الذى تقوم بحفظهما ، وحفظ من أحاطتا
به واشتملتا عليه ، وقال « من » تغليبا للعقلاء على غيرهم « ا هـ (٢)

قوله : « لك الحمد أنت نور السماوات والأرض » قال الحافظ : أى

(١) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٢) من القسطلانى ج ١٠ ص ٣٦٩ .

منورهما ، وبك يهتدى من فيها » (١) .

وقال القاضي عياض : « معناه ذو النور أى خالقه »

وقيل : منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم .

وقيل : منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة » (٢) .

قلت : هذا تأويل باطل كما سيأتى بيان بطلانه .

قال شيخ الإسلام : فى جواب من قال : إنه يجب تأويل قوله : « الله نور السماوات والأرض » قطعاً . قال : « لانسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعى ، بل جماهير المسلمين لايتأولون هذا الاسم ، وهذا مذهب السلفية وجهور الصفاتية ، من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم ، وهو قول أبى سعيد بن كلاب ، ورد على الجهمية تأويلهم « اسم النور » وكذا الأشعري » اهـ (٣)

وقد نص الله تعالى فى كتابه أنه نور السماوات والأرض ، وزاد ذلك رسول الله ﷺ إيضاحاً وبياناً كما فى هذا الحديث وغيره .

وقد أخبر تعالى : أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره ، وصحت النصوص عن رسول الله ﷺ بأنه يحتجب بالنور ، فاذا كانت الأرض تشرق من نوره ، فهو جل وعلى نور كما قاله رسوله « أنت نور السماوات والأرض »

وقال تعالى : (الله نور السموات والأرض) (٤) وقال تعالى : (وأشرق

(١) الفتح ج ٣ ص ٤ .

(٢) المشارق ج ٢ ص ٣١ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٧٩ .

(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .

الأرض بنور ربها) (١) .

وفي الحديث الذى رواه ابن إسحاق فى السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : فى دعائه « أعود بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » (٢) .

وقال ابن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه » (٣)

وفى حديث أبى ذر فى صحيح مسلم ، قال : سألت رسول الله ﷺ - هل رأيت ربك ؟ قال : « نورٌ أتى أراه » وفى رواية « رأيت نورا » (٤) .

وفى حديث أبى موسى فى صحيح مسلم قال : قام فىنا رسول الله ﷺ بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولا يئسى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٥) .

السبحات هى : نوره ، وبهاؤه وجلاله .

(١) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

(٢) انظر مختصر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٤٢٠ وقال شيخ الإسلام : رواه الطبرانى وغيره . انظر مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) رواه الدارمى فى الرد على بشر ص ٤٤٩ . وابن منده فى الرد على الجهمية ص ٩٩ ، قال ابن القيم رواه الطبرانى فى المعجم وفى السنة انظر اجتماع الجيوش ص ٦ .

(٤) انظر مسلم ج ١ ص ١٦١ .

(٥) مسلم ج ١ ص ١٦٢ .

فأخبر ﷺ أنه تعالى احتجب عن المخلوقات بحجابه النور ، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، ومعلوم أن بصره لا يفوته شيء ، ولا يستره ساتر ، ولا يحول دونه حائل .

وفي الترمذى عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » (١) .

فقد جاءت النصوص « بتسمية الرب نورا ، وبأن له نورا مضافا إليه ، وبأنه نور السماوات والأرض ، وبأن حجابه النور ، فهذه أربعة أنواع :

فالأول : يطلق عليه تعالى اسما له ، فإنه النور الهادى .

والثانى يضاف إليه كما تضاف إليه حياته ، وسمعه وبصره ، وعزته وقدرته وعلمه ، ومرة يضاف إلى وجهه الكريم ، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة . فإضافته إلى وجهه تعالى - كقوله ﷺ - : « أعوذ بنور وجهك » وقوله : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » .

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) (٢) .

(١) انظر تحفة الأحوذى ج ٧ ص ٤٠١ وقال : حسن ورواه أحمد بسند صحيح انظر المسند ج ٢ ص ١٧٦ ، وانظر تحقيق أحمد شاكر ج ١٠ ص ١٢٧ ، وأخرجه الحاكم وصححه الذهبي انظر المستدرک ج ١ ص ١٠ ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ج ١ ص ١٠٧ .

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

وكما في حديث عبد الله بن عمرو : « أن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره » الحديث .

ويضاف نوره تعالى إلى السماوات والأرض ، كقوله : (الله نور السماوات والأرض) (١)

وقوله في هذا الحديث : « أنت نور السماوات والأرض » .

وكذا حجاببه النور كقوله : « حجاببه النور - أو النار » كما في حديث أبي موسى « اهـ (٢)

قلت : المضاف إلى السماوات والأرض ، ليس هو صفته تعالى ، وكذلك قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) على القول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى .

قال ابن القيم : « إضافة النور الى الله تعالى على أحد وجهين :

إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول : كقوله - عز وجل : « وأشرق الأرض بنور ربها » ، فهذا يكون يوم القيامة ، تشرق بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء بين عباده .
ومنه قوله في الدعاء المشهور : « أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا انت » . (٣)

وفي الأثر الآخر : « أعوذ بنور وجهك ، الذي أشرقت له الظلمات » (٤) .

(١) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٢) من الصواعق ملخصا من ٣٥٩ .

(٣) هو الحديث المتقدم ذكره ص ١٧٢ قال في الفتح الكبير : خرجه الطبراني .

انظر لفظه فيه ج ١ ص ٢٣٥ .

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل .

فأخبر - ﷺ - أن الظلمات أشرقت لنور وجهه ، كما أخبر الله تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

الوجه الثاني : ما ذكر في قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ، وقد اختلف على من يعود الضمير في « نوره » ، فقيل : على محمد - ﷺ - وقيل : على المؤمن ، والصحيح عوده على الله تعالى .

والمعنى : مثل نور الله في قلب عبده المؤمن ، وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسوله - ﷺ - .

فهذا النور يضاف إلى الله تعالى على أنه معطيه لعبده ، وواهبه ، كما يضاف إلى العبد لأنه محله وقابله « اهـ (١) .

فإن الله تعالى سمي نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه في الآخرة نورا يتلأأ . قال تعالى : (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كأنها كوكب دري ، يوحد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ، ولاغربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) (٢) ، قال أبي ابن كعب : بدأ الله بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن « (٣)

وفسر بكونه منور السماوات والأرض ، وبأنه هادي أهل السماوات والأرض ، وهذا لا يمنع أنه - تعالى - في نفسه نور ، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر - بضم الميم - من الأسماء ، أو بعض أنواع ذلك المفسر ، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات له .

(١) اجتماع الجيوش بتلخيص وتصرف ص ٦ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره ج ١٨ ص ١٣٥ .

فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض ، وهذا إنما هو فعله ، وأما النور الذى هو وصفه فهو قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور ، الذى هو أحد الأسماء الحسنى ، كما دلت على ذلك النصوص ، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة .

وأما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها ، فلم تأت إضافتها إلى الله تعالى أبداً ، فلا يقال لأنوار المصاييح ، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب ، أنها نور الله .

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض .

وهى : ربوبيتهما ، وقيوميتهما ، ونورهما .

فكونه سبحانه - رباً لهما ، وقيوما لهما ، ونوراً لهما أوصاف له تعالى ، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما .

فأثر الربوبية : الخلق والإيجاد ، وأثر القيومية : صلاحهما ، وانتظامهما .
وأثر نوره - تعالى - استنارة السماوات ، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة .

وأما صفة الربوبية ، والقيومية ، والنور فهى قائمة به تعالى - كما أن صفة الرحمة ، والقدرة ، والإرادة ، والرضى ، والغضب قائمة به - تعالى - والرحمة الموجودة فى العالم ، والإحسان ، والخير ، والنعمة ، والعقوبة آثار تلك الصفات .
وهكذا علمه - تعالى - القائم به هو صفته ، وأما علوم عباده فمن آثار علمه ، وقدرتهم من آثار قدرته .

وبذلك يعلم أن قول المعطلة : « كل عاقل يعلم بالبدئية أن الله - سبحانه ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر ، والمصاييح ، فلا بد من حمل قوله : « أنت نور السماوات والأرض » على معنى أنه منور السماوات والأرض أو هادى أهل السماوات والأرض » يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله كما هو نهجهم .

ونحن نقول لهم أيضا : أسأتم الظن بكلام الله ، وكلام رسوله - ﷺ - حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان ، وغيرها ، وهذا الفهم الفاسد هو الذى أوجب لكم إنكار حقيقة نوره - تعالى - وجحده .

فجمعتم بين الفهم الفاسد ، وإنكار المعنى الحق .

وليس ما ذكرتم هو نور الرب - تعالى - القائم به ، الذى هو صفته ، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه ، فإن هذه الأنوار المخلوقة ، تكون فى محل دون محل ، فنور الشمس والقمر ينور بعض الأرض لاجتمعتها ، ولا ينور السماوات .

فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما ، هو المراد بقوله - تعالى - : (الله نور السماوات والأرض) وقول الرسول - ﷺ - « أنت نور السماوات والأرض » فقد كذب على الله ورسوله . (١)

قوله : « وقولك الحق » أى أنت قلته حقا ، فهو صفتك . وما قاله الله تعالى - فهو صدق وحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، لا فى خبره ، ولا فى حكمه وتشريعته ، ولا فى وعده ووعدته .

وهذه الجملة هى محل الشاهد من الحديث ، حيث وصف قوله - تعالى - بأنه الحق ، فلا يجوز أن يكون مخلوقا كما تزعم الفرق الضالة من المعتزلة وغيرهم .

قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شىء مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه ، لأنه يقول للشىء كن فيكون ، فلا يكون شىء أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله » (٢)

وقال أبو ذر - رضى الله عنه - : قال رسول الله - ﷺ - : « قال الله تعالى

(١) هذا مقتبس من كلام شيخ الإسلام . انظر مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٧٤ .

(٢) خلق أفعال العباد للبخارى ص ١٢٤ مجموع عقائد السلف .

عطائي كلام ، وعذابي كلام ، وإذا أردت شيئا فإنما أقول له : كن فيكون » (١) .
والذين أراد البخارى - رحمه الله - الرد عليهم من الجهمية والمعتزلة ونحوهم
ينكرون أن يكون لله - تعالى - كلام تكلم به يكون صفة له ، لأن هذا -
يزعمهم يقتضى أن يكون جسما حادثا ، لأن الكلام - زعموا - من الصفات
الدالة على حدوث من قام به ، لما فيه من الترتيب ، والتقديم والتأخير ، والتعاقب .
ولما رأوا اتفاق الرسل على إثبات الكلام لله تعالى ، وأن القرآن مملوء بذلك ،
قالوا : إن الله متكلم ، بمعنى أنه خالق الكلام .

ثم جاءت الأشعرية ، فقالوا : إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه . وليس
لله كلام منطوق به ، مسموع منه ، كما سيأتى إن شاء الله تفصيل ذلك في أبواب
الكلام .

وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة على إنكار ثبوت الكلام لله حقيقة ، كما أنهم
يوافقونهم فى المعنى على أنه مخلوق ، وعلى هؤلاء جميعا اتجه الرد فيما قصده
البخارى وغيره من أهل السنة .

ومعلوم « أن : الإيمان الذى جاءت به الرسل عن الله - تعالى - وجاء به
خاتمهم مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، هو أن كلام الله صفة له غير مخلوق .
وأن القرآن والتوراة ، والإنجيل ، وغيرهما من كتب الله هى كلامه .

وكلام الله لا يكون مخلوقا منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم
منفصلا عنه ، فإن من أنكر ذلك فقد جحد كلام الله الذى هو رسالته ، وأنكر
حقيقة ما أخبرت به الرسل ، وعلمته أممها ، والحد فى أسماء الله وآياته ، ومثله
بالمعدوم ، والميت ، فإن الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحو ذلك صفات

كمال ، والله تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به ، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه ، لأنه هو الذى أعطى الكمال للكاملين .

ومن لم يتصف بصفات الكمال ، من الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك .

فإما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به .

أو غير قابل للاتصاف به .

فإن قبله ولم يتصف به ، كان موصوفا بصفات النقص ، كالموت والجهل ، والعمى والصمم ، والعجز ، والبكم .

فإن لم يقبل الإلتصاف بهذه الصفات ، كان أنقص من القابل الذى لم يتصف بها .

فالحيوان الذى يكون تارة سميعا ، وتارة أصم ، وتارة بصيرا ، وتارة أعمى وتارة متكلما ، وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذى لا يقبل لا هذا ، ولا هذا . فمن لم يصف الله تعالى بصفات الكمال ، لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص « (١) » .

قوله : « ووعدك الحق » أى لابد من وقوعه ، على ما وعدت ، فلا خلف فيه ولا تبديل .

« ولقاؤك حق » أى لابد للعباد من ملاقاتك ، فتجازيهم على أعمالهم ، واللقاء يتضمن الرؤية ، والمعانية ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

« والجنة حق ، والنار حق » أى ثابتتان ، موجودتان ، كما أخبرت بذلك أنهما معدتان لأهلها ، فهما دار البقاء ، وإليهما مصير العباد .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٣٥٥ .

« والساعة حق » أى مجيء يوم القيامة حق لا مرية فيه ، فهو ثابت لا بد منه ، وهى نهاية الدنيا ، ومبدأ الآخرة ، وفى ضمن هذه الأخبار - الأخبار عن إيمانه بما ذكر ، إيمانا لا يتزعزع ، والساعة يعبر بها عن البعث ، أى الساعة التى يبعث الله فيها الموتى من قبورهم أحياء ، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها ، بل واستحالتها ترابا ، وهباء ، وغير ذلك .

فيجمعهم ، ويحييهم ، كما كانوا فى الدنيا ، ويجازيهم بعد حسابهم ، وحشرهم . وأدخلت الألف واللام فى الساعة ، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها ، وأنها مقصود بها قصد الساعة التى وصفت ، قاله الطبرى (١) .

« اللهم لك أسلمت » أى أذعنت لأمرك ، وانقدت له ، وخضعت لحكمك .

« وبك آمنت » أى صدقت ، وعملت بمقتضى ذلك ، بعد تحققى بالإيمان بك .

« وعليك توكلت » أى اعتمدت عليك ، ووكلت أمورى إليك ، راضيا بما قضيته لى ، بعد أن فعلت الأسباب التى جعلتها لى ، دينية كانت ، أو دنيوية . فالتوكل : هو الاعتماد على الله تعالى ، والثقة به ، وفعل الأسباب التى ربت عليها الأشياء ، والتى يستطيع العبد فعلها ، وهو من أفضل العبادات ، بل جاء ما يدل على أنه شرط فى حصول الإيمان كما فى قوله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٢) .

(١) انظر تفسيره ج ١١ ص ٣٢٤ ، ولكثرة ما أخبروا بها ووصفت لها ، وخوفوا بقرها صارت معلومة لهم ، فأدخلت عليها الألف واللام لذلك .

(٢) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

« وإليك أنبت » أى رجعت إليك طائعا منقادا ، مذعنا ، خاضعا لك فى جميع أمورى .

« وإليك حاكمت » أى كل من أبى قبول الحق ، أو جحدده ، حاكمته إليك وجعلتك الحكم بينى وبينه ، مجانبا بذلك حكم كل طاغوت ، من قانون وضعى ، أو كاهن أو غيره ، مما يتحاكم إليه البشر ، من الأوضاع الباطلة شرعا .
وقدم صلوات هذه الأفعال كلها لإرادة التخصيص والحصر ، أى أحصك يارب وحدك فيما ذكر ، ولا أعدو ذلك بحال من الأحوال .

فى هذا الحديث قدم الثناء على الله - تعالى - بأن له الحمد ، وبما ذكر من صفاته ثم توسل إليه - تعالى - بإيمانه بأن قوله حق ، ووعدده حق إلى آخر ما ذكر ، وأنه مذعن لأمره ، منقاد لطاعته ، وأنه معتمد عليه ، وبه يخاصم وإليه يحاكم ، ثم بعد ذلك سأل حاجته ، وهى أن يغفر له ما قدم من خطأ ، أو تقصير ، وما أحر ، وما أسر ، وما أعلن .

ثم ختم ذلك بأنه لأمفزع ، ولا ملجأ له غير ربه تعالى ، فهو إله الذى يعبدده بما ذكر ، ويخاف عقابه ، ويؤمل فضله ونواله ، فقال : « أنت إلهى لا إله لى غيرك » فلا أتوجه إلى سواك ، إذ كل مألوه غيرك باطل ودعوته ضلال ، وبال ، وهذا هو التوحيد الذى جاءت به رسل الله وفرضه تعالى على عباده .
قوله : « فاغفر لى ما قدمت ، وما أحررت ، وأسرت ، وأعلنت » .

أصل الغفر : الستر مع الوقاية ، ومنه المغفر ، لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح .

« ما قدمت » أى قبل وقتى هذا .

« وما أحررت » أى بعد وقتى هذا ، أى اغفر لى ما عملت من الذنوب ،

وماسأعمله وماظهر منها لأحد من خلقك ، وماخفى عنهم ، ولم يعلمه غيرك .
 وقوله فى الرواية الأخرى : « أنت الحق ، وقولك الحق » فيها البيان بأن اسم
 الحق يقع على ذات الله - تعالى - اسما كما سبق بيانه ، ويقع على صفاته كما فى
 قوله « وقولك الحق » .

وفى هذا الحديث وأمثاله دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، إذ لو لم
 يكن له ذنب كيف يسأل المغفرة ، وقد قص الله تعالى ما وقع لبعض الرسل من
 المخالفات ، وهذه مسألة مشهورة عند العلماء . وقد ألف فيها مؤلفات خاصة ،
 وقد اتفق أهل السنة على أن مايلغونه من أمر الله وشرعه أنهم معصومون فيه من
 الخطأ ، وأما وقوع الذنوب منهم ففيه الخلاف . وقد بالغ بعض الناس ، وكفر من
 قال بوقوع الذنب منهم . وهذا جهل من قائله .

قال : « باب وكان الله سميعاً بصيراً »

* * *

يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين - السمع والبصر - ثابتتان لله بالكتاب والسنة ، وإجماع أتباع الرسل ، وبالعقل ، والفطر ، وبيان أن الله - تعالى - لم يزل بصفاته ، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضلَّ عن كتاب الله ، وسنة رسوله ، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل .

قال القسطلاني : « وقد علم بالضرورة من الدين ، وثبت في الكتاب والسنة بحيث لا يمكن إنكاره ، ولا تأويله أن الباري - تعالى - حتى سميع بصير ، وانعقد إجماع أهل الأديان ، بل جميع العقلاء على ذلك » (١) .

« فالسمع والبصر ، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحوها صفات كمال لانقص فيها ، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها ، والنقص في انتفائها لافي ثبوتها بإجماع العقلاء ، والقابل للاتصاف بها كالحَيوان أكمل ، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد » (٢) .

قلت : الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله - تعالى - والقياس الفاسد حيث قاسوا ذلك على ما يعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل . قالوا : هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام .

(١) إرشاد السارى ج ١٠ ص ٣٧٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٨٨ .

فيقال لهم : هذه صفة أسمعكم وأبصاركم ، أمارب العالمين فصفاته تابعة لذاته ، وذاته ليس لها نظير أو شبيه ، فكذلك صفاته تعالى .

وكيفية صفاته تعالى مجهولة للخلق ، وكيفينا أن نعلم أنه تعالى متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة ، وأنه في ذلك ليس له مثل ، كما قال تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

قال الحافظ : « قال ابن بطال : غرض البخارى في هذا الباب الرد على من قال : إن معنى « سميع بصير » عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذى يعلم أن السماء خضراء ، ولايراهها ، والأصم الذى يعلم أن فى الناس أصواتا ، ولا يسمعها ، ولاشك أن من سمع ، وأبصر أدخل فى صفة الكمال ، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر .

فصح أن كونه سميعا بصيرا يفيد قدراً زائداً على كونه عليما .

وكونه سميعا بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ، ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليما أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين إثبات كونه سميعا بصيرا ، وبين كونه ذا سمع وبصر ، وهذا قول أهل السنة قاطبة » (١)

وقال البيهقي : « السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، وكل منهما فى حق البارئ صفة قائمة بذاته » (٢)

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله - تعالى ومن سنة رسوله - ﷺ - على إثبات السمع والبصر صفتين لله - تعالى - حقيقتين على ما يليق بعظمته تعالى - قال الله تعالى : (إن الله كان سميعا بصيرا) (٣) ، (وكان الله

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٣ .

(٢) الاعتقاد ص ٥٨ .

(٣) الآية ٥٨ من سورة النساء .

سميعاً بصيراً) (١) (ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير) (٢) (إنه هو السميع البصير) (٣) ، (إن الله سميع بصير) (٤) ، (إن الله هو السميع البصير) (٥) ، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٦) ، (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) (٧) ، (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) (٨) .

في آيات كثيرة ، قد ذكر الله تعالى في القرآن السمع والبصر واصفاً بهما نفسه فيما يقرب من مائة آية ، مرة يجمع بين السمع والبصر ، ومرة بين السمع والعلم ، ومرة يذكر البصر وحده متعلقاً بعمل العباد كقوله : (بما تعملون بصير) ، (والله بصير بالعباد) .

وقد تقرر في الفطر والعقول ، أن عدم السمع والبصر ، والأرجل والأيدي نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك ، لامتناع كونه إلهاً ، إذ الإله يجب أن يكون سميعاً بصيراً حياً قادراً ، كاملاً ، لا نقص فيه ، ولا عيب ، قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله ، عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا

-
- (١) الآية ١٣٤ من سورة النساء .
 - (٢) الآية ٦١ من سورة الحج .
 - (٣) الآية ١ من سورة الإسراء .
 - (٤) الآية ٧٥ من سورة الحج .
 - (٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .
 - (٦) الآية ١١ من سورة الشورى .
 - (٧) الآية ٥٦ من سورة غافر .
 - (٨) الآية ١ من سورة المجادلة .

لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها) (١)

وقال تعالى عن خليله إبراهيم في دعوته أبيه إلى الله تعالى : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) (٢) .

وأما سنة رسول الله - ﷺ - فقد جاءت موافقة لما في كتاب الله ومبينة له ، وهى كثيرة جداً ، نكتفى بذكر يسير منها بالإضافة إلى ما ذكره البخارى فى الباب .

فمن ذلك ما رواه أبو داود بسند على شرط مسلم ، عن أبى هريرة أنه قرأ قول الله تعالى : (وكان الله سميعاً بصيراً) فوضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ، وقال : رأيت رسول الله ﷺ يقرأ ويضع إصبعيه « (٣)

قال البيهقى عقب روايته لهذا الحديث : « والمراد بالإشارة فى هذا الخبر تحقيق الوصف لله - عز وجل - بالسمع والبصر ، فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله - تعالى - ، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير ، له سمع وبصر ، لا على معنى أنه عليم ، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار فى تحقيقه إلى القلب ، لأنه محل العلوم منا » (٤) .

ثم ذكر البيهقى لحديث أبى هريرة هذا شاهداً ، من حديث عقبة بن عامر ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير ،

(١) الآيتان من ١٩٤ - ١٩٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٤٢ من سورة مريم .

(٣) انظر سنن أبى داود ج ٥ ص ٩٧ .

(٤) الأسماء والصفات من ١٧٩ ملخصاً .

وأشار بيده إلى عينيه « (١) قال الحافظ : سنده حسن (٢) ، وروى اللالكائي عن ابن عباس أنه قرأ قوله تعالى (تجرى بأعيننا » فأشار بيده إلى عينيه « (٣)

قال ابن خزيمة : « نحن نقول : لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى ، وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما في السماوات ، وما بينهما من صغير وكبير ، لا يخفى عليه خافية فهو تعالى يرى ما في جوف البحار ، ولججها كما يرى عرشه الذى هو مستو عليه « (٤)

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله - تعالى - بقوله عن نفسه ، ويقول رسوله - ﷺ - وبالعقل ، والفطرة ، وإجماع أهل العلم والإيمان ، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق ، كالجهمية ، وإخوانهم من بعض المعتزلة ، وليس معهم على ذلك إلا التحذلق ، والكلام الفارغ ، من الحق والمعنى الصحيح أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضى التشبيه ، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه تعالى الله .

قوله تعالى : (وكان الله سميعا بصيرا) ، كان هنا تدل على الدوام ، والاستمرار الذى يعم جميع الأوقات ، كما قال علماء النحو : « إن كان تستعمل بمعنى : بقى على حاله ، واستمر شأنه ، وسيستمر من غير انقطاع ، ولا تقيد بزمن ، نحو : كان الله غفورا رحيفا « (٥)

قال ابن جرير : « إن الله لم يزل سميعا بما تقولون ، وتنطقون ، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتم بين الناس ، ولما تحاورونهم به .

(١) هذا الحديث لم أجده فى الصفات المطبوع فىكون فى النسخة التى نقل منها

الحافظ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٣ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج ٢ ص ٤١١ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٥٠ .

(٥) النحو الواضح ج ١ ص ٥٤٩ ، وانظر المقتضب للمبرد ج ٤ ص ١١٩ .

« بصيرا » بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأمواهم ،
وماتقضون به بينهم من أحكامكم ، بعدل تحكمون أو جور ، لا يخفى عليه شيء
من ذلك حافظ ذلك كله ، حتى يجازى محسنكم بإحسانه ، ومسيئكم بإساءته ،
أو يعفو بفضله » (١)

قوله : « قال الأعمش ، عن تميم ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : الحمد
لله الذى وسع سمعه الأصوات ، فأنزل الله - تعالى - على النبي - ﷺ - : (قد
سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) .

هذا الحديث رواه أحمد فى المسند موصولا (٢) وابن ماجه فى السنن (٣)
والنسائى (٤) . وكلهم يأتى مما ذكر البخارى .

ولفظهم : « أنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد
جاءت الجادلة - وللنسائى - خولة - إلى النبي - ﷺ - وأنا فى ناحية البيت ،
وما أسمع ماتقول ، فأنزل الله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) إلى
آخر الآية .

ورواه ابن ماجه فى كتاب الظهار من السنن بأتى مما هنا (٥) .

قال ابن عبد البر : « روينا من وجوه عن عمر بن الخطاب ، أنه خرج
ومعه الناس فمرَّ بعجوز ، فاستوقفته ، فجعل يحدثها وتحديثه ، فقال له رجل :
يأمر المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ، فقال : ويلك ، أتدرى من هذه ؟

(١) تفسير الطبرى ج ٨ ص ٤٩٤ بتحقيق محمود شaker .

(٢) انظر المسند ج ٦ ص ٤٦ ، وانظر الفتح الربانى ج ١٨ ص ٢٩٨ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٧ .

(٤) المجتبى ج ٦ ص ١٦٨ .

(٥) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٦٦ .

هذه امرأة سمى الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه حولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله) والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقها إلا الصلاة ، ثم أرجع إليها « (١)

قال ابن كثير : ورواه ابن أبي حاتم ، وساقه بسنده (٢) .

قوله : « وسع سمعه الأصوات » أى استوعبها وأدركها فلا يفوته منها شيء وإن خفى ، فحينما ذكرت المرأة قصتها لرسول الله - ﷺ - وقال لها : « قد حرمت عليه ، جعلت تقول : بصوت منخفض - يخفى على عائشة مع قربها منها - بعد ما كبرت سننى ظاهر منى ؟ إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إليّ جاعوا ، وإن تركتهم عنده ضاعوا ، فهذه مجادلتها لرسول الله - ﷺ - التي ذكرها الله تعالى - بقوله : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله تعالى بالسمع ، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين ، لا ينكره إلا من ضلَّ عن الهدى .

وقول عائشة هذا يدل على أن الصحابة - رضى الله عنهم - آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذى يتبادر إلى الفهم ، وأن هذا هو الذى أراد الله منهم ومن غيرهم من المكلفين ورسوله ، إذ لو كان هذا الذى آمنوا به واعتقدوه خطأ لم يقرأوا عليه ولبين لهم الصواب ، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها ، لا من طريق صحيح ولا ضعيف ، مع توافر الدواعى على نقل ذلك مما يبين قطعاً أن الذى أريد منهم ، ومن كل مؤمن هو ظاهر الخطاب ، وهذا واضح لمن تأمل النصوص ، وعرف حال الصحابة .

وبهذا يتبين بطلان التأويل ، وأنه سلوك غير سبيل الرسول - ﷺ - وصحابته ، والتابعين لهم إلى نهاية الدنيا .

(١) الاستيعاب ج ٤ ص ١٨٣١ بتحقيق الجاوى .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٦٠ مطبعة الشعب .

١٦ — قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبي عثمان ، عن أبي موسى ، قال : كنا مع النبي - ﷺ - في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال : « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا ، قريبا ، ثم أتى عليّ ، وأنا أقول في نفسي : لا حول ، ولا قوة إلا بالله . فقال : يا عبد الله بن قيس ، قل لا حول ، ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة ، أو قال : ألا أدلك . به »

* * *

قوله : « كنا مع النبي - ﷺ - في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا » هذا مما كان النبي ﷺ يفعله ، فكان يكبر إذا علا نشزا ، ويسبح إذا هبط في منخفض من الأرض ، وقد بوب البخارى - رحمه الله - على الأمرين في الجهاد والدعوات من صحيحه فقال : باب التسييح إذا هبط وادياً وبعده باب التكبير إذ علا شرفا . قال المهلب : « تكبيره ﷺ عند الارتفاع ، استشعار لكبرياء الله عز وجل ، وعندما يقع عليه العين من عظيم خلق الله أنه تعالى أكبر من كل شيء . والتسييح في الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه تعالى عن صفة السفلى والانخفاض » (١) .

وفيه دليل على علو الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه لا يجوز أن يكون شيء من خلقه فوقه تعالى وتقدس . وسيأتى البحث فيه إن شاء الله تعالى .
قوله : « فقال : « اربعوا على أنفسكم » أى ارفقوا بأنفسكم ، فلا تكلفوها

(١) فتح البارى ج ٦ ص ١٣٦ .

يرفع أصواتكم ، فإنه لاجاجة إلى ذلك ، فإن من تكبرونه ، وتسبحونه سميع بصير ، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية ، ويرى الأشياء وإن دقت ، فلا يخفى عليه شيء .

قوله : « فإنكم لا تدعون أصم ، ولا غائبا » قال صاحب القاموس : « الصمم انسداد الأذن ، وثقل السمع بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية » (١) .

وقيل : هو انسداد الأذن ، وذهاب سمعها .

قوله : « ولا غائبا » أى ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم ، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات ، كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون) (٢)

ولهذا قال : « تدعون سميعا بصيرا قريبا » وهذه صيغ مبالغة ، لأن له تعالى تمام الكمال من هذه الصفات ، فلا يفوت سمعه أى حركة وإن خفية ، فيسمع دبيب التملة على الصفاة الصماء فى ظلمة الليل ، وأخفى من ذلك كما أنه - تعالى - لا يجيب بصره شيء من الحوائل ، فهو يسمع نغماتكم وأصوات أنفاسكم وجميع ما تلتفظون به من كلمات ، ويبصر حركاتكم ، وهو معكم قريب من داعيه ، وهو أيضا مع جميع خلقه باطلاعه ، وإحاطته ، وهم فى قبضته ، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته ، ولا يخفى عليه خافية فى جميع مخلوقاته مهما كانت ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله فى مكانه .

قوله : « قل لاحول ، ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز ، من كنوز الجنة » الكنز هو المال النفيس المحفوظ ، والجمع والادخار يسمى كنزاً .

(١) انظر القاموس ج ٤ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وكنز الجنة : الأعمال الصالحة ، الفضيلة ، التي يقبلها الله ويرضاها فيحفظها ويدخرها لصاحبها ، فيكون سببا في دخوله الجنة ورفع منزلته فيها ، وهو دليل على تفاضل الأعمال ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً .

ومعنى هذه الكلمة : لانتقال من حالة إلى أخرى ، ولا انتقال من أمر إلى آخر ولا قوة على ذلك ، ولا قدرة إلا بالله ، فهو المعين عليه والمهيء لأسبابه والموجد لها ، فهي استسلام لله ، وإذعان لقدرة وإرادته ، وإقرار بأنه لا يقع حركة أو سكون إلا بمشيئته جل وعلا .

★ ★ ★

١٧ — قال : « حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثني ابن وهب ، أخبرني عمرو ، عن يزيد ، عن أبي الخير ، سمع عبد الله بن عمرو ، أن أبا بكر الصديق - رضی الله عنه - قال للنبي - ﷺ : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي ؟ قال : قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي من عندك مغفرة ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

* * *

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي ، السهمي ، أبو محمد أسلم قديما ، وكان من أفاضل الصحابة وعبادهم ، ومن العلماء المكثرين عن رسول الله ﷺ ، فقد ثبت عن حافظ الأمة أبي هريرة رضي الله عنه قوله : « ما كان أحد أكثر مني حديثا عن رسول الله ﷺ إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » (١) .

ومع ذلك فالمرؤى عنه أقل بكثير من المرؤى عن أبي هريرة ، وقد قيل : إن السبب في ذلك أن عبد الله سكن مصر والوارد إليها من الناس قليل ، وأبو هريرة سكن المدينة وهي مجمع الناس .

قيل : إنه توفي في مصر ، وقيل في الطائف ، وقيل في مكة ، وقيل في فلسطين سنة ثلاث وستين ، أو خمس وستين ، عن اثنتين وسبعين سنة ، رضي الله عنه ، وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين .

وأما أبو بكر فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة ، القرشي ، كان أبيض نحيفا خفيف العارضين ، وهو أفضل من صحب رسول الله ﷺ ، وهو أعلم الصحابة بالله ورسوله ، وهو أول من أسلم من الرجال ، ولسرعته إلى تصديق الرسول ﷺ وشدة قبوله لقوله سمى الصديق ، وهو رفيق رسول الله ﷺ في الهجرة ، وصاحبه في الغار ، كما قال الله

(١) رواه البخارى انظر الفتح ج ١ ص ٢٠٦ .

تعالى : (إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) (١) ، وقد أخبر النبي ﷺ أنه أمنَّ الناس عليه ، وأنه لو اتخذ من الناس خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً ، كما ثبت في الصحيحين ، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال ، وأن ابنته عائشة زوج رسول الله ﷺ أحب الناس إليه من النساء .

أمره رسول الله ﷺ أن يؤم الناس في مرض موته ، ولما روجع في ذلك غضب ، وقال : مروا أبا بكر فليصلَّ بالناس .

وفضائله كثيرة ، وقد كتب فيه مؤلفات ، توفي رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، ودفن جوار رسول الله ﷺ (٢)

قوله : « إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً » الظلم هو : وضع الشيء في غير موضعه .

« وهذا يدل على أن الإنسان لا ينفك عن الذنوب ، والتقصير في حقوق الله كما في الحديث : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) لأنه أطلق هذا الظلم ولم يقيده ، أو يخصصه بزمن دون آخر ، أو بحالة دون حالة ، فلو كان هناك حالة أو زمن من عمر الإنسان لا يكون فيه ظلم ماصح هذا الإطلاق ، ولأصار مطابقاً للواقع » (٤) .

قوله : « ولا يغفر الذنوب إلا أنت » تقدم معنى الغفر في اللغة ، والمقصود محو الذنوب ووقاية تبعاتها ، وهذا لجوء إلى التوحيد ، وأنه لا مفر ولا ملجأ يفزع

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) أسد الغابة ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٣) رواه ابن ماجه في السنن الزهد ج ٢ ص ١٤٢٠ الحديث رقم ٤٢٥١ ، والترمذى ج ٤ ص ٧٠ ، وأحمد في المسند ج ٣ ص ٩٨ .

(٤) شرح العمدة لابن دقيق العيد ج ٢ ص ٧٨ .

إليه في غفران الذنوب ، ووقاية شرها إلا الله وحده ، ولا طريق يسلك لذلك إلا الانطراح بين يدي رب العالمين ، والافتقار إليه ، والتوجه بكلية العبد إليه ، وإخلاص الدعاء له وحده ، رغبة ورهبة . كما قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (١).

فعلم العبد بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله يضطره إلى اللجوء إليه تعالى والإخلاص له ، وليس هناك طريق للنجاة إلا هذا الطريق ، ولهذا قيل : « إن التوحيد مفزع أولياء الله ، وأعدائه » أما أولياء الله فأمرهم ظاهر وأما أعداؤه ، فكانوا إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله وحده ، كما ذكر الله عنهم في القرآن ، ونظر العقل يؤدي إلى هذا دائما .

قوله : « فاغفر لي من عندك مغفرة » أى أنه لا حيلة لي ولا خلاص إلا بأن تمنّ على أنت وحدك بالمغفرة ، فتستر ذنوبي ، وتعفو عني ، وتقيني ما يترتب عليها من تبعات وشرور .

وقال : « من عندك » ليعين الاختصاص ، أى أن المغفرة منك وحدك تفضل بها عليّ ، بدون استحقاق ، بل هي محض جودك وكرمك .

وقوله : « إنك أنت الغفور الرحيم » ختم هذا الدعاء ، بهذين الاسمين الكريمين ، لمناسبتهما للمطلوب ، فالغفور يناسب طلب المغفرة .

والرحيم يناسب طلب التفضل والجود ، وهو قريب من الأول . وهذا من معاني دعاء الله بأسمائه الحسنی .

« وقد جمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه - عز وجل - بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران .

سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا ، وهكذا أدب الدعاء ، وأدب
العبودية « (١)

والمقصود من الحديث في هذا الباب أن المدعو لا بد أن يكون سميعا يسمع
دعوة الداعي إذا دعاه ، بصيراً بحاله فيوصل إليه ما طلب بقدرته ، وإلا تكون
دعوته ضلال وسدى ، ففي الدعاء واستجابة الله تعالى لعبده الداعي برهان على
أنه سميع ، بصير ، قادر ، حى ، عليم ، وقد قال الله تعالى فيمن يدعو من
لا يسمع ، ولا يبصر : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى
يوم القيامة وهم عن دعاءهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا
بعبادتهم كافرين » (٢)

وقال تعالى عن خليله إبراهيم في دعوته لأبيه : (ياأبت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » (٣)

« قد قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى إلى الدعاء ، وفي ذلك معان .

أحدها : الوجود ، فإن من ليس بوجود لا يدعى .

الثانى : الغنى ، فإن الفقير لا يدعى .

الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يدعى .

الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يدعى .

الخامس : الرحمة ، فإن القاسى لا يدعى .

السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يدعى .

(١) الوابل الصيب ص ١١٨ .

(٢) الآيتان ٥ و ٦ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن يقول بالطبائع ، يعلم أن النار ، لا يقال لها كفى ، ولا النجم يقال له : أصلح مزاجي . لأن هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا ، فشرع الدعاء ، وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع « (١)

و « فعل السمع يراد به أربعة معان :

أحدها : سمع إدراك ، ومتعلقه الأصوات .

الثاني : سمع فهم ، وعقل ، ومتعلقه المعاني .

الثالث : سمع إجابة وإعطاء ماسئل .

الرابع : سمع قبول ، وانقياد ، فمن الأول ، (سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) ، و (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ، ونحن أغنياء) (٢) ، ومن الثاني : قوله : (لاتقولوا : راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا) (٣) أى سمع فهم وعقل ، ومن الثالث : سمع الله لمن حمده ، ومن الرابع : قوله : سماعون للكذب ، أى قابلون له ، ومنقادون ، فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام ، وبمن ، وإجابته بمن « (٤) .

★ ★ ★

(١) شرح الطحاوية ص ٤٥٧ الطبعة الثالثة .

(٢) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٤) بدائع الفوائد ج ٢ ص ٧٥ .

١٨ - قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، حدثني عروة ، أن عائشة - رضی اللہ عنہا - حدثته ، قال النبي - ﷺ : « إن جبريل - عليه السلام - ناداني . قال : إن الله قد سمع قول قومك ، وما ردوا عليك » .

* * *

اختصر البخارى هذا الحديث هنا - فذكر الشاهد منه ، وقد ذكره بتمامه في بدء الخلق ، ولفظه : « قالت للنبي - ﷺ - هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ » .

قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت - وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل فناداني ، فقال - : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثم قال : يا محمد - فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال : النبي - ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً « (١)

ففي هذا الحديث البيان الواضح في أن الله - تعالى - يسمع أقوال عباده ، وأنه لا يخفى عليه - تعالى - من ذلك شيء .

(١) انظر البخارى مع الفتح ج ٦ ص ٣١٢ .

وصفة السمع والبصر من الصفات اللازمة لله - تعالى - وقد تقدم بيان
ثبوت ذلك له - تعالى - عقلا ، وشرعا ، وفطرة ، وأن من أنكر ذلك عرف به
وأعلم إن كان جاهلا ، وإلا حكم عليه بالكفر لإنكاره الحق الواضح ، الواجب
اعتقاده والإيمان به ، لأنه أنكر ما ثبت ، وتواترت عليه كتب الله ، وجاءت به
جميع رسله ، فهو أمر ضرورى .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله - تعالى - « قل هو القادر »

* * *

هذا الخطاب الكريم ، وأمثاله كثير في كتاب الله - تعالى - عام شامل ، يجب أن يفهم على عمومه ، كما يجب أن يفهم مراد الله - تعالى - فيه ، وفي غيره من خطاباتة - تعالى - .

« وقد اتفق المسلمون ، وسائر أهل الملل على أن الله - تعالى - على كل شيء قدير كما في نصوص القرآن الكريم ، وغيره من كتب الله - تعالى - ، وما وجد من أفراد مسائل وقع الخلاف فيها ، فهو بسبب عدم فهم النصوص ، كقول من يدخل في هذا العموم ، الممتنع لذاته ، مثل الجمع بين الضدين ، ككون الشخص ميتا ، حيا في آن واحد ، والجمع بين الحركة ، والسكون ، والسواد والبياض وما أشبه ذلك .

وكذا من لا يدخل ذلك في هذا العموم ، فلا يكون ذلك داخلا عندهم في عموم القدرة .

والحق أن الممتنع لذاته ليس شيئا ، ولا وجود له في الخارج ، بل لا يتصوره الفكر ثابتا في خارج الذهن ، ويمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان ، إلا على وجه التمثيل ، فهو ليس بشيء ، لا في الأعيان ، ولا في الأذهان ، فلا يصلح أن يقال : إنه خارج من هذا العموم ، أو داخل فيه ، لأن هذا يجعل له وجودا ولو في الفرض ، فيوقع في الشبه والشكوك ، بل يقال : (إن الله على كل شيء قدير) وهذا ليس بشيء .

وأما المعدوم ، فليس بشيء أيضا في الوجود الخارجى ، ولكنه شيء في

التصور ، والذهن ، وما علم الله - تعالى - أنه سيكون ، فهو شيء في التقدير ،
والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئا في الخارج ، كما قال الله تعالى : (إنما أمره إذا
أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون) (١) .

فلفظ الشيء في الآية يتناول ما وجد ، وما يتصوره الذهن موجودا ولايستثنى
من ذلك شيء ، لا أفعال العباد ، ولا أفعاله - تعالى - سواء المتعدية ، أو
اللازمة ، كما قال تعالى : - (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم
استوى على العرش) « (٢) . فجمع فى الآية بين النوعين من الأفعال ، المتعدية
واللازمة .

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة ، فإن ما شاء الله كان ، ولا يكون
شيء إلا بقدرته - تعالى - : ولهذا قال - تعالى : (وهو على جمعهم إذا يشاء
قدير) (٣) (وهو على كل شيء قدير) (٤) .

والشيء فى الأصل ، مصدر شاء ، يشاء ، شيئا ، كنال ، ينال ، نيلا ، ثم
وضعوا المصدر موضع المفعول ، فسموا « المشاء » شيئا ، كما سمو المنال نيلا ،
فقالوا : نيل المعدن ، كما يسمى المقذور ، قدرة ، والمخلوق خلقا فقوله
تعالى : (على كل شيء قدير) أى على كل مايشاء ، فمنه ماقد شاءه فوجد ،
ومنه ما لم يشأه [فلم يوجد] وهو شيء فى العلم ، بمعنى أنه قابل لأن يشاءه .

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) انتهى من مجموع الفتاوى ملخصا ج ٨ ص ٧ - ١١ .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الشورى .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

فهذا العموم يتناول ما كان شيئاً في الخارج ، والعلم ، وما كان في العلم فقط ، بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة ، وهو الحق - تعالى - وصفاته ، أو الممتنع لنفسه ، فإنه غير داخل في العموم ، ولهذا اتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء» اهـ (١)

(١) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

١٩ - قال - « حدثني إبراهيم بن المنذر ، حدثنا معن بن عيسى ، حدثني عبد الرحمن بن أبي المولى ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن ، يقول : - أخبرني جابر بن عبد الله ، السلمى ، قال : كان رسول الله - ﷺ - يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلم السورة من القرآن ، يقول : إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم يسميه بعينه - خيرا لى ، فى عاجل أمرى وآجله - قال : أو فى دينى ومعاشى ، وعاقبة أمرى - فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال : فى عاجل أمرى وآجله - فاصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به » .

* * *

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى الخزرجى ، من أكابر علماء الصحابة ، والحريصين على تحصيل العلم ، فقد ذكر له عدة رحلات فى طلب الحديث . منها أنه رحل من المدينة إلى مصر من أجل حديث واحد ، كما ذكره البخارى فى صحيحه معلقا ، وكان حافظا كثيرا عن رسول الله ﷺ . وهو مفتى المدينة فى زمانه . له مناقب كثيرة .

قال الواقدى : توفى سنة ثمان وسبعين ، وقال صاحب الحلية : سنة سبع وسبعين . قيل إنه عاش أربعاً وتسعين سنة رضى الله عنه وعن سائر صحابة رسول

قوله : « يعلمنا الاستخارة » أى صلاتها ودعاءها ، وهذا من تمام شفقتة على أمته ، وحرصه على حصول الخير لهم ، ودفع كل شر عنهم ، ويمثل هذا يعلم أنه ﷺ . ما كان ليترك باب ما يعتقدونه فى ربهم ، من الإيمان بأسماءه وصفاته ، وما يجب له ، وما يمنع عليه ما كان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان لا يحصل معه أى التباس أو اشتباه ، وهذا واضح جلى من دعوة الرسول ﷺ ، ومن حاله ، وهو موجب الرسالة ، ومن حالة أصحابه أيضا .

الاستخارة : طلب الخير من أحد الأمرين ، الفعل لما همَّ به ، أو الترك ، وهى مشروعة فى عامة الأمور ، كما يدل عليه هذا الحديث ، لا يخرج من عموم ذلك إلا الواجب ، والحرم ، أما المستحب والمكروه ، ففيهما تفصيل ، يذكر فى كتب الآداب الشرعية ، وكتب الفروع .

وقوله : « كما يعلمنا السورة من القرآن » بيان لشدة الاهتمام بها والاعتناء . وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكل عاقل ، وقد كان العرب قبل ذلك إذا همَّ أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام ، أو ذهب يزرع الطير ليستدل بطيرانه أو نعباه على ما سيحصل له فى المستقبل ، أو ذهب إلى الكهنة وإخوان الشياطين ، وهذا كله رجم بالغيب ، وشرك بالله . فعوضه الإسلام عن ذلك بالفزع إلى من بيده أزمة الأمور كلها ، ومن يملك الخير ، والشر ، فيقدمون بين يدي ذلك ركعتين ، لتكونا وسيلة بين يدي الطلب ، ثم يتوجهون إلى ربهم بهذا الدعاء ، الذى فيه التوسل إليه تعالى بأسماءه وصفاته ، وتوحيد الطلب ، والنية والقصد .

وقوله : « ليركع » أمر بالركوع ، ويحمل على الندب للأدلة الدالة على عدم الوجوب .

(١) انظر سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٨٩ ، والإصابة ج ١ ص ٢١٣ ، وأسد الغاية ج ١ ص ٢٥٦ ، والاستيعاب ج ١ ص ٢١٩ .

قوله : « من غير الفريضة » يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض ، بل لا بد أن تكون بركعتين غير الفريضة ، ثم يدعو بهذا الدعاء .

قوله : « اللهم إني أستخيرك » أى أطلب منك بيان ماهو خير لى .

قوله : « بعلمك » أى أسألك ، وأتوسل إليك بصفتك ، صفة العلم أن ترشدنى إلى الخير فيما أريد ، فإنك عالم به لا يخفى عليك شىء .

وهذا صريح فى إثبات صفة العلم لله - تعالى - ودعاءه به ، والأدلة عليه لا حصر لها كما سبقت الإشارة إليه .

وقوله : « وأستقدرك » أى أسألك أن تجعلنى قادراً على فعل ما أريد ، وتبهيء أسباب ذلك لى .

وقوله : « بقدرتك » وهذا سؤال لله تعالى بصفته التى هى القدرة - أى أنت القادر الذى لا يعجزه شىء ، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلنى ما أريد ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب كما هو ظاهر .

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين ، بقوله : « فإنك تقدر ، ولا أقدر » الخ . يعنى - لك القدرة الكاملة الشاملة ، فأسألك بها ، كما أنى أسألك بفقرى إليك وعجزى ، فليس لى قدرة على شىء حتى تجعلنى قادراً عليه ، وتيسر لى أسبابه ، وأنت تعلم عواقب الأمور ، وما تؤول إليه ، بل لا يخفى عليك شىء فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فعلمك شامل لكل شىء ولا علم لى بشىء من ذلك إلا ما علمتنى .

وقوله : « وأنت علام الغيوب » أى ذلك خاص بك لا يعلمه سواك .

قوله : « ثم يسميه بعينه » ظاهر فى أنه يتلفظ به معينا له باسمه ، ليكون بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه .

« في عاجل أمرى وآجله » أى فى دنياى ، وآخرى .

« أو فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى » شك من الراوى هل قال الأول أو الثانى ، والمعنى واحد .

وقوله : « فاقدره لى ، ويسره لى » أى اقض به لى ، واجعلنى قادراً على الحصول عليه ، وسهل لى أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة . وفى هذا ، أنه لا يحصل شئ إلا بسبب .

« ثم بارك لى فيه » أجعل فيه بركة تنميه وتزيده ، وفيما يترتب عليه .
« اللهم إن كنت تعلم أنه شرئى ، فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى - أو قال : عاجل أمرى ، وآجله فاصرفنى عنه » أى هبىء الأسباب التى تصرف قلبى وتثنى عزمى عن فعله .

« وقدر لى الخير حيث كان » أى قدر لى فعل ما فيه خير لدينى ودنياى فى أى مكان ، وفى أى وقت .

« ثم رضنى به » أى اجعلنى رضيا به ، قانعا . ناعم البال ، مستغنيا عن خلقك مستعينا به على طاعتك ، وشاكرا لك منقادا لأمرك .

ومراد البخارى إثبات صفة القدرة لله تعالى ، وأن قدرته تعالى عامة لكل مقدر ، والرد على القدرية نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم الذين يقيدون قدرة الله تعالى بما اخترعوه من عند أنفسهم ، ولهذا اقتصر على هذا القدر من الآيات أى القادر على كل شئ .

فالله تعالى يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لا مانع له ، ولا يقدر غيره أن يمنعه مراده « فهو قادر على كل مقدر » .

وكل ممكن يكون مقدورا له ، فما من ممكن فى نفسه إلا والله قادر عليه .
وأما الممتنع لنفسه ، فإنه ليس بشئ عند جميع العقلاء وإن تنازعا فى المعلوم

الممكن مثل إيمان الكافر هل هو شيء أولاً ؟

فأما الممتنع لنفسه فلم يقل أحد أنه شيء في الخارج ، والممتنع هو ما لا يمكن وجوده في خارج الذهن ، مثل كون الشيء موجوداً معدوماً (١) فإنه لا يعقل ثبوت ذلك ، وكذا كون الشيء أسود كله وأبيض كله وكون الجسم الواحد بعينه في الوقت الواحد في مكانين ، والممتنع يراد به الممتنع لنفسه مثل هذه الأمور ، ويراد به الممتنع لغيره مثل ما علم الله أنه لا يكون ، وأخبر أنه لا يكون ، وكتب ذلك فهذا ممتنع لأنه لو كان للزم أن يكون علم الله متخلف عن معلومه ، وخبره بخلاف الواقع تعالى عن ذلك ، ولكن هو ممكن بنفسه والله قادر عليه ، كما قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (٢) وقال تعالى : (وإنا على ذهاب به لقادرون) (٣) ، وقال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (٤) (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) (٥) .

وأمثال ذلك مما يخبر تعالى أنه لو شاء لفعله ، فإن هذه الأمور التي أخبر أنه لو شاء لفعلها يلزم أنها ممكنة مقدورة له ، فإيمان من علم الله أنه لا يؤمن مقدور له ممكن ، لكنه لا يقع ، وقد علم الله أنه لا يؤمن ، مع كونه مستطيع الإيمان ، كمن علم أنه لا يحج مع استطاعته الحج .

(١) ومن ذلك قول بعض الملاحدة : هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه ، فهذا ممتنع لنفسه ، وإنما يورده جاهل لا يتصور ما يقول ، أو ملبس معاند يريد إفساد عقائد عوام المؤمنين أو التشكيك في قدرة الله تعالى .

(٢) الآية ٤ من سورة القيامة .

(٣) الآية ١٨ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٥) الآية ١١٨ من سورة هود عليه السلام .

قال الله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (١) .
 وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به في غير موضع من كتابه أنه على كل
 شيء قدير ، وهذا هو ما يعتقدُه أهل السنة المثبتون للقدر « (٢)

★ ★ ★

(١) الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

(٢) منهاج السنة ج ٢ ص ١١٨ - ١٢٢ ملخصا ببعض التصرف .

قال : « باب مقلب القلوب »

وقول الله - تعالى - : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) (١)

قال الراغب : « تقلب الشيء : تغييره من حال إلى حال ، والتقلب التصرف - وتقلب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأى إلى رأى » (٢) .

قال ابن عباس : « لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت عن كل أمر » (٣) .

وقال مجاهد : « وتحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة » (٤) .

قال الحافظ : « المراد بتقلب القلوب : تقلب أعراضها ، وأحوالها ، لا تقلب ذات القلب » (٥) .

أخبر - تعالى - أنه يعاقب من لا يقبل الحق ، أو يرده أول ما يبلغه بتقلب القلب ، وتركه يعمه في ضلاله وغيه ، كما في هذه الآية المذكورة في الباب وكما في قوله تعالى - : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٦) وفي هذا بيان أن الله تعالى إذا منع فضله الإنسان ، بالهداية ، أنه يكون منحرفا ضالا .

(١) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .

(٢) المفردات ص ٤١١ .

(٣) رواه الطبري انظر التفسير ج ١٢ ص ٤١ ، ٤٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٤ .

(٥) الفتح ج ١١ ص ٥٢٧ .

ومراد البخارى - رحمه الله - وصف الله - تعالى - بأنه المنفرد بالتصرف فى خلقه حتى قلوب العباد التى تنطوى على آراءهم ، ونياتهم ، وما يخططون لمستقبلهم حيث يرى كثير منهم أو أكثرهم فى الظاهر أنهم أحرار فى أفكارهم ، وما يريدونه ، والواقع أن الله تعالى هو الذى يصرفهم فى ذلك ، فلا قدرة لهم إلا بعد مشيئة ، وبهذا يشير البخارى رحمه الله إلى تمام قدرة الله التى سبق ذكرها فى الباب قبل هذا ، حيث بين بهذا أن الله هو المتصرف بالقلوب ، فإن شاء جعلها مريدة للخير ، وإن شاء جعلها مريدة للشر . وبذلك يعلم أنه لا قدرة لأحد على شئ إلا بعد أن يجعله الله قادرا عليه ، خلافا لما يقوله الضالون عن الحق ، من أهل البدع ، والانحراف .

٢٠ - قال : « حدثنا سعيد بن سليمان ، عن ابن المبارك ، عن موسى ابن عقبة ، عن سالم ، عن عبد الله ، قال : « أكثر ما كان النبي ﷺ - يحلف : لا ، ومقلب القلوب »

* * *

ذكر البخارى رحمه الله - هذا الحديث فى كتاب القدر ، بلفظ : « كثيرا ما كان النبي ﷺ - يحلف ، لا ، ومقلب القلوب » (١) .

وذكر عن ابن عمر - أيضا - « كانت يمين النبي ﷺ : لا ومقلب القلوب » (٢)

وفى رواية ابن ماجه : « كان أكثر أيمان رسول الله - ﷺ : لا ومصرف القلوب » (٣) .

قال الحافظ : « فى هذا الحديث ، دليل على أن أعمال القلب ، من الإرادات ، والدواعى وسائر الأعراض ، بخلق الله - تعالى - وفيه جواز تسمية الله تعالى بما ثبت من صفاته على الوجه الذى يليق به » (٤) .

ففى هذا الحديث ، وما هو نحوه من الدلائل أن الله تعالى هو الذى يتولى قلوب العباد يصرفها كيف يشاء ، وهذا من تمام ملكه ، فلا ينزعه أحد فى التدبير والتصرف ، ولا يقع فى الوجود إلا ما أراه ، وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه ، وأنه لاغنى له عنه طرفة عين ، فلا بد له من هدايته ، وتوفيقه وإلا ضل

(١) انظر البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٥١٣ .

(٢) انظر المرجع المذكور ص ٥٢٣ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٢ .

(٤) فتح البارى ج ١١ ص ٥٢٧ .

وتاه في مهامه نهايتها الهلاك ، والعذاب المؤبد ، وهذا لا ينافي تكليف العباد ، بالأعمال التي يترتب عليها الجزاء ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى في موضعه .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين ، من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه كيف يشاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك » (١) .

(١) انظر مسلم كتاب القدر ج ٤ ص ٢٠٤٥ رقم الحديث ٢٦٥٤ .

قال : « باب إن لله مائة اسم إلا واحدة »

* * *

مراده بهذا الباب وجوب إثبات أسماء الله - تعالى - على ماورد في كتاب الله ، وعن رسوله ، وأن ذلك من التوحيد الذى بينه الرسول - ﷺ - ودعا أمته إلى الإيمان به ، ووجوب اعتقاده ، قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (١) وقال جل وعلا : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٢) . وقال تبارك وتعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى) (٣) .

فهذه الآيات وغيرها مما فى معناها ، تدل على وجوب الإيمان بما لله تعالى من الأسماء الحسنى ، الدالة على عظيم جلاله ، وسعة أوصافه . فكل اسم من أسمائه دال على كمال عظمته ، وبذلك كانت حسنى ، أما الأسماء التى لاتدل على صفات الكمال ، فليست بحسنى ، وكذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص ، أو دلت على مجرد علمٍ محض ، مثل إبراهيم ، وزيد . فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التى اشتقت منها الاسم ، مثل « العليم » فإنه يدل على أن له علماً عاماً محيطاً بجميع الأشياء ، لا يخرج عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ومثل « القدير » الدال على قدرته التى لايعجزها شئ ، و « الرحيم » الدال على رحمته العظيمة التى وسعت كل شئ .

(١) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

وهكذا كل أسمائه جل وعلا ، وهذا تفصيل ، وبيان للباب الثاني من الكتاب ولكونها حسنى أوجب على عباده ، دعاءه بها ، كما يأتي في الباب بعد هذا ، ونوعد الملحدين بها .

فيدعى بكل مطلوب بما يناسبه منها ، فيقال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وتب عليّ إنك عفو كريم ، والطف بى يا لطيف ، وارزقنى يارزاق ، وهكذا .

« قوله : « إن لله مائة اسم إلا واحدة » التأنيث فى لفظة « واحد » نظراً إلى التسمية أو الكلمة ، كما يقول النحاة : « الكلمة اسم أو فعل أو حرف » .
وقال ابن مالك : أنت باعتبار معنى التسمية ، أو الصفة ، أو الكلمة » (١)

وفى بعض رواياته « إلا واحداً » .

قال ابن عباس : « ذو الجلال ، العظمة ، البر اللطيف » .

فى رواية : « ذو الجلال ، العظيم » ، فىكون « العظيم » تفسيراً « لذو » ، وعلى الأولى تفسيراً « للجلال » .

فدو الجلال ، صاحب العظمة ، الذى لانتقاس عظمته بشيء من خلقه جل وعلا .

وأما « البر » فهو المحسن غاية الإحسان إلى خلقه ، من غير استحقاق ولا مقابل ، فهو بليغ الإحسان إلى خلقه ، وإحسانه شامل لهم .

وأما اللطيف . فهو العالم بالخفيات ، ودقائق الأمور ، وغوامضها ، والله أعلم .

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢١٩ .

وقال الزجاج : « اللطيف » المحسن إلى عباده في خفاء ، وستر من حيث يعلمون « (١) .

★ ★ ★

(١) تفسير الأسماء الحسنى ص ٤٤ .

٢١ — قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة » . « أحصيناه » حفظناه .

* * *

« قال جماعة من العلماء : الحكمة في قوله : « مائة إلا واحدا » بعد قوله : « تسعة وتسعين » أن يقرر ذلك في نفس السامع ، جمعا بين جهتي الإجمال والتفصيل ، أو دفعا للتصحيف الخطي ، أو اللفظي » (١)

قوله : « إن لله تسعة وتسعين اسما » هذا لا يقصد به حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد المذكور ، وإنما قصد الإخبار عن ما يترتب على إحصائها وجزائه كما تقول : عندي مائة كتاب أعددتها للإعارة . فلا ينفي أن يكون عندك كتب غيرها ، فالتقييد بهذا العدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بهذه الصفة وهي قوله : « من أحصاها دخل الجنة » فهذه الجملة محلها النصب صفة « لتسعة وتسعين » ، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء ، والمعنى « إن لله أسماء بقدر هذا العدد ، من أحصاها دخل الجنة » .

فأسماء الله تعالى ، لا تدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد ، بدليل ما رواه الإمام أحمد في المسند ، حدثنا يزيد ، أنبأنا ابن مرزوق ، حدثنا أبو سلمة الجهني (٢) ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله ، قال : قال

(١) الفتح ج ١١ ص ٢١٩ .

(٢) يزيد ، هو ابن هارون إمام حافظ مشهور ، وابن مرزوق ، هو فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشي الكوفي من رجال مسلم ، وأبو سلمة هو موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن .

رسول الله ﷺ - : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ، ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل في قضاءك ، أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً » (١) سنده صحيح .

قال ابن كثير : « وأخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان في صحيحه بمثله » (٢)

فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسع والتسعين .

وقوله في هذا الحديث : « أو استأثرت به في علم الغيب عندك » ، معناه انفردت بعلمه فلم تطلع عليه أحداً ، لا ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا .

وقسم أسماء الله تعالى في هذا الحديث ثلاثة أقسام :

أحدها : ماسمى به نفسه ، فأظهره لمن شاء ، من ملائكته أو غيرهم ولم ينزله في كتبه .

والثاني : أنزله في كتبه ، أو في بعضها ، فتعرف به إلى عباده .

والثالث : استأثرت به في علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا قال : « أو استأثرت به في علم الغيب عندك » أى جعلته من الغيب الذى لا يعلمه غيرك ، وليس المراد أنه - تعالى - انفرد بالتسمي به لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التى أنزلها في كتبه .

(١) المسند ج ١ ص ٣٩١ ، ٤٥٢ ، وانظر الفتح الرباني ج ١٤ ص ٢٦٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥١٧ ط الشعب .

ومن الأدلة على عدم حصرها فيما ذكر ، قوله : - ﷺ - في حديث الشفاعة « فيفتح عليّ من محامده مالا أحسنه الآن » وتلك المحامد ، هي الثناء عليه - تعالى - بماله من أسماء حسنى وصفات عليا .

ومن الأدلة أيضا قوله - ﷺ - : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وأحسن الثناء ما كان بأسماء الحسنى وصفاته العلية .

وهذا يتبين أن الأسماء الحسنى غير محصورة في العدد المذكور ، وإنما خص ذكر هذا العدد لما رتب عليه من الحكم ، وهو من أحصاها دخل الجنة ، فليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى ، ولا يدل على أنه ليس لله اسم غير هذه التسع والتسعين ، وإنما أريد به الإخبار بدخول الجنة لمن أحصاها ، لا الإخبار بحصرها ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، كما ذكره الحافظ ، ونقل النووى الاتفاق على ذلك . (٢)

قال شيخ الإسلام : « والصواب الذى عليه جمهور العلماء ، أن قول النبى ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » معناه أن من أحصى التسعة والتسعين ، من أسمائه دخل الجنة ، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسما ، فإن في الحديث الآخر الذى رواه أحمد وأبو حاتم في صحيحه « أسألك بكل اسم هو لك » الحديث . وفي الصحيحين : « لا أحصى ثناء عليك » ولو أحصى جميع أسمائه ، لأحصى صفاته فكان يحصى الثناء عليه ، لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه » (٣)

قوله : « من أحصاها دخل الجنة » اختلف في المقصود من الإحصاء ، وربما فهم من صنيع البخارى أنه يرى أن إحصاءها هو حفظ ألفاظها ، كما فهم

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ج ١ ص ٣٥٢ ، وأبو داود في الوتر ج ٢ ص

١٣٤ وغيرهما .

(٢) انظر فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٠ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ج ٣ ص ٣٣٢ .

ذلك الحافظ ابن حجر ، وعندى فيه نظر ، وذلك أن عادة البخارى التى سار عليها فى كتابه هذا ، أنه إذا جاء لفظ فى الحديث ، وفى القرآن لفظ يوافقهما فى اللفظ والاشتقاق ، أنه يذكره وإن كان لا يوافقهما فى المعنى ، وأمثلة ذلك كثيرة . فهو فى قوله : « أحصيناه حفظناه » يشير إلى قوله تعالى : (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبین) قال الأصيلي : « إحصاءها العمل بها ، لاعدّها وحفظها ، لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق ، كما فى حديث الخوارج : « يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم » (١)

وذكر العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - لإحصاءها ثلاث مراتب :

الأولى : إحصاء ألفاظها ، وعددها .

الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

الثالثة : دعاؤه - تعالى - بها كما قال : (والله الأسماء الحسنى فادعوه

بها)

والدعاء نوعان : دعاء ثناء وعبادة .

ودعاء مسألة وطلب ، وكلا النوعين ورد بهما القرآن بكثرة .

فلا يثنى عليه تعالى إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، كما لا يسأل إلا بها ، ويسأل بها فى كل مطلوب بما يناسبه ، ويقتضيه من الأسماء الحسنى ، والصفات العلية الكريمة ، كما تقدمت الإشارة إليه .

وهذا من أعظم الوسائل إلى الله تعالى ، وأنفعها ، ولهذا جاءت أدعية

الرسل مطابقة لذلك » (٢)

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر بدائع الفوائد ج ١ ص ١٦٤ .

وبهذا يتبين أن إحصاءها الموعود عليه دخول الجنة ، يتضمن حفظها وفهمها ، ودعاء الله بها ، والله أعلم .

قال أبو عمر الطلمنكى : « من تمام المعرفة بأسماء الله - تعالى - وصفاته التي يستحق بها الداعى والحافظ ما قال رسول الله - ﷺ - المعرفة بالأسماء والصفات ، وما تتضمنه من الفوائد ، وتدل عليه من الحقائق ، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني » (١)

★ ★ ★

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢٦ .

قال : « باب السؤال بأسماء الله تعالى ، والاستعاذة بها »

* * *

السؤال : هو الطلب بذل وخضوع وافتقار ، والاستعاذة هي : العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه ، ويرفع البلاء بعد نزوله . وهما من أفضل أنواع العبادة ، فالبخارى رحمه الله - أراد بهذا الباب أن يبين معنى دعاء الله تعالى بأسماءه الذى أمر الله به ، وأن الرسول - ﷺ - قد بينه .

قال ابن بطال : « مقصوده بهذه الترجمة ، تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى ، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم ، كما تصح بالذات » (١)

قلت : هذا بعيد عن مقصود البخارى ، وإنما مقصوده بيان كيفية دعاء الله وعبادته بأسماءه التى أمر أن يدعى بها ، ويعبد بقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، وبين ذلك الرسول ﷺ بفعله ، وأمره ، كما فى الأحاديث التى ذكرت فى هذا الباب وغيرها .

وأما مسألة : هل الاسم هو المسمى ، أو غيره ؟ فهى من بدع الكلام ، التى حدثت بعد القرون المفضلة ، والتى اختلط فيها الحق بالباطل .
والبخارى - رحمه الله - من أبعد الناس عن مثل ذلك .

قال ابن جرير الطبرى - رحمه الله : « وأما القول . فى الاسم أهو المسمى أم هو غيره ؟ فإنه من الحماقات الحادثة ، التى لا أثر فيها فيتبع ، ولا قول من إمام فيستمع ، فالخوض فيه شين ، والصمت عنه زين . وحسب امرئ من العلم به والقول أن ينتهى إلى قوله جل ثناؤه الصادق وهو قوله : - تعالى - (قل ادعوا

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٧٩ .

الله ، أو ادعوا الرحمن ، أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنی) (١) وقوله : « والله الأسماء الحسنی » (٢) .

« وكان سبب حدوث هذه المسألة ، أن الجهمية قالوا : إن الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره ، وما كان غيره فهو مخلوق ، لأن الله - تعالى - وحده هو الخالق ، وما سواه مخلوق ، فإذا كانت أسماء غيره ، فهي مخلوقة . فرد عليهم السلف ، واشتد نكيرهم عليهم ، لأن أسماء الله من كلامه ، وكلام الله غير مخلوق ، فهو الذى سمى نفسه بهذه الأسماء .

فكان مراد الذين يقولون الاسم غير المسمى [من أهل السنة] هو هذا .

ولهذا روى عن الشافعى ، والأصمعى ، وغيرهما أنهم قالوا : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى ، فاشهد عليه بالزندقة » (٣)

وللناس فى هذه المسألة ثلاثة أقوال :

أحدها : ما ذكره ابن بطال ، وإليه ذهب كثير من المنتسبين إلى السنة كأبى القاسم الطبرى اللالكائى ، والبغوى ، وغيرهما .

قال البغوى : « والاسم هو المسمى ، وعينه ، وذاته ، قال الله تعالى : (إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) (٤)

فأخبر أن اسمه يحيى ، ثم نادى الاسم ، فقال : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) (٥) .

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) عقيدة الطبرى ص ١٢ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ١٨٧ .

(٤) الآية ٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ١٢ من سورة مريم .

وقال تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتوها) (١) وأراد الأشخاص المعبودة ، لأنهم كانوا يعبدون المسميات .

وقال تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وقال : (تبارك اسم ربك) .
والقول الثاني : أن الاسم غير المسمى .

والثالث : أن الاسم للمسمى ، وهذا القول دل عليه الكتاب ، والسنة قال تعالى - (والله الأسماء الحسنى) (٢) وقال : (أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٣) وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) (٤) وقال تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى) (٥) .

ومن السنة هذا الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » .

وقوله - ﷺ - : « إن لي خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأحمد ، والمأحى ، والحاشر ، والعاقب » (٦) .

هذا مذهب أكثر أهل السنة .

فلا يطلقون بأنه المسمى ، ولاغيره ، بل يفصلون ، حتى يزول اللبس .
فإذا قيل لهم : أهو المسمى أم غيره ؟ قالوا : ليس هو نفس المسمى ، ولكن يراد به المسمى .

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٨ من سورة طه .

(٥) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

(٦) رواه البخارى ، انظره مع الفتح في التفسير ج ٨ ص ٦٤٠ ، وفي المناقب ج

٦ ص ٥٥٤ ، ومسلم في الفضائل ج ٤ ص ١٨٢٨ رقم ٢٣٥٤ ورقم ٢٣٥٥ .

وإن أريد بأنه غيره ، كونه بائناً عنه ، فهو باطل ، لأن أسماء الله من كلامه وكلامه صفة له ، قائمة به ، لا تكون غيره .

واسم الله - تعالى - في مثل إذا قيل : « الحمد لله » أو « بسم الله » يتناول ذاته وصفاته ، لا ذاتاً مجردة عن الصفات ، ولا صفات مجردة عن الذات . وقد نص الأئمة على أن صفاته ، داخلة في مسمى أسمائه ، فلا يقال : إن علمه وقدرته ، زائدة عليه .

ومن قال من أهل السنة : إن الصفات ، زائدة على الذات .

فمراده : أنها زائدة على ما أثبتته أهل التعطيل ، الذين أثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات ، لأنه ليس في الوجود ، ذات مجردة عن الصفات ، كما لا يمكن وجود صفات بلا ذات ، تقوم بها ، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس .

ثم إن الذين قالوا : إن الاسم هو المسمى ، ليس مرادهم ، أن مجرد اللفظ هو الذات ، التي وضع لها هذا الاسم ، فإن هذا لايقوله عاقل .

كما أن الذين قالوا : إن الاسم غير المسمى ، لم يريدوا أن مجرد اللفظ غير الذات ، فإن هذا لاجدال فيه .

وما ذكره البغوى - رحمه الله - محتجاً به على أن الاسم هو المسمى ، فهو لايدل على ما قاله .

فقوله - تعالى - : (وإنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) ثم قال : (يا يحيى خذ الكتاب) فاللفظ الذى هو « الياء والحاء والياء » ليس هو ذات المسمى به ، فمن زعم ذلك فقد كابر .

فالقصد نداء المسمى لانداء اللفظ ، والمتكلم لايمكنه نداء من يريد مناداته إلا ذكر اسمه ، إلا أن يكون ذلك بالإشارة .

وأما قوله - تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتوها ، أنتم وآباؤكم ^(١))

فليس المراد : أنكم تعبدون الأوثان المسماة ، فهم معترفون بذلك .
بل المراد : نفى ما كانوا يعتقدونه فيها من الإلهية ، والواقع أنه ليس فيها شيء من ذلك .

فإذا عبدوها ، معتقدين ثبوت إلهيتها ، مسميها آلهة ، لم يكونوا في حقيقة الأمر عبدوا إلا أسماء ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس فيها من معنى الإلهية شيء ، فعبادتهم لما تصوروه في أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنه بالستهم .

وهذا التصور خيالي ، لاحقيقة له ، فهم لم يعبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد ، الذى تصوروه ، وسموه إلهاً ، فكان مجرد تسمية فقط ، ليس له من معنى الإلهية شيء .

وأما قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) . فالمراد به ، تسبيحه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به ، معتقداً ذلك بقلبه ، متلفظاً باسمه بلسانه ، قائلاً : « سبحان ربى الأعلى » ، والمراد المسمى بهذا الاسم ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى .

ومن قال : المراد بتسبيح الاسم ، أنك لاتسمى به غير الله ، ولا تلحد في أسمائه . فهذا المعنى مما يستحقه اسم الله تعالى ، وهو داخل في المراد بالآية ، ولكن المقصود المعنى الأول . والله أعلم .

وأما قوله - تعالى : (تبارك اسم ربك) فالمعنى : أن البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه .

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

ولو كان لفظ الاسم يراد به المسمى ، لكفى قوله : تبارك ربك ، لأن نفس الاسم عندهم هو الرب ، فيكون بذكر الاسم تكرر .

وبهذا يتبين أن الشبهة التي دعت كثيراً من العلماء إلى القول بأن الاسم هو المسمى أنها باطلة ، وهي : أن الله - تعالى - وحده هو الخالق ، وما سواه مخلوق ، فإذا قيل : إن أسماء الله غيره ، لزم أن تكون مخلوقة (١) .

(١) هذا البحث من أول صفحة ١٦١ كله مقتبس من رسالة شيخ الإسلام في الموضوع المثبتة في المجلد السادس من الفتاوى ، انظر ص ١٨٥ .

٢٢ — قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثني مالك ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ - قال : « إذا جاء أحدكم فراشه ، فليفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات ، وليقل : باسمك ربى وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

* * *

العبد الصادق العبودية ، لايفك عن عبادة ربه ، فى أمور حياته كلها ، فى خروجه من بيته ، وفى دخوله ، وفى أكله وشربه ، وفى نومه ويقظته ، وفى مقارنته لأهله ، ومعاملته للناس ، ولذلك أرشد الرسول ﷺ إلى هذا النوع من العبادة ، فى هذا الحديث وغيره عند النوم ، والاستيقاظ منه ، وهو من عبادة الله ودعائه بأسمائه .

قوله : « فليفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات » صنفة الثوب طرفه من الداخل ، لما فى الرواية الأخرى : « داخلة إزاره » . ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود ، والحكمة فى ذلك إزالة مالعه يكون فيه مما يؤذيه ، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات ، للمبالغة ، وليكون ذلك وترا إذ الوتر معتبر فى الشرع .

« وليقل : باسمك ربى وضعت جنبي ، وبك أرفعه » لما كان النوم نوعاً من الموت ، وقد يموت فيه حقيقة ، لجأ إلى ربه ، بذكر اسمه داعياً ، ومتبركاً به ، وسائلاً به المغفرة ، وهى ستر الذنوب ، والعمو عنها إن أمسك نفسه - أى قبضها فى النوم - فلم يردها إلى بدنها .

قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى ، إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك

لآيات لقوم يتفكرون» (١) .

« وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » أى إن رددتها إلى
بدنها ، فاحفظها من الشياطين ، والضلال ، والمؤذيات ، بحفظك وحمایتك ، التى
تحمى بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذى .

ففى هذا الحديث مشروعية ذكر الله تعالى عند النوم ، ليكون موته الأصغر
على اسمه ، فيدخل بذلك فى العمل بقوله تعالى : (قل : إن صلاتى ونسكى
ومحياى ومماتى لله رب العالمين) (٢) .

وفيه الاستسلام لله ، والافتقار إليه ، وسؤاله ما لا غنى له عنه ، وهذا كله
من عبادة الله تعالى ودعاءه بأسمائه ، فهو تفسير لقوله تعالى : (والله الأسماء
الحسنى فادعوه بها) (٣) . وهذا هو وجه ذكر البخارى له ولما يأتى من
الأحاديث .

★ ★ ★

(١) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

٢٣ — قال : « حدثنا مسلم ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك ، عن ربي ، عن حذيفة رضى الله عنه : « كان النبي ﷺ - إذا آوى إلى فراشه ، قال : « اللهم باسمك أحيا وأموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور »

* * *

حذيفة هو ابن اليمان ، واسم اليمان حسيل أو حسيل ، وهو عيسى .
كان من كبار أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن الفقهاء النجباء أهل الفتوى ، وضح عنه أنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر - مخافة أن أقع فيه - ولهذا اقتص بمعرفة الفتن ، كما أنه عرف بصاحب السر ، حيث أسر إليه رسول الله ﷺ أسماء المنافقين ، وأمره أن يكتب ذلك وسأله رجل عن أشد الفتن فقال : أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تختار ، توفي رضى الله عنه سنة ست وثلاثين (١)

« إذا آوى إلى فراشه » أى رجع إليه بعد عمل النهار .

« اللهم باسمك أحيا ، وأموت » أى ذكرا اسمك فى حياتى ، مطمئنا به قلبى إذ لا راحة لى ، ولا اطمئنان إلا بذكر اسمك ، ولا حياة نافعة إلا بذلك . وعلى ذكر اسمك يارب أموت ، متوسلا به إليك أن تتولانى ، وتحفظنى فى جميع أحوالى .

« وإذا أصبح قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور »

النوم نوع من الموت ، واليقظة حياة ، وهو نعمة من الله على عباده حتى

(١) انظر الاستيعاب ج ١ ص ٣٣٤ ، الرياض المستطابة ص ٤٩ .

ترتاح أبدانهم ، وأفكارهم ، وقد ينام الإنسان فلا ترجع إليه روحه ، فإذا استيقظ سالماً ، قد رجع إليه نشاطه وقوته ، استوجب ذلك شكر الله - تعالى - والثناء عليه ، فناسب قوله بعد يقظته « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » أى أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته .

والنشور : هو البعث بعد الموتة الكبرى ، فمصيرنا إلى ربنا ، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا .

ففى هذا الحديث كالذى قبله ، ذكر اسم الله - تعالى - عند النوم ، والتوسل به ، والثناء عليه بأن له الحمد ، وهذا من الدعاء بأسماء الله الحسنى .

★ ★ ★

٢٤ — قال : « حدثنا سعد بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن منصور ، عن ربيعي بن خراش ، عن خرشة بن الحر ، عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : كان النبي - ﷺ - إذا أخذ مضجعه من الليل قال : باسمك نموت ونحيا ، فإذا استيقظ قال : الحمد لله ، الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

* * *

أبو ذر الغفارى اختلف فى اسمه ، واسم أبيه ، وصحح الحفاظ أنه جندب ابن جنادة ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، غير أنه ذهب إلى قومه فتأخرت هجرته ، ففاته غزوات الرسول - ﷺ - الأولى ، وكان عازفاً عن الدنيا ، راغباً بما عند الله ، وقصة إسلامه فى الصحيحين وكان من الخنفاء قبل أن يسلم ، له أخبار كثيرة ، ومناقب شهيرة . توفى فى الربرة سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه (١)

هذا الحديث ليس فيه زيادة على الذى قبله ، إلا قوله : « من الليل » والأول يدخل فيه نوم الليل ، والنهار .

★ ★ ★

(١) انظر الاستيعاب ج ١ ص ٢٥٢ ، والرياض المستطابة ص ٢٧٢ .

٢٥ — قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن سالم ، عن كريب ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله . فقال : بسم الله ، واللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً »

* * *

هذا نوع آخر من الدعاء بأسماء الله - تعالى - .
 « بسم الله » أى أفعّل ذلك ، ذاكراً اسم الله ، عابداً رى بهذا الذكر ، ومتبركا به .
 « اللهم جنبنا الشيطان » أى أبعدنا عنه ، فلا يشاركنا ، ولا يحضرنا .
 « وجنب الشيطان مارزقتنا » أى أبعد الشيطان عن الرزق الذى تقدره لنا من الولد ، فى هذا الاتصال .
 ولابد من الصدق فى ذلك من القلب ، والرغبة ، والإيمان ، والثقة بما قاله الرسول - ﷺ - حتى يحصل الموعود ، وهو عدم مضرة الشيطان للمولود .
 والمقصود ، ذكر الله - تعالى - عند مقاربة الزوجة ، والاستعاذة به من الشيطان ، أن يشاركه ، أو يحضره ، أو يضر المولود بحال من الأحوال .
 وهذا كما تقدم من بيان معنى قوله تعالى : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

★ ★ ★

٢٦ — قال : « حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا فضيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - سألت النبي ﷺ - قلت : أرسل كلابى المعلمة ؟ قال : « إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله ، فأمسكن فكل ، وإذا رميت بالمعراض فخرق فكل »

* * *

عدى بن حاتم : هو أبو طريف ، الجواد بن الجواد ، قدم على رسول الله ﷺ فى شعبان سنة تسع ، بسبب كتابة أخته ، فأسلم ، وقد فرح رسول الله ﷺ بإسلامه ، وهو ممن ثبت الله قومه على الإسلام ، حين ارتد الناس بسببه ، شهد فتوح العراق ، وساهم فيها .

وكان شريفاً فاضلاً ، جواداً عابداً ، روى عنه أنه يقول : مادخل على وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها ، ومن أقواله : « كثرة الكلام أوضع شئ لمقادير الرجال ، وأمضى الأشياء عندى رد السؤال بغير نوال » له أخبار كثيرة وفضائل ، توفى فى الكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل غير ذلك ، وكان عمر طويلاً ، قيل : كان عمره لما مات مائة وعشرون سنة رضى الله عنه (١)

وأما الحديث . فيدل على نوع آخر من أنواع عبادة الله تعالى بذكر اسمه على الصيد . والكلاب المعلمة . هى التى تقبل التعليم ، فإذا أمرت فعلت ، وإذا نهيت انتهت ، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له ، وليس لنفسها فلا تأكل منه .

ومفهوم الحديث أنه إذا لم يذكر اسم الله - تعالى - عند الإرسال أنه

(١) الاستيعاب ج ٣ ص ١٠٥٧ ، وأسد الغابة ج ٣ ص ٣٩٢ ، الإصابة ج ٢

لا يأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة ، وكذا إذا لم يخزق المعراض - وهو السهم -
أى لم يجرح ، ولم يصب الصيد بحده ، بأن أصابه بعرضه فإنه لا يأكل . لأن
الصيد حيثئذ يكون وقيدة .

★ ★ ★

٢٧ — قال : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، قال : سمعت هشام بن عروة يحدث ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قالوا : يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك ، يأتونا بلحمان ، لاندري يدكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » .

* * *

في هذا الحديث أن ذكر اسم الله على الذبيحة شرط في حل الأكل منها . وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام ، لايلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غير اسم الله ، أو أنه لايعرف الحكم ، وما أشبه ذلك .

وقوله ﷺ : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » ليس معناه أن ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل يجعلها حلالا إذا كانت قد ذبحت على غير اسم الله تعالى ، ولكن أمرهم بذكر اسم الله عند الأكل لأنه الذى يلزمهم ، ومطيبا بذلك قلوبهم ، ومشيراً بذلك إلى اطراح الشك ، إذ الأصل خلافه ، وهو أن ظاهر الذابح الإسلام .

وهذا الحديث يدل على نوع آخر من عبادة الله - تعالى - بذكر اسمه على الذبيحة ، وعلى الأكل فهو من جنس ما تقدم .

★ ★ ★

٢٨ — قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : « ضحى النبي ﷺ بكبشين ، يسمّى ويكبر »

* * *

الأضحية هي : النسك الذى يذبح تقرباً إلى الله تعالى ، فى الوقت المحدد له .

والكباش : هو الذكر من الضأن .

و « قوله : « يسمّى ويكبر » يعنى عند الذبح ، يقول : بسم الله ، والله أكبر أى أذبح بسم الله متقرباً إليه عبادة له .

فهذا أيضاً من عبادة الله تعالى ودعاءه بذكر اسمه تعالى . فى النسك الذى هو من أفضل القرب إلى الله تعالى .

٢٩ — قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن الأسود بن قيس ، عن جندب ، أنه شهد النبي - ﷺ - يوم النحر ، صلى ثم خطب ، فقال : « من ذبح قبل أن يصلي ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله »

* * *

جندب ، هو : جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي العلقى ، نسبة إلى علقة بن عبقر بن أثمار ، سكن الكوفة ، ثم البصرة ، وتوفي بعد الستين رضى الله عنه (١)

المراد من الحديث قوله : « فليذبح باسم الله » أى ذاكراً اسم الله على الذبيحة ، عبادة له بذكر اسمه وبالذبح له ، متقرباً إليه بذلك ، كما أمر الله تعالى عباده ، بأن يخلصوا ذلك له وحده (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا أشرك له ، وبذلك أمرت) (٢)

وقال تعالى (فصل لربك وانحر) (٣) .

★ ★ ★

(١) انظر الاستيعاب ج ١ ص ٢٥٦ ، والرياض المستطابة ص ٤٦ .

(٢) الآيتان ١٦٢ و ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢ من سورة الكوثر .

٣٠ — قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا ورقاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر - رضی الله عنهما - قال : قال النبي - ﷺ - : « لا تحلفوا بأبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله »

* * *

المقصود بالحلف ، تأكيد الخير بذكر اسم العظيم ، الذي يوقع بالكاذب العقوبة ، ففي ضمن ذلك ، أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر ، ولذلك صار الحلف بغير الله شركاً ، لما في الحديث الذي رواه الترمذی ، « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (١)

ومراد البخاری من هذا الحديث أن ذكر اسم الله - تعالى - أو صفته لتأكيد الخير مشروع في الجملة ، وأنه لا يجوز ذلك لغير الله ، فيكون ذلك من العبادة بأسماء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) انظر سنن الترمذی ج ٣ ص ٤٥ ، وقال بعد ذكره : هذا حديث حسن ، وفيه أن ابن عمر سمع رجلاً يحلف بالكعبة ، فقال : لا يحلف بغير الله . ثم ذكره .

ورواه أحمد في المسند ج ٢ ص ١٢٥ وهو صحيح .

ورواه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٢٩٧ . وقال : حديث صحيح على شرط

الشيخين ولم يخرجاه .

ورمز له في حاشية الذهبي خ م يعني عند البخاری ومسلم ، وليس كذلك .

ورواه البيهقي في السنن الكبرى ج ١٠ ص ٢٩ .

قال : « باب ما يذكر في الذات ، والنعوت ، وأسامي الله عز وجل »

* * *

قال الحافظ : « أي ما يذكر في ذات الله ونعوته ، من تجويز إطلاق ذلك عليه ، كإطلاق أسمائه عليه ، أو منعه ، لعدم ورود النص » (١)

وقال عياض : « ذات الشيء وحقيقته ، وقد استعمل أهل الكلام الذات ، بالألف واللام ، وغلطهم أكثر النحاة ، وجوزه بعضهم ، لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء ، واستعمال البخاري لها على أنها حقيقة الشيء على ما استعملها المتكلمون في حق الله - تعالى - ولهذا قال : ماجاء في الذات والنعوت ، ففرق بينهما على طريقة المتكلمين » (٢)

وقال الراغب : « ذات تأنيث « ذو » ، وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس ، والأنواع ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً ، وقد استعاروا الذات ، فجعلوها عبارة عن عين الشيء ، جوهرًا كان أو عرضاً واستعملوها مفردة ، ومضافة ، [وأدخلوا عليها] الألف واللام . وأجروها مجرى النفس ، والخاصة ، وليس ذلك من كلام العرب » (٣)

وقال ابن برهان : « إطلاق المتكلمين الذات في حق الله تعالى من جهلهم ، لأن ذات تأنيث ذو ، وهو جلت عظمتة لا يصح له إلحاق تاء

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٨١ .

(٢) مشارق الأنوار ج ١ ص ٢٧٣ ملخصاً .

(٣) المفردات ص ١٨٢ بتصرف .

التأنيث . وقولهم : الصفات الذاتية ، جهل منهم أيضا لأن النسب إلى ذات ، ذوى « (١)

وقال الكندى : « ذات بمعنى صاحبة ، تأنيث ذو ، وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك ، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين » (٢) .

قال الحافظ : « وتعقب بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبة ، أما إذا قطعت عن هذا المعنى ، واستعملت بمعنى الاسمية ، فلا محذور ، لقوله تعالى : (إنه علم بذات الصدور) (٣) أى بنفس الصدور .

وقد حكى المطريزى كل ذات ، شئ ، وليس كل شئ ، ذات ، وأنشد ابن فارس :

فنعم ابن عم القوم فى ذات ماله إذا كان بعض القوم فى ماله وفر (٤)

وقال النووى : « مرادهم بالذات الحقيقة ، وهذا اصطلاح للمتكلمين ، وقد أنكره بعض الأدباء عليهم ، وقال : لا يعرف ذات ، فى لغة العرب بمعنى حقيقة ، وإنما ذات ، بمعنى صاحبة ، وهذا الإنكار ، منكر ، بل الذى قاله الفقهاء ، والمتكلمون صحيح ، وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدى ، فى أول سورة الأنفال فى قوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) : (٥)

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ، ثعلب : معنى ذات بينكم - أى الحالة التى بينكم ، فالتأنيث عنده للحالة ، وهو قول الكوفيين .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٢ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) المرجع المذكور .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٢ .

(٥) الآية الأولى من سورة الأنفال .

قال : وقال الزجاج : معنى ذات بينكم ، حقيقة وصلكم ، والبين الوصل .

قال الواحدى : فذات عنده بمعنى النفس ، كما يقال : ذات الشيء ونفسه « (١)

قلت : وهذا الذى ذكره النووى هو مايقصده البخارى رحمه الله - ولهذا قال : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى أقام الذات ، مقام اسمه تعالى .

قال الحافظ : « واستعمال - البخارى - لها ، دال على أن المراد بها نفس الشيء على طريقة المتكلمين - فى حق الله تعالى - ، ففرق بين النعوت ، والذات « (٢)

وقال شيخ الإسلام : « لفظ ذات تأنيث ذو ، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافا إلى غيره ، فهم يقولون : فلان ذو علم ، وذو قدرة ، ونفس ذات علم ، وقدرة ، وحيث جاء فى القرآن أو لغة العرب ، لفظ « ذو » ولفظ « ذات » لم يجيء إلا مقرونا بالإضافة ، كقوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » وقوله : (علم بذات الصدور) ، وقول حبيب : وذلك فى ذات الإله » ونحو ذلك .

لكن لما صار النظار ، يتكلمون فى هذا الباب ، قالوا : إنه يقال : إنها ذات علم وقدرة ، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة ، وعرفوه ، فقالوا : « الذات » وهو لفظ مولد ، ليس من لفظ العرب العرباء ، ولهذا أنكروه طائفة من أهل العلم ، كأبى الفتح ابن برهان ، وابن الدهان ، وغيرهما ، وقالوا : ليست هذه اللفظة عربية .

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١١٣ القسم الثانى .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٢ .

ورد عليهم آخرون ، كالقاضي ، وابن عقيل ، وغيرهما .

وفصل الخطاب : أنها ليست من العربية العرياء ، بل من المولد ، كلفظ الموجود ، والماهية ، والكيفية ونحو ذلك .

فهذا اللفظ ، يقتضى وجود صفات ، تضاف الذات إليها ، فيقال : ذات علم ، وذات قدرة ، وذات كلام ، فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج ، لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً ^(١) .

وقال ابن القيم : « وأصل هذه اللفظة ، هو تأنيث « ذو » ، بمعنى صاحب فذات كذا ، صاحبة كذا ، فى الأصل .

ولهذا لا يقال : ذات الشيء ، إلا لئله صفات ، ونعوت تضاف إليه ، فكأنه يقول : صاحبة هذه الصفات ، والنعوت .

ولهذا أنكر جماعة من النحاة ، على الأصوليين قولهم : « الذات » ، وقالوا : لمدخل للألف واللام هنا ، كما لا يقال : « الذو » فى ذو ، وهذا إنكار صحيح . والاعتذار عنهم : أن لفظة الذات فى اصطلاحهم ، قد صارت عبارة عن نفس الشيء ، وحقيقته ، وعينه .

فلما استعملوها استعمال النفس ، والحقيقة ، عرفوها باللام ، وجردوها من الإضافة ، وهذا أمر اصطلاحى ، لا لغوى .

فإن هذا اللفظ يقال لما هو منسوب إليه ، أو من جهته ، كجنب الشيء فإذا قالوا : هذا فى جنب الله ، لا يريدون إلا ما ينسب إليه ، وفى سبيله ، ومرضاته وطاعته ، لا يريدون غير هذا .

فلما اصطلاح المتكلمون على إطلاق الذات ، على النفس ، والحقيقة ، ظن من ظن أن هذا هو المراد بمثل قوله : « ثلاث كذبات فى ذات الله » ،

(١) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٩٨ - ٩٩ .

وقوله : « وذلك في ذات الإله » ، وهذا غلط ، بل الذات هنا كالجنب ، في قوله : « يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال : فرطت في نفس الله ، وحقيقته ويحسن أن يقال : فرط في ذات الله ، كما يقال : قتل في ذات الله ، وصبر في ذات الله » (١)

وبهذا يتبين أن هذا الاستعمال صحيح لا ينكر ، لأنه أمر اصطلاحى على معنى مفهوم معين .

وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله - تعالى - كإطلاق الصفات ، أى أنه وصف له ، فينكر ذلك بناء على هذا الظن ، ويقول : هذا ماورد . وليس الأمر كذلك ، وإنما المراد التفرقة بين الصفة ، والموصوف .

وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ ، أنهم يريدون ، نفس الموصوف وحقيقته ، فلا إنكار عليهم في ذلك ، كما وضحه كلام شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم .

قال القسطلانى : « والظاهر جواز إطلاق لفظ ذات ، لابلالمعنى الذى أحدثه المتكلمون ، ولكنه غير مردود ، إذا عرف أن المراد النفس ، لثبوت لفظ النفس في القرآن » (٢)

وأما « النعوت » فهو جمع نعت ، وهو الوصف ، يقال : نعت فلانا نعتا ، أى وصفه وصفاً ، وزنه ومعناه واحد ، ومنه الحديث « لاتباشر المرأة المرأة ، فتنتعها لزوجها ، كأنه يراها » (٣) .

(١) بدائع الفوائد ج ٢ ص ٧ ببعض التصرف .

(٢) رشاد السارى ج ١٠ ص ٣٧٩ .

(٣) رواه البخارى في كتاب النكاح ، انظر البخارى مع الفتاح ج ٩ ص ٣٣٨ .

وأما الأسماء ، فهي جمع اسم ، وتجمع أيضا على أسماء .
 قوله : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى ذكر الله بلفظ الذات ، وسمعه
 النبي ﷺ فلم ينكره ، فصار دليلا على جواز ذلك .
 واعترض على استدلال البخارى بذلك ، لأن خبيبا لم يرد الحقيقة ،
 والنفس . وإنما يعنى بقوله : « وذلك فى ذات الإله » أى فى سبيله ، وطاعته .
 والجواب : أن إطلاق لفظ الذات على الله تعالى جائز فى الجملة ، لورود
 الآثار ، فيكون ذلك أصلا للجواز ، ففى الحديث الصحيح المتفق عليه ، « أن
 إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله » (١)
 وفى حديث ابن عباس : « تفكروا فى كل شئ ، ولا تفكروا فى ذات
 الله » (٢)

قال الحافظ سنده جيد .

وقال ابن الدرداء : « لاتفقه كل الفقه ، حتى تمتت الناس فى ذات الله »

قال الحافظ إسناده ثقات ، إلا أنه منقطع (٣)

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الأسماء والصفات فى الباب الأول .

وقد ذكر البخارى - رحمه الله - قصة خبيب وأصحابه فى كتاب
 المغازى ، وهى مشهورة ، فنكتفى بنص ما ذكره البخارى هنا .

(١) رواه البخارى ، انظره مع الفتح ج ٤ ص ٤١٠ و ج ٥ ص ٢٤٦ ،
 ومواقع أخر عدة ، ومسلم فى الفضائل .

(٢) قال فى كشف الخفا : رواه أبو نعيم فى الحلة ، وابن أبى شبة فى العرش ص

٣١١ ج ٤ ص ١٨٤٠ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٣ .

٣١ - قال « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية ، الثقفي - حليف لبني زهرة - وكان من أصحاب أبي هريرة أن أبا هريرة قال : بعث رسول الله ﷺ - عشرة منهم خبيب الأنصاري ، فأخبرني عبيد الله بن عياض ، أن ابنة الحارث أخبرته ، أنهم حين اجتمعوا ، استعار منها موسى يستحد بها ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيب الأنصاري :
ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزوع
فقتله ابن الحارث ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم يوم
أصيبوا »

قال : « باب قول الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » وقوله - جل ذكره : « تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك »

* * *

المراد بالنفس في هذا الله تعالى ، المتصف بصفاته ، ولا يقصد بذلك ذاتا منفكة عن الصفات ، كما لا يراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس ، وسيأتي بيان ذلك من كلام السلف .

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى - : « ويحذركم الله نفسه » أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم ، فتوافونه يوم (تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) وهو عليكم ساخط فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به » (١) .

وقال : « ويخوفكم الله من نفسه ، أن تركبوا معاصيه ، أو توالوا أعداءه ، فإن إلى الله مرجعكم ، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه ، فإنه شديد العقاب » (٢)

وقال ابن خزيمة : « أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا ذكر نفسه جل ربنا عن أن تكون نفسه ، كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لانفس له » (٣)

(١) تفسير الطبري ج ٦ ص ٣٢١ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) المرجع المذكور ج ٦ ص ٣١٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٥ .

ثم ذكر بعض النصوص في ذلك كقوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) ثم ذكر ما رواه البخارى في هذا الباب . وحديث ابن عباس : « أن النبي - ﷺ - حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة في المسجد رجع حين تعالى النهار ، قال : لم تزالى جالسة بعدى ؟ قالت : نعم . قال : قد قلت بعدك : أربع كلمات ، لو وزنت بهن لوزنتهن (١) : سبحان الله العظيم وبحمده ، عدد خلقه ، ومداد كلماته ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه » (٢)

وذكر أيضا حديث محاجة موسى لآدم ، وفيه : « قال آدم لموسى : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته ، واصطنعتك لنفسه » (٣) . ثم قال : « فالله جل وعلا أثبت في آى من كتابه أن له نفساً ، وكذلك قد بين على لسان نبيه - ﷺ - أن له نفساً » (٤)

وفي صحيح مسلم في حديث أبى ذر ، الطويل : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا » (٥) .

وفي السنن عن علي - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول في آخر وتره : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من

(١) يعنى لو وزنت هذه الأربع بماقلتيه منذ فارقتك لوزنتهن ، رواه مسلم في كتاب الذكر .

(٢) كتاب التوحيد ص ٧ ، رواه مسلم كتاب الذكر رقم ٢٧٢٦ ج ٤ ص ٢٠٩٠ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٩ وهو في الصحيحين ، انظر الفتح ج ٦ ص ٤٤١ و ٨ ص ٤٣٤ . وج ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ و ٢٠٤٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٨ .

(٥) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٤ .

عقوبتك ، وأعوذ بك ، منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) .

وتقدم ذكر حديث ابن مسعود في المسند مرفوعاً : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك » (٢)

فهذه النصوص واضحة في أن المراد بالنفس هو الله تعالى كما قلنا . ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة ، لأن مقصودهم إثبات ما أثبتته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل ، تعالى الله عن الأمثال والأنداد ، والتمسك بالنصوص التي قالها الله ، ورسوله ، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل ، وأصحاب الوسوس الشيطانية ، التي تعود على النصوص بالإبطال ، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة ، ومن سلك طريقهم . وليس معنى ذلك الإعراض عن معاني النصوص ، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف ، ويعبرون عنه بالتفويض .

بل المقصود إثبات ما أثبتته الله لنفسه ، أو أثبتته له رسوله مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله تعالى ، وفهمه ، على ما دل عليه قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . ونحوها من الآيات المحكمات ، والأمر في هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة .

روى ابن جرير ، عن مجاهد ، في قوله تعالى : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) (٣)

(١) سنن أبي داود ج ٢ ص ١٣٤ ، والترمذي ج ٥ ص ١٨٧ رقم ٣٥٦٢ ، والنسائي ج ٣ ص ٢٤٩ ، وابن ماجه ج ١ ص ٣٧٣ رقم ١١٧٩ ، ورواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٣٥٢ رقم ٢٢٢ .

(٢) المسند ج ٥ ص ٢٦٧ و ج ٦ ص ١٥٣ تحقيق أحمد شاكر .

(٣) الآية ١٥ من سورة طه .

قال : من نفسى . وأصله عن ابن عباس .

وروى عن أبى صالح : « أكاد أخفيها » ، قال : يخفيها من نفسه .

وعن قتادة ، « أكاد أخفيها » . وهى فى بعض القراءات « أخفيها من نفسى » (١) لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء المرسلين » (٢)

وقال ابن كثير : « أكاد أخفيها » قال الضحاك : عن ابن عباس أنه كان يقرؤها : « أكاد أخفيها من نفسى » ، يقول : لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً ، وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس ، « من نفسه » ، وكذا قال مجاهد وأبو صالح ، ويحيى بن رافع .

وقال السدى : ليس أحد من أهل السماوات والأرض ، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « إني أكاد أخفيها من نفسى » . (٣)

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) . يقول : أنك يارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسى مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحى ، لو كنت قد قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله « كنت قد علمته ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما نطقت به « ولا أعلم ما فى نفسك » يقول : ولا أعلم أنا ما أخفيته عنى فلم تطلعنى عليه ، لأنى إنما أعلم من الأشياء ما علمتته » (٤) .

-
- (١) هى قراءة ابن مسعود كما سيأتى عن ابن كثير وابن عباس .
 (٢) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤٩ طبعة الحلبي .
 (٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٢ طبعة الشعب .
 (٤) تفسير ابن الطبرى ج ١١ ص ٢٣٨ تحقيق محمود شاكر .

وقال في قوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) أنعمت عليك يا موسى هذه النعم ، ومننت عليك ، هذه المنن اجتناءً منى لك ، واختباراً لرسالاتى ، والبلاغ عنى ، والقيام بأمرى ونهى) (١) .

وقال ابن كثير : « أى اصطفيتك واجتبتك رسولا لنفسى ، أى كما أريد وأشاء » (٢) .

وقال أبو سعيد الدارمى : « وادعى المعارض : أن الله لا يوصف بالضمير ، والضمير منفى عن الله ، وهى كلمة خبيثة قديمة ، من كلام جهنم ، عارض بها جهنم قول الله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) ، يدفع بذلك أن يكون الله تعالى سبق له علم فى نفسه ، من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم .

فرد عليه بعض العلماء ، وقالوا : كفرت بها من ثلاثة أوجه :

الأول : أنك نفيت عن الله العلم السابق فى نفسه قبل حدوث الخلق .

الثانى : أنك استجهلت المسيح ابن مريم - عليه السلام - بأنه وصف ربه بأن له خفايا علم فى نفسه ، إذ يقول : « ولا أعلم ما فى نفسك » .

الثالث : أنك طعنت به على محمد - ﷺ - إذا جاء به مصدقاً ليسى .

قال أبو سعيد : وقول جهنم هذا أصل كبير فى تعطيل النفس والعلم السابق ويرد عليه بقوله : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ، فذكر المسيح أن الله علماً سابقاً فى نفسه ، يعلمه الله ، ولا يعلمه هو .

ثم روى عن أبى البحتري أنه قال : « لايقولن أحدكم : اللهم أدخلنى مستقر رحمتك ، فإن مستقر رحمته نفسه » (٣) .

(١) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ١٦٨ مطبعة الحلبي .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨٧ طبعة الشعب .

(٣) نقض عثمان بن سعيد على بشر الميرسى ص ٥٥٠ عقائد السلف

ملخصاً بتصرف .

وقال الراغب : « نفسه ، ذاته ، وهذا وإن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ، ومضاف إليه ، يقتضى المغايرة ، وإثبات شيئين من حيث العبارة ، فلا شيء ، من حيث المعنى سواء - سبحانه - عن الاثنوية من كل وجه » (١)

قال الحافظ : قال البيهقي : والنفس فى كلام العرب على أوجه .

منها الحقيقة ، كما يقولون فى نفس الأمر ، وليس للأمر نفس منفوسة . ومنها الذات ، قال : وقد قيل فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك) أن معناه : تعلم ما أكنه ، وما أسره ، ولا أعلم ماتسره عنى » (٢) « وقال أبو إسحاق الزجاج فى قوله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) أى إياه .

وحكى صاحب المطالع فى قوله تعالى : (ولا أعلم ما فى نفسك) ثلاثة أقوال :

أحدها : لا أعلم ذاتك .

ثانيها : لا أعلم ما فى غيبك .

ثالثها : لا أعلم ما عندك ، وهو بمعنى قول غيره : لا أعلم معلومك أو إرادتك ، أو سرك ، أو ما يكون منك » (٣)

قال ابن بطال : فى هذه الآيات والأحاديث ، إثبات النفس لله تعالى . وللنفس معانٍ ، والمراد بنفس الله تعالى ذاته ، وليس بأمر مزيد عليه فوجب أن يكون هو » (٤) .

(١) المفردات ص ٥١١ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٤ ، ذكر الحافظ كلام البيهقي بالمعنى ، فصار أحسن من كلام البيهقي ولهذا أثرته وهو فى الأسماء . والصفات ص ٢٨٦

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع نفسه .

وقال شيخ الإسلام : « ونفسه هي ذاته المقدسة » (١)

وقال أيضا : « ويراد بنفس الشيء ذاته ، وعينه ، كما يقال : رأيت زيدا نفسه ، وعينه ، وقد قال تعالى : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) وقال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال : (ويحذركم الله نفسه) وفي الحديث : « سبحان الله رضا نفسه » ، وفي الآخر : « إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » .

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء ، الله نفسه التي هي ذاته ، المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات .

وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات .

كما يظن طائفة ، أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ » (٢)

★ ★ ★

(١) مجموع الفتاوى ج ١٤ ص ١٩٦ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٩ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ باختصار قليل .

٣٢ - قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ قال : مامن أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ، ومامن أحد أحب إليه المدح من الله »

* * *

هذا الحديث ذكره البخارى فى مواضع متعددة ، فتقدم فى تفسير سورة الأنعام . وفيه : « ولا شىء أحب إليه المدح ، من الله ، ولذلك مدح نفسه » (١) « فذكر النفس ثابت فى هذا الحديث ، وإن كان لم يقع فى هذه الطريق ، لكنه أشار إليه ، كعادته ، فإنه - رحمه الله - كثيراً ما يترجم ببعض ماورد فى طرق الحديث الذى يورده » (٢) .

قلت : وهذه الجملة من الحديث المذكورة فى التفسير هى محل الشاهد ، فهو يشير إليها .

وسياتى الكلام إن شاء الله فى الغيرة بعد أربعة أبواب غير هذا ، وتقدم الكلام فى النفس ، مافيه كفاية .

قوله : « من أجل ذلك حرم الفواحش » . الحرام هو الممنوع ، وتحريم الله تعالى - للشىء ، هو منعه منه شرعاً ، أو قدراً ، فالشرع نحو مافى هذا الحديث وهو كثير جدا - أى أمثلته .

وأما القدر فكقوله - تعالى : (وحرام على قرية أهلكتها أنهم

(١) انظر الفتح ج ٨ ص ٢٩٥ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٥ .

لا يرجعون (١) وقوله : (وحرمتنا عليه المراضع من قبل) (٢)
 والفواحش : جمع فاحشة ، وهى : ما عظم قبحه من الأفعال ، والأقوال فى
 الشرع ، أو فى العقل أو فى العرف .

قوله : « وما أحد أحب إليه المدح من الله » كلمة « أحد » لا يوصف بها
 فى الإثبات شىء من الأعيان إلا الله تعالى ، ولكنها تستعمل فى غير الله ، فى النفى
 وما فى معناها ، كالشرط ، والاستفهام ، وتستعمل فى أول العدد ، كأحد اثنين
 وأحد عشر ، ولهذا لم يجيء فى القرآن استعمالها لغير الله ، إلا فى غير الموجب ، أو
 فى الإضافة ، كقوله تعالى : (فابعثوا أحدكم) .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد فى الدار ، ولا تنقل : فيها أحد (٣)
 والمدح : هو الثناء الحسن ، قال الجوهري : « المدح : الثناء الحسن ، وقد
 مدحه وامتدحه ، بمعنى ، وكذلك المدحة ، والمديح ، والأمدوحة » (٤)

وفى كليات أبى البقاء ، بعد ما ذكر قول الجوهري قال : « وقيل المدح الثناء
 باللسان على الجميل مطلقاً ، سواء كان من الفواضل ، أو من الفضائل ، وسواء
 كان اختيارياً ، أو غير اختيارياً ، ولا يكون إلا قبل النعمة » (٥) .

فالمدح ذكر محاسن المدوح ، والإخبار عنها على سبيل الثناء ، والتعظيم
 بذلك ، فإن اقترن بالحب ، والإرادة ، فهو حمد ، لأن الحمد هو ذكر محاسن
 المحمود ، والإخبار عنها مع حبه ، وإجلاله ، وتعظيمه ، فهو خير يتضمن
 الإنشاء (٦) .

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ١٢ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ١٣٧ .

(٤) انظر الصحاح ج ١ ص ٤٠٣ .

(٥) الكليات ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٦) بدائع الفوائد ج ٢ ص ٩٣ .

ومدح الإنسان نفسه نقص يلام عليه ، وكذلك طلبه من الناس ، وتكلفه لذلك ، يدل على نقصه ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن المدح ولاسيما في الوجه ، لأن ذلك مظنة الفتنة والاعتزاز ، وقد يكون المدح بالكذب ، وربما حمله المدح على ظلم من لم يمدحه .

وفي صحيح مسلم عن همام بن الحارث أن رجلا جعل يمدح عثمان ، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه ، وكان رجلا ضخما - فجعل يثبو في وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب » (١)

وروى ابن ماجه ، عن معاوية قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إياكم والتمادح فإنه الذبح » (٢) وسنده حسن ، وفي ذلك أحاديث كثيرة .

قال النووي : « قال العلماء : الجمع بين هذه الأحاديث وما جاء دالا على الجواز أن النهي محمول على المجازفة في المدح ، والزيادة في الأوصاف أو على من يخاف عليه الفتنة ، من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ، ورسوخ عقله ، ومعرفته ، فلا نهى في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة » (٣) .

أما الله - تعالى - فلكمال المطلق مدح نفسه ، لأنه أهل المدح والثناء ولأن الخلق لا يقدر على مدحه بما يستحق ، كما قال الرسول - ﷺ - : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٤) .

(١) مسلم ج ٤ ص ١٢٩٧ ، وابن ماجه ج ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٢ .

(٢) السنن ج ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٣ .

(٣) شرح مسلم ج ١٨ ص ١٢٦ .

(٤) سبق تخرجه قريبا .

قال النووي : « حقيقة مدح العباد لله تعالى : هو مصلحة للعباد ، لأنهم
يشنون عليه سبحانه فيثيبهم ، فينتفعون ، وهو سبحانه غنى عن العالمين ، لا ينفعه
مدحهم ، ولا يضره تركهم ذلك ، وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه
وتسبيحه ، وتهليله ، وتحميده ، وتكبيره ، وسائر الأذكار » (١)

★ ★ ★

(١) شرح مسلم ج ١٥ ص ٧٧ .

٣٣ - قال : « حدثنا عبدان ، عن أبي جمرة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : قال : « لما خلق الله الخلق ، كنت في كتابه - وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش - إن رحمتي تغلب غضبي »

* * *

قوله : « لما قضى الله الخلق » قضى : يأتي بمعنى حكم ، وأمر ، وقدر ، وفرغ وأمضى ، وأتقن ، ومعناه هنا : فرغ من خلق الخلق ، فهو نحو قوله تعالى : (فقضاهن سبع سماوات) أو فرغ من تقدير الخلق ، ويدل لذلك الرواية الآتية في آخر الكتاب « قبل أن يخلق الخلق » .

قوله : « كتب في كتابه » يجوز أن يكون المعنى : أمر القلم أن يكتب ، كما قال الحافظ . ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب تعالى بدون واسطة ، ويجوز أن يكون قال : « كن » فكانت الكتابة ، ولا محذور في ذلك كله ، وقد ثبت في سنن الترمذى ، وابن ماجه في هذا الحديث : « أن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي » (١)

ولايصح أن يراد بالكتابة : الحكم الذى قضاه ، نظير قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) لقوله : (فهو عنده فوق العرش) .

وكتابه تعالى ذلك . لتأكيد هذا الحكم ، وإخبار عباده به حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه ، أو لحكمة الله أعلم بها ، وليس خوفا من النسيان - تعالى الله .

قوله : « وهو يكتب على نفسه » جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته

(١) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢١٠ ، وابن ماجه ج ٢ ص ١٤٣٥ الحديث

تعالى لم يحمله عليها أحد ، وإنما وقعت بمحض إرادته ، تفضلا منه ، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه ، كما قال - تعالى - (كتب ربكم على نفسه الرحمة)
 وقوله : « وهو وضع عنده على العرش » وضع : بفتح الواو ، وسكون الضاد ، أى موضوع ، وكذا جاء فى الجمع بين الصحيحين للحميدى (١) ، وضبط أيضاً بفتح الضاد ، على أنه فعل ماضى ، وبضم الضاد أيضاً ، والأول أظهر وأشهر .

وقوله : « عنده على العرش » أى أنه تعالى وضع الكتاب عنده فوق عرشه وسيأتى فى باب « وكان عرشه على الماء » بهذا اللفظ « عنده فوق عرشه » . وذلك للإهتمام به ، حيث وضعه معه على عرشه الذى استوى عليه .

كما يدل على أن الله على العرش ، مستوٍ عليه كما قال - تعالى - عن نفسه فى مواضع كثيرة من كتابه ، وأخبرت به رسله ، ويدل على علوه تعالى . وسيأتى ذكر ذلك مستوفى إن شاء الله فى موضعه .

وما نقله الحافظ - عفا الله عنا وعنه - عن شراح كتاب البخارى من تأويل هاتين اللفظتين بالتأويلات الباطلة ، المبنية على فساد العقيدة سيأتى ردها إن شاء الله هناك بالبراهين .

قوله : « إن رحمتى تغلب غضبى » . الرحمة ، والغضب كلاهما من أوصاف الله تعالى ، ولكن الرحمة أوسع وأشمل ، فرحمته تعالى وسعت كل شىء ، كما قال عن حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة فى دعوتهم للمؤمنين . أنهم يقولون (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) (٢) ، وقال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء) (٣) وهذا هو معنى غلبها للغضب .

(١) قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح ج ١٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الآية ٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

وفي هذه النصوص ونحوها كثير أبلغ دليل على ثبوت صفة الرحمة لله تعالى ، وكذا صفة الغضب ، وبذلك يتبين بطلان قول أهل التأويل في هذه الصفة الكريمة ، من صفات ربنا تبارك وتعالى - وقولهم : « إن الرحمة رقة القلب وهي تدل على الضعف والخور في طبيعة الراحم ، وتألمه على المرحوم » وهذا قول باطل بالنسبة إلى صفة الله تعالى ، وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أن هذا وصف رحمة بعض المخلوقين . من النساء ونحوهن .

وقد علم التفاوت العظيم بين الخالق - تعالى - والمخلوق بالشرع ، والعقل والإجماع وقد تقرر أن الصفة تتبع الموصوف في الكمال ، وضده - كما تقدم . الثاني : أن الضعف ، والخور مذموم ، وهو نقص ، وأما الرحمة فممدوحة كما قال تعالى : (وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة) (١) . مع نهيه - تعالى - عباده عن الوهن ، والحزن ، قال تعالى : (ولا تنهوا ، ولا تحزنوا) (٢) وحثهم على الرحمة ، وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث في ذلك ، كقوله ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم » ، وقوله : « لاتنزح الرحمة إلا من شقى » ، وقوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من الأرض يرحمكم من في السماء » .

ومستحيل أن يقول : لاينزع الضعف ، والخور ، إلا من شقى .

ولما كانت الرحمة في حق كثير من الناس ، تقارن الضعف ، والخور ، ظن من غلط في ذلك أنها كذلك مطلقا .

الثالث : أن أسماء الله تعالى حسنى ، لايلحقها نقص بوجه من الوجوه ، وصفاته عليا عن النقص أيضا ، والله تعالى قد تمدح بهذه الأسماء ، والصفات ، لأنها تدل على الكمال ، فمن المحال أن يلحقها مايلحق رحمة المخلوق .

★ ★ ★

(١) الآية ١٧ من سورة البلد .

(٢) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

٣٤ - قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال النبي ﷺ :- يقول الله - تعالى :- أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة . » .

* * *

هذا الحديث من الأحاديث القدسية : وهى ما يذكره الرسول - ﷺ - مضافا إلى الله - تعالى - أنه قاله ، ولكنه غير متعبد بتلاوته ، ولا هو معجز متحدى به كالقرآن .

والظن يأتى بمعنى العلم ، واليقين ، كقوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) (١)

ويأتى واسطة بين الشك والعلم ، أو بمعنى الشك كقوله تعالى عن الكفار (وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) (٢) . والقرائن تبين ذلك وتحدهه .

قوله : « أنا عند ظن عبدى بى » ، قال صاحب المرعاة : « يجوز أن يكون على ظاهره . والمعنى : أنا أعامله على حسب ظنه بى ، وأفعل به مايتوقعه منى ، من خير أو شر ، والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف ، وحسن الظن بالله تعالى على ما دل عليه قوله - ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »

(١) الآية ٤٦ من سورة البقرة .

(٢) المرعاة جـ ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

ويجوز أن يكون المراد بالظن : العلم الموقن ، ويكون المعنى : أنا عند علمه
 بنى ويقينه بأن مصيره إلي ، وحسابه علي ، وأن ما قضيت به له ، أو عليه من خير
 أو شر ، لا مرد له ، لا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت « (١) .

وقال الحافظ : « أنا عند ظن عبدى بنى » أى قادر على أن أعمل به ما
 ظن أن أعامله به ، وقال الكرماني : وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء
 على الخوف ، وكأنه أخذه من أن العاقل يختار لنفسه وقوع الخير ، وهو مقيد
 بالمختصر ، لما فى الحديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٢) .

قلت : قول الحافظ هذا خلاف ظاهر الحديث ، إذ هو خبر عن الله
 تعالى أنه عند ظن عبده به ، يعنى أنه - تعالى - يفعل بعبده ما ظنه العبد أنه
 يفعله به ، وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك كما فى المسند من حديث وثالة بن
 الأسقع ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « قال الله : أنا عند ظن عبدى
 بنى ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن شراً فله » (٣) ورواه ابن حبان ، وهذا لفظه ،
 وفى هذا أحاديث كثيرة .

وقال فى المفهم : « معنى : « أنا عند ظن عبدى بنى » . ظن الإجابة عند
 الدعاء ، والقبول عند التوبة ، والمغفرة عند الاستغفار ، والإثابة على العمل ، إيمانا
 بوعده - تعالى - لما فى الحديث « ادعوا الله ، وأنتم موقنون بالإجابة » (٤)
 ولذلك ينبغى للمرأ أن يجتهد فى العمل ، موقناً بأن الله يقبله ، ويغفر له
 لأنه وعد بذلك ، وهو لا يخلف وعده .

(١) المرعاة ج ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

(٢) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٣) انظر المسند ج ٣ ص ٤٩١ و ج ٤ ص ١٠٦ ، وانظر موارد الظمان ص

١٨٤ .

(٤) رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، انظر

السنن ج ٥ ص ١٨٠ .

قلت : هو ضعيف لأن فى سنده صالح المرى .

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها ، فإن اعتقد أن الله لا يقبلها ، وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس ، وهو من الكبائر ، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب ، فهو محض الجهل ، والغرور (١) .

والحديث معناه واضح كما تقدم ، وما ذكره صاحب المفهم من معناه ووراء ذلك معنى أدق وهو قرب الله من عبده المنيب إليه ، وخير ما يفسر به كلام الرسول ﷺ كلامه ، ولكن لا يعارض النصوص الكثيرة ، المحذرة من عذاب الله تعالى ، وعقابه فالأمر كما قال تعالى : (نبأ عبادي أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) (٢) ، وحسن الظن يكون مع حسن العمل . وقد تشعر الإضافة في قوله : « عبدى » بحسن العمل ، أى أنه عبد الله ، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرها . والله أعلم .

قوله : « وأنا معه إذا ذكرنى » أى معه بالإجابة ، والتوفيق ، وبسماع كلامه واثابته عليه أو بحسب ما قصد في ذكره ، مالم يكن إثماً أو قطيعة رحم ، فهذه المعية هى المعية الخاصة المذكورة فى مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) (٣)

ومعية الله تعالى بالنسبة لعباده نوعان : معية عامة للخلق كلهم ، كما قال تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) (٤)

وقال تعالى : (يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم) (٥) ومن مقتضى هذه المعية اطلاعه تعالى

(١) من الفتح ج ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٥) الآية ٤ من سورة الحديد .

وعلمه بكل شيء ، ومراقبته ، وشهوده أفعال عباده ، فتفيد الخوف منه تعالى .
والنوع الثاني : المعية الخاصة ، وهي المذكورة في هذا الحديث ، ونحوه
كقوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (١) وقوله : (إذ يقول
لصاحبه لا تخزن إن الله معنا) (٢) ومن مقتضى هذه المعية النصر والتأييد والهداية ،
والحماية .

« ومعيته تعالى لخلقه ، لا تخالف علوه ، واستوائه على عرشه ، فكل ذلك
حق على ظاهره ، وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة كما جمع
بينهما في قوله تعالى : (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى
على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ،
وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) (٣) . فأخبر تعالى أنه
فوق العرش يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبي ﷺ فى حديث
الأوعال (والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه) (٤)

وذلك أن كلمة مع فى اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة
المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال .
فإذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه
يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى لمجمعته لك ، وإن كان
فوق رأسك .

فإنه مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) رواه أبو داود فى باب فى الجهمية ج ٥ ص ٥٣ ، والترمذى ج ٥ ص ٩٧ ،
وابن ماجه ج ١ ص ٦٩ الحديث رقم ١٩٣ ، وقد صححه ابن القيم ، وأبطل حجج
المضعفين له ، انظر تهذيب السنن ج ٧ ص ٩١ .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله : (وهو معكم أينما كنتم)^(١) دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها ، أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته .

وقوله : (لا تخزن إن الله معنا)^(٢) حق على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية الاطلاع والنصر والتأييد ، ومثل ذلك قوله : (إننى معكما أسمع وأرى)^(٣) وقوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)^(٤) «^(٥) وسيأتى لذلك بقية .

قوله : « فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » أى إن ذكر ربه سرّاً فى نفسه ، فإن الله تعالى يذكره سرّاً فى نفسه ، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، حيث أثبت النفس لله - تعالى - على ما سبق توضيحه .

قوله « وإن ذكرنى فى ملاء ، ذكرته فى ملاء ، خير منهم » الملاء ، الجماعة ، والمعنى أن العبد إذا ذكر ربه ظاهراً فى جماعة يسمعون ذكره لربه ، فإن الله تعالى يذكره ويشئى عليه فى جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم ، لأن الذين يذكر الله عبده فيهم فى الملاء الأعلى عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٥) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٠٢ - ١٠٤ ملخصاً .

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحى بنى آدم . وهى مسألة مشهورة ، والراجح فيها أن الأنبياء ، والصدّيقين والشهداء ، والصالحين أفضل من الملائكة ، وتفضيل فرد من النوع لا يلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر . والله أعلم .

قوله : « وإن تقرب إلي شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشى أتيته هرولة » .

قرب الله - تعالى - من عابده ، وداعيه ثبت فى نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنيّ ، فإني قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا دعانِ) (١) .

وقوله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (٢)

فالعبد إذا قرب إلى الله تعالى بالتوجه والمحبة ، وإخلاص العمل ، والصدق فى ذلك ، فإن الله - تعالى - يقرب إليه أكثر من قرّبه ، فكلما زاد قرب العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص . زاد قرب الله إليه حتى يكون قلب العبد بين يدى ربه ، كأنه يشاهده بعينه ، وهو جل وعلا على عرشه .

قال شيخ الإسلام : « فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر ، زاده الرب قرباً إليه ، حتى يكون كالتقرب إليه بذراع ، فكذلك قرب الرب من قلب العابد ، وهو ما يحصل فى قلب العبد من معرفة الرب ، والإيمان به ، وهو المثل الأعلى » (٣) .
وبهذا يتبين أن معنى قوله « إذا تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعاً » أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه ، أن الرب تعالى يزيده قرباً إليه ، جزاءً من جنس عمله ، وأكثر من قرب العبد الذى حصل باختياره .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) رواه مسلم انظر ج ١ ص ٣٥٠ ، وأبو داود ج ١ ص ٥٤٥ ، والنسائى ج

٢ ص ٢٢٦ .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥١٠ .

وقال : « فإذا قرب العبد من ربه بالإجابة إليه ، قرب الرب إليه ، فيدنو قلبه من ربه ، وإن كان بدنه على الأرض ، ومتى قرب أحد الشيعيين من الآخر ، صار الآخر إليه قريباً بالضرورة ، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته ، كما أن من قرب من مكة ، قربت مكة إليه » (١)

وقال أيضاً : « ومن الناس من غلط فظن أن قربه - تعالى - من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال الى جهة انصرف عن الأخرى .

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه ، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس ، من غير أن ينصرف عمن هي قريبة منه ، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيداً عن بعض النفوس بعداً غير مايقوم بالبدن » (٢) .

وقال أيضاً : « وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية ، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه - تعالى - لأنه سبحانه - برُّ ، جواد ، محسن ، يعطى العبد مايناسبه فكلما عظم فقره إليه ، كان أغنى له ، وكلما عظم ذله له ، كان أعز له ، فإن النفس - لما فيها من أهوائها المتنوعة - وتسويل الشيطان لها - تبعد عن الله - تعالى - حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة ، واللعنة هي البعد عن الله ورحمته .

ومن أعظم ذنوب العبد علوه في الأرض ، ونسيانه ربه ، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس - صار أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله ، والخضوع له » (٣) .

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥٠٩ .

(٢) المرجع ببعض التصرف ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع المذكور بتصريف ص ٢٣٨ .

« وقوله : من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا الخ » هذا قربه تعالى من عابده . وأما قربه من داعيه فكما في الآية : (وإذا سألك عبادي عني ، فأني قريبٌ أجيب دعوة الداع إذا دعانِ) (١) ، وقربه تعالى من عابد ، وداعيه قرب خاص ، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة ، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه » (٢)

« فالداعي ، والساجد تتوجه روحه إلى الله تعالى » والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله - تعالى - بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله - عز وجل - منها قريبا ، قريبا يلزم منه قربها .

ويكون منه قرب آخر ، كقربه عشية عرفة ، وفي جوف الليل ، وإلى من تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا » (٣) .

قلت : وبهذا يتبين أن قربه - تعالى - من عبادته نوعان :

أولهما : قربه - تعالى - من قلوب المؤمنين ، وقرب قلوبهم منه ، وهذا أمر معروف لا يجهل ، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة به تعالى ، وذكره ، وخشيته ، والتوكل عليه ، وهذا متفق عليه بين الناس لم ينكره منهم أحد .

والثاني : ما دل عليه هذا الحديث - الذي نحن بصدد شرحه - ونحوه ، مثل قربه عشية عرفة ، وقربه آخر الليل ، كما ثبتت بذلك النصوص ، وهذا القرب ينكره أكثر المتكلمين ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ، وإنكاره منكر .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بدائع الفوائد ج ٣ ص ٨ ملخصا .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٤١ .

قال شيخ الإسلام : « وقربه - سبحانه - ودنوّه من بعض مخلوقاته ، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك من قاله من السلف . وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، قال - تعالى - : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) (١) .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف ، والأئمة وهو قول الأشعري ، وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته . وأما دنوه نفسه ، وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبت من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، وهو مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر » (٢)

وقوله : « وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » . الهرولة السرعة في المشي ، بين المشي والعدو . وهو تمثيل لكرم الله وجوده على عبده ، وأنه أقبل إليه ، فهو - سبحانه - أسرع إقبالا وتفضلا على عبده ، من غير مقابل يناله من العبد ، بل هو الغنى بذاته عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه . ويؤخذ من الحديث : عظم فضل الله وكرمه ، وعظم فضل الذكر .

(١) الآية ٥٢ من سورة مريم .

(٢) مجموع الفتاوى باختصار ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦٦ .

قال : « باب قول الله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه)

* * *

أراد البخارى بهذا الباب إثبات صفة الوجه لله - تعالى - وهو ثابت لله تعالى فى آيات وأحاديث كثيرة . سيأتى ذكر شيء منها .

قال ابن كثير : (كل شيء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقي ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : (كل شيء هالك إلا وجهه) ، أى إلا إياه » (٢) .

قلت : قوله : « فعبر بالوجه عن الذات ، لا يقصد نفى صفة الوجه عن الله تعالى ، وإنما مراده : أن الذات تابعة للوجه ، فاكتفى تعالى بذلك .

وقد ذكر البخارى - رحمه الله - هذه الآية فى التفسير ، وأعقبها بقوله : « إلا ملكه ويقال : إلا ما أريد به وجهه » (٣) . ولم يذكر غير هذا ، فقد يقال : إن هذا تأويل سلك البخارى فيه طريق أهل التأويل ، وليس الأمر كذلك .

قال الحافظ : « فى رواية النسفى (٤) ، وقال معمر : فذكره ، ومعمر هذا هو أبو عبيدة [معمر] بن المثنى ، وهذا كلامه فى مجاز القرآن ، لكنه بلفظ :

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح ج ٨ ص ٥٠٥ .

(٤) النسفى من رواة الصحيح عن البخارى .

إلا هو ، وكذا نقله الطبري عن بعض أهل العربية ، وكذا ذكره الفراء « (١) »
قلت : الذي في كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة يخالف ما ذكره البخاري ،
وزعم الحافظ أنه كلامه . فإنه قال على الآية : (كل شيء هالك إلا وجهه)
مجازه : إلا هو ، وما استثنوه من جميع فهو منصوب « (٢) » ، وكذا ما ذكره الفراء في
معاني القرآن فإنه قال : (كل شيء هالك إلا وجهه) إلا هو قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل
أى « إليه أوجه عملي » (٣)

وبهذا يتبين أن الأمر ليس كما قال الحافظ ، لأن ما ذكره البخاري يختلف
عما ذكره الفراء ، وأبو عبيدة لفظاً ومعنى .

قال الحافظ : « قال ابن التين : قال أبو عبيدة : إلا وجهه إلا جلاله ،
وقيل إلا إياه . تقول : أكرم الله وجهك ، أى أكرمك الله .

وقوله : ويقال « إلا ما أريد به وجهه » نقله الطبري - أيضاً - عن بعض
أهل العربية ، ووصله ابن أبي حاتم من طريق خصيف ، عن مجاهد - مثله . ومن
طريق سفيان الثوري قال : إلا ما ابتغى به وجه الله من الأعمال
الصالحة « اهـ (٤) »

وفي الدر المنثور : « وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس : (كل شيء
هالك إلا وجهه) إلا ما أريد به وجهه

(١) الفتح ج ٨ ص ٥٠٥ .

(٢) مجاز القرآن ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) معاني القرآن ج ٢ ص ٣١٤ .

(٤) الفتح ج ٨ ص ٥٠٥ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد (كل شيء هالك إلا وجهه) . قال :
إلا ما أريد به وجهه .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن سفيان : (كل شيء هالك إلا
وجهه) قال : « إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة » (١)

« قوله : (كل شيء هالك إلا وجهه) بعد قوله : (فلا تكونن ظهيرا
للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى ربك ،
ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك
إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » (٢)

فإن ذكر ذلك بعد نبيه عن الإشراك ، وأن يدعو معه إلهاً آخر ، وقوله :
لا إله إلا هو . يقتضى في أظهر الوجهين ، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان
لوجهه من الأعيان ، والأعمال .

روى عن أبي العالية قال : إلا ما أريد به وجهه .

وعن جعفر الصادق : « إلا دينه - ومعناها واحد » (٣)

قال ابن كثير : « وقال مجاهد ، والثوري في قوله : « كل شيء هالك إلا
وجهه » أى : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى في صحيحه كالمقرر له .
وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها
باطلة إلا ما أريد به وجه الله - عز وجل - من الأعمال الصالحة ، المطابقة .
والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة ، وزائلة إلا ذاته تعالى -
فإنه الأول ، والآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء » (٤)

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٤٤٧ .

(٢) الآيات ٨٦ إلى ٨٨ من سورة القصص .

(٣) مجموع القناوى ج ٢ ص ٤٢٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٧٢ .

والقول الأول هو ما ذكرناه عنه في أول الباب .

فعلى هذا لا يكون قوله « ماأريد به وجهه » تأويلا للوجه الذى هو صفة لله - تعالى - بل هو من المعانى المستنبطة من الآية ، كما يشير إليه سياق الآية ، فإنه تعالى - يقول : (ولايصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون) (١)

وأما قوله « إلا ملكه » فهذا تأويل بعيد ، وهو مخالف . لصنعه هنا حيث ذكر الآية ، ثم أتبعها بحديث جابر ، وفيه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « أعوذ بوجهك » . فهذا ظاهر جدا فى أنه أراد إثبات الوجه صفة لله تعالى .

ومما يدل على بطلان ذلك أن الأشياء كلها ملك الله تعالى ، فهل يجوز أن يقال : كل شيء هالك إلا كل شيء ؟ بخلاف قوله : إلا ما أريد به وجهه ، فإن هذا مما تدل عليه الآية عن طريق المفهوم مع بقاءها نصا فى إثبات الوجه لله - تعالى - والله أعلم .

★ ★ ★

(١) الآيات ٨٧ و ٨٨ من سورة القصص .

٣٥ - قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عمرو ، عن جابر بن عبد الله ، قال : لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) (١) قال النبي - ﷺ - : أعوذ بوجهك ، فقال : « أو من تحت أرجلكم » فقال النبي ﷺ : أعوذ بوجهك ، قال : « أو يلبسكم شيئا » فقال النبي - ﷺ - هذا أيسر »

* * *

يخوف الله - تعالى - عباده إن لم يطيعوه ، ويعبدوه وحده لا شريك له ، ويتبعوا رسوله . بأنه قادر على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء ، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب ، وغيرهم ، أو نوعاً آخر مما يشاء .

وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم ، إما بخسف أو زلزال ، وبراكين أو غير ذلك مما يشاء ، كما قال تعالى : (ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) (٢) وعندما سمع الرسول - ﷺ - وهذا التهديد من الله تعالى - عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك .

قال الحافظ : « وقد روى ابن مردويه ، من حديث ابن عباس ، ما يفسر به حديث جابر ، ولفظه : « عن النبي - ﷺ - قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعاً ، فرفع عنهم اثنين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين :- دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيئا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض . فرفع عنهم الخسف ، والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين » .

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة تبارك الذي بيده الملك .

فيستفاد من هذه الرواية ، المراد بقوله : « من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم » . ويستأنس له بقوله تعالى : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حصبا) (١) . وقد وقع أصرح من ذلك ، عند ابن مردويه ، من حديث أبي بن كعب ، قال : في قوله - تعالى - : (عذابا من فوقكم) قال : الرجم ، (أو من تحت أرجلكم) قال : الخسف .

وروى ابن أبي حاتم ، من طريق السدى ، عن شيوخه . أن المراد بالعذاب من فوق : الرجم ، ومن تحت : الخسف .

وأخرج عن ابن عباس : « أن المراد بالفوق . أئمة السوء ، وبالتحت ، خدام السوء » انتهى (٢) .

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أحاديث ، وآثاراً كثيرة .

قلت : في هذه الآية الكريمة التي ترجم بها البخارى ، والحديث الذى ذكره - دليل واضح على وجوب الإيمان بوجه الله الكريم ، وقد جاءت نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تثبت ذلك ، ولم يزل أهل العلم والإيمان يسألون ربه بوجهه الكريم ، ويدعونه بأن يرزقهم النظر إليه في الجنة .

ولم ينكر ذلك إلا الجهمية ، ومن شايعهم على مذهبهم الفاسد .

قال الله تعالى :- (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (٣)

و « ذو » في الآية . وصف للوجه ، فوصف - تعالى - وجهه الكريم بأنه ذو الجلال والإكرام . وهذا يبطل دعوى أن المراد بالوجه الذات ، كما يبطل دعوى كونه زائدا في الكلام .

(١) الآية ٦٨ من سورة الإسراء .

(٢) الفتح ج ٨ ص ٢٩٢ .

(٣) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي موسى الأشعري . قال : قام فينا رسول الله - ﷺ - بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولا يبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (١) سبحات وجهه هي نوره ، وبهاؤه ، وجلاله .

وقال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله - : « حدثنا سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عمار بن ياسر ، أن رسول الله - ﷺ - كان يدعو : « اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » .

حدثنا موسى بن إسماعيل ، وغيره ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن صهيب ، عن النبي - ﷺ - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر إلى وجه الله تعالى (٢) .

حدثنا أحمد بن يونس ، عن أبي شهاب الحنات ، عن خالد بن دينار ، عن حماد بن جعفر ، عن ابن عمر ، رفعه الى النبي - ﷺ - « أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ ، وظنوا أن لانعيم أفضل منه ، تجلى لهم الرب ، فنظروا إلى وجه الرحمن ، فنسوا كل نعيم عاينوه ، حين نظروا إلى وجه الرحمن » .

وذكر بن إسحاق في السيرة حديثا طويلا - فيه - « أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين » (٣) .

(١) انظر مسلم ج ١ ص ١٦٢ رقم ٢٩٣ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه بلفظ : « النظر الى الله تعالى » ، انظر ج ١ ص ١٦٣

الحديث رقم ١٨٠ .

(٣) ذكره ابن كثير في تاريخه ج ٣ ص ١٩٦ .

قال أبو سعيد : وعلى تصديق هذه الآثار ، والإيمان بها ، أدركنا أهل الفقه والعلم « (١) وذكر أحاديث في ذلك .

وقد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بالاستعاذة بوجه الله تعالى كما في هذا الحديث الذى ذكره البخارى ، وكما فى الموطأ ، ومسند أحمد أنه - ﷺ - كان يقول : « أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات » (٢) وفى هذا أحاديث كثيرة .

وكذلك صح عنه - ﷺ - سؤاله لذة النظر إلى وجه الله الكريم كما فى الحديث السابق وغيره .

وبهذا يتبين أن إثبات الوجه والإيمان به متعين ، وأنه داخل فى الإيمان بالله تعالى - وهو كسائر صفات الله الثابتة ، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل ، أو تشبيه ، بل على ما يجب لله من الإجلال والتعظيم ليس كمثله شىء لافى ذاته ولا فى أسمائه وصفاته ، ولا فى أفعاله تعالى وتقدس . عن ظنون أهل الانحراف والزيغ من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هى الأصل فقاوسوا عليها ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر عنه رسوله فحرفوا وعطلوا .

★ ★ ★

(١) الرد على بشر المريسي ص ٥١٨ عقائد السلف .

(٢) الموطأ ج ٢ ص ٩٥٠ - ٩٥١ مرسل ، والمسند موصولاً ج ٢ ص ٤١٩

قال : « باب قول الله تعالى : (ولتصنع على عيني) (١) - تغذى -
وقوله - جل ذكره : (تجرى بأعيننا) (٢)

* * *

قد دل كتاب الله - تعالى - ، وسنة رسوله - ﷺ - صراحة ، وإجماع
أهل العلم بالله والإيمان به ، على أن الله - تعالى - موصوف بأن له عيتين ،
حقيقة على ما يليق بجلاله ، وعظمته .

وقد جاء ذكر العين وصفاً لله - تعالى - في القرآن مفردة ، مضافة إلى
الضمير المفرد ، كما جاءت مجموعة ، مضافة إلى ضمير الجمع ، كما في هاتين
الآيتين اللتين ذكرهما البخارى .

ولم يأت ذكر العين وصفاً لله - تعالى - في القرآن مثناة ، ولكن جاء
ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ ، والحديث إذا صح عن الرسول - ﷺ -
- وجب الإيمان بما دل عليه ، والعمل به .

قال ابن القيم : « ذكر العين مفردة ، لا يدل على أنها عين واحدة ، ليس إلا
كقولك : افعل هذا على عيني ، لا يريد أن له عيناً واحدة .

ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهراً ، أو مضمراً حسن جمعها
مشاكلة للفظ كقوله تعالى :- (تجرى بأعيننا) (٢) وقوله تعالى : (واصنع الفلك
بأعيننا) (٣) .

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة اقتربت الساعة .

(٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد ، كقوله : (بيده الملك) (١) و (بيدك الخير) (٢) ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت ، كقوله : تعالى - (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) (٣) .

وقد جاء في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - ذكر العين مضافة إلى الله - تعالى - مفردة ، ومجموعة .

وجاءت السنة بإضافتها إليه تعالى مثناة ، كما قال عطاء : عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ - : « إن العبد إذا قام في الصلاة ، قام بين عيني الرحمن ، فإذا التفت قال له ربه : إلى من تلتفت ؟ إلى خير لك مني » .

وقوله - ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور » صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة ، فإن ذلك عور ظاهر ، تعالى الله عنه .

وهل يفهم من قول الداعي : اللهم احرسنا بعينك التي لاتنام ، أنها عين واحدة ليس إلا ، إلا ذهن أقلف ، وقلب أغلف ؟

وقد استدل السلف على إثبات العينين لله - تعالى - بقوله جل وعلا : (تجرى بأعيننا) ، ومن صرح بذلك أبو الحسن الأشعري في الإبانة ، والموجز ، والمقالات « (٤) »

قوله : تعالى : (ولتصنع على عيني) فسر البخاري « تصنع » بتغذى ، من التغذيةية يقال صنعت الفرس إذا أحسنت القيام عليه « (٥) » .

(١) جزء من الآية مفتتح سورة تبارك الذي بيده الملك .

(٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مختصر الصواعق ص ٢٤ ط الإمام .

(٥) الفتح ج ١٣ ص ٣٨٩ .

قال ابن كثير : (ولتصنع على عيني) قال أبو عمران الجوني : ترى بعين الله تعالى .

وقال قتادة : تغذى على عيني .

وقال معمر بن المثنى : (ولتصنع على عيني) بحيث أرى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « يعنى أجعله فى بيت الملك ، ينعم ويترف غداؤه عندهم غداء الملك ، فتلك الصنعة » (١)

وأسند ابن جرير هذه الأقوال ، وروى عن ابن جريج : أنت بعينى إذ جعلتك أمك فى التابوت ، ثم فى البحر . واختار قول قتادة .

وقال : « وعنى بقوله : « على عيني » برأى منى ، ومحبة ، وإرادة » (٢) .

قوله « تجرى بأعيننا » قال ابن جرير : « يقول - جل ثناؤه : تجرى السفينة التى حملنا نوحا فيها ، برأى منا ، ومنظر » (٣)

قلت : وكذا قال غيره من المفسرين ، ومن لازم الرؤية والنظر وجود العين فى هاتين الآيتين ، وغيرهما من نصوص كتاب الله وحديث رسوله كثير . إثبات العينين لله تعالى اللتين ينظر بهما إلى ما يريد ، ولا يحجب نظره حاجب . وقد تقدم وجه الجمع والإفراد فى ذلك .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٦ ص ١٦٢ - ١٦٣ ط الحلبي .

(٣) المرجع ج ٢٧ ص ٦٤ .

٣٦ - قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا جويرة ، عن نافع ، عن عبد الله ، قال : ذكر الدجال عند النبي ﷺ - فقال : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينه ، وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافية »

* * *

الدجال : الكذاب ، ودجله ، سحره وكذبه ، لأنه يدجل الحق بالباطل - أى يغطيه ، وهو رجل من اليهود ، يخرج في آخر هذه الأمة كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبي ﷺ .

قال أبو علي القالى : عن ابن دريد : « كل شيء غطيته فقد دجلته ، ومنه اشتقاق دجلة ، كأنها غطت الأرض إذ فاضت عليها .

والدجال من هذا الاشتقاق ، لأنه يغطى الحق بالباطل .

وقال قوم : سمى بذلك لأنه يغطى الأرض بكثرة جموعه .

وقال آخرون : « يغطى على الناس بكفره » (١) .

وقال الحافظ : الدجال : فعال بفتح أوله ، والتشديد ، من الدجل ، وهو التغطية وسمى الكذاب دجالاً لأنه يغطى الحق بباطله .

وقال ثعلب : « الدجال : المموه » (٢) .

قوله : (إن الله لا يخفى عليكم) المؤمن بالله وبأوصافه التى تعرف بها إلى عباده لا يخفى عليه رب العالمين ، فهو تعالى (ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير) ليس له كفؤ ولا نِد ، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف ، المحتاج

(١) البارع ص ٣٥ .

(٢) الفتح ١٣ ص ٩١ .

الناقص ، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان ، ولا بد ، تعالى عن مشابهة خلقه علوا كبيرا .

قوله : « إن الله ليس بأعور » هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب . فهذا يدل على أن الله عينين حقيقة ، لأن العور فقد أحد العينين ، أو ذهاب نورها .

قال في القاموس : « العور ذهاب حسن إحدى العينين ، والردىء من كل شيء . والضعيف الجبان البليد الذي لا يدل ، ولا يندل ، ولا خير فيه » (١)

وعلى كل العور نقص وعيب في الاتفاق ، والمقصود أنه في اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين .

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات ثنية العين لله تعالى ويزيد ذلك وضوحا ، إشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف . يعنى أن الله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين ، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه ، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه .

قال ابن المنير : « وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله ، من حديث الدجال من قوله : « إن الله ليس بأعور » من جهة أن العور عرفا عدم العين ، وضد العور ثبوت العين ، فلما نزع هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها وهو وجود العين » (٢) .

قلت : الحديث فيه إثبات العينين لله تعالى ، لا عين واحدة كما قد يوهمه كلامه .

وقوله : « عرفا » بل هو لغة قبل العرف .

(١) القاموس ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٠ .

« وقال شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له : أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله ، الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيهه ، ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ، ماتجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى » .

« قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح » .
وقال غيره : لم ينقل عن النبي ﷺ . ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره .

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم) ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله : « ليبلغ الشاهد الغائب » حتى نقلوا أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، وصفاته ، وما فعل بحضرته .

فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها ، على الوجه الذي أراده الله منها .
ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، بقوله : تعالى - (ليس كمثله شيء) فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم ، فقد خالف سبيلهم ، وبالله التوفيق « انتهى (١) »

قال الإمام ابن خزيمة : « بين النبي ﷺ - أن الله عينين ، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل » .

ثم ذكر بسنده حديث أبي هريرة ، وقرأ قوله تعالى - : (إن الله نعمنا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) . رأيت رسول الله ﷺ - يضع إبهامه على أذنه ، وإصبعه التي تليها على عينه « (٢) » .

(١) المرجع المذكور .

(٢) كتاب التوحيد ص ٤٢ ، ٤٣ .

قوله : « كأن عينه ، عينة طافية » أى قد ذهب ماءها ، فهي ضامرة ، ملتوية ولهذا جاءت الأحاديث بوصفه ، بأنه ممسوح العين ، كما فى سنن أبى داود ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إني قد حدثتكم عن الدجال ، حتى خشيت أن لاتعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست بناتئة ، وجحراء ، فإن لبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور » (١)

فى هذا بيان أن عينه - قبحه الله - قد ذهب ماءها ، فضمرت ، وبقيت سادة مكانها ، لم تكن غائرة ، ولاناتئة ، مرتفعة ، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب ماؤها .

★ ★ ★

(١) سنن أبى داود ج ٤ ص ٤٩٦ .

٣٧ - قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، أخبرنا قتادة ، قال : سمعت أنسا - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « مامن نبي إلا أنذر قومه ، الأعمور الكذاب أنه أعمور ، وأن ربكم ليس بأعمور ، مكتوب بين عينه كافر » .

* * *

الإنداز : هو الإخبار مع التخويف ، وفي قوله : « مامن نبي » عموم يشمل جميع النبيين ، وهو يدل على عظم فتنته ، وخطره .
وقوله : « الأعمور الكذاب » تقدم أن الأعمور ، من عميت إحدى عينيه بآفة ، فأصبح لا يرى إلا بعين واحدة .

ووصف بأنه الكذاب لعظم كذبه ، حيث زعم أنه رب الناس ، مع ظهور كذبه وهو يتدرج في كذبه ، فأولا : يدعى أنه مصلح ، ثم يدعى أنه نبي ، ثم يدعى أنه إله ، وهذا أعظم الكذب ، وأبينه .

وقد عين رسول الله - ﷺ - عينه العوراء ، أنها اليمنى ، كما في حديث عبد الله بن عمر ، الذى قبل هذا وغيره .

واعلم أن المتكلمين من المعتزلة ، والأشعرية ، ونحوهم ، يزعمون أن من أثبت لله عينين ، ويدين ، ووجه ، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص ، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ . أنه يثبت جوارح ، تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم ، تعالى الله وتقدس عن زعمهم ، وظنهم السوء في الله ورسوله ، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه ، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضى التشبيه ، ولهذا تجدد الذين تلقوا هذا الفكر ، وتأثروا به ، من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك قالوا : مثلا إثبات صفة اليد لامن حيث الجارحة ، إثبات صفة الوجه ، لا من حيث الجارحة ونحو ذلك كما يقوله البيهقي في كتابه الأسماء

والصفات ، وسائر شراح الحديث الذين لايجرؤون على رد النصوص ، فهم عند مايتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفى الجارحة ، كما قال بعض زعماءهم مايلي :

« زعم قوم ، أن لله عينا ، يريدون كجارحة العين ، من الإنسان ، وأرادوا التركيب ، واحتجوا بقوله تعالى - : (ولتصنع على عيني) (١) ، (واصنع الفلك بأعيننا) (٢) (واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا) (٣) .

قال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله - تعالى - في الرد عليه : « أما ما ادعت أن قوما يزعمون أن لله عينا ، فإننا نقوله ، لأن الله - تعالى قاله ، ورسوله .

وأما زعمك أنهم يثبتون جارحة كجارحة العين ، من الإنسان ، على التركيب . فهذا كذب ، ادعيته علينا عمداً ، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله ، ولكنك تريد التشنيع ، ليكون هنالك مقبولاً لدى الجهال ، والكذب لا يصلح منه جد ولاهزل ، فمن الذى قال : إنها جارح مركب ؟ اذكره ، فإن قائله كافر .

وكم تشنع بما تقرر ، من قولك : جسم مركب ، وجوارح ، وأجزاء ، وأبعض تريد أن يكف المؤمنون ، عن وصف الله - تعالى - بما وصف به نفسه ، في كتابه وما وصفه به رسوله .

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين ، ولا بعضو ، ولا بجارحة . لكننا نصفه بما يغيضك من هذه الصفات ، التي أنت ودعاتك لها منكرون فنقول : إنه الواحد الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ذو الوجه الكريم ، والسمع السميع ، والبصير البصير « (٤) .

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

(٤) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي بتصرف ص ٥٤٥ - ٥٤٦ عقائد

وقوله : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » اشتملت هذه الجملة على تأكيد وصف الدجال ، الكذاب ، بأنه أعور العين ، أى أنه ناقص ، معيب ، قد لحقه الضر لفقد إحدى عينيه ، فمثله محال أن يكون إلهاً ، لأنه فقير محتاج إلى غيره ، بالإضافة إلى النقص والعيب الذى فيه ، وقد جاء بأعظم الكذب والبهتان ، حيث ادعى أنه إله ، يتوجه إليه ، بطلب الإسعاد ، وصرف الشقاء .

كما اشتملت هذه الجملة من الحديث ، على وصف الله تعالى بكمال العينين . ولهذا قال - ﷺ - : « وإن ربكم ليس بأعور » .

فهذا بيان واضح بوصف الله - تعالى - بأن له عينين كاملتين ، على ما يليق بعظمته .

قال النووى : « هذه علامة بينة تدل على كذب الدجال ، دلالة قطعية ، بديهية ، يدركها كل أحد » (١)

قوله : « مكتوب بين عينيه كافر » وفي رواية « يقرأه كل مؤمن ، كاتب ، وغيره كاتب »

قال النووى : « والصحيح الذى عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية ، جعلها الله آية ، وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره ، وكذبه وإبطاله ، يظهرها الله - تعالى - لكل مسلم كاتب ، وغير كاتب ، ويخفيها عن من أراد شقاوته وفتنته ولا امتناع في ذلك » (١) .

وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث أظهر علامات كذبه ، إظهاراً لا يخفى إلا على من أريد فتنته ، وعمى قلبه ، واشرب بحب الباطل ، نسأل العافية في الدنيا والآخرة .

(١) شرح مسلم ج ١٨ ص ٦٠ .

قال : « باب قول الله تعالى : « هو الله الخالق البارئ المصور »

* * *

قال ابن جرير : يقول - تعالى ذكره - : هو المعبود الخالق ، الذى لا معبود تصلح له العبادة غيره ، ولاخالق سواه ، البارئ الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ، المصور خلقه كيف شاء ، وكيف يشاء ^(١)

ومراد البخارى بهذا بيان أن الله - تعالى - متصف بأنه الخالق ، البارئ ، المصور فى الأزل ، والأبد ، فهو الخالق قبل وجود المخلوق ، وهو البارئ قبل وجود المبرئ ، وهو المصور قبل وجود المصور ، فهو تعالى لم يزل بصفاته ولا يزال ، كما يريد أيضا بيان أن الخلق الذى هو وصفه تعالى غير المخلوق ، خلافا لأهل البدع الذين يشير بهذا إلى الرد عليهم .

قال الزجاج : « أصل الخلق فى الكلام : التقدير ، يقال : خلقت الشيء خلقا ، إذا قدرته ، كما قال زهير :

لأنت تفرى ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفرى

يعنى : أنك إذا قدرت الأمر مضيت فى عزمك وفعلته ، ولست ممن يقدر الأمر ثم لا يعزم على فعله ، بل يثنى عن ذلك .

فالخلق فى اسم الله - تعالى - هو ابتداء تقدير النشاء .

فالله تعالى خالقها ، ومنشئها ، وهو متممها ، ومدبرها ، فتبارك الله أحسن

الخالقين

« البارئ » يقال : برأ الله الخلق إذا فطرهم .

والبرء خلق على صفة ، فكل مبروء . مخلوق ، وليس كل مخلوق مبروء ، لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء ، كما يقال برأت من المرض ، ومن الدين .

(١) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٥٦ .

فإذا فصل بعض الخلق من بعض ، سمي فاعله بارئاً .

فهو المعنى الذى به انفصلت الصورة بعضها من بعض ، فصورة زيد مفارقة لصورة عمرو ، وصورة حمار مفارقة لصورة فرس ، فتبارك الله خالقاً بارئاً .
« المصور » أى مصور كل صورة ، لا على مثال احتذاه ، ولا رسم ارتسمه « تعالى عن ذلك علواً كبيراً » (١) أى أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك ، لاتقديراً ، ولا إظهاراً ، وإيجادا .

وقال الحافظ : « قال الطيبي : قيل : الألفاظ الثلاثة مترادفة ، وهو وهم .
فإن الخالق : من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، ويطلق على الإبداع ، وهو إيجاد الشيء على غير مثال ، كقوله تعالى : (خلق السماوات والأرض) .
وعلى التكوين ، كقوله - تعالى :- (خلق الإنسان من نطفة) .

و « البارئ » من البرء ، وأصله خلوص الشيء عن غيره ، إما على سبيل الخلوص منه ، كبرء الرجل من مرضه ، والمديون من دينه .
أو على سبيل الإنشاء كبرء الله النسمة .

و « المصور » مبدع صور المخترعات ، ومرتبها على حسب مقتضى الحكمة ، فالله - تعالى - خالق كل شيء بمعنى أنه موجد من أصل ، ومن غير أصل ، وبارئه ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، من غير تفاوت ، ولا اختلال ، ومصوره فى صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله .
فالتقدير يقع أولاً ، ثم الأحداث على الوجه المقدر يقع ثانياً ، ثم التصوير بالتسوية يقع ثالثاً » (٢) .

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ببعض التصرف ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) فتح البارئ ج ١٣ ص ٣٩١ ملخصاً .

وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة : فالخالق : مبدع الأشياء على غير مثال سابق ، والبارئ ، وموجد الأشياء ، ومظهرها إلى الوجود ، من أصل ومن غير أصل ، والمصور : الذى خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر ، وما تحصل به مصلحته ، كما قال تعالى : (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) (١) ويظهر أن « البارئ » أخص من « الخالق » كما تقدم فى كلام الزجاج ما يشير إلى ذلك ، وإذا أضيف الخلق إلى الإنسان ، فمعناه التقدير ، ويأتى بمعنى الكذب .

★ ★ ★

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

٣٨ - قال « حدثنا إسحاق ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا موسى - هو ابن عقبة - حدثني محمد بن يحيى بن حبان ، عن ابن محيريز ، عن أبي سعيد الخدرى ، فى غروة بنى المصطلق ، أنهم أصابوا سبايا ، فأرادوا أن يستمتعوا بهن ، ولا يحملن ، فسألو النبي ﷺ - عن العزل ، فقال : ما عليكم أن لاتفعلوا ، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : عن فرعة ، سمعت أبا سعيد ، فقال : قال النبي ﷺ : « ليست نفس مخلوقة ، إلا الله خالقها » .

* * *

« العزل » : هو إنزال الماء خارج فرج المرأة ، خوفاً أن تحمل .
 قال الحافظ : « هو النزع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج » (١) .
 « قوله : ما عليكم أن لاتفعلوا » أى لا يضركم عدم العزل ، لأن ما قدره الله - تعالى - من الخلق ، فلا بد من وجوده ، عزل الإنسان أو لم يعزل ، يوضحه ما فى رؤية مسلم فقال : « لاعليكم أن لاتفعلوا ، ما كتب خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » (٢) .
 وفى قصة الرجل الذى سأل عن العزل ، عن جاريته ، فقال رسول الله - ﷺ : « إن ذلك لن يمنع شيئاً أراه الله » (٢) .
 قال الحافظ : وفى رواية « لا عليكم أن لاتفعلوا » أى لاجرح عليكم أن لاتفعلوا العزل . ففيه نفى الجرح عن عدم الفعل ، فأفهم ثبوت الجرح فى فعل العزل .

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠٥ .

(٢) مسلم مع النووى ج ١٠ ص ١٠ .

ولو أراد نفى الحرج عن العزل لقال : « لا عليكم أن تفعلوا » (١) .
 وفي مسلم لما ذكر هذا الحديث « قال محمد : وقوله : « لا عليكم » أقرب
 إلى النهي . ومحمد هذا هو ابن حاتم . وفيه أيضا وقال ابن عون : فحدثت به
 الحسن . فقال : والله لكأن هذا زجر » (٢) .

وقوله : « فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة » . هذا يبين
 عدم فائدة العزل ، لأن كل نفس قدر الله - تعالى - خلقها ، لا بد أن يخلقها ،
 عزلتم أم لا ، ومالم يشأ خلقها ، لا يقع ولو لم يعزلوا ، فإن كان الله أراد أن يخلق في
 تلك المقارنة وذلك الوقت ، فلا بد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على
 عدم الإنزال في الرحم ، فلا غالب على أمره ، وهو الخالق وحده .

وهذا هو وجه استدلال البخارى في الحديث ، فإن الله تعالى هو الخالق
 البارئ المصور وحده ، وأن كلا من الأب والأم ، لا دخل لهما في ذلك ، بل الله
 تعالى ، هو الذى يقدر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا وأنه
 تعالى - هو بارئ النسمة من الذكر والأنثى ، أو مما يشاء ، والخلق كلهم
 لا يستطيعون فعل شيء من ذلك .

وهو تعالى ، المصور لهذا الإنسان ، السوى ، من نطفة متساوية الأجزاء لو
 اجتمع عليها أمهر الأطباء ، بكل ما أوتوا من علوم ، وآلات ، وإمكانيات لم
 يستطيعوا أن يصوروا منها شيئا حياً ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فإن قيل : قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى .
 فجوابه أن ذلك من تقدير الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون شيء خارجا عن مشيئته
 وتقديره ، وإذا أراد أن يخلق مخلوقاً فلا بد من وجوده ، وإن استعملت الوسائل
 الممانعة لذلك .

(١) الفتح ج ٩ ص ٣٠٧ .

(٢) مسلم مع النووى ج ١٠ ص ١١ .

« قال ابن بطال : الخالق في هذا الباب ، يراد به المبدع المنشئ لأعيان المخلوقين ، وهو معنى ، لا يشارك الله فيه أحد » .

« وقال الكرمانى : « معنى قوله : إلا وهى مخلوقة ، أى مقدرة الخلق ، أو معلومة الخلق عند الله - تعالى - لا بد من إبرازها إلى الوجود » (١) .

قال شيخ الإسلام : « والذى عليه جماهير المسلمين من السلف ، والخلق : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله ، ولهذا كان النبى ﷺ يستعيد بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله ﷺ : - « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٢) فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره ، على أن كلام الله غير مخلوق ، بأنه استعاذ به ، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة ، لأنه استعاذ بهما ، والعافية القائمة بيدن الإنسان مخلوقة ، فإنها نتيجة معافاته » (٣) .

وسياتى إن شاء الله تعالى بسط ذلك وإيضاحه فى محله .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٢ .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

قال : باب قول الله - تعالى - : « لما خلقت بيدي »

* * *

أراد رحمه الله - بهذه الترجمة بيان ما أثبتته الله - تعالى - لنفسه ، من صفة اليدين ، وأثبتته له رسوله - ﷺ - على ظاهر ما نطقت به النصوص ، المتنوعة الدلالة في ذلك ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

قاله الله تعالى : (ونالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (١) .

وقال - تعالى - : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢) .

وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) (٣) (بيدك الملك) (٤) (بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) (٥) في آيات كثيرة ، وقد ذكر البخارى في ذلك عدة أحاديث .

★ ★ ★

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٤) فاتحة سورة الملك .

(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

٣٩ - قال : « حدثني معاذ بن فضالة ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس ، أن النبي ﷺ - قال : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة ، كذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا .
 فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، ولكن اتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله ، إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، ولكن اتوا إبراهيم - خليل الرحمن - ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناك ، ويذكر خطاياها التي أصاب ، ولكن اتوا موسى ، عبدا آتاه التوراة وكلمه تكليما ، فيأتون موسى ، فيقول : لست هناك ، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب ولكن اتوا عيسى - عبد الله ورسوله - وكلمته ، وروحه .

فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناك ، ولكن اتوا محمداً ، عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتوني ، فأنطلق ، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً ، فيدعني ماشاء الله أن يدعني .

ثم يقال لي : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع .

فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً ، فيدعني ماشاء الله أن

يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة .

ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال : ارفع محمد ، قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة .
ثم أرجع فأقول : ياربي مابقي في النار إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود .

قال النبي - ﷺ - : يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة .

ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة .

ثم يخرج من النار ، من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه ، ما يزن من الخير ذرة «

* * *

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد ذكره البخاري في أماكن متعددة من جامعه . والمقصود منه هنا ، قوله : « خلقتك الله بيده » حيث جعل ذلك ميزة لآدم من بين الخلق ، فدل على أن اليد هنا على ظاهرها ، يد ، حقيقة ، ولو كانت كما يقول أهل التأويل : أنها القدرة ، لم يكن لآدم اختصاص بذلك ، إذ الخلق كلهم مخلوقون بقدرة الله تعالى .

قوله : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك » قال الحافظ : « هكذا للجميع ، وأظن أول هذه الكلمة لام - أى لذلك - والإشارة ليوم القيامة ، أو لما يذكر بعد .

وعند مسلم : « يجمع الله المؤمنين ، يوم القيامة ، فيهتمون لذلك - وفي رواية « يلهمون لذلك » ^(١)

ومعنى : يهتمون ، ويلهمون متقارب - أى أنهم يعنون بسؤال الشفاعة وإزالة الكرب ، الذى هم فيه ، أو أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك ، والإلهام : أن يلقي الله - تعالى - فى النفس أمراً يحمل على فعل الشئ أو تركه ^(٢) .

قوله : « فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » هذا هو الذى يهتمون له - أو يلهمون - أى لو طلبنا ممن هو موجود معنا من الرسل الذين لهم مقام عند الله من يشفع لنا عند ربنا ، ليريحنا من عناء هذا الموقف وكرباتة ، فيحاسبنا ربنا ، ويجزينا بأعمالنا ، وما نستحق ، ثم نصير إلى منازلنا .

قوله : فيأتون آدم « إلى عيسى ، وكلهم يعتذر ، ويذكر لهم ذنبه .

فآدم عليه السلام يقول : نهانى عن الأكل من الشجرة فعصيته ، ونوح - عليه السلام يقول : دعوت على قومي ، فأغرقوا ، وسألت ما ليس لى به علم ، وإبراهيم عليه السلام يقول : كذبت ثلاث كذبات ، مع أنهم فى سبيل الله ، وهن : قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله : (إني سقيم) وقوله : للظالم العنيد لما سأله عن زوجته ، قال إنها أختى ، لأنها أخته فى الإسلام ، ولو قال : إنها زوجته لأخذها منه ذلك الظالم .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) النووى على مسلم ج ٣ ص ٥٣ .

وموسى - عليه السلام - يقول : قتلت نفسا بغير حق ، ولم يذكر لعيسى عليه السلام ذنباً ، وهذا كله مع قوله عيسى عليه السلام « ولكن اتنوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر » يدل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، وهؤلاء المذكورون هم أفضل الأنبياء ، وهى مسألة مشهورة ، ولا خلاف أن الكفر بعد النبوة غير واقع منهم ، كما أنه لا خلاف فى عصمتهم فيما يبلغونه عن طريق القول . وأما الفعل ، فقد يقع منهم السهو أو النسيان ، أو الخطأ الذى لا يقرون عليه كما أنهم محفوظون من الذنوب ، التى ترى بفاعلها ، وتسقط مروءته .

وأما الصغائر فجائز وقوعها منهم ، كما دل عليه هذا الحديث فى الجملة ، وغيره من النصوص الكثيرة . والله أعلم . وقد تطرف بعض شراح الكتاب وزعم أن من قال بهذا أنه كافر .

ويدل على عظم الأمر ، كيف اعتذر من هم أفضل البشر عن الشفاعة معتلين بذنوب ، أكثر الخلق لايعدها ذنوباً ، وهم قد تابوا منها ، واستغفروا ربهم فغفر لهم . وهذا يدل على عظم الله وعظيم قدره فى قلوبهم ، وعلى صعوبة الموقف بين يدى الله وشدته ، فهل يفهم هذا من يهرع إلى قبور الموتى يطلبون منهم ما لا يطلبه أولوا العزم من الرسل .

وقول كل واحد منهم : « لست هناكم » أى لست كما تظنون أنى أستطيع أن أشفع لكم ، فليس ذلك عندى .

قوله : « فأنتطلق ، فاستأذن على ربي ، فيؤذن لى عليه » يدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - يقصد مكاناً معيناً ، يرى فيه ربه ، وسيأتى فى باب الرؤية فى هذا الحديث « فاستأذن على ربي فى داره » وقد قيل : إن المراد بداره هنا الجنة . فالله أعلم .

قوله : « فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً » صريح فى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرى ربه عياناً فى ذلك الموقف ، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقال لي : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » أى أن الله تعالى يمهل له في السجود ، فيبقى ساجدا وقتا طويلا ، يسبح ربه ، ويمجده ، ويشئى عليه ، ويحمده ، فلا يرفع رأسه من سجوده حتى يأمره الله تعالى برفعه ، ثم يأذن له - تعالى - بأن يطلب من ربه مراده وقد علم الله مقصده ، ولهذا قال له : واشفع تشفع ، وهذا كله من رحمته تعالى . فهو الذى ألهم عباده طلب الشفاعة من الأنبياء ، وهو الذى أذن في الشفاعة وقبلها ، وحقيقة الأمر هو إرادة الله تعالى رحمة الخلق وإراحتهم من عناء الموقف ، وإظهار كرامة محمد ﷺ للخلق في ذلك الموقف العظيم ، وإلا فالشفاعة كلها لله .

قوله : « فأحمد ربي بمحامد علمنيها » قد تقدم أن هذا يدل على عدم حصر أسماء الله الحسنى ، في تسع وتسعين ، لأن هذه المحامد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وقد جاء في الرواية الأخرى : « فيفتح الله عليّ من المحامد والثناء مالا أحسنه الآن » .

قوله : « ثم أشفع ، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » أى أن الله تعالى يعين له من يشفع فيهم ، وهذا من الأدلة الواضحة على أن الرسول - ﷺ - لا يشفع فيمن يريد ، بل لمن يأذن الله له في الشفاعة فيهم ، وبذلك يتبين أن الشفاعة لله جميعا ، كما صرحت بذلك آيات من كتاب الله تعالى : قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون) (١) .

وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ، ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .

الحق وهو العلي الكبير (١) .

بهذه الآية يتبين أن المدعو يجب أن يكون مالكا لما يدعى من أجله ، وإلا كانت دعوته ضلالاً مبيهاً ، فإن لم يكن مالكا يكون مشاركا للمالك ، فإن انتفى الأمران ، يكون معاوناً ، وظهيراً مساعداً للمالك فإن لم يكن ذلك ، فلا أقل من أن يكون شافعاً مقبول الشفاعة عند من يملك المطلوب ، فنفى الله - تعالى - عن المدعويين من دونه هذه الأمور الأربعة ، وبين أن الشفاعة لا تنفع إلا بعد إذنه ، وهو جل وعلا ، لا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى عمله ، وهم أهل الإخلاص ، ومتابعة الرسول . وهو تعالى لا يرضى عن المشرك ، الذي يدعو غير الله تعالى .

فيجب على العاقل الذي تعز عليه نفسه أن لا يغتر بما اغتر به كثير من الناس الذين يعتمدون على الشفاعة ، مع ما هم فيهم من المعاصي ، فأفضل الشفعاء يحمد الله له حداً ، يقول : هؤلاء اشفع فيهم .

قوله : « فأقول : يارب ما بقى إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود » - أى أن أهل التوحيد الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم قد خرجوا منها بالشفاعة التي حقيقتها رحمة الله إياهم ، بواسطة الشفاعة ليظهر كرامة الشافع كما تقدم ، وبقي من نص القرآن على أنه من أهل النار ، الذين لا تنالهم شفاعة الشافعين .

قوله : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة إلى قوله - ما يزن برة » يدل على أن مجرد قول لا إله إلا الله ، من دون أن يقوم في القلب شيء من الإيمان ، لا ينفع ، ولا يخرج من النار ، فالمقصود بالخير ، الإيمان الذي يقوم في القلب ، وإن قل .

كما أنه يدل دلالة واضحة على تفاوت الإيمان وتفاضله ، وأن أهل الكبائر من المؤمنين يدخل من يدخل منهم النار ثم يخرجون منها . والله أعلم .

★ ★ ★

(١) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة سبأ .

٤٠ - قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « يد الله ملامى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغيض ما فى يده . وقال : عرشه على الماء ، ويده الأخرى الميزان ، يخفض ، ويرفع » .

* * *

جاء فى أول هذا الحديث فى تفسير سورة هود (أنفق أنفق عليك) (١) وسيأتى كذلك ، فى باب قوله تعالى : (يريدون أن يدلوا كلام الله) . وهو عند مسلم بلفظ « أن الله قال لى : أنفق أنفق عليك - وقال رسول الله ﷺ :- « يمين الله ملامى » إلى آخره (٢) .

وسياتى فى باب « وكان عرشه على الماء » . بلفظ : « إن يمين الله ملامى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ، ويده الأخرى الفيض - أو القبض يرفع ويخفض » وهو أبلغ فى الدلالة على إثبات اليمين لله تعالى من ماها هنا . وقد اضطرب أهل التأويل فى تأويلهم اليد اضطرابا يدل على أنهم على باطل .

والعاقل المنصف يعجب إذا رأى ما كتبه ابن حجر فى شرحه لهذا الباب ،

(١) انظره مع الفتح ج ٨ ص ٣٥٢ .

(٢) انظر مسلم ج ٢ ص ٦٩١ الحديث رقم ٣٧ ، وص ٦٩٠ الحديث رقم

فإنه ذكر بعض أقوال أئمة الأشعرية ، ثم قال : « واليد في اللغة تطلق لمعان كثيرة ، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى » (١) . والنصوص في هذا الباب جاءت معينة معنى واحدا لاغير هو يدا الله الكريمتين ، وماعدا ذلك فهو بهتان عظيم .

قوله : « يد الله ملامى » ذكرنا أنها عند مسلم ، وعند البخارى في مواضع غير هذا بلفظ « يمين الله » بدل : يد الله ، قال الحافظ : « يتعقب بهذه الرواية على من فسر اليد بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالخزائن » (٢)

قلت : هذا التفسير باطل ، ولا يصح أن يسمى تفسيراً ، وإنما هو تحريف للكلام عن مواضعه ، كفعل اليهود ، كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى . و « ملامى » بفتح الميم ، وسكون اللام ، وهمزة ، مع القصر ، أى أنها شديدة الامتلاء بالخير .

قوله : « لا يفيضها » أى لا ينقصها ، يقال غاض الماء ، يفيض إذا نقص .

قوله : « سحاء » بفتح السين والحاء المشددة ، ممدودا ، أى دائمة

الصب .

« الليل والنهار » منصوبان على الظرفية - أى يد الله دائمة السح في الليل

والنهار .

قوله : « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض » ؟ استدلال ،

وإيضاح لكثرة نفقته تعالى . وتنبه لمن له بصيرة إلى ذلك .

قوله : « فإنه لم يفيض ما فى يده » . أى هذا الإنفاق الهائل ، المستمر الدائم

بدون توقف ، لم ينقص ما فى يده - تعالى - لأن بيده الخير كله ، لا مانع لما

أعطى ، ولا معطى لمن منعه ، وإذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون .

قوله : « وعرشه على الماء » . قال الحافظ : « مناسبة ذكر العرش هنا ، أن

(١) انظر فتح البارى ج ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٥ .

السامع يتطلع من قوله « منذ خلق السماوات والأرض » ماذا كان قبل ذلك ؟
فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض ، كان على الماء » (١)

قوله : « وبيده الأخرى ، الميزان ، يخفض ، ويرفع » . الميزان : العدل ،
الذى به يرفع من يكون أهلا لأن يرفع ، ومن هو موضع له . فيفضل عليه برفعه
بالإيمان وقبول الحق ، بأن يجب إليه الإيمان ، ويزينه في قلبه ، ويكره إليه الكفر
والفسوق ، والعصيان ، ويجعله من الراشدين ، وهذا أعظم الرفع . ويخفض من
ليس أهلا لذلك ، بأن يمنع فضله عنه ، ويكمله إلى نفسه ، فيضل ويتولاه عدوه ،
فيصبح خاسرا ، وهذا أعظم الخفض ، لأنه يصير إلى أسفل سافلين ، في جهنم .
نعوذ بوجه الله منها ، وأمور الدنيا تبع لذلك .

« قال الطيبي : يجوز أن يكون « ملآى » و « لا يغيضها » و « سحاء »
و « أرأيتم » أخبار مترادفة ليد الله ، ويجوز أن تكون الثلاثة أوصافا « ملآى »
ويجوز أن يكون « أرأيتم » استثناء ، فيه معنى الترقى ، كأنه لما قيل : « ملآى »
[خشى] إيهام جواز النقصان ، فأزيل بقوله : « لا يغيضها » ، وقد يمتلىء الشيء
ولا يغيض ، فقيل : « سحاء » إشارة إلى الفيض ، وهو كثرة العطاء - وقرنه بما
يدل على الاستمرار ، من ذكر الليل والنهار ، ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر
غير خافٍ على ذى بصير وبصيرة ، بقوله : « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات
والأرض » وهذا الكلام إذا أخذته بجملته أبان عن زيادة الغنى ، وكال السعة
والجود ، والبسط في العطاء » (٢) .

قلت : الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت اليدين لله تعالى ، حقيقة ظاهر
جدا . وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله في آخر الباب .

★ ★ ★

(١) المصدر المذكور .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٣٩٥ .

٤٩ - قال : « حدثنا مقدم بن محمد ، قال : حدثني عمي ، القاسم ابن يحيى ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » . رواه سعيد عن مالك .

* * *

القبض : « إمساك الشيء بجميع كف اليد ، فقبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله » (١) فقبض الشيء هو جمعه في الكف .

فقوله : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض » أى يجمعها بيده ، فتكون قبضته كما قال تعالى : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) .

وقوله : « وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » أى أنه تعالى يطوى السماوات بيده اليمنى ، والأرض مقبوضة بيده الأخرى ، وأنه يهزمن ثم يقول :- يعظم نفسه - أنا الملك - أى الذى يتصرف فى كل شيء كيف يشاء ، لا يشاركه فى ذلك أحد ، ولهذا جاء فيه : أنه - تعالى - إذا قبضهن ، يهزمن ، ويقول : أنا الملك أنا الملك ، أين ملوك الدنيا ؟

وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢)

وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله - تعالى - وهو نص لا يقبل تأويلا . ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدى رب العالمين ، شبه اللعب فى كلام الله وكلام رسوله ، الذى يترفع عنه العقلاء ، فضلا عن أهل التقى .

★ ★ ★

(١) انظر المفردات للراغب ص ٣٩١ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٢ - قال : « وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « يقبض الله الأرض »

* * *

تقدم تفسير القبض . وهذا الحديث مر في باب قوله تعالى : (ملك الناس) .

★ ★ ★

٤٣ - قال : « حدثنا مسدد ، سمع يحيى بن سعيد ، عن سفيان ، حدثني منصور ، وسليمان عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، أن يهوديا جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : يا محمد ، إن الله يمسك السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ (وماقدروا الله حق قدره) (١) . »

وقال يحيى بن سعيد : وزاد فيه فضيل بن عياض ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله : « فضحك رسول الله - ﷺ - تعجبا وتصديقا له »



(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٤ - قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، سمعت إبراهيم قال : سمعت علقمة يقول : قال عبد الله : جاء رجل إلى النبي - ﷺ - من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فرأيت النبي - ﷺ - ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : (وما قدروا الله حق قدره) (١) .

* * *

هذا الحديث يدل على عظمة الله - تعالى - حيث يضع السموات كلها على إصبع من أصابع يده ، الكريمة العظيمة ، وعدد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة ، وأخبر أن كل نوع منها يضعه - تعالى - على إصبع ، تعالى - لوضع السموات والأرضين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده - جل وعلا - .

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحي من الله - تعالى - ، ولهذا صدقه رسول الله - ﷺ - بل وأعجبه ذلك وسرَّ به ، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه ، تصديقاً له ، كما قال عبد الله بن مسعود ، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل ، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة ، التي تعرف الله بها إلى عباده - هو ما يعرفونه من أنفسهم . فحملهم ذلك على تعطيل الله - تعالى - من هذه الأوصاف ، مرة برد هذه النصوص ، والظعن في روايتها بلا حجة سوى روايتهم لها ، ومرة بتأويلها التأويل الباطل ، الذي يخرجها عن مراد المتكلم بها . « قل أنتم أعلم أم الله » .

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - على إثبات اليمين لله - تعالى - وإثبات الأصابع لهما ، وإثبات القبض بهما وتثنيتهما ، وأن إحداهما يمين كما مر ، وفي نصوص كثيرة - والأخرى شمال كما في صحيح مسلم ^(١) ، وأنه - تعالى - ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وبالنهار ليتوب مسيء الليل ^(٢) ، وأنه - تعالى - يتقبل الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فريها لصاحبها ^(٣) وأن المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ^(٤) ، وغير ذلك مما هو ثابت عن الله ورسوله . وسأذكر شيئاً يسيراً من ذلك إن شاء الله . وبعضه يكفى المؤمن المرید للحق .

وهذا الذى أشرت إليه كله يمنع تأويل اليمين بالنعمة أو القوة ، أو الخزائن ، أو القدرة ، أو غير ذلك ، ويجعل التأويل فى حكم التحريف ، بل هو تحريف .

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص ، على ظاهرها ، وقبلوها ، ولم يتعرضوا لها بتأويل تبعاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته ، وأئمة الهدى ، بل وكل من قبل ماجاءت به الرسل ، وآمن به .

قال الإمام ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث : « معناه أن الله - جل وعلا - يمسك ما ذكر فى الخبر على أصابعه ، على ما فى الخبر سواء ، قبل تبديل الله الأرض غير الأرض ، لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء ، وهو مفهوم فى اللغة التى حوطيناها ، لأن الإمساك على الشيء بالأصابع ، غير القبض

(١) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٢) سيأتى تخرجه .

(٣) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٤) سيأتى ذكره فى هذا الباب .

على الشيء» (١) قال الحافظ في شرحه لهذا الحديث : « زاد ابن خزيمة ، عن محمد ابن خلاد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن الأعمش ، فذكر الحديث ، قال محمد : عدها علينا يحيى بأصابعه وكذا أخرجه أحمد في السنة ، عن يحيى بن سعيد ، وقال : وجعل يحيى يشير بأصبعه يضع إصبعاً على أصبع ، حتى أتى على آخرها ، قال :

ورواه الخلال في كتاب السنة ، عن أبي بكر المروزي ، عن أحمد . وقال : ورأيت أبا عبد الله يشير بإصبع إصبع » (٢)

قلت : تبعوا في ذلك ما وقع من الخبر الذى حدث رسول الله - ﷺ - حيث كان يشير بأصابعه ولم ينكر عليه رسول الله - ﷺ - بل أقره ، وصدقه . فهذه النقول عن هؤلاء المذكورين من السلف ، تدل على أنهم فهموها على ظاهرها ، وأنها أصابع حقيقة .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : « قال أبى : قال يحيى : قال فضيل بن عياض ... فضحك رسول الله تعجباً وتصديقاً ، سمعت أبى يقول : حدثنى يحيى ابن سعيد ، بحديث سفيان ، عن الأعمش ، ومنصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، عن النبى - ﷺ - : « إن الله يمسك السموات على إصبع » . قال أبى : وجعل يحيى يشير بأصابعه ، وأرانى أبى كيف جعل يحيى يشير بأصابعه . يضع إصبعاً إصبعاً حتى أتى على آخرها » (٣) .

وفى الترمذى عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى بالنبى - ﷺ - فقال له - النبى - ﷺ - : يا يهودى حدثنا ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم : إذا

(١) كتاب التوحيد ص ٧٩ .

(٢) فتح البارى ج ١٣ ص ٣٩٧ .

(٣) كتاب السنة ص ٥٤ .

وضع الله السموات على ذه والأراضين ، على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟

وأشار محمد بن الصلت - أبو جعفر - بخصره أولاً ، ثم تابع حتى بلغ الإبهام فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح « (١)

ورواه ابن جرير في تفسيره . وسنده حسن (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثني أبي ، حدثنا حسين بن حسن ، حدثنا أبو كريمة ، عن عطاء ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى برسول الله - ﷺ - وهو جالس ، قال : كيف تقول ياأبا القاسم : يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلائق على ذه - وجعل يشير بأصابعه - فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) .

حدثني عبد الله بن عمر ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى على النبي - ﷺ - فقال له النبي - ﷺ - : يا يهودى خوفنا ، فقال : ياأبا القاسم كيف بيوم تكون الأرضون على هذه ، والسموات على هذه ، والماء على هذه ، والخلق على هذه - يعنى أصابعه ، ثم قرأ رسول الله - ﷺ - (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٣) .

فمثل هذه الأحاديث هي مسند السلف في الإشارة بالأصابع ، تحقيقاً لإثبات أصابع الرحمن - جل وعلا - ، وقدوتهم رسول الله - ﷺ - .

(١) سنن الترمذى ج ٥ ص ٤٩ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٢٤ ص ٢٦ .

(٣) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٥٥ .

وهذه النصوص التي فيها ذكر الأصابع تدل دلالة قاطعة - عند المؤمنين الذين يحكمون الشرع - على ثبوت اليدين لله - تعالى - ، وقد تنوعت الدلائل على ذلك - كما أشرنا إليه آنفا - من ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، والثنية ، وذكر اليمين والشمال .

ففى الموطأ ، والترمذى ، وسنن أبى داود : أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله - تبارك وتعالى - خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذريته » (١) ورواه أحمد

وفى الترمذى وسنن أبى داود مرفوعا « أن الله - تبارك وتعالى - خلق آدم من قبضة ، قبضها من جميع الأرض » (٢) .

وفيه أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، فى حديث طويل فى خلق آدم ، وفيه : « فقال الله له : ويداه مقبوضتان ، اختر أيهما شئت ، قال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين ، مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها ذريته » (٣)

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يطوى الله - عز وجل - السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » (٤) .

وفيه أيضا عنه مرفوعا ، « قال : يأخذ الله - عز وجل - سماواته ، وأرضيه

(١) الموطأ ج ٢ ص ٨٩٨ - ٨٩٩ ، والترمذى فى التفسير رقم ٣٠٧٧ ، وسنن أبى داود فى السنة رقم ٤٧٠٣ ، والمسند ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) الترمذى رقم ٢٩٤٨ فى التفسير ، وأبو داود فى السنة فى القدر رقم ٤٦٩٣ .

(٣) سنن الترمذى فى التفسير فى باب من سورة المعوذتين رقم ٣٣٦٥ . وابن

حزيمة فى التوحيد ص ٦٧ .

(٤) مسلم ج ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ .

بيديه فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ، ويبسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله - ﷺ - « (١) ورواه أحمد .

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن المقسطين عند الله ، على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم ، وأهليهم ، وما ولوا » (٢) .

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ - : « وماتصدق أحد بصدقة ، من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يرى أحدكم فلوه ، أو فضيله » (٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربها لصاحبها ، كما يرى أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل » (٤) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله - ﷺ - : « ينزل الله في السماء الدنيا ، لشطر الليل ، أو لثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ أو يسألني فأعطيه ؟ ثم يبسط يديه - تبارك وتعالى - يقول : من يقرض غير عدوم ، ولا ظلوم » (٥) .

(١) صحيح مسلم الموضع المذكور وانظر المسند ج ٢ ص ٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ .

(٣) مسلم ج ٢ ص ٧٠٢ رقم ١٠١٤ .

(٤) انظر البخارى مع الفتح ج ٣ ص ٢٧٨ و ج ١٣ ص ٤١٥ ، ومسلم ج ٢

ص ٧٠٢ ، وابن خزيمة في التوحيد ص ٦١ - ٦٣ .

(٥) مسلم ج ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة في التوحيد عن عبد الله بن مسعود ص

وفيه من حديث المغيرة بن شعبه في سؤال موسى ربه ، عن أدنى أهل الجنة منزلة . قال : « رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن » (١)

وفي الصحيحين مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري . قال النبي - ﷺ - : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر ، نزلاً لأهل الجنة » (٢) .

وفيهما من حديث أبي هريرة ، قال رسول الله - ﷺ - : « واحتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا ، خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة . فقال آدم : أنت موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة » (٣) .

وفي رواية لمسلم « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته » (٤)

وروى البيهقي في الأسماء والصفات بسنده « أن النبي - ﷺ - قال : « لما خلق الله - تعالى - آدم وذريته ، قالت الملائكة : يارب خلقتهم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله - تعالى - : لأجعل من خلقتهم بيدي ، ونفخت فيه من روحي كمن قلت له : كن فيكون » (٥) .

(١) مسلم ج ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة في التوحيد ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٣٧٢ ، ومسلم ج ٤ ص ٢١٥١ رقم

. ٢٧٩٢

(٣) البخارى مع الفتح ج ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم ج ٤ ص ٢٠٤٢ .

(٤) مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ .

(٥) الأسماء والصفات ص ٣١٧ .

وروى بسند حسن، عن أنس، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خلق الله - تعالى - جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده ، فقال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » (١) .

ورواه ابن جرير موقوفا (٢) ، وذكره الحافظ ابن كثير ، عن ابن أبي الدنيا مرفوعا (٣)

وقال ابن جرير في قوله - تعالى - : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول - تعالى - ذكره - والأرض كلها قبضته في يوم القيامة ، والسماوات كلها « مطويات يمينه » ثم روى عن ابن عباس ، قال : « ما السماوات السبع ، والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وروى عن ربيعة الجرشى قال : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات يمينه » قال : ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء .

وعن ابن عباس ، قوله : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول : قد قبض الأرضين ، والسماوات جميعا يمينه ، ألم تسمع أنه قال : « مطويات يمينه » يعنى الأرض والسماوات جميعا ، قال ابن عباس : وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه .

وعن الحسن : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : كأنها جوزة بقضها وقضيضها »

حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله - ﷺ - على المنبر ، يخطب الناس فمر بهذه الآية : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم

(١) المصدر المذكور ص ٣١٨ .

(٢) تفسير الطبرى مفتاح الجزء ١٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٤٥٥ ط الشعب .

القيامة) فقال رسول الله - ﷺ - : « يأخذ السموات ، والأرضين السبع فيجعلها في كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة ، أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز ، حتى لقد رأينا المنير ، وإنه ليكاد أن يسقط به » (١) .
 وذكر أحاديث ، وآثاراً في هذا .

والأحاديث ، والآثار عن السلف في ذلك كثيرة .

وروى ابن ماجه ، قال في الزوائد وسنده صحيح ، والإمام أحمد ، عن النواس بن سمعان ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : مامن قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاعه » (٢) .

وهذا وغيره كثير لم نذكره ، يعلم خطأ الخطابي ، وفريق أهل التأويل قطعاً حيث يقول : « لم يقع ذكر الإصبع في القرآن ، ولا في حديث مقطوع به . وقد تقرر أن اليد ليست بجراحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف ، أطلقه الشارع ، فلا يكيف ، ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي ، وأما ضحكك - ﷺ - من قول الحبر ، فيحتمل الرضا والإنكار ، وأما قول الراوي : « تصديقا له » فظن منه وحسبان » (٢) .

ونحن نجيبه بما أجاب به عبد الله بن مسعود ، لما قيل له : إن المنع من تعليق التهمة ليس في كتاب الله .

فنقول : بلى إن ذكر الأصابع قد وقع في القرآن ، لأن الله - تعالى - : يقول فيه : (وما آتاكم الرسول فخذوه) . وقد أتانا - ﷺ - بذكر الأصابع ،

(١) تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٧٢ رقم ١٩٩ ، والمسند ج ٤ ص ١٨٢ ، والآجری فی الشريعة ص ٣١٧ ، والحاكم ج ٤ ص ٣٢١ ، وابن أبي عاصم في السنة ج ١ ص ٩٨ ، وذكر عدداً من الأحاديث بهذا اللفظ .

(٣) من الفتح ج ١٣ ص ٣٩٨ .

وذكر الكف ، وذكر اليمين ، والشمال ، واليدين مرة مثناة ، ومرة منصوص على واحدة أنه يفعل بها كذا وكذا ، وأن الأخرى فيها كذا ، كما تقدمت النصوص بذلك . وهو تبع لأهل الكلام - المذموم - ينكر وصف الله - تعالى - باليدين حقيقة ، مع أن القرآن قد جاء بذلك صراحة ، كما قال - تعالى - : (يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي) (١) (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٢) (بل يدها مبسوطتان) (٣) . وهو مع ذلك لا يقبله ، لأنه على خلاف ما تلقاه عن أهل البدع ، ولهذا نراه - عفا الله عنا وعنه - يحاول رد النصوص بدون حجة ، وكل ما يمكن أن يعتمد عليه هو - وكل من سلك مسلكه - من أهل التأويل ادعائهم أن العقل بخلاف ذلك وأنه محال في العقل - وهو أمر غير منضبط ، كما سنشير إليه - إن شاء الله - ودعوى بدون برهان .

قوله : « ولا حديث مقطوع به » . هذا عجيب من الخطابي - الذي كثر اشتغاله بالحديث تأليفا ، ورواية ، وشرحا لمتونه ، وأسانيده ، ثم يقول هذا القول ، الذي هو عنوان لأهل البدع ، فهم كلما ألجأتهم الحجج إلى المضائق رموها بهذه الدعوى - « أنها أدلة غير مقطوع بها » - .

فإذا كانت أحاديث الرسول - ﷺ - مع ثبوت أسانيدها غير مقطوع بها ، فما هي الحجج المقطوع بها في نظر هؤلاء ؟ هل هي أقوال أقوام متهمين على الدين الإسلامي ؟ - وتحوم حولهم شكوك كثيرة ؟ كالجعد بن درهم ، وجهم ابن صفوان ، وبشر المريسي ، وأحمد بن أبي دؤاد ، وابن الثلجي ونحوهم ، فإن هؤلاء هم سلف متأخري الأشعرية في تأويلاتهم .

وإننا نربأ بالخطابي أن يسلك هذا المسلك المنحرف عن الهدى .

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

وهذا دليل على ضعف مسلك التأويل في هذه النصوص ، وأنه غير مقنع .
ثم هو يقصد بقوله : غير مقطوع به . عدم التواتر ، لأنه لا يقبل من الحديث في
باب الصفات إلا ما كان في القرآن ، أو تواتر عن الرسول - ﷺ - كما ذكر
ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد علم أن القرآن جاء بصفة اليدين لله
صراحة .

ومعلوم أن الصحابة ومن سلك نهجهم لم يفرقوا بين أصول الدين وفروعه في
الثبوت ، ومعظم الدين الإسلامى ثبت بأخبار الآحاد .

وهذه الصفات التي ينكرها هؤلاء ، قد ثبتت في أحاديث مقطوع
بصحتها عند أهل العلم ، وإذا صح الحديث وجب قبوله ، والعمل به ، والإيمان
بما دل عليه وحرمت مخالفته .

ولا فرق بين كونها في العمليات ، أو الاعتقادات ، خلافا لأهل البدع
الذين يفرقون بين ذلك .

ومعلوم أن الذي جاء بهذه النصوص - في الصفات - هو الذي جاء
بالأمر بعبادة الله ، وتحريم الشرك ، وبيان عدد ركعات الصلوات الخمس ، وأنصاء
الزكاة ، وبيان واجبات كثيرة ، ومحرمات كثيرة لم يأت تفصيلها في القرآن ، ولا في
أخبار متواترة ، فلماذا يقبل هذا ، ويرد ذاك ؟ إن هذا التفريق فعل الذين جعلوا
دينهم شيعا ، وآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

وقد تقدم ما فيه كفاية لمن قصده الحق من ذكر النصوص في هذه المسألة
وغيرها من مسائل الصفات نظيرها ، وقد يكون أوضح منها دليلا كما سيأتى
بعض ذلك .

وقوله : « وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت
الأصابع » حقيقة هذا الكلام : أن اليد ليست يدا ، حتى يلزم ثبوت الأصابع .
ومعلوم أن الله - تعالى - خاطبنا باللغة العربية ، وبألفاظ معلومة المعانى
للمخاطبين فالمخاطبون بهذه النصوص ، علموا أن المراد بها ما دلت عليه بظاهرها .

وكذلك المخاطب أراد منهم ذلك ، ولهذا لم يأت عنه - ﷺ - ولا من طريق ضعيف أنه قال : لاتعتقدوا ظاهرها ، ولاسيما وظاهرها عند الخطابي وفريقه كفر وتشبيه .

فهل يعقل أن الله ورسوله يخاطبان العباد بما ظاهره الكفر ، ثم لايين ذلك لهم ، ويحذرهم من اعتقاده ؟ ولو كان لهذه النصوص معنى عند رسول الله غير ظاهرها لبينه ، لأنه واجب عليه بمقتضى الرسالة .

والصحابا سمعوا هذه النصوص ، ورووها ، ولم يسألوا عن معان لها غير ظاهرها ، فلما سكتوا دل ذلك على أنهم علموا أن المراد بها هو الظاهر ، فوجب علينا أن نسكت حيث سكتوا ، وأن نقبل ونسلم كما قبلوا وسلموا لها بدون تأويل . ونحن نسأل هؤلاء من ، من المسلمين الذين يعتد بقولهم ، قال : إن يد الله جارحة ؟ وهل جاء ذلك . ولو بحديث ضعيف ؟ إن هذا لاوجود له ، ولكنها الأوهام . والاتجاهات الفاسدة ، وإرادة التشنيع على اتباع الرسل .

ونحن بحمد الله وله المنه ، وكل من تلقى عن رسول الله - ﷺ - بالقبول والتسليم ، وفهم المراد - نعتقد مطمئنين أن لله يدين حقيقتين لهما أصابع يضع عليها السموات والأرض ، وماشاء يوم القيامة ، وإن رغمت أنوف الأشعرية وإمامنا في ذلك رسولنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - . وأصحابه ، وأتباعه إلى يوم القيامة ، وهو معلم الخير والهدى .

قال الإمام أحمد : « الحديث عندنا على ظاهره ، كما جاء عن النبي - ﷺ - والكلام فيه بدعة ، ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره » (١) .

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٤٢ .

ويقصد بالكلام فيه : التأويل الذى يخرج منه عن ظاهره .

وقال البريهارى (١) : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، ولا يقبلها ، أو ينكر شيئاً من أخبار رسول الله - ﷺ - فاتهمه على الإسلام ، لأننا إنما عرفنا الله ورسوله ، وعرفنا القرآن ، والخير ، والشر بالآثار » (٢) .

وقال : « واعلم أنها لم تكن زندقة ، ولا كفر ، ولا شكوك ، ولا بدعة ، ولا ضلالة ، ولا حيرة فى الدين إلا من الكلام وأهل الكلام ، والجدل ، والمراء ، والخصومة . وكيف يجترىء الرجل على المراء ، والخصومة ، والجدال ، والله يقول : (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) (٣) .

وقال أيضا : « واعلم أنما جاء هلاك الجهمية . من أنهم فكروا فى الرب - عز وجل - فأدخلوا ، لم ، وكيف ، وتركوا الأثر ، ووضعوا القياس ، وقاسوا الدين على رأيهم ، فجاؤوا بالكفر عيانا ، لا يخفى أنهم كفروا ، وكفروا الخلق ، واضطروهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل » (٤) .

وقال : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، أو يردّها ، ويريد غيرها ، فاتهمه على الإسلام ، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع » (٥) .

وقال القاضى ، أبو الحسين محمد بن أبى يعلى : « قرأت على المبارك ، عن على بن عمر البرمكى ، قال أخبرنا أحمد بن عبد الله المالكى ، حدثنا أبى ،

(١) هو شيخ الحنابلة فى وقته الحسن بن على بن خلف ، كان شديد الإنكار على أهل البدع ، وكان حافظا ثقة ، وأصوليا متقنا له تصانيف كثيرة مفقودة توفى سنة ٣٢٩ شذرات الذهب ج ٢ ص ٣١٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) المرجع المذكور ص ٢٧ .

(٤) المرجع المذكور ص ٣٠ .

(٥) المرجع المذكور ص ٣٦ .

حدثنا محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب بن زوران - لفظا - حدثنا أبو العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب بن عبد الله الفارسي ، الاضطخري ، قال : قال أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل ، وذكر العقيدة - إلى أن قال : « وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء ، ويوعيتها ماأراد ، وخلق آدم بيده ، على صورته ، والسموات ، والأرض يوم القيامة في كفه ، ويضع قدمه في النار ، فتنزوي » وذكر عقيدة طويلة جامعة (١)

وقال الحسن بن علي بن خلف البرهاري : « وكل ماسمعت من الآثار شيئا لم يبلغه عقلك ، نحو قول رسول الله - ﷺ - قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن - وقوله : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، وينزل يوم عرفة وينزل يوم القيامة ، وأن جهنم لايزال يطرح فيها ، حتى يضع عليها قدمه - وقوله للعبد : إن مشيت إلّى ، هرولت إليك » وقوله : خلق الله آدم على صورته ، وقول الرسول - ﷺ - : رأيت ربي في أحسن صورة » (٢) - وأشباه هذه الأحاديث ، فعليك بالتسليم ، والتصديق ، والتفويض (٣) والرضا ، ولا تفسر شيئا من هذه بهواك (٤) ، فإن الإيمان بهذا واجب . فمن فسر شيئا من هذا بهواه ، أو رده ، فهو جهمي » (٥) .

وهذا الذى ذكره الإمام أحمد ، والبرهاري هو مذهب السلف ، الذين تلقوا عن الرسول - ﷺ - ولم يزل السلف يوصى بعضهم بعضا بالتمسك به ، والتحذير ممن يخالفه ، لأنه الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

(١) طبقات الخنابلة ج ١ ص ٢٤ - ٢٩ .

(٢) هذه رؤية منام كما هو مصرح به في الرواية .

(٣) المقصود بالتفويض : تفويض الحقيقة ، والكيف ، فهو يوكل إلى الله -

تعالى - فإن الخلق لا علم لهم بذلك .

(٤) مراده بالتفسير : التأويل ، وتعين معنى لايدل عليه اللفظ إلا بتكلف أو

بغرابة .

(٥) طبقات الخنابلة ج ٢ ص ٢٣ .

وقوله : « بل هو توقيف أطلقه الشارع ، فلا يكييف ، ولا يشبه » - يعنى أن لفظ اليد الثابت بكتاب الله ، وبالسنة توقيف أطلقه الشارع ، فلا يوقف له على معنى فهو عنده - لا يدل على ما وضعت له كلمة « يد » فى اللغة ، ومضمون ذلك أن آيات الصفات ، وأحاديثها لا يعلم لها معانى تطابق ألفاظها ، وتؤخذ منها ويلزم على هذا أن الشارع خاطب الناس بما ظاهره غير مقصود ، ولا مطلوب منهم الإيمان بظاهره ، بل قد يكون ظاهره باطلا وكفراً ، فمعنى قوله : « لا يكييف ، ولا يشبه » أى لا يثبت لها معنى مطابقاً للفظها فى وضع اللغة ، فلا يوصف الله - تعالى - باليد الحقيقية التى أثبتنا لنفسه ، وأثبتنا له رسوله - ﷺ - لأن هذا تشبيه ، فهذه النصوص فى هذا الباب ونحوه فيها تشبيه - لله تعالى - عند هؤلاء ، ولهذا صار تأويلها متعينا .

فضاعت النصوص التى تعرف الله بها إلى عباده بين مردود (١) ومؤول .

وقوله : « ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى » . وجواب ذلك أنه قد تقدم من ذكر بعض النصوص التى تبطل هذا الهرى ، والقول الجائر . إن الخطأى - عفا الله عنا وعنه - بهذا القول إنما يشنع فى الحقيقة على رسول الله - ﷺ - . والله المستعان .

وقوله : « فإن اليهود مشبهة ، وفيما يدعون من التوراة ألفاظ . تدخل فى باب التشبيه ، ولا تدخل فى مذاهب المسلمين » . ونحن لانبرىء اليهود من الباطل ، ولكن نقول : إن الحق يجب أن يقبل ممن قاله ، سواء كان من اليهود أو من غيرهم .

وهو لم يبين هذه الألفاظ التى تدخل فى باب التشبيه على حد قوله .

(١) القاعدة عند الخطأى : أن الأحاديث الموافقة للقرآن ، أو المتواترة هى التى تقبل فى الصفات ، أما ما عدا ذلك ، فإنه لا يثبت به صفة لله - تعالى - وهذه القاعدة أخذت من كلامه كما سبق قوله فى الأصابع أنه لم يثبت فيه حديث .

ولكن نعلم من طريقته ، أن كل من أثبت لله من الصفات ما ينكره هو ومن سلك نهجه ، أنهم يسمونه مشبها ، ولو كان متمسكا بالكتاب والسنة فعنده من أثبت لله يداً حقيقة فهو مشبه ، وكذلك الوجه ، والرجل ، والأصابع والعينين ، ونحو ذلك .

وقوله : « وأما ضحكك - ﷺ - من قول الخبر ، فيحتمل الرضا ، والإنكار »

فجوابه : أن الحق الذي لانشك فيه أنه لا يحتمل إلا الرضا ، والموافقة ، لأن الرسول - ﷺ - لا يضحك من الباطل ، والكفر الذي هو تشبيه رب العالمين بالخلق ، كما هو مقتضى مذهب الخطائي .

ومقتضى الإيمان بالرسول - ﷺ - يمنع من أن يكون ضحكك من أجل التشبيه الذي يقوله اليهودي - كما زعم الخطائي - عفا الله عنا وعنه .

إن ما يقوله هؤلاء في الحقيقة قلب للحقائق ، حتى تسلم عقيدة الأشعرية من معاول النصوص ، التي تأتي على أسسها بالافتلاع ، (١) ولو استطاع كثير منهم الرد على الله ، ورسوله لفعلوا ، ولكن كما يقول الله - تعالى - : (بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) (٢) .

وأما قوله : « وأما قول الراوي : « تصدقا له ، فظن وحسبان » يعني أن عبد الله بن مسعود ظن ظناً أخطأ الحق ، وأبعد عن الصواب حيث خالق عقيدة أهل الكلام ، فيرد قوله .

(١) قال ابن خزيمة : « وقد أجل الله قدر نبيه ، عن أن يوصف البارئ بحضرتة بماليس من صفاته ، فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكا حتى تبدو نواجزه . تصديقا وتعجبا لقائله ، لا يصف النبي - ﷺ - بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته » كتاب التوحيد ص ٧٦ .

(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

ونحن نقول : أيهما أولى عند الله ، وعند المؤمنين بالفهم عن رسول الله - ﷺ - صحابته الذين عايشوه ، وتربوا بين يديه ، ونقلوا لنا ديننا عنه ، أم الخطأ وذويه ؟ ولو سلم ذلك لأمكن كل مبطل أن يقول في أى نص جاء عن الرسول - ﷺ - وصحابته كقولك هذا : أنه ظن وحسبان ، وأن الصواب خلافه فتبطل الشريعة كلها . تقدم ذكر بعض الآيات الدالة صراحة على وصف الله - تعالى - باليدين .

« وقد تواتر في السنة مجيء اليد - وصفاً - لله تعالى - فعلم من ذلك أن الله - تعالى - يدين مختصتان به ، ذاتيتان له ، كما يليق بجلاله ، وأنه - تعالى - خلق آدم بيده دون الملائكة ، وإبليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ، ويطوى السموات بيده اليمنى ، وأن « يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . (١)

ومعنى بسطهما : بذل الجود ، وسعة العطاء ، لأن العطاء ، والجود في الغالب يكون يبسط اليد ومدها .

فإذا قيل : هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقة ، وكان ظاهره الجود والبذل . وقد اعتمد أهل التأويل ، في تأويلهم اليد ، أنها النعمة والعطية ، تسمية للشيء باسم سببه ، كما يسمى المطر والنبات سماء ، ومن ذلك قولهم : لفلان عندي أياد ، وقول أبي طالب لما فقد النبي - ﷺ - :

يارب رد راكبي محمداً رده علي ، واصطنع عندي يدا

وقول عروة بن مسعود ، لأبي بكر يوم الحديبية : لولا يدي ذلك عندي ، لم أجرك بها لأجبتك .

وقد تكون اليد بمعنى القدرة ، تسمية للشيء باسم مسببه ، لأن القدرة هي تحرك اليد ، يقال : فلان له يد في كذا وكذا ، أى له قدرة ، ومنه قول زياد

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

للمعاوية : إني قد أمسكت العراق بإحدى يدي ، والأخرى فارغة ، يريد نصف قدرته . وقد يضاف الفعل إلى اليد إضافته إلى الشخص نفسه ، لأن غالب الأفعال تكون بها . فصار ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسه ، كما قال - تعالى - : (ذلك بما قدمت أيديكم) (١) .

وتقول العرب : « يداك أوكنا ، وفوك نفخ » توبيخاً لكل من جرّ إلى نفسه شراً ، لأن أول من قيل له ذلك ، فعل بيديه وفمه .

ولذلك قالوا في مثل قوله - تعالى - : (بل يدها مبسوطتان) أى نعمته في الدنيا والآخرة . واللفظ كناية عن نفس الجود ، من غير أن يكون هناك يد حقيقة ، بل هذه اللفظة صارت حقيقة في العطاء والجود .

وقالوا في قوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) (٢) أى خلقتة أنا ، وليس هناك يد حقيقية - ونحو هذه التأويلات .

والجواب : أننا لاننكر لغة العرب التي نزل بها القرآن ، وأن ما ذكر معروف في اللغة ، ولكن ننكر تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد في أسماء الله وصفاته .

فإن لفظ « اليدين » بصيغة التثنية ، لم يستعمل في النعمة ، ولا في القدرة . لأن من لغة العرب استعمال الواحد في الجمع ، كقوله - تعالى - : (إن الإنسان لفي خسر)

ولفظ الجمع في الواحد كقوله - تعالى - : (الذين قال لهم الناس إن الناس) (٣) والقاتل واحد .

ولفظ الجمع في الاثنين كقوله - تعالى - (فقد صغت قلوبكما) (٤) .

(١) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٣) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٤ من سورة التحريم .

أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين ، والاثنين في الواحد ، فلا أصل له في اللغة . لأن هذه الألفاظ عدد ، وهي نصوص في معناها ، لا يتجاوز بها ، فلا يجوز أن تقول : عندي رجل ، وأنت تريد اثنين ، ولا عندي رجلان وأنت تريد واحدا ، ولا عندي رجلان وأنت تريد الجنس ، لأن اسم الواحد يدل على الجنس ، والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس ، والجنس يحصل بمحصل الواحد . فقوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) لا يجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولا يجوز أن يراد به النعمة ، لأن نعم الله لا تحصى ، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية .

ولا يجوز أن يكون كما قالوا : لما خلقت أنا ، لأن العرب إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد ، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفاعل . كقوله : (بما قدمت يداك) (١) (ذلك بما قدمت أيديكم) (٢) ، ومن هذا قوله - تعالى - : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) (٣) . أما إذا أضيف الفعل إلى الفاعل ، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الجر كقوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) فإنه يكون نصا في أنه فعل ذلك بيديه . ولهذا لا يجوز لمن تكلم ، أو مشى أن يقول : فعلت ذلك بيدي ، ولكن يقال : فعلته يداك ، لأن مجرد قوله : « فعلت » كافٍ في الإضافة إلى الفاعل . فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان قوله : « بيدي » زيادة لافائدة فيها . ولا تجد في كلام العرب أن فصيحا يقول : فعلت هذا بيدي ، إلا وأنه فعله بيديه حقيقة ، ولا يجوز أن يقول ذلك وهو ليس له يد « (٤)

(١) الآية ١٠ سورة الحج .

(٢) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٣٦٣ - ٣٦٦ .

وأما تعليله لإنكاره إثبات اليد لله - تعالى - والأصابع . بأن اليد المتعارف عليها هي الجارحة ، وذلك ممتنع على الله - تعالى - .

فالجواب أن هذا ممتنع لو كانت اليد التي أثبتها الله لنفسه من جنس أيدي المخلوقين ، أما إذا كانت يدا تناسب ذاته وتليق بعظمته ، فما هو المانع من ذلك في العقل والشرع ، وما هو الموجب لتلك التمحلات .

وكل ما يذكر أهل التأويل إنما يدل على امتناع وصفه - تعالى - بما يستحقه المخلوق ، وخصائص المخلوقين منفية عنه - تعالى - . وكل ما أثبت لله - تعالى - من الصفات فهي كمال ، وفقدتها نقص - تعالى - عنه .

ثم هل يجوز مع كثرة ما في كتاب الله ، وسنة رسوله من ذكر اليد دالاً على الحقيقة ، مثل ذكر خلق آدم بيديه ، وأنها مبسوطتان ، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، وأن السموات مطويات بيمينه ، وأن يده الملك .

وفي السنة مالا يحصى إلا بمشقة مثل ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، واليمين ، والشمال ، وأن يديه كلتاهما يمين ، ثم لايين الرسول - ﷺ - أن هذا غير مراد منه الظاهر والحقيقة ، مع حظه لنا على الفهم . وهل يجوز أن يفهم صحابته ، والتابعون لهم من هذه النصوص غير الحق المراد منها ، ولا يعرف الحق فيها إلا جهنم بن صفوان - بعد انقراض عهد الصحابة - وبشر بن غياث ، وأشباههما ممن هو مغموص عليه في النفاق ، مع أن الرسول - ﷺ - قد علم أمته كيف يقضون الحاجة ، وكيف يأكلون ويشربون ، وينامون ، ويدخلون بيوتهم ويخرجون . حتى أنزل الله - تعالى - عليه في آخر ما أنزل : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي) ^(١) والرسول - ﷺ - يقول : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » ^(٢) .

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخرجه .

هل يجوز مع هذا كله وغيره أن يترك الكتاب المنزل عليه ، وستته الغراء ، مملوءان بما يزعم أهل التأويل أن ظاهره تشبيهه وتجسيمه ومن اعتقد ظاهره - بزعمهم - فهو ضال مشبه لله ومجسم ، ثم لا يبين ذلك ولا يوضحه ، بل يكثر من ذكر ما يؤيد الظاهر بكل صراحة . إنه لا يعتقد ذلك ويقول ، إلا ضال في دينه لم يعرف ما أنزل الله على رسوله ، ولم يعرف الرسول حق المعرفة .

قال ابن القيم : « واطراد لفظ اليد في موارد استعمالها ، وتنوع ذلك يوجب أن تكون اليد حقيقة كقوله - تعالى - : (لما خلقت بيدي) ^(١) (بل يدها مبسوطتان) ^(٢) (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) ^(٣) .

فلو كان المراد القدرة ، أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين ، كما في الحديث « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » ^(٤) ، فلا يصح أن تكون يد القدرة ، والنعمة ، وقوله : « يقبض الله سماواته بيده ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك » ^(٥) فالهز والقبض ، وذكر اليدين يمنع ذلك .

ولما ذكر ذلك رسول الله - ﷺ - جعل يقبض يديه ويسطهما ، تحقيقاً للصفة لاتشبيهاها ، كما أنه - ﷺ - لما قرأ قوله - تعالى - : (وكان الله سميعاً بصيراً) ^(٦) وضع إصبعه على عينه والأخرى على أذنه تحقيقاً لصفة السمع والبصر .

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه ص ٢٢١ .

(٦) الآية ١٣٤ من سورة النساء والآية ٥٨ منها .

وقوله - ﷺ - : « لما خلق الله آدم قبض بيديه ، وقال : اختر ، فقال : اخترت يمين ربي ، وكلتا يديه يمين ، ففتحتها ، فإذا فيها أهل اليمن من ذريته » (١)
 وقوله - ﷺ - : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (٢) اهـ .

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض النصوص في ذلك .
 فاقتران الطي والقبض ، والإمساك باليد جعل تأويلها بالقدرة ، والنعمة تحريفاً باطلاً .

قال الإمام ابن خزيمة : « نحن نقول : الله - جل وعلا - له يدان ، كما أعلمنا الباري في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه المصطفى - ﷺ - ونقول : كلتا يدي ربنا يمين ، على ما أخبر النبي - ﷺ - ونقول : إن الله - عز وجل - يقبض الأرض بإحدى يديه ويطوى السماء بيده الأخرى » (٣) .

فمن أثبت لله - تعالى - يدين ، وأثبت لهما أصابع على ما جاء في النصوص الصحيحة لا يكون مشبهاً ، بل يكون متبعاً لكتاب الله وسنة رسوله ، مطيعاً لله ورسوله في ذلك ، لأنه أثبت لله ما أثبت لنفسه ، وأثبت له رسوله - ﷺ - .

والله - تعالى - ليس كمثلته شيء لافي ذاته ولا في أوصافه ، لأن الوصف تابع للموصوف .

وقال البغوي : « الإصبع المذكورة في الحديث صفة ، من صفات الله - عز وجل - وكذلك كل ما جاء به الكتاب ، أو السنة من هذا القبيل ، في صفات الله - تعالى - ، كالنفس ، والوجه والعين ، واليد ، والرجل ، والإتيان ، والحجىء ،

(١) مضى تحريجه ص ٢٢١ .

(٢) مختصر الصواعق ص ٣٣٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٨٣ .

والنزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، والضحك ، والفرح .

قال الله - تعالى - لموسى : (واصطنعتك لنفسى) (١) ، وقال - عز وجل - : (ولتصنع على عيني) (٢) وقال - سبحانه وتعالى - : (كل شيء هالك إلا وجهه) (٣) ، وقال - عز وجل - (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (٤) وقال - تعالى - : « بل يدهاه مبسوطتان » (٥) ، وقال - جل وعلا - : (يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي) (٦) وقال - تعالى - : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٧) ، وقال - تعالى - : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) (٨) ، وقال - سبحانه وتعالى - : (وجاء ربك والملك صفا صفا) (٩) وقال - تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (١٠) ، وقال - تعالى - : (ثم استوى على العرش الرحمن) (١١) وقال رسول الله - ﷺ - : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر » (١٢) وروى أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : « لاتزال جهنم يلقي فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع

-
- (١) الآية ٤١ من سورة طه .
 - (٢) الآية ٣٩ من سورة طه .
 - (٣) الآية ٨٨ من سورة القصص .
 - (٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
 - (٥) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
 - (٦) الآية ٧٥ من سورة ص .
 - (٧) الآية ٦٧ من سورة الزمر .
 - (٨) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
 - (٩) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
 - (١٠) الآية ٥ من سورة طه .
 - (١١) الآية ٥٩ من سورة الفرقان .
 - (١٢) سيأتي شرحه إن شاء الله .

رب العزة فيها قدمه » ، وفي رواية أوى هريرة : « حتى يضع الله رجله » (١) . وفي حديث أوى هريرة فى آخر من يخرج من النار : « فيضحك الله منه ، ثم يأذن له فى دخول الجنة » (٢) وفى حديث جابر : « فيتجلى لهم يضحك » (٣) ، وفى حديث أنس وغيره : « الله أفرح بتوبة عبده ، من أحدكم يسقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة » (٤) .

فهذه ونظائرها صفات لله - تعالى - ، ورد بها السمع ، يجب الإيمان بها ، وإمرارها على ظاهرها ، معرضا فيها عن التأويل ، محتثبا عن التشبيه ، معتقدا أن البارى - سبحانه وتعالى - لا يشبه شىء من صفاته صفات خلقه ، كما لا تشبه ذاته ذوات خلقه ، قال - تعالى - : (ليس كمثل شىء وهو السميع البصير) (٥) .

وعلى هذا مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله - عز وجل - .

قال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله - تعالى - به نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته ، والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله - تعالى - ورسوله .

وقال الزهري : على الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم . وقال بعض السلف : « قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم » (٦) ومراده بقوله : « ووكلوا العلم فيها إلى الله » علم الكيفية ، وأما ما يفهم منها فى الوضع اللغوى فهو ظاهر ، ومعلوم ، وكذا ما ذكره عن سفيان أنها لا تفسر أى تؤول ، وتطلب معرفة كفييتها .

(١) تقدم وهو فى مسلم رقم ٢٨٤٨ .

(٢) متفق عليه وسيأتى إن شاء الله .

(٣) رواه مسلم فى الإيمان رقم ١٩١ .

(٤) انظره فى مسلم ج ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧ .

(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٦) شرح السنة ج ١ ص ١٦٨ - ١٧١ .

وهذا كثير في أقوال العلماء والسلف من أهل السنة .

وقال ابن القيم : « ورد لفظ اليد في القرآن ، والسنة ، وكلام الصحابة ، والتابعين ، في أكثر من مائة موضع ، وروداً متنوعاً ، متصرفاً فيه ، مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقية ، من الإمساك ، والطفى ، والقبض ، والبسط ، والمصافحة ، والحشيات ، والنضح باليد ، والخلق باليدين ، والمباشرة بهما ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم بيده ، ووقوف العبد بين يديه ، وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله - ﷺ - يوم القيامة عن يمينه ، وتخيير آدم بين ما في يديه ، فقال : اخترت يمين ربى ، وأخذ الصدقة بيمينه ، يريها لصاحبها ، وكتابته بيده على نفسه ، أن رحمته تغلب غضبه ، وأنه مسح ظهر آدم بيده ، ثم قال له : ويداه مقبوضتان : اختر ، فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين مباركة ، وأن يمينه ملائ لا يغيضها نفقة سحاء الليل ، والنهار ، وبيده الأخرى القسط ، يرفع ويخفض وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وأنه يطوى السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوى الأرض باليد الأخرى ، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده » (١) .

★ ★ ★

(١) مختصر الصواعق ص ٣٤٨ .

قال : « باب قول النبی - ﷺ - : « لاشخص أغير من الله »

* * *

الغيرة بفتح الغين ، وإسكان الياء ، وهى فى اللغة مأخوذة من التغير الحاصل من الأنفة ، والحمية .

والشخص : هو ماشخص وبان عن غيره .

ومقصد البخارى أن هذين الاسمين يطلقان على الله - تعالى - وصفا له ، لأن الرسول - ﷺ - أثبتا لله ، وهو أعلم الخلق بالله - تعالى - .

قال النووى : « قال العلماء : الغيرة بفتح العين ، وأصلها المنع ، والرجل غيور على أهله ، أى يمنعهم من التعلق بأجنبى بنظر ، أو حديث ، أو غيره . والغيرة صفة كمال » (١) .

قال الحافظ : « وقد فسر الرسول - ﷺ - غيرة الله فى قوله : « إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله » (٢) .

ومعناه أن الله يغار إذا انتهكت محارمه ، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله لأن انتهاك المحارم فعل العبد ، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره . وغيرة الله - تعالى - من جنس صفاته التى يختص بها ، فهى ليست مماثلة لغيرة المخلوق ، بل هى صفة تليق بعظمته ، مثل الغضب ، والرضا ونحو ذلك من خصائصه التى لا يشاركه الخلق فيها .

(١) شرح مسلم ج ١٠ ص ١٣٢ .

(٢) الفتح ج ٩ ص ٣١٩ .

وقد تقرر أنه - تعالى - ليس كمثل شئ في ذاته ، فكذلك في صفاته ، وأفعاله ، ولكن لا بد من الاشتراك في ألفاظ الأسماء التي تضاف إلى الله صفات له ، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد ، لأنه لا يمكن معرفة ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه ، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد .

فلولا أننا نجد من أنفسنا جوعاً ، وعطشاً ، وشبعاً ، ورئياً ، وحباً ، وبغضاً ، ولذة ، وألماً ، ورضى ، وسخطاً ، لم نعرف حقيقة ما نخطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا .

ولو لم نعلم ما في المشاهد من الحياة ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، لم نفهم ما نخطب به من ذلك في الغائب .

فلا بد فيما شهدناه ، وما غاب عنا من قدر مشترك ، هو مسمى اللفظ . وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة ، وعذابها مما يؤكل ، ويشرب ، ويفرح ، ويحزن ، وينعم ، ويؤلم ، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا ، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك ، مع علمنا أن حقائق ما في الآخرة ليست كحقائق ما في الدنيا ، كما قال ابن عباس في تفسير قوله - تعالى - : (وأتوا به متشابهاً) ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ^(١) ولكن بين ما في الدنيا ، وما في الآخرة مشابهة واشتراك من بعض الوجوه . وبذلك نفهم المراد ، فنحب النعيم ، ونرغب فيه ، ونكره المؤلم ، وننفر عنه ، فنعرف معنى العسل ، واللبن ، والحزير ، والذهب ، ونفرق بينهما ، لما عرفناه من نظيرها في الشاهد ، وإن كانت حقائقها فيما هي عليه لا يعلمها إلا الله - تعالى - كما قال - جل وعلا - : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ^(٢) .

(١) رواه ابن جرير في تفسيره انظر ج ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ بتحقيق محمود

شاكر .

(٢) الآية ١٧ من سورة السجدة .

فإذا كان هذا في صفات المخلوق ، فكيف في صفات الخالق - جل وعز - فإنها أشد مباينة مثال ذلك : إذا قال نفاة الصفات : النزول ، والاستواء ، من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل إلا لجسم مركب ، والله منزه عن ذلك .
 فيقال لهم : وكذلك الحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والكلام هي من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل من يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ويقدر ، ويتكلم ، ويكون حياً ، إلا الجسم .
 فإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وعلمه ليس كعلمنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وكذا البقية .

قيل : فكذلك نزوله ، واستواؤه ، وغضبه ، وفرحه ، وحبه ، وغيرته ، وسائر صفاته ، والذين يؤولون النصوص في ذلك ، مخالفون لها ، ومتناقضون .
 قوله : « وقال عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك : « لاشخص أغير من الله » قال الحافظ : « يعنى أن عبيد الله بن عمرو ، روى الحديث المذكور ، عن عبد الملك ، بالسند المذكور فقال : « لاشخص » بدل كلمة « لا أحد » وقد وصله الدارمي ، ثم ذكر سنده ، وساقه أبو عوانة - يعقوب الإسفرائيني - في صحيحه ، عن محمد بن عيسى العطار ، عن زكريا بتامه ، وقال في المواضع الثلاثة : « لاشخص » .

قال الإسماعيلي - بعد أن أخرجه - من طريق عبيد الله بن عمرو القواريري ، وأبي كامل - فضيل بن حسين الجحدري - ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، ثلاثهم عن أبي عوانة - الوضاح البصرى - بالسند الذى أخرجه [به] البخارى ، ولكن قال في المواضع الثلاثة : « لاشخص » بدل « لأحد » .

ثم ساقه من طريق زائدة بن قدامة عن عبد الملك كذلك .

فكأن هذه اللفظة لم تقع في رواية البخارى في حديث أبي عوانة ، عن

عبد الملك ، فلذلك علقها عن عبيد الله بن عمرو ، قلت : وقد أخرجه مسلم ،
عن القواريري ، وأبى كامل ، كذلك « اهـ (١) .

ولفظ مسلم ، بعد ذكر السند : « قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا
مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ -
فقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، من
أجل غيرة الله حرم الفواحش مظهر منها وما بطن ، ولا شخص أغير من الله . ولا
شخص أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين
ومنذرين ، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله
الجنة » (٢) .

ورواه الإمام أحمد في المسند بهذا اللفظ (٣) قال عبد الله بن الإمام أحمد
بعد ذكره ، قال عبيد الله القواريري : ليس حديث أشد على الجهمية من هذا
الحديث .

وبهذا يتبين خطأ ابن بطلال في قوله : « أجمعت الأمة على أن الله -
تعالى - لا يجوز أن يوصف بأنه شخص ، لأن التوقيف لم يرد به » اهـ ذكره
الحافظ (٤) .

وهذه مجازفة ، ودعوى عارية من الدليل ، فأين هذا الإجماع المزعوم ومن
قاله ؟ سوى المتأثرين بيدع أهل الكلام ، كالخطاب ، وابن فورك ، وابن بطلال -
عفا الله عنا وعنهم - .

وقوله : لأن التوقيف لم يرد به « يطله ماتقدم من ذكر ثبوت هذا اللفظ
عن رسول الله - ﷺ - بطرق صحيحة لامطعن فيها .

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٠ .

(٢) صحيح مسلم ج ٢ ص ١١٣٦ رقم ١٤٩٩ .

(٣) المسند ج ٤ ص ٢٤٨ ورواه الدارمي في سننه ج ٢ ص ٧٣ .

(٤) انظر الفتح ج ١٣ ص ٤٠ .

وإذا صح الحديث عن رسول الله - ﷺ - وجب العمل به ، والقول
بموجبه سواء كان في مسائل الاعتقاد ، أو في العمليات ، وقد صح عنه - ﷺ -
إطلاق هذا الاسم - أعنى الشخص - على الله تعالى - فيجب اتباعه في ذلك
على من يؤمن بأنه رسول الله . وهو - ﷺ - أعلم بربه وبما يجب له وما يمتنع
عليه - تعالى - من غيره من سائر البشر .

وتقدم أن الشخص في اللغة : ماشخص ، وارتفع ، وظهر .

قال في اللسان : « الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور » (١) .

والله - تعالى - أظهر من كل شيء ، وأعظم ، وأكبر ، وليس في إطلاق
الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله ورسوله .

★ ★ ★

(١) انظر لسان العرب ج ٢ ص ٢٨١ المرتب .

٤٥ - قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا عبد الملك عن وراذ ، كاتب المغيرة ، عن المغيرة ، قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » .

* * *

نكتفى بما تقدم من الكلام على معنى الحديث ، ونذكر موجزا من الكلام مما فيه فائدة ، وتقدم معنى الغيرة ، وأنها صفة كمال ، كما تقدم أنا لا يمكن أن نفهم ماخوطينا به إلا بواسطة المعلوم كذا في الشاهد ، المشارك له في المعنى في الجملة ، وإن كان البون شاسعاً .

قال النووي : « أخبر - ﷺ - أن سعدا غيور ، وأنه أغير منه ، وأن الله أغير منه ، وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش ، فهذا تفسير لمعنى غيرة الله - تعالى - ، أى أنها منعه - سبحانه وتعالى - الناس من الفواحش » (١) .

قلت : ليس هذا هو غيرة الله - تعالى - ولكنه مقتضى الغيرة ، كما يوضحه قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش » فبين أن تحريم الفواحش ، والمنع منها ليس هو الغيرة وإنما هو من آثارها .

قوله : « لورأيت رجلا مع امرأتى ، لضربته بالسيف غير مصفح » أى

(١) شرح مسلم ج ١٠ ص ١٣٢ .

لضربته بحد السيف لأبصفحه ، يعنى لقتله بدون توقف ، وقد أقره رسول الله - ﷺ - على ذلك ، وأخبر أنه أغير من سعد ، وأن الله أغير منه ، وأما قول القرطبي وغيره : أن قوله : « ولا أحد أحب إليه العذر من الله » إشارة إلى الإنكار على سعد فغير صحيح ، بل مدلول الحديث خلافه ، ولا بد من الغيرة ، والذي لاغيرة له ديوث ، والديوث لا يدخل الجنة كما في سنن النسائي^(١) وغيرها .

ولهذا قال - ﷺ - : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأننا أغير منه ، والله أغير منى » الخ .

قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ، مظهر منها ، وما بطن » أى من أثر غيرة الله منع عباده من قربان الفواحش ، - وهى ما عظم وفحش في النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا . والظاهر يشمل ما فعل علناً ، وما باشرته الجوارح وإن كان سرا .

والباطن يشمل ما فى السر ، وما انطويت عليه القلوب .

قوله « ولأحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »

العذر : هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والتندم على وقوعه منه ، ويراد به الأعذار . وهو إقامة البيئات ، والحجج ، وإيضاح طريق الخير والشر ، وكلاهما يدخل فيما ذكر ، والمبشرون ، والمنذرون هم الرسل ، وفى رواية مسلم « بعث المرسلين مبشرين ومنذرين » وفى رواية له أيضا « ولذلك أنزل الكتب ، والرسل »

قال عياض : « المعنى بعث المرسلين للأعذار ، والإنذار لخلقهم . قبل

(١) المجتبى ج ٥ ص ٨٠ رواه أحمد فى المسند ج ٢ ص ١٣٤ وفى سننه عبد الله ابن يسار ، روى له النسائي ، وذكره ابن حبان فى الثقة ، وبقية رجاله ثقة مشهورون .

أخذهم بالعقوبة وهو كقوله - تعالى - : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١)

قوله : « ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » هذا لكماله المطلق ، فهو - تعالى - يحب من عباده أن يشنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده ، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها ، ويرضى عنهم إذا حمدوه عليها .

ومهما أثنوا عليه ومدحوه لا يمكن أن يصلوا إلى ما يستحقه من المدح والثناء . ولهذا مدح نفسه كما تقدم ، فوعد الجنة ليكثر سؤاله ، والثناء عليه من عباده ، ومدحه ويجهدوا في ذلك غاية ما يستطيعون لأن الجنة هي منتهى الإنعام .

★ ★ ★

(١) من المنتج ج ١٣ ص ٤٠٠ .

قال : باب « قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله »

* * *

« فسمى الله - تعالى - نفسه شيئا ، وسمى النبي - ﷺ - : القرآن شيئا ، وهو صفة من صفات الله ، وقال : « كل شىء هالك إلا وجهه » يريد بهذا أنه يطلق على الله - تعالى - أنه شىء ، وكذلك صفاته ، وليس معنى ذلك أن « الشىء » من أسماء الله الحسنى . ولكن يخبر عنه - تعالى - بأنه شىء ، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شىء ، لأن كل موجود يصح أن يقال : إنه شىء .

قال الحافظ : « الشىء يساوى الموجود ، لغة ، وعرفا . وأما قولهم : فلان ليس بشىء ، فهو على طريق المبالغة فى الذم ، فلذلك وصف بصفة العدم » (١)
وقال : « أى إذا جاءت استفهامية ، اقتضى الظاهر أن تسمى باسم ماضف إليه ، فعلى هذا صح الاستدلال بها على تسمية الله - تعالى - شيئا .
واسم الجلالة خير مبتدأ محذوف ، أى ذلك الشىء هو الله .

ويصح أن يكون مبتدأ ، محذوف الخبر ، والتقدير : الله أكبر شهادة . والله أعلم » (٢) وقوله - تعالى - : « كل شىء هالك إلا وجهه » قال الحافظ : الاستدلال بهذه الآية للمطلوب ، يبنى على أن الاستثناء متصل ، فإنه يقتضى اندراج المستثنى فى المستثنى منه ، وهو الراجع . على أن لفظ شىء يطلق على الله - تعالى - وهو الراجع أيضا » (٣)

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

قال الإمام عبد العزيز الكناني ، في محاجته لبشر المريسي ، لما سأله بشر عن القرآن ، أهو شيء أم ليس بشيء ؟ قال : « فقلت : لبشر : سألت عن القرآن ، هو شيء أم غير شيء فإن كنت تريد أنه شيء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، فنعم هو شيء .

وإن كنت تريد أن الشيء اسم له ، وأنه كالأشياء ، فلا .

فإن الله أجرى كلامه على ماأجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ، ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يحمل الشيء اسماً من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، وتكديبا للزنادقة ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته ، من سائر الأمم ، فقال لنبيه - ﷺ - : (قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم) (١) فدل على نفسه أنه شيء ، لا كالأشياء ، وأنزل في ذلك خبرا خاصا مفردا لعلمه السابق أن جهما وبشراً ، ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه وصفاته ، ويشبهون على خلقه ، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة ، فقال - عز وجل - : (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) (٢) فأخرج نفسه ، وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر ، تكديبا لمن ألد في كتابه ، وافترى عليه ، وشبهه بخلقه . وعدد أسمائه في كتابه ، ولم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه » (٣)

ونقل الحافظ عن ابن بطال : « أن الآيات والآثار المذكورة في هذا الباب ترد على من زعم أنه لايجوز أن يطلق على الله - تعالى - أنه شيء ، كما صرح به

(١) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) الحيدة ص ٢٤ - ٢٥ مطابع القصيم .

عبد الله الناشئ المتكلم (١) وغيره .

كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء ، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ شيء يقتضى إثبات موجود ، وعلى أن لفظ « لاشيء » يقتضى نفى موجود إلا ما تقدم من إطلاقهم « ليس بشيء في الذم » (٢) .

وهذا الذى ذكره الحافظ عن ابن بطال واضح ، وقد تقدم ما يدل عليه .

★ ★ ★

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ الشاعر المتكلم يعرف بابن شرشير ، أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج إلى مصر وتوفى بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين . الشذرات جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

٤٦ - قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال النبي - ﷺ - : لرجل « أمعك شيء من القرآن ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها » .

* * *

سهل بن سعيد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري ، من مشاهير الصحابة ، ذكر ابن حبان أن اسمه حزن ، فعُيِّر رسول الله - ﷺ - اسمه ، توفي رسول الله - ﷺ - وهو ابن خمس عشرة سنة وعمّر طويلا ، فكان آخر من مات في المدينة من الصحابة على أحد الأقوال ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وله أحاديث كثيرة في كتب الحديث ، مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة (١) .

هذا الحديث مختصر من قصة الواهبة نفسها للنبي - ﷺ - لما قال له رجل من أصحابه : إن لم يكن لك بها حاجة ، فزوجنيها يارسول الله ، قال له - ﷺ - : « أمعك شيء تعطها إياه ؟ قال : لا ، قال : التمس ولو خاتما من حديد ، فلما لم يجد ، قال له : هل معك شيء من القرآن ؟ أي هل تحفظ شيئا منه ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها . فقال النبي - ﷺ - : زوجتكها على مامعك من القرآن « أي يكون تعليمه لها مامعه من سور القرآن صداقا لها .

والمقصود هنا أنه أطلق الشيء على القرآن ، بقوله : « أمعك شيء من القرآن » وهو صفة من صفات الله - تعالى - والصفة لها حكم الموصوف ، فيصح إطلاق ذلك على الله - تعالى - .

وقد تقدم في كلام عبد العزيز الكنانى « أن لفظ الشيء يطلق على القرآن

(١) الإصابة ج ٢ ص ٨٧ ، الاستيعاب ج ٢ ص ٩٤ .

إثباتا لوجوده ، وحقيقته ، ونقيا لعدمه ، وليس لفظ الشيء اسما له . كما أنه يطلق
على الله - تعالى - كذلك .

وأن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ،
ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه ، ولكنه دل على
نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء إثباتا للوجود ، ونقياً للعدم ، وتكذيباً للزنادقة
ومن تقدمهم ، ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم » (١)

★ ★ ★

قال : « باب : « وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم »

* * *

قال الأزهرى : « العرش فى كلام العرب : سرير الملك ، يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ ، سماه الله - جل وعز - عرشا ، فقال : (إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم » (١) .

قلت : والعرش فى كلام العرب - أيضا - سقف البيت ، وجمعه عروش ، ومنه قول الله - جل وعز - : (أو كالذى مرَّ على قرية ، وهى خاوية على عروشها) (٢)

قال الكسائى « على عروشها » على أركانها ، وقال غيره من أهل اللغة : على سقفها أراد أن حيطانها قائمة ، وقد تهدمت سقفها ، فصارت فى قرارها ، وانقعدت الحيطان من قواعدها ، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها » (٣) .

« وقال الليث : العرش : السرير للملك ، والعرش ، والعريش : ما يستظل

به .

قال : وعرش الرجل : قوام أمره ، فإذا زال قوام أمره ، قيل : « ثل عرشه » (٤) .

وقال الجوهرى : « العرش سرير الملك ، وعرش البيت سقفه ، والعرش ،

(١) الآية ٢٣ من سورة النمل .

(٢) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) تهذيب اللغة ج ١ ص ٤١٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٥ .

والعرش ما يستظل به ، وعرش القدم : مانتاً في ظهرها . وفيه الأصابع ، وعرش البئر : طيها بالخشب ، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة ، فذلك الخشب هو العرش والجمع عروش .

وعرش ، يَعْرِش وَيَعْرِشُ عَرْشاً ، أى بنى بناء من خشب » (١) .

ويظهر مما ذكره أهل اللغة : أن العرش اسم للسريز المرتفع العظيم ، الذى يجلس عليه الملك ، ويطلق على السقف ، وعرش الرب جل وعلا له المعنيان فهو محل استوائه تعالى ، وهو سقف المخلوقات .

قوله : (وكان عرشه على الماء) (٢) قال ابن جرير : « يقول - تعالى - وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، وما فيهن » .

ثم روى عن مجاهد : وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئاً .

وروى بسنده عن قتادة « وكان عرشه على الماء » ينبعكم ربكم - تبارك وتعالى - كيف كان بدء خلقه ، قبل أن يخلق السموات والأرض .

ثم روى حديث أبى رزين العقيلي : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان فى عماء ، مافوقه هواء ، وماتحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء » .

وفى رواية : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض » الخ (٣)

(١) الصحاح ج ٣ ص ١٠١٠ .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند ج ٤ ص ١١ و ١٢ ، والترمذى فى التفسير من سننه ج ٤ ص ٣٥١ وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه فى السنن ج ١ ص ٦٤ رقم ١٨٢ ، والطبرى أيضا فى التاريخ ج ١ ص ١٩ .

ثم روى عن ابن عباس ، أنه سئل : « وكان عرشه على الماء ، على أى شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح » (١) .

وقال الترمذى : « حدثنا أحمد بن منيع ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن حدىس (٢) ، عن عمه أبى رزین ، قال : قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ماتحته هواء ، وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء » ، قال أحمد : « قال يزيد : العماء ، أى ليس معه شىء » (٣) .

قال أبو عبيد : « العماء فى كلام العرب ، السحاب الأبيض » ، قال الأصمعى ، وغيره : هو ممدود

وقال الحارث بن حلزة اليشكرى :

وكأن المنون تردى بنا أعصم ينجاب عنه العماء

يقول : هو فى ارتفاعه ، قد بلغ السحاب ينشف عنه ، يقول : نحن فى عزنا مثل الأعصم ، فالمنون إذا أردتنا ، فكأنما تريد أعصم .

وإنما تأولنا هذا الحديث . على كلام العرب المعقول عنهم ، ولاندرى كيف كان ذلك العماء ، وماملغه ، والله أعلم .

وأما العمى فى البصر ، فإنه مقصور ، وليس هو من معنى الحديث فى شىء « اهـ (٤) نقل هذا الكلام الأزهرى ، ثم قال : « قلت : وقد بلغنى ، عن أبى الهيثم ، ولم يعزه لى ، إلى ثقة - أنه قال فى تفسير هذا الحديث ، ولفظه : أنه كان فى عمى مقصور ، قال : وكل أمر لاتدرکه القلوب بالعقول ، فهو عمى ، والمعنى : أنه كان حيث لاتدرکه عقول بنى آدم ، ولايلغ كنهه وصف .

(١) تفسير الطبرى ج ١٥ ص ٢٤٥ - ٢٤٩ بتحقيق محمود شاکر .

(٢) قال الترمذى : هكذا يقول حماد بن سلمة : وكيع بن حدىس .

(٣) سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٥١ .

(٤) الغريب ج ٢ ص ٨ - ٩ .

قلت أنا (١) : والقول عندي ، ما قاله أبو عبيد ، أنه العماء ، ممدود ، وهو السحاب ولا يدري كيف ذلك العماء ، بصفة تحصره ، ولانعت يحده ، ويقوى هذا القول قول الله - جل وعز - (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل (٢) من الغمام) (٣) فالغمام معروف في كلام العرب .

إلا أنا لاندري ، كيف الغمام الذي يأتي الله - عز وجل - يوم القيامة في ظلل منه فنحن نؤمن به ، ولانكيف صفته ، وكذلك سائر صفات الله عز وجل « ا هـ (٤) .

فعلى ما ذكره يزيد بن هارون ، وأقره الترمذى ، يكون المعنى : ليس مع الله شيء ، فيدل على أن الله - تعالى - كان ، ولم يكن معه شيء ، كما سيأتى في حديث عمران إن شاء الله تعالى .

وعلى قول من فسر العماء بالسحاب الرقيق ، ورجحه الأزهرى ، لا يدل على قول الفلاسفة الدهرية ، القائلين بقدم العالم ، وتبنى مذهبهم الماديون اليوم وذلك أن الله - تعالى - أخبرنا في كتابه ، بابتداء الخلق ، وإعادة خلقه كما قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) (٥) ، كما أخبر بخلق السماوات ، والأرض وما بينهما في ستة أيام ، في مواضع كثيرة من كتابه - تعالى (٦) .

(١) القائل هو الأزهرى .

(٢) فيه « ظل » وهو خطأ مطبعي .

(٣) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٤) تهذيب اللغة ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٦) انظر نقض تأسيس الجهمية ج ١ ص ١٥٤ .

وقوله : (وهو رب العرش العظيم) (١) أى هو تعالى المالك للعرش ، الذى هو أكبر المخلوقات ، وأعظمها ، وهو المتصرف فيه ، وهو عرشه الذى استوى عليه ، فاختره لذلك .

فالإضافة تقتضى اختصاصا للعرش من بين المخلوقات ، فهو تعالى رب كل مخلوق . فإضافة العرش إليه - تعالى - ووصفه بأنه عظيم ، يدل على خصوصية للعرش ، ليست لغيره من سائر المخلوقات ، كما يدل على أنه - تعالى - مالك لكل مادون العرش بطريق الأولى ، والمتصرف فيه كيف يشاء .

قال ابن جرير : « وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه - نفسه بأنه « رب العرش العظيم » الخبر عن جميع مادونه ، أنهم عبيده ، وفى ملكه وسلطانه ، لأن العرش إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه ، فى سلطانه وملكه ، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه » (٢) .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شىء ، وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم ، الذى هو سق المخلوقات ، وجميع المخلوقات ، من السموات والأرضين ، ومافيهما ، وما بينهما تحت العرش ، مقهورون بقدره الله - تعالى - وعلمه محيط بكل شىء ، وقدره نافذ فى كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » (٣) . « قال - جل وعلا - : (ذو العرش المجيد) (٤) ، وقال - جل عظمته - : (وترى الملائكة حافين من حول العرش) (٥) ، وقال - تعالى - : (الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم) (٦) ، وقال

(١) آخر آية من سورة التوبة .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٤ ص ٥٨٧ بتحقيق محمود شاكر .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ ط الشعب .

(٤) الآية ١٥ من سورة البروج .

(٥) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٧ من سورة غافر .

تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) (١) .

وأقوال أهل التفسير [متفقة] على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه ، والطواف به ، كما خلق في الأرض بيتا ، وأمر بنى آدم بالطواف به ، واستقباله في الصلاة .

وفي الآيات المتقدمة دلالة على صحة ما ذهبوا إليه « ا هـ (٢) .

والأخبار عن رسول الله - ﷺ - والصحابة ، والتابعين لهم في ذكر العرش ووصفه ، وأن الله تعالى مستوٍ عليه كثيرة جدا ، وسيأتى طرف يسير منها إن شاء الله تعالى .

ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد » (٣)

« وقال ابن مسعود في قوله : « ثم استوى على العرش » قال العرش على الماء ، والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » (٤)

وقال سليمان التيمي : لو سئلت ، أين الله ؟ لقلت في السماء ، فإن قال : أين كان عرشه قبل السماء ؟ لقلت : على الماء ، فإن قال : فأين كان عرشه قبل خلق الماء ؟ لقلت : لا أعلم .

قال البخارى : وذلك لقوله - تعالى - : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) « يعنى إلا بما بين » (٥)

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٣٩٢ . والمفروض أن يقول : خلقه الله واستوى عليه وأمر ملائكته الخ . ولكن أبى عليه المذهب ذلك .

(٣) البخارى مع الفتح . ج ٧ ص ١٢٣ ، ومسلم ج ٤ ص ١٩١٥ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧ .

وقال أبو نصر السجزي في الإبانة : « وأئمتنا كسفیان ، ومالك ، والحمادين ، وابن عيينة ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، متفقون على أن الله - سبحانه - فوق العرش ، وعلمه بكل مكان ، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ويتكلم بما يشاء » (١)

والنصوص في ذكر العرش ، وأن الله - تعالى مستوٍ عليه ، كثيرة جدا . وآمن الصحابة وأتباعهم بذلك ، على ما دلت النصوص عليه ظاهرا ، دون تأويل أو تحريف ، وبلا تشبيه ، ولا تمثيل ، كما سيأتى بعض ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « قال أبو العالية : « استوى إلى السماء » أى ارتفع ، « فسواهن خلقهن . وقال مجاهد : « استوى : علا على العرش » .

هذا الذى ذكره البخارى عن أبى العالية ، ومجاهد ، هو الذى يقوله ، ويعتقده عامة السلف من الصحابة وأتباعهم إلى اليوم .

وهو الحق الذى دلت عليه النصوص ، وجاءت تعبيراتهم فى ذلك فى أربعة ألفاظ ما ذكره البخارى هنا ، وثالثها « صعد » ، ورابعها « استقر » . وسوف أذكرها مع أسانيدها إليهم .

قال ابن جرير : « حدثت ، عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « ثم استوى إلى السماء » يقول : ارتفع إلى السماء » (٢) .

وروى اللالكائى بسنده ، عن بشر بن عمر ، قال : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون : « الرحمن على العرش استوى : ارتفع » (٣) .

(١) نقلا عن سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٦٥٠ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ج .

قال ابن عبد البر : « الاستواء : الاستقرار في العلو ، وهذا خاطبنا الله عز وجل - فقال : (لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) (١) ، وقال : (واستوت على الجودي) (٢) وقال : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) (٣) . وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد ، استوى ، لأن النجم لا يستوى .

وقد ذكر النضر بن شميل (٤) . وكان ثقة مأمونا ، جليلا في علم الديانة ،

واللغة .

قال : حدثني الخليل - وحسبك بالخليل - قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال لنا : استووا فبقينا متحيرين ، ولم ندر ما قال ؟ قال : فقال لنا أعرابي إلى جنبه : إنه أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله - عز وجل - : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (٥) فصعدنا إليه ، فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاما ، فلم ندر ما قال ، فقال الأعرابي : إنه سألكم متاركة لا خير فيها ، ولا شر ، قال الخليل :

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٢) جزء من الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٨ من سورة (قد أفلح المؤمنون) .

(٤) النضر بن شميل بن خرشة المازني ، كان إماما حافظا جليلا الشأن ، صاحب سنة . كان رأسا في الحديث ، وفي اللغة والنحو ضاقت به معيشته في البصرة ، فخرج منها إلى مرو ، ونشر بها السنة ، توفي سنة ٢٠٣ هـ ، انظر الشذرات ج ٢ ص ٧ .

(٥) الآية ١١ من سورة فصلت .

هو من قول الله - عز وجل - : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (١)
 اهـ (٢) .

قال البغوى : « ثم استوى على العرش » قال الكلبي ، ومقاتل : استقر .
 وقال أبو عبيدة : صعد .

ثم قال : « وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء ، وأما أهل السنة ، فيقولون
 الاستواء على العرش ، صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على العبد الإيمان به ،
 ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل » (٣) .

وقال البخارى : « حدثت عن يزيد بن هارون ، قال : من زعم أن الرحمن
 على العرش استوى ، على خلاف ما يقر في قلوب العامة ، فهو جهمى » (٤)
 ومراده أن الاستواء من الأمور الواضحة ، التى يفهمها عامة المسلمين إذا
 كانوا من أهل اللغة العربية .

كما أن مراد البغوى فى قوله : « ويكل العلم فيه إلى الله - عز وجل - »
 علم الكيفية . وأما معناه فى اللغة ، فهو معلوم ظاهر ، كما يأتى فى كلام الإمام
 مالك ، وشيخه ربيعة ، وأم سلمة .

قال ابن جرير : الاستواء فى كلام العرب يأتى على وجوه :

منها انتهاء شباب الرجل ، وقوته ، فيقال إذا صار كذلك : قد استوى
 الرجل . ومنها استقامة ماكان فيه أود ، من الأمور ، والأسباب ، يقال منه :
 استوى لفلان أمره ، إذا استقام بعد أود ، ومنه قول الطرماح بن حكيم :
 طال على رسم مهتد أبده وعفا ، واستوى به بلده

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) التمهيد ج ٧ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) تفسير البغوى ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ١٢٧ مجموعة عقائد السلف .

يعنى استقام به .

ومنها : الإقبال على الشيء ، يقال : استوى فلان ، على فلان بما يكرهه ،
ويسوءه بعد الإحسان إليه .

ومنها الاحتياز ، والاستيلاء ، كقولهم : استوى على المملكة ، بمعنى احتوى
عليها ، وحازها

ومنها العلو ، والارتفاع ، كقول القائل : « استوى فلان على سريره ، يعنى
به علوه عليه » (١)

قلت : قد أنكر أهل اللغة المعنى الثالث ، والرابع مما ذكره ابن جرير في
الاستواء المعدى بعلى .

قال ابن القيم : ولفظ الاستواء في كلام العرب الذى خاطبنا الله به ، وأنزل
به كلامه نوعان ، مطلق ، ومقيد .

فالطلق ، مالم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : (ولما بلغ أشده
واستوى) . وهذا معناه : كمل ، وتم ، يقال : استوى الزرع ، واستوى الطعام .

وأما المقيد فثلاثة أضرب :

أحدها مقيد بإلى ، كقوله : (ثم استوى إلى السماء) (٢) ، واستوى فلان
إلى السطح وقد ذكر تبارك - وتعالى - هذا المعدى بإلى في موضعين من كتابه
في البقرة في قوله - تعالى - : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى
إلى السماء) (٢) .

والثانى في سورة حم السجدة ، قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى
دخان) (٢) ، وهذا بمعنى العلو ، والارتفاع بإجماع السلف .

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة ، والآية ١١ من سورة فصلت .

الثاني مقيد بعلی ، كقوله تعالى : (لتستووا على ظهوره) (١) ،
 وقوله : (واستوت على الجودی) (٢) وقوله : (فاستوى على سوقه) (٣) وهذا
 معناه أيضا العلو ، والارتفاع والاعتدال ، بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو المعية ، التي تعدى الفعل إلى المفعول معه ، نحو :
 استوى الماء والخشية . بمعنى ساواها .

فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيها استولى ألبتة ، ولانقله
 أحد من أئمة اللغة ، الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخرو النحاة ، ممن سلك
 طريق المعتزلة ، والجهمية .

والذين قالوه ، لم يقولوه نقلا ، فإن ذلك مجاهرة بالكذب ، ولكن قالوه
 استنباطا وحملًا منهم للفظه استوى ، على استولى ، ولذلك لما سمع أهل اللغة ذلك
 أنكروه ، غاية الإنكار .

قال ابن الأعرابي - وقد سئل هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى ؟ .

فقال : « لاتعرف العرب ذلك ، وهو من أكابر أئمة اللغة » اهـ (٤) .

قال ابن جرير : « وأولى المعان بقول الله - جل ثناؤه - : (ثم استوى إلى
 السماء فسواهن) . علا عليهن ، وارتفع ، فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع
 سماوات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم ، من كلام العرب ، في تأويل قول الله
 تعالى : (ثم استوى إلى السماء) . الذى هو بمعنى العلو ، والارتفاع ، هربا عند
 نفسه من أن يلزمه بزعمه - إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك - أن يكون إنما علا ،

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٤) مختصر الصواعق ص ٣٢٠ ببعض التصرف .

وارتفع بعد أن كان تحتها - إلى تأويله بالمجهول ، المستكبره ، ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله : « استوى » . أقبل ، أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ، ولكنه إقبال تدبير . قيل له : فكذلك فقل : علا عليها ، علو ملك ، وسلطان ، لا علو انتقال وزوال ، ثم لن يقول : في شيء من ذلك ، قولاً ، إلا لزم في الآخر مثله » (١)

قوله : « فقل : علا عليها علو ملك وسلطان ، لاعلو انتقال وزوال » هو من جنس كلام أهل البدع ، فلا ينبغي ، وهو خلاف الظاهر من النصوص ، بل هو من التأويل الباطل .

قال ابن القيم : « نقل معنى الاستواء ، كنقل لفظه ، بل أبلغ ، فإن الأمة كلها تعلم بالضرورة أن الرسول - ﷺ - أخبر عن ربه بأنه استوى على عرشه ، من يحفظ القرآن منهم ، ومن لا يحفظه ، كما قال مالك ، وأئمة السنة : الاستواء معلوم ، غير مجهول ، كما أن معنى السمع ، والبصر ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، وسائر ما أخبر به - تعالى - عن نفسه معلوم ، وإن كانت كيفيته غير معلومة للبشر ، فإنهم لم يخاطبوا بالكيفية ، ولم يرد منهم العلم بها .

فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة ، كإنكار لفظه ، بل أبلغ ، وهذا مما يعلم أنه مناقض لما أخبر الله به ورسوله ، فإن فهم معنى اللفظ هو المراد منه ، وهو المقصود بالذات ، لا اللفظ ، فإن اللفظ مقصود قصد الوسائل للتعريف بالمراد ، فإذا التقى المعنى ، وكانت إرادته محال - كما زعموا - لم يبق لذكر اللفظ فائدة ، بل كان تركه أنفع من الإتيان به ، فإن الإتيان به يحصل منه إيهام التشبيه ، ويوقع الأمة في اعتقاد الباطل - على حد زعمهم - ولا ريب أن هذا إذا نسب إلى آحاد الناس كان ذمه أولى من مدحه ، فكيف يجوز أن ينسب إلى من في كلامه الهدى ، والشفاء . ومن المتفق عليه أنه لا يجوز أن يتكلم الله ورسوله

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ٤٣٠ بتحقيق محمود شاكر .

بالشئ ويريد خلاف ظاهره» (١) .

وقال أيضا - « وظاهر الاستواء العلو ، والارتفاع ، كما نص عليه جميع أهل اللغة ، وأهل التفسير المقبول ، فلا يحتمل استواء الرب تبارك وتعالى على عرشه ، المعدى بعلى ، المعلق بالعرش ، المعروف بالألف واللام ، المعطوف على خلق السماوات والأرض ثم مطرداً في موارده ، بهذا الأسلوب - لا يحتمل إلا معنى واحداً ، لامعنيين ، ولا كما يقول صاحب القواصم والعواصم : (٢)

إذا قال لك الجسم : (الرحمن على العرش استوى) (٣) ، فقل : استوى على العرش يستعمل على خمسة عشر وجهها ، فأياها تريد ؟ .

فيقال له : كلا والذي استوى على العرش ، لا يحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة . والمدعى للاحتمال عليه الدليل ، والأصل عدم الاشتراك والمجاز ، ولم تذكر على دعواك دليلاً ، ولم تبين الوجوه المحتملة ، مع ذكر الدليل عليه .

والمقصود أن استواء الرب - تعالى - على عرشه ، المختص به الموصول بأداة على نص في معناه ، لا يحتمل سواه « اهـ (٤) .

وقال الحافظ : « نقل أبو إسماعيل الهروي ، في كتابه الفاروق ، بسنده إلى داود بن علي بن خلف ، قال : كنا عند أبي عبد الله بن الأعرابي - يعني يحيى بن زياد اللغوي فقال له رجل : (الرحمن على العرش استوى) (٥) ، فقال : هو على العرش كما أخبر قال : يا أبا عبد الله ، إنما معناه : استولى ، فقال : أسكت ، لا يقال : استولى على شيء إلا أن يكون له مضاد .

(١) مختصر الصواعق ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) هو ابن العربي المالكي .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) مختصر الصواعق ملخصاً ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٥) الآية ٥ من سورة طه .

ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر ، الأزدي ، سمعت ابن الأعرابي يقول :
أرادني أحمد بن أبي دؤاد ، أن أجد له في لغة العرب ، (الرحمن على العرش
استوى) (١) بمعنى استولى ، فقلت : والله ما أصبت هذا (٢) .

وقال غيره : لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش ، لأنه غالب على جميع
المخلوقات « اهـ (٣) .

وروى اللالكائي بسنده من طريق الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، في
قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (١) ، قالت : الكيف غير معقول ،
والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر .

وروى عن مالك ، جاء إليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، (الرحمن على
العرش استوى) (١) كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكا وجد من شيء ،
كموجدته من مقالته ، وعلاه الرضا - يعنى العرق - قال : وأطرق القوم ،
وجعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه ، فسرى عن مالك ، فقال : الكيف غير معقول ،
والاستوى منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإني أخاف
أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج (٤)

وذكر بسنده ابن عينية ، قال : سئل ربيعة ، عن قوله « الرحمن على العرش
استوى » (١) كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ،
ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » (٥)

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) ورواه اللالكائي في شرح أصول السنة ج ٢ ص ٣٩٩ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٦ وذكر آثارا كثيرة بهذا المعنى فليراجع .

(٤) شرح أصول السنة اللالكائي ص ٣٩٨ .

(٥) شرح أصول السنة ج ٢ ص ٣٩٨ .

وذكر البيهقي بسنده ، عن الأوزاعي ، قال : كنا والتابعون متوافرون ، نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، من صفاته (١) .

قال الحافظ : سنده جيد (٢) .

وقال : « وأخرج الثعلبي ، من وجه آخر ، عن الأوزاعي ، أنه سئل عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (٣) . فقال : هو كما وصف نفسه » (٤)

« قال أبو بكر الأثرم ، في كتاب السنة : حدثنا إبراهيم بن الحارث - يعنى العبادى - حدثنى الليث بن يحيى ، سمعت إبراهيم بن الأشعث ، قال أبو بكر - هو صاحب الفضيل - سمعت الفضيل بن عياض ، يقول : ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف ، لأن الله وصف نفسه فأبلغ ، فقال : « قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » فلا صفة أبلغ مما وصف الله - عز وجل - نفسه وكل هذا النزول ، والضحك ، وهذه المباهاة ، وهذا الاطلاع ، كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يباهى ، وكما شاء أن يطلع ، وكما شاء أن يضحك ، فليس لنا أن نتوهم فيه كيف ، وكيف ، وإذا قال لك الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل أنت : أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء .

وقال الخلال : وأنبأنا محمد بن علي الورّاق ، حدثنا أبو بكر الأثرم ، حدثنى محمد بن إبراهيم القيسى ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : يحكى عن ابن المبارك ، قيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : في السماء السابعة على عرشه بجد ، فقال أحمد : هكذا هو عندنا .

(١) الأسماء والصفات ص ٤٠٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٦ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٦ .

وأخبرني حرب بن إسماعيل ، قال : قلت لإسحاق - يعني ابن إبراهيم -
هو على العرش بحد ؟ قال : نعم بحد .

وذكر عن ابن المبارك ، قال : هو على عرشه ، بائن من خلقه ، بحد .
وأخبرنا المروزي ، قال : قال إسحاق بن إبراهيم بن راهويه : قال الله -
تعالى (الرحمن على العرش استوى) (١) ، إجماع أهل العلم أنه فوق العرش ،
استوى ويعلم كل شيء ، في أسفل الأرض السابعة ، وفي قعور البحار ،
ورؤوس الآكام وبطون الأودية ، وفي كل موضع ، كما يعلم علم مافوق السماوات
السبع ، وما فوق العرش ، أحاط بكل شيء علما ، فلا تسقط من ورقة إلا
يعلمها ، ولا حبة في ظلمات البر ، والبحر ، ولا رطب ، ولا يابس إلا قد عرف
ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره » (١)

ومعنى قولهم : « بحد » أنه - تعالى - بائن من خلقه ، غير حال فيهم ،
ولا مخالط لهم - تعالى وتقدس - وقد قيدوا الحد ، بأنه لا يعلمه إلا هو -
تعالى - وهو قريب من قول الإمام مالك وغيره : « الاستوى معلوم ، والكيف
مجهول » ، فبين أن كيفية استوائه - تعالى - على العرش مجهولة للعباد ، ولكنه لم
ينف ثبوت ذلك في نفس الأمر فكذلك قولهم : له حد لا يعلمه إلا هو ، والله
أعلم .

قال الإمام عثمان ابن سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى - في رده على بشر
المريسي : « والله - تعالى - له حد ، لا يعلمه غيره ، ولا يجوز أن يتوهم لحد
غاية في نفسه ، ولكن نؤمن بالحد ، ونكل علم ذلك إلى الله - تعالى - .
ولمكانه حد ، وهو على عرشه ، فوق سماواته ، فهذان حدان » (٢) .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الكناني ، صاحب الحيدة في الرد على
الزنادقة ، والجهمية : « زعمت الجهمية في قوله تعالى : (الرحمن على العرش

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٢ ص ٢٤ و ٣٤ - ٣٥ .

(٢) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي ص ٣٨٢ مجموع عقائد السلف .

استوى (١) إنما المعنى استولى كقول العرب : استولى فلان على مصر ، استولى فلان على الشام ، يريد استولى عليها .

فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستولى عليه ؟ فإذا قال : لا .

قيل له : فمن زعم ذلك ؟ فمن قوله : من زعم ذلك ، فهو كافر . يقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستولى عليه ، وذلك أن الله - تبارك وتعالى - أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض ، ثم استوى عليه بعد خلق السموات والأرض .

قال - تعالى - : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) (٢) فأخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وقال - تعالى - : (خلق السموات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) (٣) وقال : (ثم استوى إلى السماء فسواهن) (٤) .

فأخبر أنه استوى على العرش ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان على العرش فيها ، قبل خلق السموات ، والأرض ، ليس الله بمستولى عليه ، إذ كان استوى على العرش معناه عندك : استولى .

فإنما استولى بزعمك فى ذلك الوقت لاقبله » - ثم ذكر حديث عمران الآتى وحديث أبى رزين المتقدم ، ثم قال :

« فقال الجهمى : أخبرنى كيف استوى على العرش ؟ أهو كما يقال : استوى فلان على السرير ، فيكون السرير قد حوى فلانا وحده إذا كان عليه ، لأننا لا نعقل الشيء على الشيء إلا هكذا .

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٤ من سورة آلم السجدة .

(٤) الآية ٢٩ من سورة البقرة .

فيقال له : أما قولك : كيف استوى ؟ فإن الله لا يجرى عليه كيف ، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش ، ولم يخبرنا كيف استوى ، فوجب على المؤمنين أن يصدقوا بهم ، باستوائه على العرش ، وحرم عليهم أن يصفوا كيف استوى ، لأنه لم يخبرهم كيف ذلك ، ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأيت ، وحرم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون .

فآمنوا بخبره عن الاستواء ، ثم ردوا علم كيف استوى إلى الله .

ولكن يلزمك أيها الجهمي أن تقول : إن الله محدود ، وقد حوته الأماكن ، إذا زعمت في دعواك ، أنه في الأماكن ، لأنه لا يعقل شيء في مكان ، إلا والمكان قد حواه ، كما تقول العرب : فلان في البيت ، والماء في الجب ، فالبيت قد حوى فلانا ، والجب قد حوى الماء .

ويلزمك أشنع من ذلك ، لأنك قلت : أفضع مما قالت به النصارى ، وذلك أنهم قالوا : إن الله - عز وجل - في عيسى ، وعيسى بدن إنسان واحد ، وكفروا بذلك وأنتم تقولون : إنه في كل مكان ، وفي بطون النساء كلهن ، و[في] بدن عيسى ، وأبدان الناس كلهم .

ويلزمك أيضا أن تقول : إنه في أجواف الكلاب ، والخنازير ، لأنها أماكن وعندك ، أن الله في كل مكان - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا ^(١) .

وقال أبو الحسن الأشعري في الإبانة : « إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل : نقول : إن الله عز وجل - مستوي على عرشه ، كما قال : (الرحمن على العرش استوى) ^(٢) وقال - تعالى - : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) ^(٣) ، فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان

(١) درء تعارض العقل والنقل ج ٦ ص ١١٥ - ١١٨ .

(٢) الآية ٥ من سورة طه .

(٣) الآية ١٦ من سورة الملك .

العرش فوق السموات قال : « أأمنتم من في السماء » لأنه مستوٍ على العرش ، الذى فوق السموات ، وكل ماعلا فهو سماء ، فالعرش أعلى السموات وليس إذا قال : « أأمنتم من في السماء » يعنى جميع السموات ، وإنما أراد العرش ، الذى هو أعلى السموات ، ألا ترى أن الله - عز وجل - ذكر السموات ، فقال : (وجعل القمر فيهن نورا) (١) ، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا ، وأنه فيهن جميعا .

ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا ، نحو السماء ، لأن الله - عز وجل - مستو على العرش ، الذى هو فوق السماوات ، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض .

ولو كان كما تقوله المعتزلة ، والجهمية ، أن معناه : استولى ، وملك ، وقهر ، لم يكن هناك فرق بين العرش ، والأرض السابعة ، ولكان مستويا على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش ، والأقذار (٢) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال الباقلانى - وهو من أئمة الأشاعرة - : « فإن قال قائل : أتقولون : إنه فى كل مكان ؟ قيل : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على عرشه ، كما أخبر فى كتابه ، فقال : (الرحمن على العرش استوى) (٣) وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٤) وقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) (٥) .

(١) الآية ١٦ من سورة نوح عليه السلام .

(٢) الإبانة ص ٨٥ - ٨٧ ملخصا .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .

ولو كان في كل مكان ، لكان في بطن الإنسان ، وفمه ، وفي الحشوش ،
والمواضع التي نرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة ، إذا خلق منها
مالم يكن خلقه وينقص بنقصانها إذا بطل منها ماكان ، ولصح أن يرغب إليه إلى
نحو الأرض ، وإلى خلفنا ، وإلى يميننا ، وشمائلنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على
خلافه ، وتخطئة قائله « (١) .

وقال شيخ الإسلام : « وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول : إن
السموات ثقله ، أو تظله ، لما في ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته ، فمن قال : إنه
في استوائه على العرش محتاج إليه ، كاحتياج المحمول ، إلى حامله ، فإنه كافر ، لأن
الله غنى ، عن العالمين حي ، قيوم ، الغنى المطلق ، وماسواه فقير إليه .

مع أن أصل الاستواء على العرش ، ثابت بالكتاب ، والسنة ، واتفاق
سلف الأمة ، وأئمة السنة ، بل ثابت في كل كتاب ، أنزل على كل نبي
أرسل « (٢) .

وذكر عن أبي عمر الطلمنكى : أنه قال : « قال أهل السنة ، في قوله -
تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (٣) : أن الاستواء من الله على عرشه
المجيد ، على الحقيقة لا على المجاز « (٤) .

وقال ابن عبد البر في شرح حديث النزول : « وفيه دليل على أن الله في
السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة ، وهو من حججهم
على المعتزلة ، في قولهم : إن الله في كل مكان ، وليس على العرش .

(١) التمهيد ص ٢٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٢٦١ .

ومن الدليل على صحة ماقاله أهل الحق ، قول الله - تعالى - : (الرحمن تلى العرش استوى) (١)

قال شيخ الإسلام : « وفي الفقه الأكبر ، المروى عن الإمام أبى حنيفة - رحمه الله - قال : « من قال : لا أعرف ربى فى السماء ، أم فى الأرض ، فقد كفر ، لأن الله - تعالى - يقول : (الرحمن على العرش استوى) (٢) وعرشه فوق سبع سماواته »

قلت : فإن قال : إنه على العرش استوى ، ولكنه يقول : لا أدرى ، العرش فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون فى السماء ، لأنه - تعالى - فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .
وفى لفظ : سألت : أبى حنيفة : عمن يقول : لأعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : قد كفر ، لأن الله - تعالى - يقول : (الرحمن على العرش استوى) (٣) وعرشه فوق سبع سموات .

قال : فإنه يقول : على العرش استوى ، ولكن لا يدرى العرش فى الأرض ، أو فى السماء ؟ قال : إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر . ثم قال :
« ففى هذا الكلام المشهور عن أبى حنيفة ، عند أصحابه ؛ أنه كفر الراقف ، الذى يقول : لا أعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض .
فكيف يكون الجاحد ، النافى ، الذى يقول : ليس فى السماء ، أو ليس فى السماء ولا فى الأرض ؟ .

واحتج على كفره بقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (٣) قال :
وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله - تعالى - : (الرحمن على

(١) التمهيد ج ٧ ص ١٢٩ .

(٢) الآية ٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

العرش استوى) (١) يبين أن الله ، فوق السماوات ، فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش ، دل على أن الله بنفسه فوق العرش .

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال : إنه على العرش استوى ، ولكن توقف في كون العرش في السماء ، أم في الأرض ؛ قال : لأنه أنكر أنه في السماء ، لأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وهذا تصریح من أبى حنيفة - رحمه الله - بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء .

واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك ، فقال : « إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر » (٢) وكلام العلماء من أهل السنة ، من السلف وأتباعهم في هذا الموضوع كثير جدا . فنكتفى بهذا الطرف اليسير ، لأن العاقل المنصف ، الذى يريد الحق ، ويطلبه إذا بان له الدليل ، كفاه اليسير ، وأما من ضل ، وعاند ، فلا يفيدته البيان والإكثار ، من الكلام ، والله الهادى ، وهو المستعان . قوله : « وقال ابن عباس : المجيد ، الكريم ، والودود : الحبيب ، يقال : حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود من حمد »

قول ابن عباس انتهى عند قوله : يقال . قال الحافظ : « وصله ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى : « ذو العرش المجيد » . قال : المجيد الكريم وبه أى بالسند - عن ابن عباس في قوله تعالى : « وهو الغفور الودود » . قال : الودود الحبيب » (٣) .

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٤٧ - ٤٩ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٨ .

وذكر السيوطى أنه خرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الصفات ، فى الموضوعين « (١) .

قلت : يقصد البخارى - رحمه الله - أن العرش أضيف إلى الله - تعالى - الإضافة الدالة على المصاحبة ، والاختصاص ، حيث قال : « ذو العرش » أى صاحب العرش . فدل ذلك على اختصاص العرش المذكور بالله دون سائر المخلوقات . والمجيد قرأ بالرفع صفة لذو ، الذى هو الله - تعالى - ، وقرأ بالجر صفة للعرش .

قال ابن جرير : « قرأ عامة قراء المدينة ومكة ، وبعض الكوفيين بالرفع ، ردا على قوله : « ذو العرش » ، على أنه صفة الله - تعالى ذكره - وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة خفضا ، على أنه من صفة العرش .

والصواب من القول : أنهما قراءتان ، معروفتان ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب « (٢) .

قال أبو حيان : « ذو العرش » خص العرش بإضافة نفسه ، تشريفا للعرش ، وتنبها على أنه أعظم المخلوقات « (٣) .

و « المجيد » فسر ابن عباس ، بالكريم - وقد جاء فى القرآن وصف العرش بأنه كريم ، قال - تعالى - : (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) (٤) فوصف العرش بأنه كريم لسعته وحسنه ، وهو فى وصف الله ، الجواد ، واسع العطاء كثير الخير ، حميد الصفات .

(١) الدر المنثور ج ٨ ص ٤٧١ ، وانظر الطبرى ج ٣٠ ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٣٠ ص ١٣٩ .

(٣) البحر المحيط ج ٨ ص ٤٥٢ .

(٤) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون .

قال في القاموس : « المجيد » الرفيع العالى ، والكريم ، والشريف
الفعال « (١) .

قوله : « الودود » الحبيب ، تقدم أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس
بسند متصل ، والود خالص الحب وصافيه .

وفي القاموس : « الودود » كثير الحب . وقد تقدم الكلام في صفة المحبة .

« الودود » فعول ، من الود ، قال شعيب عليه السلام : « إن ربي رحيم
ودود » (٢) ، وقال - تعالى - : (وهو الغفور الودود) (٣) فقرنه بالرحيم في
موضع ، وبالغفور في موضع .

قال أبو بكر بن الأنبارى : « الودود » معناه المحب لعباده ، من قولهم :
وددت الرجل أوده ، وداً ، وودا ، وودا .

ويقال : وددت الرجل ، وداداً ، ووداداً ، وودادة .

وقال الخطائى : هو اسم مأخوذ من الود ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون
فعولاً في محل مفعول ، كما قيل : رجل هيوب ، بمعنى مهيب ، وفرس ركوب ،
بمعنى مركوب . والله - سبحانه وتعالى - مودود في قلوب أوليائه ، لما يعرفونه من
إحسانه إليهم . والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود ، أى أنه تعالى يود عباده
الصالحين .

قال تعالى : (سيجعل لهم الرحمن وداً) (٤) فسرت بأنه يحبهم ، ويحبهم
إلى عباده .

(١) ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) الآية ٩٠ من سورة هود .

(٣) الآية ١٤ ن سورة البروج .

(٤) الآية ٩٦ من سورة مريم .

ويؤيده الحديث الصحيح « إذا أحب الله عبداً نادى يا جبريل ، إني أحب فلانا ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض » وسيأتى إن شاء الله تعالى .

والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري ، أنه فعول بمعنى فاعل ، أى هو الواد ، كما قرنه بالغفور ، الذى يغفر ، وبالرحيم وهو الذى يرحم ^(١) .

وقوله : « يقال حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود ، من حمد » قال الحافظ : « أصل هذا قول أبى عبيدة ، فى مجاز القرآن ، فى قوله : « عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » أى محمود ماجد ^(٢) .

قال الكرماني : « غرضه منه ، أن مجيدا بمعنى فاعل ، كقدير بمعنى قادر ، حميدا بمعنى مفعول ، فلذلك قال : « مجيد من ماجد ، حميد من ماجد ، حميد من محمود ، قال : وفى بعض النسخ : محمود من حميد ، وفى أخرى : من حمد ، مبنى للفاعل ، والمفعول أيضا ، وذلك لاحتمال أن يكون حميد بمعنى حامد ، ومجيد بمعنى موجد ، ثم قال : وفى عبارته تعقيد ^(٣) .

قال الحافظ : « قلت : وهو فى قوله : « محمود من حمد » . وقد اختلفت الرواة فيه ، والأولى فيه ما وجد فى أصله ، وهو كلام أبى عبيدة ^(٤) »

« فالحميد الذى له من الصفات ، وأسباب الحمد ما يقتضى أن يكون محمودا ، وإن لم يحمد غيره ، فهو حميد فى نفسه .

(١) النبوات ص ٧١ - ٧٢ ملخصا .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٨ .

(٣) شرح الكرماني على البخارى ج ٢٥ ص ١٢٩ .

(٤) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٨ .

والمحمود من تعلق به حمد الحامدين ، والحمد ، والمجد إليهما يرجع الكمال كله ، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود ، فمن أحببته ولم تثن عليه لم تكن حامداً له .

وهذا الثناء والحب ، يتبع الأسباب المقتضية له ، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، والإحسان إلى الغير ، فإن هذه ، هي أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع ، وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم .

والله سبحانه له الكمال المطلق ، الذي لانقص فيه بوجه ، والإحسان كله له ومنه ، فهو أحق بكل حمد ، وبكل حب ، فهو أهل أن يحب لذاته ، ولصفاته ولأفعاله وأسمائه ، ولإحسانه ، ولكل ما صدر منه .

والمجد مستلزم للعظمة ، والسعة ، والجلال ، كما يدل عليه موضوعه في اللغة «^(١) يقال : استمجد المرخ والعفار ، لكثرة النار فيهما .

قال ابن القيم : ومن أسمائه - تعالى - ما هو دال على جملة أوصاف عديدة ، لا يختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه ، لا على معنى مفرد ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد . فإن المجيد ، من اتصف بصفات متعددة ، من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع في اللغة للسعة ، والكثرة ، والزيادة ، فمنه استمجد المرخ والعفار ، وأمجد الناقة علفا ، ومنه « ذو العرش المجيد » صفة للعرش ، لسعته ، وعظمته وشرفه «^(٢) .

★ ★ ★

(١) جلاء الأفهام ص ١٨٧ .

(٢) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٦٠ .

٤٧ - قال : « حدثنا عبدان ، عن أبي حمزة ، عن الأعمش ، عن جامع ابن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين ، قال : « إني عند النبي - ﷺ - إذ جاءه قوم من بني تميم ، فقال : اقبلوا بشرى يابنى تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا بشرى يأهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا ، جئناك لتتفقه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم أتاني رجل ، فقال : ياعمران أدرك ناقتك ، فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها ، فإذا السراب ينقطع دونها ، وأيم الله لو ددت أنها ذهبت ولم أقم » .

* * *

عمران ، هو أبو نجيذ بضم النون ، وفتح الجيم ابن حصين ، الخزاعي ، البصري ، أسلم عام خيبر ، سنة سبع ، وشهد مابعداها من غزوات رسول الله - ﷺ - . وكان من فضلاء الصحابة ، وكانت الملائكة تسلّم عليه مواجهة ، وكان مجاب الدعوة ، بعثه عمر إلى أهل البصرة يفقههم ، وكان الحسن البصري يخلف بالله ما قدمها مثله ، اعتزل الناس في الفتنة ، فلم يشهد شيئا من حروبها . مات في البصرة سنة اثنين وخمسين رضى الله عنه (١) .

قوله : إني عند النبي - ﷺ - في الرواية التي ذكرها في بدء الخلق : « دخلت على النبي - ﷺ - وعقلت ناقتي بالباب » (٢) .

(١) الرياض المستطابة ص ٢١٩ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٦ ص ٢٨٦ .

ويظهر أن هذه الواقعة في المدينة ، في آخر حياة النبي ﷺ ، ولهذا ذكرها البخارى في آخر المغازى ، في ذكر الوفود ، على النبي ﷺ .

قوله : « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » وفي رواية : « أبشروا يا بنى تميم » ، والمراد بهذه البشرى الخير العظيم ، الذى يترتب على الإسلام ، والنجاة من العذاب العظيم ، الذى يترتب على عدم الدخول فى الإسلام ، وذلك فى الدنيا والآخرة . قال الحافظ : « المراد بهذه البشارة ، أن من أسلم نجا من الخلود فى النار ، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه على وفق عمله ، إلا أن يعفو الله » (١) .

« وتميم اسم رجل ، وهو تميم بن مر بن إدا بن طابخة - واسم طابخة - عمرو ابن إلياس ابن مضر ، والتميم فى اللغة الشريد » (٢) .

« قالوا : بشرتنا فأعطنا » يظهر أنهم ما فهموا مقصد الرسول - ﷺ - بما أراده بالبشرى ، أو أن رغبتهم فى العاجلة ، فعلقوا بها آمالهم ، فقدموا ذلك على التفقه فى الدين ، والإقبال على تفهّم ماقاله الرسول - ﷺ - ولهذا كره رسول الله - ﷺ - قولهم كما فى الرواية الأخرى ، وتغير لون وجهه حيث استشعر قلة فقههم فى الدين ، ورغبتهم فى الآخرة . والله أعلم .

« فدخل ناس من أهل اليمن » تقدم ذكر اليمن ، وسبب تسميته فى شرح حديث معاذ . « فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » . البشرى اسم من البشير ، وهى الإخبار بما يسر ، ويفرح غالبا ، وسميت بذلك لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه .

قال الحافظ : « أى اقبلوا منى ما يقتضى أن تبشروا بالجنة إذا أخذتم به » (٣) ويؤخذ من هذا أنه ينبغى ، بل يتعين قبول ماجاء عن الله ، ورسوله ،

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤٠٩ .

(٢) انظر نهاية الأرب ص ١٨٨ و ٣٢٢ .

(٣) الفتح ج ٦ ص ٢٨٨ .

بدون توقف أو استفسار ، أو طلب للعللة ، والسبب ، لأن قول بنى تميم : بشرتنا فأعطنا . لا يدل بظاهرة على أنهم لم يقبلوها ، ومع ذلك جعل عدم فهمهم للمقصود وطلبهم لأمر عاجل ، عدم قبول للبشرى .

قوله : « جئناك لتفقه في الدين » الفقه هو الفهم ، أى فهم المراد ، أى أننا قد آمننا بك ، وبما جئت به ، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذى جئت به وتعلمنا مانعته ، ونعمل به ، وهذا من توفيق الله لعبده ، أن يهتم بالتفقه في دينه ، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة .

قوله : « ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان » ؟ الإشارة في قوله : هذا تعود إلى شيء مشاهد ، حاضر ، موجود ، وهو هذا الخلق المرئى ، من السموات والأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ، والمعنى : جئنا نسأل ، عن مبدأ خلق هذه المخلوقات المشاهدة ، وهذا هو الظاهر .

قال الحافظ : « كأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم ، وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات » (١) .

قلت : الاحتمال الثانى بعيد ، بل باطل كما يأتى بيانه فى كلام شيخ الإسلام وقوله فى الحديث « عن أول هذا الأمر » يرد ، لأن الإشارة إلى المخلوقات المشاهدة كما تقدم ، وجواب السؤال يدل على أنهم سألوا عن مبدأ هذا العالم المشاهد . والأمر يطلق ويراد به المأمور ، ويراد به المصدر ، الذى هو حكم الأمر والأول هو المراد هنا قطعاً .

وقد رد شيخ الإسلام احتمال كونهم سألوا عن أول جنس المخلوقات من وجوه كثيرة ، وبين أن ذلك باطل ، وذكر أن الحديث روى بثلاثة ألفاظ :

أحدها المذكور هنا : « كان الله ولم يكن شيء قبله » .

والثانى : « كان الله ، ولم يكن شيء معه » .

والثالث : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » . ثم قال : « لا بد أن يكون الرسول - ﷺ - قال أحدها ، لأن المجلس كان واحدا ، وسؤالهم ، وجوابهم في ذلك المجلس ، وعمران الذي روى الحديث لم يبق في المجلس إلى انقضائه بل ذهب لما أخبر بذهاب راحلته ، وهو أخبر بلفظ الرسول - ﷺ - ولم يرو هذا الحديث غيره - فدل ذلك على أن الرسول - ﷺ - قال واحدا من هذه الألفاظ ، والآخرون رويها بالمعنى ، فيكون ماقاله : هو لفظ « القبل » لما في صحيح مسلم ، من قوله - ﷺ - : « أنت الأول فليس قبلك شيء » (١) .

وأكثر أهل الحديث يرويه بهذا اللفظ ، وهو ذكر الجمل الثلاث بالواو ،

وهي

١ - « قوله كان الله ، ولم يكن شيء قبله » .

٢ - « وكان عرشه على الماء » .

٣ - « وكتب في الذكر كل شيء » .

ولم يذكر شيئا منها بثم ، وإنما جاء ذلك في خلق السموات والأرض .
والواو ، لاتفيد الترتيب ، على الصحيح ، فلا يكون في ذلك ذكر أول المخلوقات ، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش ، والماء ، وإن كان ذلك كله مخلوقا ، ولكن المقصود أن جوابه لأهل اليمن ، عن بدء خلق السموات والأرض ، وما بينهما وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام ، لا ابتداء ماخلقه الله قبل ذلك .

ويدل على ذلك ، أنه أخبر عن تلك الأشياء بما يدل على وجودها ، ولم يتعرض لابتداء خلقها ، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها ، سواء قال : « وخلق السموات والأرض » أو قال : « ثم خلق السموات والأرض » فعلى التقديرين ، أخبر بخلق ذلك ، وكل مخلوق ، محدث كائن بعد أن لم يكن .

فتبين أنه لم يكن مقصوده الإخبار عن أول جنس المخلوقات ، بل ولا الإخبار عن خلق العرش والماء ، وإنما مقصوده الإخبار عن بدء خلق السموات.

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٨٤ الحديث رقم ٢٧١٣ .

والأرض ، وما بينهما ، حين كان عرشه على الماء » (١) .

وقد ثبت في حديث عبد الله بن عمرو ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » (٢) .

ولما كان شيخ الإسلام يقرر هذا ، وهو أن الله لم يزل فعال لما يريد ، ويرد على من يقول : المعنى : كان الله ، ولا شيء معه أى لا مخلوق ، ولا فعل ، ولا مفعول ، ثم صار يخلق ويفعل بعد أن لم يكن يفعل ، ويخلق ، وهذا هو قول الجهمية ، والمعتزلة .

لما كان يقرر ذلك ، ويرد قول الجهمية والمعتزلة ، ظن كثير ممن لم يفهم مراده ولم يعرف مذهب أهل السنة في هذه المسألة ، ظن أنه يقول بقدم العالم لأنه يقول بحدوث لا أول لها ، لأنهم يسمون أفعال الله الاختيارية ، التى يفعلها بإرادته حوادث .

وما علم هؤلاء أن لازم قولهم ، أشنع ، وأفزع ، وهو أن الرب تعالى كان معطلا عن الفعل ، ثم صار فعلا لأفعاله بعد أن لم يكن كذلك .

مع أن ما قاله شيخ الإسلام هو مذهب السلف مثل الإمام أحمد ، والدارمي والبخارى وغيرهم .

قال الإمام أحمد في رده على الجهمية : « فلما ظهرت عليه الحجة ، قال : إن الله يتكلم ، ولكن كلامه مخلوق » .

قلنا : وكذا بنو آدم كلامهم مخلوق ، فقد شبهتم الله بخلقه ، حين زعمتم أن كلامه مخلوق .

(١) مجموع الفتاوى ج ١٨ ص ٢١٦ - ٢٢٢ بتصرف .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

ففى مذهبكم ، قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم ، حتى خلق التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاما .

وقد جمعتم بين كفر ، وتشبيه ، وتعالى الله عن هذه الصفة .

بل نقول : إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء ، ولا نقول : إنه كان ، ولا يتكلم حتى خلق الكلام ، ولا نقول : إنه قد كان لا يعلم ، حتى خلق علما فعلم ، ولا نقول : إنه قد كان ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه القدرة ، ولا نقول : إنه كان ولا نور له ، حتى خلق لنفسه نورا ، ولا نقول : إنه كان ولا عظمة له ، حتى خلق لنفسه عظمة . فقالت الجهمية ، لما وصفنا الله بهذه الصفات : إن زعمتم ، أن الله ونوره ، والله وقدرته ، والله وعظمته ، فقد قلتم بقول النصارى ، حين زعموا أن الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته .

قلنا : لا نقول : إن الله لم يزل ، وقدرته ، ولم يزل ، ونوره ، ولكن نقول : لم يزل بقدرته ، ونوره ، لا متى قدر ، ولا كيف .

فقالوا : لا تكونوا موحدين أبداً ، حتى تقولوا : قد كان الله ولا شيء .

فقلنا : نحن نقول : قد كان الله ، ولا شيء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته ؟ .

وضرينا لهم مثلا فى ذلك ، فقلنا : أخبرونا ، عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، وخصوص ، وجمار ، واسمها اسم شيء واحد ، وسميت نخلة ، بجميع صفاتها ، فكذلك الله - وله المثل الأعلى بجميع صفاته ، إله واحد .

ولانقول : إنه كان فى وقت من الأوقات ، ولا قدرة له ، حتى خلق له .
والذى ليس له قدرة ، هو عاجز .

ولانقول : قد كان في وقت من الأوقات ، لا يعلم حتى خلق له علما ،
والذى لا يعلم هو جاهل » (١)

بين الإمام - رحمه الله - تعالى - أنه - تعالى - لم يزل متكلمًا ، قادرا ،
فعالا لما يريد . فلم يكن قبل وجود الخلق معطلا عن الفعل ، كما هو مقتضى قول
الذين أنكروا وجود حوادث لا أول لها ، وزعموا أن هذا قول الفلاسفة الدهرية .
وفي الواقع هو قول السلف ، وهو الذى دلت عليه نصوص الشرع ، وأيده
العقل .

قال الإمام أبو سعيد الدارمي - رحمه الله - : « والله - تعالى - وتقدس
اسمه - كل أسمائه سواء ، لم يزل كذلك ، ولا يزال ، لم تحدث له صفة ، ولا
اسم ، لم يكن كذلك كان خالقا قبل المخلوقين ، ورازقا قبل المرزوقين ، وعالما قبل
المعلمين ، وسميعا قبل أن يسمع أصوات المخلوقين ، بصيرا قبل أن يرى أعيانهم
مخلوقة » (٢) .

والمقصود أن الله - سبحانه وتعالى - لم يزل فعلاً لما يريد ، وأنه لم يكن
معطلا عن الفعل حتى خلق هذا الكون ، المشهود الذى سئل عن مبدأه أهل
اليمين ، قال شيخ الإسلام :

« لا نزاع بين أهل الملل أن الله - سبحانه - كان قبل أن يخلق هذه
الأمكنة والأزمنة ، وأن وجوده لا يجب أن يقارن هذه الأزمنة ، والأمكنة » (٣)

قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » تقدم في كلام شيخ الإسلام أن
هذا اللفظ هو الذى قاله الرسول - ﷺ - وأن اللفظين ، الآخرين رويًا بالمعنى
وهما « لم يكن شيء غيره » و « لم يكن شيء معه » ، وأيد ذلك بأنه من معنى
قوله - تعالى - : (هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء
عليم) (٤) .

(١) الرد على الجهمية ص ٩٠ - ٩٢ عقائد السلف .

(٢) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي .

(٣) نقض التأسيس ج ١ ص ٥٦٢ .

(٤) الآية ٣ من سورة الحديد .

فقوله تعالى : « هو الأول » هو الذى ليس قبله شيء ، كما فى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » (١) .

وأما قول الحافظ : « قضية الجمع بين الروایتين ، تقتضى حمل هذه على رواية « ولا شيء غيره » ، لا العكس ، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق » (٢) فيقال له : هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه - ﷺ - فى مقامين ، أما إذا كان فى مجلس واحد ، والراوى واحد ، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس بل قام لما سمع هذا القول من النبى - ﷺ - ولحق براحلته ، فلا بد أن اللفظ الذى سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة ، والأخران روى بالمعنى ، فأصبح الجمع لا وجه له .

وحمل هذه الرواية على رواية « ولا شيء غيره » تحكّم بلا دليل ، حمل عليه التعصب للمذهب ، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبى - ﷺ - الموافق لكلام الله - تعالى - كما تقدمت الإشارة إليه .

وأما قوله : إن هذه المسألة من مستشنع ما ينسب لابن تيمية ، فقد تقدم أن هذا هو مذهب السلف ، وأن ما يريد ترجيحه الحافظ هو مذهب الجهمية والمعتزلة ، والأشعرية من أهل البدع ، والله أعلم .

وكلمة « كان » هنا تفيد الأزلية ، والأزلية . هى ما لا بداية له . قال الطيبى : « لفظة كان فى الموضوعين - يعنى « كان الله » و « كان

(١) تقدم تحريجه فى ص ٣٧٨ .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤١٠ .

عرشه على الماء » بحسب حال مدخولها ، فالمراد بالأول الأزلية والقدم ، وبالتالي الحدوث بعد العدم « (١) .

« وقال ابن عباس : « كان ولا يزال » . ولم يقيد كونه بوقت دون وقت ، ويمتنع أن يحدث له غيره صفة ، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره سبحانه فهو المستحق لغاية الكمال ، وذاته هي المستوجبة لذلك الكمال المطلق وهو المحمود على ذلك ، أزلا وأبداً ، لا يحصى الخلق ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه « (٢) .

وقال الراغب : « كان : عبارة عما مضى من الزمان ، وفي كثير من وصف الله - تعالى - تنبىء عن معنى الأزلية ، قال : (وكان الله بكل شيء عليماً) (٣) (وكان الله على كل شيء قديراً) (٤) ، وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقاً بوصف له هو موجود فيه . فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له ، قليل الانفكاك منه نحو قوله في الإنسان (وكان الإنسان كفوراً) (٥) وإذا استعمل في الزمان الماضي ، فقد يجوز أن يكون المستعمل فيه على حالته ، ويجوز أن يكون قد تغير ، نحو كان فلان كذا ثم صار كذا « (٦) .

ومعنى قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » أنه - تعالى - هو الأول قبل كل شيء ، الذي لا يتصور لأوليته مبدأ ، حتى يمكن أن يتصور قبله شيء ، بل هو الأول بلا بداية ، كما أنه الآخر بلا نهاية فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته - تعالى - قبلها ، بلا غاية محدودة والأزل معناه عدم الأولية ، فليس الأزل

(١) الفتح ج ١٣ ص ٤١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ١٨ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الفتح والآية ٤٠ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٢٧ من سورة الأحزاب ، والآية ٢١ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٤٤٤ .

شيئا محدودا فلو قدر أن الأرض كلها وعاء مملوء ذرات ، وبعد مليون سنة تفنى ذرة واحدة فقط ، لفنية الذرات كلها ، والأزل باقٍ ، بل لو فرض أضعاف أضعاف ذلك بالملايين ، والمقصود بذلك التقريب إلى الفهم فقط ، وإلا فالأزل ليس له بداية أبدا .

قوله : « وكان عرشه على الماء » أى وقت خلق السموات والأرض ، كان عرشه على الماء . والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء ، عند ابتداء خلق السموات والأرض .

قال ابن خزيمة : « معنى قوله : وكان عرشه على الماء ، كقوله : « وكان الله عليما حكيمًا » (١) يعنى أن كان هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى ، وانقضى ، بل تدل على ثبوته فهو كان ، ولا يزال على ما كان ، و « ليس معنى ذلك أن شيئا من مفعولاته قديم معه ، بل هو خالق كل شيء ، وكل شيء سواه مخلوق له ، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، مع أنه - تعالى - لم يزل بصفاته خالقا فعلا لما يريد » .

ومن المعلوم أن الخلق صفة كمال ، كما قال - تعالى - : (أفمن يخلق ، كمن لا يخلق) (٢) فلا يجوز أن ينفك عن هذه الصفة ، ولكن كل مخلوق محدث ، مسبق بالعدم وليس مع الله شيء قديم ، ولا شك أن هذا أبلغ في الكمال ، من أن يكون معطلا غير قادر على الفعل .

وأما جعل المفعول المعين مقارنا له - تعالى - أزلا وأبدا ، فهو باطل عقلا وشرعا ولا يقوله إلا جاهل أو معطل .

« والأدلة على بدء خلق الأفلاك ، وخلق الزمان الذى هو مقدار حركة الفلك كثيرة ، أخبرت بها الرسل ، كما أخبرت أنها خلقت من مادة موجودة قبلها ، وفي زمان قبل هذا الزمان ، فإن الله - تعالى - أخبر أنه خلق السموات

(١) كتاب التوحيد ص ١٠٣ .

(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .

والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وسواءً قيل : إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها ، أو أنها أكبر منها ، وأن كل يوم قدره ألف سنة .
والحق أن تلك الأيام ، التي خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وأن تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض .

وقد أخبر - سبحانه وتعالى - أنه (استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها ، قالتا أتيننا طائعين) (١) فخلقت من الدخان

وقد جاءت الآثار عن السلف ، أنها خلقت من بخار الماء ، وهو الماء الذي كان العرش عليه ، قبل وجود هذا الخلق ، كما قال تعالى : (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) (٢) فأخبر - تعالى - أنه خلق السماوات والأرض في مدة ، ومن مادة ، ولم يذكر القرآن أنه خلق شيئا من لا شيء ولا يعارض هذا بقوله تعالى : (وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا) (٣) . لأنه تعالى قد أخبر أنه خلقه من نطفة (٤) وخلق أباه من تراب ، وقد أخبر الرسول ﷺ - أن الملائكة خلقت من نور ، والجن من النار .
وهذه الجملة من الحديث هي محل الشاهد ، وهو دليل على عظم العرش ،

وأن له شأنًا غير شأن السماوات والأرض ، وأن وجوده قبل وجودهما .

وقوله : « ثم خلق السماوات ، والأرض » نص في ذلك لأن ثم تفيد الترتيب

مع التراخي ، أى ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العرش والماء .

ولا شك أن العرش ، والماء مخلوقان ، ولم يذكر الله جل وعلا لنا وقت خلق العرش والماء ، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما ، ولكن النصوص من الوحي ، والفطر ، والعقل السليم تدل على أن الله - تعالى - لم يزل يفعل ما يشاء ، ويتكلم

(١) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٩ من سورة مريم .

(٤) مجموع الفتاوى ج ١٨ ص ٢٣٥ بتصرف .

بما يشاء ، وهذا من الكمال الواجب له ، والذي يليق به تعالى .
وما يقوله المتكلمون من المعتزلة ، والأشاعرة ، ومن تبعهم ، من أن هذا
الكون المشاهد لنا ، وما يتصل به - من السموات والأرض ، وكذلك العرش والماء ،
هو مبدأ فعله وخلقه ، وليس قبله شيء من مفعولاته - يخالف كماله الواجب له
تعالى .

فإن وصفه - تعالى - بأنه لم يكن قادرا على الفعل ، والكلام ونحوهما من
صفات الكمال - ثم صار قادرا على ذلك - فيه نقص يجب أن ينزه عنه ، وقدرته
التامة الكاملة التي هي من لوازم ذاته - تعالى - تفيد خلاف هذا القول وهي من
أظهر صفات الكمال ، ولا يجوز أن تقيد صفاته - تعالى - ، وأفعاله بوقت دون
وقت .

وباليتين العقلي يمتنع أن يكون قادرا بعد أن لم يكن كذلك ، إلا بأمر
جعله قادرا ، ومن المحال أن يؤثر فيه شيء غيره ، فإذا لم يكن هناك إلا العدم
المحض استحال كونه قادرا ، بعد أن لم يكن كذلك .
كما يمتنع أن يكون عالما بعد أن لم يكن كذلك ، وأن يكون سميعا بصيرا إن
لم يكن . أما المخلوق المفعول ، مثل الإنسان ، فإنه كان غير عالم ، ولا قادر ،
فجعله الله عالما قادرا .

وقوله : « وكتب في الذكر كل شيء » الكتابة هنا أضيفت إلى الله تعالى ،
ولا يتعين منه أنه تعالى مباشرة الكتابة بنفسه ، بل يجوز أن يأمر بذلك ما يشاء .
وقد جاء الحديث عن رسول الله - ﷺ - موضحا ذلك ، كما في
حديث عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أول
ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب
مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » (١) .

والمقصود بالذكر هنا محل الكتابة - وهو اللوح المحفوظ .

(١) رواه أبو داود في السنن ج ٥ ص ٧٦ رقم ٧٤٠٠ .

« والمراد أنه تعالى كتب كل ما أراد إيجادها من تلك الساعة التي جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة .

ولفظة « كل شيء » يعم في كل موضع بحسب ماسيقت له ، كما في قوله - تعالى - : (بكل شيء عليم) (وعلى كل شيء قدير) (الله خالق كل شيء) .

و « تدمر كل شيء » « وأوتيت من كل شيء » (١) .

وقوله : « فإذا السراب ينقطع دونها » أى يشاهدها من خلف السراب ، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها ، فيراها مرة ، وأخرى يكاد يخفيها السراب .
وقوله : « وأيم الله » قيل معناه : يمين الله ، فهو قسم مشهور عند العرب وفيه لغات عدة .

وقوله : « لوددت أنها ذهبت ، ولم أقم » يقول : إن رغبتى والأحب إليّ أنى بقيت فى مجلسى عند رسول الله - ﷺ - أتعلم منه الإيمان والعلم ولم أقم فى طلب راحلتى ، بل أتركها مؤثراً ما أسمع من رسول الله - ﷺ - من غذاء القلب والروح ، على راحلتى ، وهذا شأن صحابة رسول الله - ﷺ - ورضى الله عنهم - فى حرصهم على التعلم منه ، والبحث عن الهدى والخير ، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول - ﷺ - وما فعله ، حتى نقلوا لنا شعر لحيته وهو يصلى ، وغير ذلك فجزاهم الله خيراً ، وقاتل من يبغضهم ويتنقصهم .

★ ★ ★

٤٨ - قال : « حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، حدثنا أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « إن يمين الله ملاءى ، لا يغيبها نفقة - سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ، ويده الأخرى الغيضة - أو القبض - يرفع ، ويخفض » .

* * *

قد تقدم هذا الحديث فى باب قول الله - تعالى - « لما خلقت بيدي » وتقدم الكلام عليه وما هنا يختلف عن الماضى فى سنده ، وفى بعض ألفاظه ، على عادة المؤلف رحمه إذا كرر الحديث ، فلا بد أن يأتي بما يغير السابق ، إما فى السند والمتن ، أو فى أحدهما - إلا إذا لم يتيسر له ذلك ، وهو نادر .

والذى تقدم فيه « يد الله ملاءى » وما هنا « إن يمين الله ملاءى » .

وما تقدم فيه « وقال : أرأيتم » . وهنا كلمة « قال » ليست موجودة .

وماتقدم فيه « فإنه لم يغض ما فى يده » وما هنا « فإنه لم ينقص ما فى يمينه »

وماتقدم فيه « وقال : عرشه على الماء » وهنا لفظة « قال » غير موجودة .

وماتقدم « ويده الأخرى الميزان » وهنا « ويده الأخرى الغيضة :-

أو القبض » هذا فى المتن ، وأما السند فهو غير المتقدم .

والمقصود قوله : « وعرشه على الماء » أى أنه - تعالى - لما خلق السماوات

والأرض ، كان عرشه على الماء ، فوجود العرش ، والماء سابق وجود السماوات

والأرض بزمن طويل جدا ، الله أعلم بمقداره .

★ ★ ★

٤٩ - قال « حدثنا أحمد ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : جاء زيد بن حارثة ، يشكو ، فجعل النبي - ﷺ - يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال (١) أنس : لو كان رسول الله - ﷺ - كاتماً شيئاً لكم هذه ، قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبي - ﷺ - تقول : زوّجكن أهاليكن ، وزوّجني الله - تعالى - من فوق سبع سماوات .

وعن ثابت (وتخفي في نفسك ما لله مبديه ، وتخشي الناس) نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة » .

* * *

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ، مولى رسول الله - ﷺ - .

ذكر الحافظ في الإصابة ، نقلاً عن الكلبي بسنده ، قال : « زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها ، فأغارت خيل لبني القين بن جسر ، على أبيات بنى معن ، فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة ، فأتوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمة خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له ، ثم جاء والده حارثة ، وعمه كعب ، يريدان فدائه ، فطلبوا ذلك من رسول الله - ﷺ - فقال لهما رسول الله : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فاختار زيد رسول الله - ﷺ - فقال له والده وعمه : ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية ؟ فقال : إني رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحدا .

(١) في بعض نسخ البخاري : قالت عائشة .

فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك خرج به إلى الحجر ، وقال :
اشهدوا أن زيداً ابني ، عند ذلك طابت نفس والده وعمه .

وزوجه رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته أميمة
بنت عبد المطلب ، ثم لم يتلاءما ، فطلقها زيد ، فزوجها الله - تعالى - نبيه
لحكمة ذكر الله - تعالى - فى القرآن .

قال ابن عمر : « إن زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا
ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند
الله) (١)

كان زيد هو الأمير فى غزوة مؤتة ، واستشهد فيها رضى الله عنه « (٢)
قوله : « جاء زيد بن حارثة يشكو » أى جاء إلى رسول الله - ﷺ -
يشكو زوجه زينب ويستشيريه فى طلاقها ، لأنها كانت تترفع عليه ، وتقابله ببعض
الكلام غير المناسب لحدة كانت فيها ، كما (روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن
قتادة ، قال جاء زيد بن حارثة فقال : يارسول الله إن زينب اشتد على لسانها ،
وأنا أريد أن أطلقها ؟ فقال له : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » (٣) . وهذا
منقطع ، وقد ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين أثاراً موضوعة ، مكذوبة على
رسول الله - ﷺ - فى قصة زواجه - ﷺ - بزينب ، وبعضها ضعيف ،
لا يثبت به حكم .

ثم استغل تلك الأخبار بعض أعداء الرسل ، من زنادقة ، وكفار ملاحدة
متقدمون ، ومتأخرون ، واغتر بذلك كثير من الجهلة .

(١) الآية ٥ من سورة الأحزاب ، ورواه البخارى ، انظره مع الفتح ج ٨ ص

(٢) الإصابة ج ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠١ .

(٣) الفتح ج ٨ ص ٥٢٤ .

وقد بين الله - تعالى - المقصود من زواج رسوله - ﷺ - بزینب بقوله : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً) (١) .

المعنى : لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها ، وطلقها ، أمرناك بتزوجها لئلا يبقى في قلوب المؤمنين حرج في تزوج زوجات أدعياءهم ، الذين تبنوهم ، فصاروا يدعون إليهم ، فيقال : ابن فلان ، وليس ابناً له إذا فارقوهن .

وهذا إمعان في إبطال هذا التبني ، الذي كان معروفاً في الجاهلية الأولى كما عرف في الجاهلية الحاضرة ، حيث أمر الله - تعالى - إمام المسلمين وقوتهم بذلك . وكان زيد بن حارثة ، قد تبناه رسول الله - ﷺ - كما تقدمت الإشارة إليه ، فكان يدعى بزید بن محمد ، فأبطل الله - تعالى - ذلك بقوله : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل ادعوهم لأبائهم ، هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيماً) (٢) .

فهو - تعالى - يعلم عباده أن أدعياءهم الذين هم مواليتهم ، ودعوهم أبناء لهم ، إنهم ليسوا لهم بأبناء ، لأنهم أبناء رجال آخرين .

وقد أوحى الله - تعالى - إلى رسوله بأنه سوف يتزوج زينب ، أوحى الله بذلك إليه قبل أن يطلقها زيد ، فلما جاء يشكوها إليه ، ويستشيرها في طلاقها ، قال له : « اتق الله يا زيد وأمسك عليك زوجك ، فعاتبه الله - تعالى - على ذلك ، وعلى ما كان يخشاه من أقوال الناس في ذلك فقال - تعالى - : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآيتان ٤ و ٥ من سورة الأحزاب .

في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) الآية (١)

والذى كان - ﷺ - يخفيه ، هو كراهيته لزواجها خوفاً من قالة الناس أنه تزوج زوجة ابنه .

قال ابن حجر : « والحاصل أن الذى كان يخفيه هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله إبطال ما كان الجاهلية عليه ، من أحكام التبني بأمر لأبلى في الإبطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابناً [له] ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ، ليكون أدعى لقبولهم .

وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم » (٢) . يشير إلى ما ذكره بعض المفسرين من أقوال باطلة ، وقصص موضوعة مكذوبة .

قوله : « قال أنس : لو كان رسول الله - ﷺ - كاتماً شيئاً لكم هذه » أى لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعاً كتم شيئاً من الوحي ، لكان في هذه الآية ، ولكنه غير واقع ، بل ممتنع شرعاً .

وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول - ﷺ -
 فالله - تعالى - يخبر عما وقع في نفسه من خشية الناس ، فبلغه كما قال الله -
 تعالى - مع ما تضمنه من لومه ، بخلاف حال الكذاب ، فإنه يتجنب كل ما يمكن أن يكون فيه عليه غضاضة ، ومثل ذلك قوله - تعالى - : (عبس وتولى) إلى آخر الآيات ونظائرها في القرآن .

وقوله : « فكانت زينب تفخر على أزواج النبي - ﷺ - » .

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الفتح ج ٨ ص ٥٢٤ .

الفخر : هو ذكر المحاسن ، وعدّها ، مباهاة بها غيره .

قال الجوهري : « الفخر : الافتخار ، وعد القديم » (١)

فزینب رضی اللہ عنہا - تعتد بأن زواجها برسول اللہ - ﷺ - كان بأمر اللہ له بذلك ، وأنه من أعظم فضائلها ، وأنه لايساويها في ذلك من أزواجه أحد .

قوله « تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى اللہ - تعالى - من فوق سبع سماوات » هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، وهو ثبوت علو اللہ - تعالى - وتقرره لدى المؤمنين ، فهو أمر مسلم به بين عموم المسلمين ، بل بين عموم الخلق إلا من غيرت فطرته ، فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، والعقل ، والفتوة عند كل من لم تنحرف فطرته .

وأما الاستواء على العرش فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، لا بالعقل كما نبه على ذلك شيخ الإسلام (٢) ، وغيره من الأئمة .

ومعنى قولها : « وزوجنى اللہ » أى أمر رسوله بأن يتزوجها بقوله - تعالى - : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها)

وقوله في الرواية الأخرى : « نزلت آية الحجاب ، في زينب بنت جحش » . آية الحجاب هي قوله - تعالى - : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ، إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّه ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ ، فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ، فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) إلى آخر الآية (٣) .

قوله : « وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً » أى صنع وليمة لزواجه بها ، من

(١) الصحاح ج ٢ ص ٧٧٩ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٢٧ .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

الخبز ، واللحم ، وهذا النوع من الطعام هو أعلى ما يملكون في زمنه - ﷺ - .
 قوله : « تقول : إن الله أنكحني في السماء » هو كقولها السابق « وزوجني
 الله من فوق سبع سموات » . وكثير ماتأتى « في » بمعنى على أى إن زواجى صدر
 من الله - تعالى - حيث أمر رسوله به ، والله في السماء .

فإما أن تكون « في » بمعنى على ، أو يراد بالسماء العلو ، وكلاهما صحيح
 مستقيم جاءت به النصوص ، قال - تعالى - : (وأنزلنا من السماء ماء
 طهوراً) (١) وقال - تعالى - : (فليمدد بسبب إلى السماء) (٢) .

« ولما كان مستقراً في نفوس المخاطبين أن الله - تعالى - هو العلى الأعلى ،
 وأنه فوق كل شئ ، كان المفهوم من قوله : « أنه في السماء » أنه في العلو ، وأنه
 فوق كل شئ ولهذا قالت : « من فوق سبع سموات » .

وكذلك الجارية ، لما قال لها النبي - ﷺ - : « أين الله ؟ قالت : في
 السماء » (٣) إنما أرادت ، العلو ، وإذا قيل : العلو ، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات
 كلها ، فما فوقها كلها هو في السماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون هناك ظرف
 وجودى يحيط به ، إذ ليس فوق العالم شئ موجود إلا الله - تعالى - .

وكذلك إذا قيل : العرش في السماء ، فإنه لا يقتضى أن يكون العرش في
 شئ آخر موجود مخلوق ، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك ، كان المراد أنه
 عليها كما قال : (فسيحوا في الأرض) (٤) وقال : (لأصلبنكم في جنوع
 النحل) (٥) وقال : (فسيروا في الأرض) (٦) ويقال : فلان في الجبل ، وفي

(١) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .

(٢) جزء من الآية ١٥ من سورة الحج .

(٣) رواه مسلم وغيره .

(٤) الآية ٢ من سورة براءة .

(٥) جزء من الآية ٧١ من سورة طه .

(٦) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران .

السطح ، وإن كان على أعلى شيء منه . فإن حرف « في » يتعلق بما قبله ، وبما بعده ، فيكون بحسب المضاف إليه .

ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان ، وكون الماء في الإناء ، وكون الوجه في المرآة ، وكون الكلام في الكتاب ، وكون العرش ، والجنة في السماء ، فإن لكل نوع من هذه خاصة يتميز بها عن غيره .

★ ★ ★

٥٠ - قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

* * *

تقدم هذا الحديث في باب قول الله - تعالى - : (ويحذركم الله نفسه) وقد غاير بين سنده هنا وهناك ، وفي متنه بعض الاختلاف ، ففي الرواية المتقدمة « لما خلق الله الخلق » وهنا « إن الله لما قضى الخلق » ، وهناك « كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش » وهنا « كتب عنده ، فوق عرشه » وهناك ، « إن رحمتي تغلب غضبي » ، وهنا ، « سبقت غضبي » .
وقد مضى شرحه ، والمقصود هنا ، قوله : « عنده ، فوق عرشه » هذان ظرفان مختصان بالمكان ، وقد أضيفا إلى الله - تعالى - ، فلا بد أن هذه الإضافة تقتضي تخصيصا للعرش على غيره من السموات والأرض .

« إضافة العرش إلى الله إضافة مخصوصة ، وقد قال - تعالى - : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) (١) فإذا كان العرش مضافا إلى الله في هذه الآية ونحوها إضافة اختصاص ، فذلك بوجب أن يكون بينه وبين الله - تعالى - من النسبة ما ليس لغيره ، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء ، والقدرة ، وغير ذلك أمر مشترك بين العرش ، وسائر المخلوقات » (٢)

ومافى هذا من قوله : « عنده فوق عرشه » . والآيات نحو « ذو العرش » « عرش ربك » ينفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك بين سائر

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) نقض التأسيس ج ١ ص ٥٧٠ - ٥٧٧ .

المخلوقات كما تقوله الجهمية وأتباعهم ، ويوجب اختصاصا للعرش بالله ليس لغيره من سائر المخلوقات وقد علم المسلمون أنه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته ، كما أخبرهم ربهم بذلك ، ونبههم ﷺ .

ومانقله الحافظ عن الخطابي أن معنى « فوق العرش » أى عنده علم ذلك فهو لا ينسأه ، ولا يبده « هو من تخطيات أهل التأويل ، ويقال له : وهل علم الله يختص بهذا الكتاب ، فهو الذى لا ينسأه ، ولا يبده ، وأما سائر الكون فليس عنده علمه أو ينسأه ويبده ؟ إن الأجدى بالخطابي ومن يشتغل بالحديث أن يتبع كلام رسول الله - ﷺ - ولا يحمله على المذاهب الباطلة ، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة ، والحق أن قوله : « عنده فوق عرشه » على ظاهره ، وأن كل تأويل له عن ظاهره ، تبديل للمعنى الذى أراده رسول الله - ﷺ - ، ونحن نؤمن إيماناً يقيناً قاطعاً وكل المؤمنين أن الرسول - ﷺ - أحرص على عقيدة المسلمين ، وعلى تنزيه الله - تعالى - من هؤلاء المحرفين لكلامه . وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم ، وهو كذلك أعلم بالله ، وما يجب له وما يمتنع عليه من هؤلاء المتخطبين .

فهذا كتاب خاص ، وضعه عنده فوق عرشه ، مثبتاً فيه ما ذكر ، لزيادة الاهتمام به ولا ينافى ذلك أن يكون مكتوباً أيضاً فى اللوح المحفوظ .

وهو كتاب حقيقة ، كتبه - تعالى - كما ذكر لنا رسولنا - ﷺ - حقيقة ، وهو عند الله حقيقة ، فوق عرشه حقيقة ، والمقصود أن الله - تعالى - مستو على عرشه على الحقيقة ، وعرشه فوق مخلوقاته كلها عالٍ عليها .

٥١ - قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثني محمد بن فليح ، قال : حدثني أبي ، حدثني هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة - رضى الله - عنه . عن النبي - ﷺ - . قال : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا : يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

* * *

قوله : « من آمن بالله ورسوله » هذا هو الأساس الذى يبنى عليه العمل ، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله أولاً قبل العمل ، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمناً قال الله - تعالى - : (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) (١) .

وقال - تعالى - : (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه) (٢) .

وقد ذكر الله - تعالى - عن رسله الذى أرسلهم إلى الناس أنهم دعوهم إلى الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، وهو معنى قوله - ﷺ - : « أمرت أن أقاتل

(١) الآية ٤٠ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآية ٩٤ من سورة الأنبياء .

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » كما سبق ، وتقدم حديث معاذ ، حين بعثه النبي - ﷺ - إلى اليمن ، وقال له : « فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » الخ

والإيمان بالله - تعالى - يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شيء ، المتصرف كيف يشاء ، وأنه الإله الحق ، الذى يجب أن يعبد وحده ، لا شريك له فى ذلك ، لا ملك ولا نبي ، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته ، وحسنت عبادته .

ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يثبت له ماأثبتته لنفسه ، وأثبتته له رسله ، من غير تحريف ولا تمثيل ، ولا تكييف ولا تعطيل ، بل ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير .

قوله : « وأقام الصلاة » إقامة الصلاة الإتيان بها على وفق أمر الله - تعالى - وأمر رسوله كاملة فى أفضل أوقاتها .

قوله : « وصام رمضان » الصيام فى اللغة : هو الإمساك ، وفى الشرع إمساك مخصوص ، عن أشياء مخصوصة من طلوع الفجر ، إلى غروب الشمس . قال الحافظ : وسقط ذكر الحج . على أحد الرواة ، لأنه قد جاء ذكره فى الترمذى والحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فيجوز أنه اقتصر على ذكر البعض ، لأنه هو المتكرر غالباً ، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال ، بشرطه ، والحج لايجب إلا مرة على التراخي » (١)

والمقصود من الحديث : أن من حصل له الإيمان بالله ، وما يلزم له ، من إيمان برسله ، وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، وبقضاء الله وقدره ، مع التزام ماشرعه الله لعباده من الأمر ، والنهى ، وجاهد فى سبيل الله مع ماذكر استحق دخول الجنة على الله ، ولا بد أن يوفى الله - تعالى - بذلك .

(١) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

قوله : « كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » قد تقدم الكلام على حق العباد على الله في حديث معاذ ، في الباب الأول ، وهو حق أحقه الله - تعالى - على نفسه كما قال - تعالى - : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (١) .

قال الحافظ : « ليس معنى ذلك ، أنه لازم له لأنه لا أمر له ، ولا ناهى يوجب عليه ، ويلزمه المطالبة به ، وإنما معناه إنجاز ما وعد به من الثواب ، وهو لا يخلف الميعاد » (٢) .

قلت : لا يلزم من كونه حقاً واجباً ، أن يكون له أمر وناهى يوجب عليه ذلك بل هو - تعالى - الذى أوجبه على نفسه ، فلا بد من وقوعه ، كما أحب - تعالى - .

قوله : « هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التى ولد فيها » الهجرة في اللغة هى : الترك ، والمفارقة . والمقصود بها هنا : الانتقال ، من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام ، وهى واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة في دينه ، أو منع من ممارسة شعائر دينه ، وإعلانه ظاهراً .

وتكون الهجرة بالنية والقصد ، وتكون باللسان ، وبالبدن .

قال الراغب : « الهجر ، والهجران : مفارقة الإنسان غيره ، إما بالبدن ، أو باللسان ، أو بالقلب . قال - تعالى - : (واهجروهن في المضاجع) (٣) كناية عن عدم قريهن .

وقال - تعالى - : (إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) (٤) فهذا هجر بالقلب واللسان .

وقوله : (واهجروهم هجراً جميلاً) (٥) يحتمل الثلاثة ، وقوله : (والرجز

(١) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .

(٢) الفتح ج ١٣ ص ٤١٣ .

(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٤) الآية ٣٠ من سورة الفرقان .

(٥) الآية ١٠ من سورة المزمل .

فاهجر (١) حث على المفارقة بالوجوه كلها .

والمهاجرة في الأصل ، مصارمة الغير ، ومتاركنه ، من قوله عز وجل :
 (والذين هاجروا وجاهدوا) (٢) وقوله : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من
 ديارهم وأموالهم) (٣) وقوله : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله) (٤)
 وقوله (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله) (٥) فالظاهر منه
 الخروج من دار الكفر ، إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة إلى المدينة » (٦)
 ويدخل في ذلك هجران المعاصي ، والشهوات ، والأخلاق الذميمة ، وجميع
 المعاصي ورفضها واجتنابها .

قال ابن القيم : « وللعبد في كل وقت ، هجرتان إلى الله بالطلب والمحبة ،
 والعبودية والتوكل ، والإنابة ، والتسليم والتفويض ، والخوف والرجاء ، وصدق
 اللجوء . وهجرة إلى رسوله - ﷺ - في حركاته وسكناته ، الظاهرة ، والباطنة
 بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب الله ، ومرضاته ، ولا يقبل الله
 من أحد دنيا سواه » (٧) .

وسبيل الله طاعته ، واتباع أمره ، واجتناب نهيه ، واتباع رسوله - ﷺ -

(١) الآية ٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٤) الآية ١٠٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٨٩ من سورة النساء .

(٦) المفردات ص ٥٣٦ - ٥٣٧ .

(٧) طريق المهجرتين ص ٧ .

قوله : « أو جلس في أرضه التي ولد فيها » وفي رواية « في بيته » ، والمعنى : أنه بقى في بلده يعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية ، وذلك أن الهجرة كانت فرضا على كل قادر ، فلما فتحت مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام ، إلا القليل ، نسخت الهجرة لأجل ذلك ، ولكن حكمها باق إلى يوم القيامة .

قال الحافظ : « فيه تأنيس لمن حرم الجهاد ، وأنه ليس محروما من الأجر ، بل له من الإيمان ، والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة ، وإن قصر ، عن درجة المجاهدين » (١) .

قوله : « فقالوا : يارسول الله أفلا تنبئ الناس بذلك ؟ » رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين ، وتسهيل عظيم عليهم ، في عدم لزوم الهجرة ، فإن ترك الوطن ، والأهل والأقارب ، والمألوفات ، كل ذلك يشق على النفس ، ولا يقوى عليه كل أحد .

قال الحافظ « الذى خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل ، كما في رواية الترمذى ، أو أبو الدرداء ، كما وقع عند الطبرانى ، وأصله في النساء ، لكن فيه ، فقلنا » (٢) .

قوله : « إن في الجنة مائة درجة » جاء في رواية الترمذى ، عن معاذ ، « قلت يارسول الله ألا أخبر الناس ؟ قال : « ذر الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة » (٣) .

فظهر أن المراد : لاتبشر الناس ، بما ذكر ، من دخول الجنة ، لمن آمن ، وعمل الأعمال المفروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد ، وهذه هى النكتة في قوله : « أعدها الله

(١) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

(٢) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

(٣) انظر السنن للترمذى ج ٤ ص ٨٢ .

للمجاهدين» ، وفي هذا تعقب على بعض شراح المصاييح ، في قوله : « سَوَّى النبي - ﷺ - . بين الجهاد في سبيل الله ، وبين عدمه ، وهو الجلوس في الأرض التي ولد فيها ، لأن التسوية ليست على عمومها ، وإنما هي في أصل دخول الجنة ، لا في تفاوت الدرجات » (١)

وهذه الدرجات للمجاهدين في سبيل الله خاصة ، ولا ينفي هذا وجود ، درجات أخر لغير المجاهدين في الجنة ، كما جاء في سنن أبي داود ، والترمذى ، وصححه : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتنق ، ورتل ، كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » (٢) وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ، ومائتان ، وستة آلاف على اختلاف في ذلك .

ولهذا قال : « أعدها الله للمجاهدين في سبيله » . قال ابن القيم : « يجوز أن تكون هذه المائة من جملة الدرج . ويجوز أن تكون نهايتها هذه المائة » (٣) ورجح الأول .

« الجهاد : استفراغ الوسع في مدافعة العدو . وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس » (٤) ، وتدخل كلها في الجهاد في سبيل الله ، ويشملها قوله - تعالى - : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) (٥) ونحوها من الآيات .

(١) الفتح ج ٦ ص ١٢ .

(٢) انظر سنن أبي داود ج ٢ ص ١٥٣ ، والترمذى ج ٤ ص ٢٤٨ ، فضائل القرآن رقم ٢٩١٥ .

(٣) حادى الأرواح ص ٦ .

(٤) المفردات ص ١٠١ .

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة المشقة ، يقال : جهدت جهادا ، بلغت المشقة ، وشرعا : بذل الجهد في قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق .

فأما مجاهدة النفس ، فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ، فتقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق : فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب » (١)

قوله : « كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض » المقصود بالدرجة المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهل الإيمان ، والعمل ، ودرجات الجنة كثيرة ، كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا شك أن كل درجة تختلف عن التي دونها بما فيها من أنواع النعيم ، والحسن .

وهذا التفاوت العظيم في الدرجات لتفاوت أعمال العاملين في الإيمان ، والمقاصد ، والخشية والإخلاص ، والمحبة والإنابة ، والجد ، وكثرة العمل وغير ذلك قال الحافظ : « عند الترمذى : ما بين كل درجتين مائة عام ، وللطبراني خمسمائة عام ، فإن كانتا محفوظتين ، كان اختلاف العدد بالنسبة إلى اختلاف السير ، وفي رواية للترمذى : لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم » (٢).

وقال ابن القيم : لاتناقض ، بين تقدير ما بين الدرجتين ، لاختلاف السير في السرعة ، والبطء ، والنبي - ﷺ - . ذكر هذا تقريبا للإفهام » (٣) .

(١) الفتح ج ٦ فاتحته .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢ - ١٣ .

(٣) حادى الأرواح ص ٦١ .

قوله : « فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس » . الفردوس : اسم يطلق على جميع الجنة ويطلق على أفضلها ، وأعلىها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات .

قال - تعالى - : (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (١)

وقال - تعالى - : (إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) (٢) .

وأصل الفردوس : البستان ، والفراديس : البساتين ، قال الليث : الفردوس : الجنة ذات الكروم ، يقال : كرم مفردس ، أى معرش .

وقال الضحاک : هى الجنة الملتفة بالأشجار ، واختاره المبرد ، وقال : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف ، والأغلب عليه العنب .

وقال مجاهد : هو البستان بالرومية ، واختاره الزجاج ، وقال : حقيقته : البستان الذى يجمع كل ما يكون فى البساتين » (٣) .

وفى اللسان : « الفردوس : البستان ؛ قال الفراء هى عربى ، قال ابن سيدة : الفردوس الوادى الخصيب عند العرب ، وهو بلسان الروم ، البستان » (٤) وذكر نحو ماتقدم

قوله : « فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة » قال الخافظ : « المراد بالأوسط

(١) الآيتان ١٠ و ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الكهف .

(٣) حادى الأرواح ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) لسان العرب ج ٢ ص ١٠٦٩ .

هنا : الأعدل والأفضل : كقوله - تعالى - (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) (١)
فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد .

وقال الطيبي : المراد بأحدهما العلو الحسى ، وبالأخذ العلو المعنوى .

وقال ابن حبان : المراد بالأوسط : السعة ، وبالأعلى الفوقية » (٢) .

قلت : الظاهر أن المراد أن الفردوس ، هو وسط الجنة ؛ وهو أعلاها على
ظاهر النص ، يعنى أن الجنان الأخرى عن جوانبه ، ومن تحته ، وهو أعلاها ،
ويدل على ذلك قوله : « وفوقه عرش الرحمن » فليس فوق الفردوس إلا عرش
الرحمن - جل وعلا ، كما يدل عليه أيضا قوله : « ومنه تفجر أنهار الجنة » لأن
الأنهار عادة تنبع من الأعلى ، والله أعلم .

قوله : « وفوقه عرش الرحمن » هذه الجملة هي المقصود ، من سياق
الحديث لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش ، وليس فوق العرش مخلوق ولكن
الرحمن - جل وعلا - فوقه .

قال ابن خزيمة : « فالخبر يصرح أن عرش ربنا - جل وعلا - فوق جنته ،
وقد أعلمنا - عز وجل - أنه مستور على عرشه ، فخالقنا عال فوق عرشه ، الذى
هو فوق جنته » (٣) .

وذكر بسنده ، عن عبد الله بن مسعود : « قال : ما بين كل سماء إلى
الأخرى ، مسيرة خمسمائة عام ، وما بين السماء والأرض ، مسيرة خمسمائة عام ،
وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي ، إلى
الماء ، مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم
أعمالكم » (٤) .

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٢) الفتح ج ٦ ص ١٣ .

(٣) كتاب التوحيد ص ١٠٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ١٠٥ .

وذكر له طرقا عدة ، وهو صحيح ، ورواه البيهقي ، عن أبي ذر ، مرفوعا قريبا من لفظه (١) .

وعلو الله - تعالى - واستواؤه على عرشه ، مجمع عليه بين الصحابة ، والتابعين وأئمة المسلمين ومن تبعهم ، ولم يخالف فيه إلا من هو متهم على الإسلام أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن .

« وأول من ابتدع القول بأن الله - تعالى - ليس فوق العرش في الإسلام هو الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وشيعتهما ، وهم عند أئمة المسلمين من شرار أهل الأهواء ، وقد أطلق السلف من القول بتكفيرهم ، مالم يطلقوه على أحد وقالوا : نحكى كلام اليهود ، والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية ، كما قال عبد الله بن المبارك ، وقالوا : اتفق المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، على أن الله - تعالى - فوق العرش ، وقالت الجهمية : ليس الله فوق العرش » (٢) .

★ ★ ★

(١) انظر الأسماء والصفات ص ٤٠١ .

(٢) نقض التأسيس ج ١ ص ١٢٧ .

٥٢ - قال : « حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، هو التيمي - عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : « دخلت المسجد ، ورسول الله - ﷺ - جالس ؛ فلما غربت الشمس قال : ياأباذر ، هل تدري أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن في السجود ، فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، ثم قرأ : (ذلك مستقر لها) في قراءة عبد الله » .

* * *

قوله : « أتدري أين تذهب هذه » هذا الأسلوب من التعليم كان النبي - ﷺ - يستعمله مع أصحابه ، وهو من الأساليب التي ترسخ المعلومات في الذهن لأن المستول يبقى بعده يتطلع إلى الجواب ، بإقبال ولطف ، فإذا ورد عليه الجواب وهو بهذه الحال ، ثبت في قلبه ، ورسخ لديه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « ذلك مستقرها » هذا تفسير لقوله - تعالى - : (والشمس تجري لمستقر لها) (١) قال ابن كثير : « فيه قولان : أحدهما أن المراد ، مستقرها المكاني ، وهو تحت العرش مما يلي الأرض ، من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي تحت العرش ، هي وجميع المخلوقات ، لأنه سقفاها ، وليس بكرة ، كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم ، تحملها الملائكة ، وهو فوق العالم ، مما يلي رؤوس الناس . فالشمس إذا كانت في قبة الفلك ، وقت الظهيرة ، تكون أقرب ماتكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع ، إلى مقابلة هذا

(١) الآية ٣٨ من سورة يس .

المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ماتكون من العرش ، فحينئذ تسجد ، وتستأذن في الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث » ثم ذكر هذا الحديث بطرقه ، ثم قال : والقول الثاني : أن المراد بمسقرها هو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتكْوَر ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا مسقرها الزماني « (١) .

قوله : « تستأذن في السجود ، فيؤذن لها » أى تطلب من الله الإذن ، في مواصلة سيرها في حالة سجودها ، فيأذن الله - تعالى - لها ، إلى الوقت الذى تستأذن ثم لا يؤذن لها ، فتبقى في مكانها ، ثم يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، فينعكس سيرها ، حيث تطلع على الناس من المغرب ، ولابد أن تطلع على كل الناس من مغربها ، وعند ذلك يؤمنون ، ولكن لا ينفعهم إيمانهم كما أخبر الله - تعالى - بذلك ، وهذا إيذان بانقضاء هذه الدار .

قال الكرمانى : « القراءة المشهورة المتواترة هي : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وقراءة عبد الله بن مسعود : ذلك مسقرها » (٢) هكذا قال ، والذي في البخارى ، مستقر لها ، ولم يقرأ بها أحد من القراء . قال ابن كثير : « قرأ ابن مسعود ، وابن عباس : (والشمس تجرى لامستقر لها) أى لا قرار لها ، ولا سكون ، بل هى سائرة ليلاً ونهاراً ، لاتفتقر ، ولاتقف » (٣) .

فعلى هذا يكون لابن مسعود فيها قراءتان ، وافقه ابن عباس على إحداها وهما شاذتان .

وقد ذكر البخارى - رحمه الله - هذا الحديث في بدء الخلق ، وفيه « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

(٢) الكرمانى ج ٢٥ ص ٦٣٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٣ .

وسياتى فى آخر الباب بعد هذا ، وفيه ، « قال مستقرها تحت العرش » ، وذكر أيضا هذين اللفظين فى تفسير سورة يس ، وبذلك تظهر مناسبة الحديث للباب فذكره لأجل ما فيه من قوله : « تذهب حتى تسجد تحت العرش » ، وقوله : « مستقرها تحت العرش » فى غير هذه الرواية هنا .

قال الحافظ : « وأخرجه النسائى بلفظ : « تذهب حتى تنتهى تحت العرش ، عند ربه » (١) وهو واضح فى أن سجودها فى أرفع ماتكون ، وأقرب ماتكون إلى العرش . ومعلوم أنها دائم تحت العرش ، ولكن سجودها فى مكان معين من مسيرها وهو دليل واضح على علو العرش ، وارتفاعه العظيم ، وهذا هو مراد البخارى رحمه الله من الحديث ، ومعلوم أن الله - تعالى - فوق العرش كما سبق .

قال الحافظ : « قوله : تحت العرش » قيل : معناه هى حين محاذاتها ، ولا يخالف هذا قوله تعالى : (وجدها تغرب فى عين حمئة) (٢) فإن المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب ، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب . قال - وفى الحديث رد على من زعم أن المراد بمسقرها غاية ماتنتهى إليه فى الارتفاع وذلك أطول يوم فى السنة .

وقيل : مسقرها : منتهى أمرها ، عند انتهاء الدنيا .

وقال الخطابى : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش ، أنها تستقر تحته ، استقرارا لا تحيط به نحن ، وليس فى سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق سيرها ودورانها فيه .

قلت : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه فى كل ليلة ويوم عند سجودها ، ومقابل الاستقرار ، المسير المعبر عنه بالجرى « انتهى » (٣) .

(١) الفتح ج ٨ ص ٥٤١ .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الكهف .

(٣) الفتح ملخصا ج ٨ ص ٥٤٢ .

وقال أيضا : « وظاهر الحديث أن الشمس هي التي تسير ، وتجرى .

وقال ابن العربي : أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم ، ولأمانع من أن تخرج عن مجراها ، فتسجد ثم ترجع .

قلت : إن أراد بالخروج ، الوقوف فواضح ، وإلا فلا دليل على الخروج «

ا هـ (١)

قلت : وكونها تسجد تحت العرش ، لا يقتضى ، مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض ، فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض ، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها .

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما يترتب على مسيرها ، فربما يقول قائل أين سجودها تحت العرش ؟ ومتى يكون ؟ وسيرها مستمر ، وبعدها عن الأرض لا يختلف في وقت من الأوقات ، كما أن سيرها لا يتغير كما هو مشاهد .

والجواب : أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، كما أخبر به الصادق المصدوق ، وهي طالعة على جانب من الأرض ، مع سيرها في فلكها ، وهي دائما تحت العرش ، في الليل والنهار ، بل وكل شيء من المخلوقات تحت العرش ، ولكنها في وقت من سيرها ، وفي مكان معين ، يحصل سجودها ، الذى لا يدركه الخلق ، ولكن علم بالوحى ، وهو سجود حقيقى ، يناسبها على ظاهر النص .

أما التسخير : فهي لا تنفك عنه أبدا . والله أعلم .

قال شيخ الإسلام : « فإذا كان النبى - ﷺ - قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار ، مع كون سيرها في

فلكها من جنس واحد ، وأن كونها تحت العرش لا يختلف في نفسه ، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة ، علم أن تنوع النسب ، والإضافة لا يقدر فيما هو ثابت في نفسه لا يختلف » (١) .

يعنى أن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن في الأرض ، فهى تطلع على جانب منها وتغرب عن جانب آخر ، مع أن سيرها في فلکها ليس فيه هذا الاختلاف ، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار ، لأن هذا الاختلاف يكون بالنسبة إلى من في الأرض ، وبالإضافة إليهم ، أماهى فسجودها في مكان معين من سيرها ، وفي وقت معين لا يختلف .

ثم قال رحمه الله - : « ومن هنا يظهر الجواب عما ذكره ابن حزم ، وغيره في حديث النزول (٢) ، حيث قالوا : قد ثبت أن الليل يختلف بالنسبة إلى الناس ، فيكون أوله ونصفه ، وثلثه بالشرق قبل أوله ، ونصفه ، وثلثه بالمغرب ، قالوا : فلو كان النزول هو النزول المعروف ، للزم أن ينزل في جميع أجزاء الليل ، إذ لا يزال في الأرض ليل ، قالوا : أو لا يزال نازلا ، وصاعدا ، وهو جمع بين الضدين .

وهذا إنما قالوه لتخليهم من نزوله - تعالى - مايتخيلونه من نزول أحدهم ، وهذا عين التمثيل ، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم ، الذى لا يمكنه أن يجمع من الأفعال مايعجز غيره عن جمعه .

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة ، كل منهم يراه مخليا به ، ويناجيه ، لا يرى أنه متخليا لغيره ، ولا مخاطبا لغيره » (٣)

وسأأتى إن شاء الله - تعالى - إيضاح الرد على شبههم هذه وغيرها في

(١) بيان تلبيس الجهمية ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) سأتى شرحه إن شاء الله تعالى ، وهذا الكلام محله شرح حديث النزول ، ولكن لشدة ارتباطه بما ذكر في سير الشمس أحببت إثباته هنا .

(٣) بيان تلبيس الجهمية ج ٢ ص ٢٢٨ .

شرح الحديث . وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر - رضى الله عنه - « قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن قول الله - تعالى - : « والشمس تجري لمستقر لها » ؟ قال : « مستقرها تحت العرش » (١)

وهذا يعين المقصود بالمستقر ، وأنه الموضع الذى تسجد فيه لربها ، وتستأذن بمواصلة سيرها ، وأن هذا يكون كل ليلة بالنسبة إلينا ، ويجوز أن يكون بالنهار بالنسبة لغيرنا كأمریکا مثلاً .

وقد روى مسلم هذا الحديث مبسوطاً مبيناً حيث قال : بعد ذكر السند « عن أبي ذر - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال يوماً : « أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى . ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة ، من مطلعها ، ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، ولا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهى إلى مستقرها ، تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعى ، أصبحت طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها . فقال رسول الله ﷺ - : « أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٢) .

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أن الشمس والقمر يسجدان له تعالى فقال : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر » (٣)

★ ★ ★

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩ .

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٨ ، وانظر شرح النووى ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

٥٣ - قال : « حدثنا موسى ، عن إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد الله بن السباق ، أن زيد بن ثابت .

وقال الليث : حدثني عبد الرحمن بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن ابن السباق ، أن زيد بن ثابت حدثه ، قال : أرسل إلى أبو بكر ، ففتبعت القرآن ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره . (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) (١) حتى خاتمة براءة » .

* * *

زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوزان ، النجاري ، الأنصاري ، أبو سعيد ، ويقال أبو خارجة ، قدم النبي - ﷺ - المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وكان يكتب الوحي ، قال الشعبي : غلب زيد الناس على اثنتين ، الفرائض ، والقرآن . وكان أحد أصحاب الفتوى من الصحابة .

وقال مسروق : قدمت المدينة ، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم . وفضائله كثيرة ، توفي سنة ٤٨ وقيل ٥١ ، وقيل ٥٥ وقيل غير ذلك » (٢)

ومقصود البخاري - رحمه الله - من هذا الحديث . هو ذكر العرش في الآية الكريمة حيث قال تعالى : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) (٣) .

(١) الآية ١٢٨ من سورة براءة .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٩٩ .

(٣) آخر آية من سورة براءة .

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله تعالى - : « يقول - تعالى ذكره - : فإن تولى ، يا محمد ، هؤلاء الذين جئتكم بالحق ، من عند ربك ، من قومك ، فأدبروا عنك ، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله ، ومادعوتهم إليه ، من النور والهدى ، فقل حسبى الله ، يكفينى ربي ، لا إله إلا هو » لامعبود ، سواء « عليه توكلت » وبه وثقت ، وعلى عونه اتكلت وإليه وإلى نصره استندت ، فإنه ناصرى ، ومعينى ، على من خالفنى ، وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس ، « وهو رب العرش العظيم » الذى يملك ما دونه ، والملوك كلهم ممالئكه ، وعبيده .

وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم - الخبر عن جميع مادونه أنهم عبيده ، وفى ملكه ، وسلطانه ، لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه المالك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه فى سلطانه ، وملكه ، جار عليه حكمه وقضاؤه « (١) .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شئ ، وخالقه ، لأن العرش العظيم ، الذى هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين ، وما فيهما وما بينهما ، تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شئ ، وقدره نافذ فى كل شئ ، وهو على كل شئ وكيل « (٢) .

وثبت عن أنى بن كعب - رضى الله عنه - أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن (٣)

وقد تقدم أن تخصيصه - تعالى - العرش بأنه ربه ، وإضافته إليه - تعالى - يدل على أمر زائد على ما فى المخلوقات غيره ، من السماوات والأرض بأنه ربه .

(١) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٧٧ - ٧٨ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٧٩ - ١٨٠ ط الشعب .

(٣) انظر المصدرين المذكورين هنا .

وكذلك وصفه إياه بأنه عظيم وكريم ، ومجيد ، وهذه الأوصاف ، والإضافة لم تأت في غير العرش من المخلوقات ، وهذا لأنه تعالى اختاره لقربه ، واستوائه عليه .

قوله : « حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أى خزيمية الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره » يعنى أنه ماوجدها مكتوبة ، مثبتة بالكتابة ، إلا عند أى خزيمية .

وليس معنى ذلك أنه لم يحفظها إلا أى خزيمية ، فإن زيدا وأبياً ، وأبا بكر ، وغيرهم من الصحابة كانوا يحفظون القرآن كله ، وهو يريد من كتبها عن الرسول ﷺ بدون واسطة .

قال الحافظ : « قوله : لم أجدها مع أحد غيره » أى مكتوبة ، لما تقدم من أنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة .

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبى - ﷺ - وإنما زيد كان يطلب الثبوت عن تلقاها بغير واسطة .

ولعلمهم لما وجدها زيد عند أى خزيمية تذكروها ، كما تذكرها زيد ، وفائدة التتبع المبالغة فى الاستظهار ، والوقوف عند ماكتب بين يدى النبى ﷺ .

قال الخطائى : هذا مما يخفى معناه ، ويوهم أنه كان يكتفى فى إثبات الآية بخبر الشخص الواحد ، وليس كذلك ، فقد اجتمع فى هذه الآية زيد بن ثابت ، وأبو خزيمية ، وعمر .

ثم علق الحافظ على كلام الخطائى بقوله :

« وكأنه ظن أن قولهم : لا يثبت القرآن بخبر الواحد ، أى الشخص الواحد ، وليس كما ظن ، بل المراد بخبر الواحد ، خلاف التواتر ، فلو بلغت رواية

الخبر عددا كثيرا وفقد شيئا من شروط المتواتر (١) ، لم يخرج عن كونه خبرا لواحد .

والحق أن المراد بالنفى ، نفي وجودها مكتوبة ، لانفى كونها محفوظة (٢) ثم ذكر أحاديث تؤيد ما قال .

وقال في موضع آخر : « والذي يظهر أن الذى أشار إليه أنه فقده ، فقد وجودها مكتوبة ، لافقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده ، وعند غيره ، ويدل على هذا قوله : في حديث جمع القرآن « فأخذت أتتبعه ، من الرقاع والعسب » (٣)

وقال أيضا : « والأرجح أن الذى وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمه بالكنية والذى وجد معه الآية من سورة الأحزاب خزيمه ، وأبو خزيمه ، قيل : هو ابن أوس بن يزيد بن أحرم ، مشهور بكنيته ، دون اسمه ، وقيل : هو الحارث بن خزيمه ، وأما خزيمه ، فهو ابن ثابت ذو الشهادتين » (٤) .

★ ★ ★

(١) من كون الناقلين عددا كثيرا ، يمتنع تواطعهم على الكذب ، من أول السند إلى نهايته .

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ١٥ .

(٣) الفتح ٨ ص ٥١٨ .

(٤) الفتح ج ٩ ص ١٥ .

٥٤ - قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان النبي - ﷺ - يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العليم الخليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ، ورب الأرض ، ورب العرش الكريم » .

* * *

قوله : « يقول عند الكرب » الكرب بفتح الكاف ، وسكون الراء ، قال الأزهرى : « هو الغم الذى يأخذ بالنفس ، يقال كربه الغم ، وإنه لمكروب النفس ، والكربة الاسم ، والكريب : المكروب » (١) .

وقال الجوهري : « الكربة بالضم : الغم الذى يأخذ بالنفس ، وكذلك الكرب ، على مثال الضرب ، تقول منه : كربه الغم ، إذا اشتد عليه ، والكرائب ، الشدائد الواحدة كربية » (٢) .

قوله : « كان يقول عند الكرب » كان ، تدل على كثرة وقوع ذلك منه ﷺ - لأن لفظه « كان » تدل على الاستمرار غالبا .

وقوله : « لا إله إلا الله » الإله هو المعبود الذى تأله القلوب ، وتذل له وتحيه ، وتعظمه وتخافه ، وترجوه ، فالإله هو الذى يقصد بالخوف ، والرجاء ، مع الذل والتعظيم ، وكلما زاد الخوف والرجاء ، والذل ، والتعظيم ، صارت العبادة أكمل .

(١) تهذيب اللغة ج ١٠ ص ٢٠٥ .

(٢) الصحاح ج ١ ص ٢١١ .

قال شيخ الإسلام : « الإله هو الذى يؤله ، فيعبد ، محبة وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما » (١)

فقوله : « لا إله إلا الله » أى لا أتوجه بقلبي عابدا وخاضعا ، متذلا ، خائفا راجيا إلا إلى الله وحده ، فهو إلهى ، ومعبودى ، الذى يملك نفعى ، وضرى ، وبإخلاص التأله له كمال حياتى ، وسعادتى ، وفى عدم ذلك الشقاء والهلاك .

« فالعبد كلما كان أذل لله ، وأعظم افتقارا إليه ، وخضوعا له ، كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره عنده ، فأساعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى . فأما المخلوق فكما قيل : احتج لمن شئت تكن أسيره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره ، وأحسن لمن شئت تكن أميره .

فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم ولو بشرية ماء ، نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ، ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، لا يشرك به شئ . والرب تعالى أكرم ماتكون عليه أحوج ماتكون إليه ، وأفقر ماتكون إليه وهو - تعالى - يعلم ما يصلح عبده ، ويقدر على ذلك ، ويريد ، رحمة منه وفضلا ، وذلك صفته من جهة نفسه ، لاشئ آخر جعله مريدا ، راحما ، بل رحمته من لوازم نفسه ، فإنه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شئ » (٢)

قوله : « العليم الخليم » أى هو تعالى العليم بكل شئ ، فيعلم حالى وما نزل به ، ويعلم أسبابه ، وما يترتب عليه ، لا يخفى عليه خافية ، فعلمه محيط بكل شئ .

(١) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٢٢ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ١ ص ٣٩ - ٤٠ .

وهو تعالى حلیم لا یعجل بالعقوبة ، لمن یستحقها ، بل یعفو ، ویتجاوز ، وحلمه عن علم وحكمة ، فله تعالى الكمال المطلق ، قال تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما یقولون إذا لا یبتغوا إلى ذی العرش سیبلا ، سبحانه وتعالى عما یقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فیهن ، وإن من شیء إلا یسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبیحهم إنه كان حلیمًا غفورًا) (١) وكثیراً ما یأتی وصفه - تعالى - بالحلم مقرونا بالمغفرة ، مما یدل على أن الحلم هو عدم المعاجلة لمن استحق العقوبة ، وأنه تعالى یحلم على عباده ، ویغفر لهم جرائمهم ، ولهذا أخبر - تعالى - أنه لو یؤاخذ الناس بظلمهم ، وما كسبت أیدیهم ماترك على ظهر الأرض من دابة ، قال تعالى : (ولو یؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك علیها من دابة) (٢) .

قوله : « لا إله إلا الله رب العرش العظيم » كرر التوسل بإلهيته تعالى ، والتبریء من كل ماسواه من مألوه ، وهذا أعظم الوسائل إلى الله - تعالى - ، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله بصدق ، ورغبة ، ورهبة .

ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده ، مفرع جميع العقلاء من المؤمنین والكفار ، فی كل كرب وشدة ، كما ذكر الله تعالى هذا المعنى عن السابقین من الكفار ، وغيرهم من أهل الإيمان .

قال تعالى : (قل من ینجیکم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاکرین ، قل الله ینجیکم منها ومن كل

الآیات من ٤٢ - ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .

كرب ثم أنتم تشركون (١) وقال تعالى عن الطاغية الجبار : (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) (٢)

وقال تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه) (٣) ، وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) (٤) وهذا كثير في القرآن ، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك .

قوله : « لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم » هذا تكرير للتوسل إلى الله تعالى بألوهيته وربوبيته ، فبدأ بما يدل على إخلاص التأله له تعالى ، ثم توسل باسميه الكريمين العليم والحليم ، ثم بأنه رب العرش العظيم ، ثم بأنه رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم .

فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله تعالى بأنواع التوحيد الثلاثة ، توحيد الإلهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

والربوبية نوعان : عامة ، وخاصة ، فهو تعالى رب كل شيء ومليكه ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وهو القائم على كل مخلوق بما يصلحه ، ويربيه ، « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وقد جمع النوعين في هذا الحديث ، فتوسل بأنه رب العرش العظيم ، الكريم وبأنه رب السماوات والأرض ، والرب هو المالك المتصرف ، القائم على كل مربوب بما يحتاجه من تربية في شئون حياته كلها .

والمقصود من الحديث قوله : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش

(١) الآيتان ٦٣ و ٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس .

(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

الكريم » وكلاهما وصف للعرش ، وصفه بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، والعظمة تدل على الكبر . والسعة ، والكرم يدل على الحسن ، والجمال ، والسعة أيضا .

قال الكرمانى : « وصف العرش بالعظمة ، هو من جهة الكمية ، وبالكرم أى الحسن من جهة الكيفية ، فهو ممدوح ذاتاً وصفة ، وخص بالذكر لأنه أعظم أجسام العالم ، فيدخل الجميع تحته ، دخول الأذى ، تحت الأعلى ، وذكر لفظ الرب من بين سائر الأسماء الحسنى ليناسب كشف الكروب ، الذى هو مقتضى الترية ، ولفظ « الحليم » لأن كرب المؤمن غالباً إنما هو على نوع تقصير أو غفلة فى الطاعات » (١)

وربوبيته تعالى للعرش ، مع وصفه بأنه عظيم ، وكريم تفيد تخصيصاً له عن غيره من السماوات والأرض ، وذلك لأنه قد خصه بقربه ، واستوائه تعالى عليه ذكر شيخ الإسلام ، عن أبى عمرو الظلمنكى - وهو من أئمة أهل السنة - أنه قال : « وأجمعوا - يعنى أهل السنة والجماعة - على أن لله عرشاً ، وعلى أنه مستوٍ على عرشه ، وعلمه ، وقدرته ، وتدييره بكل ما خلقه .

قال : فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) (٢) ونحو ذلك فى القرآن أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه ، كيف شاء .

قال : وقال أهل السنة فى قوله : (الرحمن على العرش استوى) (٣) : الاستواء من الله تعالى على عرشه المجيد ، على الحقيقة ، لا على المجاز .
واستدلوا بقول الله - تعالى - (فإذا استويت أنت ومن معك على

(١) شرح الكرمانى على البخارى ج ٢١ ص ١٤٩ .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

الفلك) (١) ويقولوه (لتستووا على ظهوره) (٢) ، ويقولوه : (واستوت :بلى الجودى) (٣) إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات فى هذا على أقوال .

فقال مالك - رحمه الله تعالى - : إن الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال عبد الله بن المبارك ، ومن تابعه من أهل العلم ، وهم كثير : إن معنى استوى على العرش : استقر ، وهو قول القتيبي .

وقال غير هؤلاء : استوى : أى ظهر .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : استوى بمعنى علا .

وتقول العرب : استويت على ظهر الفرس ، بمعنى علوت عليه ، واستويت على سقف البيت ، بمعنى علوت عليه .

ويقال : استويت على السطح بمعناه .

فقلوه تعالى : (استوى على العرش) بمعنى علا على العرش .

وقول الحسن (٤) وقول مالك من أنبل جواب وقع ، فى هذه المسألا ، وأشده استيعاباً لأن فيه نيد التكييف ، وإثبات الاستواء المعقول ، وقد ائتم أمل العلم بقوله واستجوده ، واستحسنوه « (٥) .

ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى ، وقد مضى ما يبنى عن ذكره .

(١) الآية ٢٨ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٤) الحسن يقول معنى استوى : ارتفع .

(٥) إلى هنا ينتهى كلام الظلمكى .

ثم قال : « وقال الثعلبي : قال الكلبي ، ومقاتل : « ثم استوى على العرش » يعني استقر ، قال : وقال أبو عبيدة : صعد .

وقيل استولى ، وقيل ملك ، واختار هو (١) ماحكاه عن الفراء ، وجماعة أن معناه أقبل ، على خلق العرش ، وعمد إلى خلقه ، قال : ويدل عليه قوله : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (٢) أى عمد إلى خلق السماء .

وهذا من أضعف الوجوه (٣) فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات ، والأرض ، وكما مر في حديث عمران : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السماوات ، والأرض » .

فإذا كان العرش مخلوقا ، قبل خلق السماوات والأرض ، فكيف يكون معنى استوائه عليه ، بعد خلق السماوات والأرض ، هو عمدته إلى خلقه ، مع أنه لا يعرف في اللغة « استوى » بمعنى عمد إلى فعل كذا ، لاحقيقة ، ولا مجازا ، لا في النثر ، ولا في النظم .

ومن قال : استوى ، بمعنى عمد ، ذكره في قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (٢) لأنه عدى بحرف الغاية ، كما يقال : عمدت إلى كذا ، وقصدت إلى كذا ، ولا يقال : عمدت على كذا ، ولا قصدت عليه ، مع أن هذا أيضا غير معروف في اللغة ، ولا هو قول أحد من مفسري السلف ، بل المفسرون من السلف ، بخلاف ذلك .

(١) يعنى الثعلبي وهذه الأقوال منقولة من تفسيره ، وهو يجمع فيه بين المتناقضات وليس لديه تمييز لمذهب السلف .

(٢) الآية ١١ من سورة حم فصلت .

(٣) بل هو باطل مخالف للنصوص الواضحة ، وقد تقدم بيان بطلانه . وهذا الذى اختاره الثعلبي هو قول الجهمية والمعتزلة ، ومن تبعهم من الأشعرية وغيرهم من أهل البدع .

وإنما هذا القول ، وأمثاله ابتدع في الإسلام ، لما ظهر إنكار أفعال الرب تعالى - التي تقوم به ، ويفعلها بقدرته ، ومشيتته ، واختياره ، فصار كل يفسر القرآن على ما يوافق قوله ، واعتقاده .

وأما السلف فأقوالهم في هذا الباب متفقة ، وإن اختلفت عباراتهم ، فمقصودهم واحد ، وهو إثبات علو الله واستواؤه على عرشه .

فإن قيل : إذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات ، فكيف يقال : ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان ؟ أو يقال : ثم علا على العرش ؟ .

فالجواب : أن هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد ، وروى : ثم يعرج وكما أخبر أنه يجيء لفصل القضاء بين عباده ، وهو سبحانه لم يزل فوق ، فإن صعبه من جنس نزوله ، ومجيئه ، وهو تعالى في نزوله ومجيئه ، لا يصير شيء من المخلوقات فوقه ، فهو سبحانه يصعد ، وإن لم يكن منها شيء فوقه .

فإن قيل : فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، فقبل ذلك هل كان على العرش ، أو لم يكن ؟

قيل : الاستواء علو خاص ، فكل مستو على شيء عال عليه ، وليس كل عال على شيء مستو عليه ، ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره أنه مستو عليه . ولكن كل ما قيل : إنه استوى على كذا فهو عال عليه .

والذي أخبر الله - تعالى - أنه كان بعد خلق السماوات والأرض ، الاستواء ، لا مطلق العلو ، مع أنه يجوز أنه كان مستويا عليه قبل خلق السماوات والأرض ، لما كان عرشه على الماء ، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا على العرش ، ولم يكن مستويا عليه ، ثم استوى عليه بعد ذلك (١) .

والأصل أن علوه على المخلوقات ، وصف لازم له كما أن عظمته ، وكبريائه

(١) أو يقال إن الاستواء بعد خلق السماوات والأرض ، استواء خاص غير الذي

وقدرته كذلك ، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه بمشيئته ، وقدرته ولهذا قال فيه : ثم استوى « (١) .

وقال ابن عبد البر : « وأما ادعائهم المجاز في الاستواء ، وقولهم في تأويل استوى : استولى .

فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر في اللغة ، ومعنى الاستيلاء في اللغة : المغالبة ، والله لا يغالبه ، ولا يعلوه أحد ، وهو الواحد الصمد .

ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله - عز وجل - إلى الأشهر ، والأظهر من وجوهه ، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم .

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ، ما ثبت شيء من العبارات ، وجل الله عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها ، وهو العلو ، والارتفاع ، على الشيء ، والاستقرار واتمكن فيه « (٢) .

وقد تقدم ذكر بعض ما قاله السلف والأئمة في ذلك ، في أول الباب ، والجواب عما اعتمده أهل التأويل .

★ ★ ★

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٥١٩ - ٥٢٣ ببعض التصرف .

(٢) التمهيد ج ٧ ص ١٣١ .

٥٥ - قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وآله - قال النبى : « يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة ، من قوائم العرش » .

★ ★ ★

٥٦ - « وقال الماجشون : عن عبد الله بن الفضل ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى - صلى الله عليه وآله - قال : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش »

* * *

« الصعق : غشى يلحق من يسمع صوتا شديدا أو يرى شيئا هائلا مفزعا » (١) وفي الأبي : « الصعق ، والصعقة ، والصاعقة ، والهلاك ، والموت ، وقيل : كل عذاب مهلك ، وهو أيضا : الغشية تعترى من فرع لسماع صوت [مفزع أو رأى مهولا] » (٢) وقد اختلف في هذا الصعق المذكور في هذا الحديث ، أهو نفخة الصور للبعث ، أو غيرها .

فقيل : إنها نفخة البعث ، لأن النفخة الأولى ، لا يحس بها الأموات ، وإنما هى لموت من كان حيا ، وإنهاء الدنيا ، وابتداء الآخرة .

ولكن يشكل على هذا قوله - صلى الله عليه وآله - « فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة الطور » ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات ، فلا يجوز أن يكون المعنى : « فلا أدري هل موسى مات ، أم جوزى عن الموت بصعقة الطور » . وقد اختلف في النفخ في الصور هل هو مرتان أو ثلاث .

(١) الفتح ج ٦ ص ٤٤٤ .

(٢) شرح الأبي على مسلم ج ٦ ص ١٦٧ .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى : (وله الملك يوم ينفخ في الصور) (١) :

اختلف في الصور في هذا الموضع .

فقال بعضهم : هو قرن ينفخ فيه نفختان ، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض ، والثانية لنشر كل ميت ، واعتلوا لقولهم ذلك ، بقوله : (ونفخ في الصور ، فصعق من في السماوات ، ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) (٢) (٣)

وقال على قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) (٤)

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله : (فإذا نفخ في الصور) من النفختين ، أيهما عنى بها ؟ فقال بعضهم : « عنى بها النفخة الأولى » . ثم ذكر عن ابن عباس : قال : فذلك في النفخة الأولى ، فلا يبقى على الأرض شيء وروى ذلك أيضا عن السدى .

ثم ذكر القول الثاني : أن المراد بذلك النفخة الثانية ، وروى ذلك عن ابن مسعود وغيره « (٥)

وهذا الذى ذكره الطبرى - رحمه الله - يدل على أن النفخ في الصور مرتين . الأولى لموت من كان حياً على وجه الأرض ، والثانية ، لبعث الموتى . وعليه يكون الإشكال في الحديث ظاهراً ، وسيأتى ذكر ألفاظ الحديث في البخارى ومسلم .

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر .

(٣) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٦٢ بتحقيق محمود شاكر .

(٤) الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .

(٥) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٥٤ ط الحلبي .

وقد أجاب القرطبي عن الإشكال بقوله : « المعنى فلا أدري أبعثه الله قبله ؟ تفضيلاً له ، من هذا الوجه ، كما فضل بالدنيا بالتكليم أو كان جزءاً له بصعقة الطور قدم بعثه على بعث الأنبياء ، الآخرين ، بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل » (١)

فعلى هذا يكون المعنى في قوله : « أو جوزى بصعقة الطور » أى قدم بعثه على جزء له بما حصل من صعقته في الطور ، وهذا غير صحيح لأمر عدة .
 منها أن الحديث على هذا يصبح فيه تكرار لا معنى له ، إذ يكون المعنى على قول القرطبي « فلا أدري أبعث قبل ؟ أم جوزى ببعثه قبل بصعقة الطور » .
 ومنها أن ظاهر الحديث يرد هذا ، لأن قوله : « فلا أدري أبعث قبل ؟ أم جوزى بصعقة الطور ؟ » ظاهره ، فلا أدري أصعق فبعث قبل أم أنه لم يصعق ، وإنما جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، ولهذا لم يقتنع القرطبي بهذا الجواب فذكر جواباً آخر سيأتي ثم قال :

« وقال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبي - ﷺ - يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية ، نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولهذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى - عليه السلام - ممن لم يميت من الأنبياء ، وهذا باطل بما صح من النصوص بذكر موته .

قال : وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع ، بعد النشر حين تنشق السماوات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات ، والله أعلم .

ثم قال : قال شيخنا أبو العباس : وهذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه

(١) التذكرة ج ١ ص ٢٠٨ ، وهو أخذ هذا عن الحلبي كما في المنهاج ، انظر الورقة ٢١٤ من المخطوطة وانظر المطبوع ج ١ ص ٤٣٢ .

السلام حين يخرج من قبره يلقي موسى ، وهو متعلق بالعرش ، وهذا عند نفخة البعث .

قلت : وسيأتى ما يوضح ذلك في روايات الحديث التي أذكرها إن شاء الله .

ثم قال : « قال شيخنا أحمد بن عمر : والذي يزيح هذا الإشكال ، إن شاء الله - تعالى - أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال ، إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم ، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ، مستبشرين . وهذه صفة الأحياء في الدنيا .

وإذا كان هذا في الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق ، وأولى ، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق ، صعق كل من في السماوات ، والأرض ، إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء ، فموت ، وأما صعق الأنبياء ، فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور ، نفخة البعث ، فمن مات ، حيا ، ومن غشى عليه أفاق » (١)

قلت : وحاصل هذا الجواب ، أن الصعقة المذكورة في الحديث هي الأولى ، وأن الصعق يكون للأرواح ، وكل ذلك باطل ، لأنه سيأتى أن الحديث ينص على أنها نفخة البعث ، ومعلوم أن الأرواح لاتموت ، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موت مع أنه زعم أن الصعق للأرواح ، وكل ذلك يفتقر إلى دليل ، والأدلة خلافه .

ولهذا قال ابن القيم : « وحمل الحديث على هذا ، لا يصح ، لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله ، أو لم يصعق ، بل جوزى بصعقة الطور .
فالمعنى : لا أدري أصعق أم لم يصعق .

وقد قال في الحديث : « فأكون أول من يفيق » . وهذا يدل على أنه - ﷺ - يصعق فيمن يصعق ، وأن التردد حصل في موسى ، هل صعق وأفاق قبله من صعقته ، أو لم يصعق .

ولو كان المراد به ، الصعقة الأولى ، وهي صعقة الموت ، لكان ﷺ قد جزم بموته ، وتردده هل مات موسى ، أو لم يموت ، وهذا باطل ، لوجوه كثيرة . فعلم أنها صعقة فرع ، لاصعقة موت ، والآية لا تدل على أن الأرواح كلها تموت ، عند النفخة الأولى ، وإنما تدل على أن من لم يذوق الموت قبلها يموت ، وأما من مات ، أو من لم يكتب عليه الموت ، فلا يموت ^(١) .

وقال السفاريني : « وصعق الأرواح عند النفخ في الصور ، لا يلزم منه موتها . ففي الصحيحين : « أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أم جوزى بصعقة يوم الطور » ؟

فهذا صعق في موقف القيامة ، إذ جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ ، يصعق الخلائق كلهم ، قال تعالى : (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) ^(٢) .

ولو كان هذا الصعق موتا ، لكانت موتة أخرى ^(٣) ثم ذكر كلام ابن القيم السابق . وقال ابن القيم بعد ما قرر أن هذا الصعق المذكور ، إنما هو في الموقف ، إذا جاء رب العالمين - جل وعلا - لفصل القضاء بين عباده .

قال : « فإن قيل : فكيف تصنعون بقوله في الحديث : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش » ؟ قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوى ، حديث في حديث ، فركب بين اللفظين ، فجاء هكذا والحديثان هكذا أحدهما :

(١) الروح ص ٣٦ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة الطور .

(٣) لواعع الأنوار البهية ج ٢ ص ٣٨ .

« أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق »

والثانى : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، يوم القيامة » . فدخل على الراوى هذا الحديث ، فى الحديث الآخر ، وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يقول : ذلك « (١)

قلت : وهذا احتمال بعيد جداً . ويحتاج إلى دليل ، ولا وجود له إذ لا يجوز تخطئة الراوى بمجرد إشكال يعرض للإنسان فى لفظ الحديث ، فما قال ابن القيم رحمه الله هنا غير صحيح ، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث .

فلفظ حديث أبى سعيد فى البخارى : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى ، آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى ، أكان فىمن صعق ؟ أم حوسب بصعقة الأولى » (٢) ثم رواه فى أماكن متعددة من صحيحه بألفاظ متقاربة ، ليس فيها فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، إلا فى هذا الموضع .

ولكن فى رواية أبى هريرة : أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تفضلوا بين أولياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » (٣)

قال الحافظ : « وقع فى رواية إبنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية » وفى أخرى « إبنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة » (٤)

ورواه فى التفسير بسند آخر ، مختصراً ، ولفظه : « إبنى أول من يرفع

(١) الروح ص ٣٧ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح ج ٥ ص ٧٠ .

(٣) انظر الفتح ج ٦ ص ٤٥١ .

(٤) الفتح ج ٦ ص ٤٤٤ .

رأسه ، بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى ، متعلق بالعرش ، فلا أدري ، أكذلك كان ، أم بعد النفخة » (١) ثم ذكره معلقا ، فى الموضوع نفسه بلفظ : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش » ورواه مسلم ، ولفظه : « لاتفصلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، قال ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، أو فى أول من بعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور ، أو بعث قبلى ؟ » .

ثم رواه بسند آخر - وفيه « فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق » (٢) .

وأما حديث أبى سعيد المتقدم ، فى ذكر الانشقاق ، فقد رواه أيضا الإمام أحمد : فقال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبىه ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا تخيروا بين الأنبياء ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأفوق ، فأجد موسى متعلقا بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أجزى بصعقة الطور ، أو أفاق قبلى » (٣)

وذكر الحافظ أن فى رواية محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة - عند ابن مردويه - « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأنفض التراب عن رأسى ، فأتى قائمة العرش فأجد موسى قائما عندها ، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » (٤)

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية فى الصور ، فإن قوله فى رواية أبى هريرة : « فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات

(١) الفتح ج ٨ ص ٥٥١ .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٨٤٤ - رقم ٢٣٧٣ .

(٣) المسند ج ٣ ص ٣٣ .

(٤) الفتح ج ٦ ص ٤٤٥ .

ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بالعرش « وفي الرواية الأخرى : « إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش » ، وفي أخرى « إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية »

وفي رواية مسلم « ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث » .
فهذا واضح وصریح ، في أن المقصود البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية ، وبه يتبين أن مقاله القرطبي وغيره مما سبق ذكره ، وكذا ماذهب إليه ابن القيم كله غير صحيح كما سبق ، وكذا قول الحلبي في المنهاج : « أن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشي يوم القيامة ، لاصعقة الموت ، الحادث عن نفخ الصور » (١) مردود بما صرح به الروايات المذكورة .

فالصواب ما نصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا - ﷺ - وأما ترده أصابه الصعق فبعث قبله ، أو كان ممن استثنى الله تعالى ، أو جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، كل ذلك يقتضى أنه بعث قبله .

ولكن يبقى الإشكال في أن النفخة التي استثنى الله تعالى منها هي الأولى . ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها ، فكيف يصح استثناءه منها ؟

فيقال ، وكذا نبينا ﷺ وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك ، وإنما ينال من كان حياً في ذلك الوقت ، ويكون الأقرب مقاله الحلبي : « أن المعنى إذا نفخ في الصور مرة أخرى ، كنت أول من بعث ، فأجد موسى مبعوثاً قبلي ، فلا أدري أفضل بذلك على سائر الخلق ، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور » (٢)

(١) انظر المنهاج المخطوط ورقة ٢١٤ . وانظر المطبوع ج ١ ص ٤٣٢ وهو كثير التحريف .

(٢) انظر المنهاج ورقة ٢١٤ أو المطبوع ج ١ ص ٤٣٢ وهذا معنى كلامه وليس لفظه .

وهذا بناء على أن النفخ في الصور مرتان ، وهو الذى تؤيده الأدلة الصحيحة ، كما مر فى هذه الروايات السابقة .

قال الحافظ : « ثبت فى صحيح مسلم أنهما نفختان ، ولفظه فى أثناء حديث مرفوع : « ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها ، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل فتنتبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

وفى حديث أبى هريرة المتفق عليه « بين النفختين أربعون » ، وفى ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط ، والتغاير فى كل منهما باعتبار من يسمعهما ، فالأولى يموت بها كل من كان حياً ، ويغشى على من لم يموت ممن استثنى الله تعالى .

والثانية يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشى عليه » (١)

وقد ذهب إلى أنها ثلاث نفخات بعض العلماء ، كالحافظ ابن كثير وحمل قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض) على أنها نفخة الفرع ، ومن ذهب إلى ذلك القرطبى وابن العرنبى وغيرهم ، وعمدتهم فى ذلك حديث الصور ، حيث صرح فيه أن النفخات ثلاث ، ولكنه حديث ضعيف مضطرب ، كما بينه الحافظ ابن حجر رحمه الله فلا يعتمد عليه لذلك ، وآية الزمر واضحة الدلالة فى أن النفخ فى الصور مرتين .

قوله : « فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » وفى رواية أبى هريرة : « آخذ بالعرش » أى أنه - صلى الله عليه وسلم - يجد موسى عليه السلام بعد ما بعث ، ممسكا بأحد قوائم العرش ، والمراد بالعرش : عرش رب العالمين .

(١) انظر فتح البارى ج ١١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ و ج ٦ ص ٤٤٦ ، وانظر الحديث الذى يشير إليه فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٥٨ و ٢٢٥٩ رقم ٢٩٤٠ ، وانظر حديث أبى هريرة فى البخارى مع الفتح ج ٨ ص ٥٥١ و ٦٨٩ ، وفى مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٠ رقم ٢٩٥٥ .

ففى هذا فضل لموسى عليه السلام ، حيث بعث قبل نبينا - ﷺ -
وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله بها كما خص بالتكليم ، وإما جزء بالصعقة
التي أصابته ، يوم سأل ربه الرؤية عندما تجلى الله تعالى للجبل . والله أعلم .
ومما تقدم من النصوص التي ذكرها البخارى - رحمه الله - هنا وغيرها ،
يعلم أن الله تعالى خص العرش من بين مخلوقاته ، بأنه استوى عليه ، وأنه فوق
جميع المخلوقات ، وأن له حملة ، اليوم ، ويوم القيامة ، وأنه تعالى تعبد من شاء من
ملائكته بأن يحفوا به ، ويطوفوا به ، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون الله
تعالى - ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا ، فقد أخبر تعالى أن
عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض كما قال - تعالى - : (وهو
الذى خلق السماوات والأرض ، فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) (١) .
وأنه - تعالى - كان ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى
الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض .

وقد تقدم ذكر حديث عبد الله بن عمرو : « إن الله قدر مقادير
الخلايق ، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على
الماء » وهو فى صحيح مسلم كما فى هذه النصوص ، وصف العرش بأنه عظيم ،
وأنه كريم ، وأنه مجيد .

وكثيرا ما يمدح الله - تعالى - نفسه بأنه ذو العرش ، كما قال - تعالى - :
(قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه
وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فىهن ،
وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليفا
غفورا) (٢)

(١) الآية ٧ من سورة هود .

(٢) الآيات ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ من سورة الإسراء .

وقال - تعالى - : (رفيع الدرجات ذو العرش) (١) . وقال - جل وعلا - : (وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد) (٢) وقال - تعالى - : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) (٣) إلى غير ذلك .

كما جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أنه أثقل الأوزان ، كما في قوله - ﷺ - لجويرية : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت ، منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » (٤) .

كما في النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان ، وهي الفردوس ، وأن له قوائم ، وغير ذلك مما بينته النصوص التي جاءت بها الرسل ، وكل ذلك يدل على أن الله فوق العرش مستوٍ عليه ، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم ، وذكر في كل كتاب أنزل على كل نبي ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف ، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية ، والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

★ ★ ★

(١) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآيتان ١٤ و ١٥ من سورة البروج .

(٣) الآية الأخيرة من سورة براءة .

(٤) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٠ .

قال : « باب قول الله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) (١)

وقوله - جل ذكره - : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٢)

* * *

قال الأزهرى : فى عرج : « قال الله - جل وعز - : (تعرج الملائكة ، والروح إليه) (١) أى تصعد ، يقال : عرج ، يعرج ، عروجا .

وقوله - جل وعز - : (من الله ذى المعارج) (٣) قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل ، والنعم ، وقيل : معارج الملائكة ، وهى مصاعدها ، التى تصعد ، وتعرج فيها ، ذكر ذلك أبو إسحاق .

وقال الفراء : ذى المعارج ، من نعت الله ، لأن الملائكة ، تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك (٤) .

وقال الليث : عرج يعرج ، عروجا ، ومعروجا ، قال : والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى تصعد فيه الملائكة .

(١) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٢) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٨٤ .

قال : والمعراج : يقال : شبه السلم ، أو درجة ، تعرج فيه الأرواح ، إذا قبضت « (١)

وقال الجوهري : « عرج في الدرجة ، والسلم ، يعرج ، عروجا ، إذا ارتقى .

والمعراج : السلم ، ومنه : ليلة المعراج ، والجمع معارج ، ومعارج « (٢) .

وقال الراغب : « العروج : ذهاب في صعود . قال : (تعرج الملائكة والروح) (٣) (فظلوا فيه يعرجون) (٤) ، والمعارج : المصاعد ، قال : (ذى المعارج) (٥) وليلة المعراج ، سميت لصعود الدعاء فيها ، إشارة إلى قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٦)

قوله : سميت ، لصعود الدعاء فيها يعنى : المعارج سميت لذلك ، ولا يعنى ليلة المعراج

وقال الطبرى ، فى قوله - تعالى - : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون) (٤) « وأما قوله : « يعرجون » ، فإن معناه : يرقون فيه ، ويصعدون ، يقال : منه عرج يعرج ، عروجا ، إذا رقى ، وصعد « (٧) .

(١) تهذيب اللغة ج ١ ص ٣٥٥ .

(٢) الصحاح ج ١ ص ٣٢٨ .

(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٤ من سورة الحجر .

(٥) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٦) المفردات ص ٣٢٩ .

(٧) تفسير الطبرى ج ١٤ ص ١١ ط الحلبي .

وقال في قوله - تعالى - : (ذى المعارج) (١) يعنى ذا العلو ،
والدرجات ، والفواضل والنعم « - ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وقتادة . وروى
عن مجاهد ، قال : معارج السماء .

ثم قال : « وقوله - تعالى - : (تعرج الملائكة ، والروح إليه) : يقول -
تعالى ذكره - : تصعد الملائكة ، والروح - وهو جبريل - عليه السلام « إليه »
يعنى : إلى الله - جل وعز - والهاء في قوله : « إليه » عائدة على اسم الله « (٢)
قوله : والروح - هو جبريل - هذا هو الظاهر من سياق الآية ، فيكون
من عطف الخاص على العام .

وقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » وقال مجاهد : « العمل الصالح
يرفع الكلم الطيب »

قال الحافظ : « وصله الفريانى من رواية ابن نجيح ، وأخرج البيهقى من
طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « الكلم الطيب ، ذكر الله ، والعمل
الصالح ، أداء فرائض الله ، فمن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه » (٣) ورواه
ابن جرير (٤)

قلت : أثر مجاهد ، رواه ابن جرير في تفسيره ، ولفظه : « الكلام الطيب
ذكر الله ، والعمل الصالح أداء فرائضه ، فمن ذكر الله في أداء فرائضه ، حمل عليه
ذكر الله ، فصعد به إلى الله . ومن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على
عمله ، فكان أولى به » (٤)

(١) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ٧٠ .

(٣) الفتح ج ١٣ ص ٤١٦ .

(٤) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١٢١ ط الحلبي ، وانظر الأسماء والصفات ص

وقال ابن جرير : « إليه يصعد الكلم الطيب » يقول - تعالى ذكره - : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه ، وأداء فرائضه ، والانتهاه إلى ما أمر به » (١)

ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : « إذا حدثناكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله - تعالى - إن العبد المسلم ، إذا قال : سبحان الله ، وحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحيه ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة ، إلا استغفروا لقاتلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ عبد الله : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » (٢) .

ثم روى قول مجاهد الذى ذكره البخارى ، وروى عن الحسن ، وقتادة : « لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال ، وأحسن العمل ، قبل الله منه » (٣)

ومقصود البخارى بهذا الباب ، ذكر بعض الأدلة على علو الله - تعالى - وبيان أن ذلك ثابت بكتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ ، وبالعقل ، والفترة . فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك ، وآمن الصحابة به ، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل .

فالإيمان بعلو الله تعالى وفوقيته ، فطرى عقلى شرعى ، ومن خالف ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل ، وسلك فى ذلك غير سبيل المؤمنين .

ولبيان أن الإيمان بذلك . فطرى ، عقلى ، ذكر قول أبى ذر ، قبل أن يسلم أنه قال لأخيه : « اعلم لى ، علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء » كما يأتي بيانه .

(١) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١٢٠ .

(٢) المرجع المذكور .

(٣) الطبرى ج ٢٢ ص ١٢١ .

ومعلوم أن الخير ، لا يأتي إلا من مخبر ، والمخبر الذي يرسل الرسل بأوامره ، ونواهيه ، هو الله - جل وعلا - وهو في السماء ، أى في العلو بائن من خلقه .
وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية ، ومع ظهورها ، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها ، واتفاق الرسل ، والكتب وأتباع الرسل عليها ، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية ، والمعتزلة ، وأكثر الأشعرية ، ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية ، والماتريدية ، معتقدين ، أن ذلك الضلال هو الحق وأنه مذهب أهل السنة ، وأن أدلة كتب الله ، ووحيه إلى رسله ، ظواهر تدل على التشبيه بظواهرها ، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر .

ويرى هؤلاء أن من اعتقد ما دل عليه القرآن ، والسنة بظاهرها ، أنه مشبه ومجسم ، مع أن العقل ، والفطر السالمة من الانحراف ، يتفقان على ما دل عليه وحى الله تعالى ، ولهذا ترمى الأشعرية كل من اعتقد علو الله ، واستواءه على عرشه على الحقيقة ، بالتشبيه ، والتجسيم ، وأحيانا يصرحون بكفرهم كما هو عقيدتهم في قرار نفوسهم ، ومع هذا ترى كثيرا منهم رافعا عقيرته داعيا إلى الاتفاق والوثام ، وهذا لن يكون أبدا مادام في الأرض معتقد للحق ، لأنه لاتفاق بين الهدى ، والضلال ، والحق ، والباطل ، وكيف يكون اتفاق مع من يرى أن من اعتقد ما دلت عليه النصوص الصريحة ، الواضحة الكثيرة ، أنه ضال ، ومشبه ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله : « وقال أبو جهمرة : عن ابن عباس ، لما بلغ أباذر مبعث النبي - ﷺ - فقال لأخيه : اعلم لي علم هذا الرجل ، الذي يزعم أنه يأتيه الخير من السماء » هذا التعليق قد تقدم تاما موصولا ، في المناقب ، وفي الفضائل (١) .

ومقصوده من ذلك ، بيان أن علو الله تعالى على خلقه ، أمر مفطور عليه الخلق ، ومعلوم بالعقل ، والوحى جاء مؤيدا لذلك ، وموضحا له .

★ ★ ★

(١) انظر الفتح ج ٦ ص ٥٤٩ و ج ٧ ص ١٧٣ .

٥٧ - قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « يتعاقبون ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون »

* * *

« يتعاقبون » . التعاقب : إتيان فريق ، عقب فريق ، ثم يعود الأول ، بعد إتيان الثانى .

وإنما يكون التعاقب بين طائفتين ، أو رجلين ، ومنه . تعقيب الجيوش ، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة ، ثم يرسل مكانهم طائفة أخرى ، ويرجع الأولون .

والضمير فى قوله « فيكم » يعود إلى المخاطبين ، وهم الأمة المستجيبة للرسول - ﷺ - .

والأظهر أن هؤلاء الملائكة غير الحفظة ، كما قاله القرطبى ، وأيده الحافظ ، بأنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد ، ولا أن حفظة الليل ، غير حفظة النهار ، وبغير ذلك (١)

« ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر » أى يجتمع فى صلاة العصر ، الهابطون ليبيتوا مع العباد ، والذين كانوا معهم فى النهار ، فالفريقان يحضران صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، فيصعد الذين صحبوا العباد بالنهار ،

(١) انظرالفتح ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥ .

عقب صلاة العصر ويبقى الذين يبيتون معهم ليلا ، ثم بعد اجتماع الفريقين أيضا ، في صلاة الفجر يصعد الذين باتوا مع العباد ، ويبقى الذين نزلوا في صلاة الفجر من السماء . والله تعالى يسأل كل فريق ، عن العباد ، يقول : كيف تركتم عبادى ، أى على أى حال تركتموهم - وهو - جل وعلا - أعلم من الملائكة المصاحبين لهم ، بهم . ولكن يسأل تعالى الملائكة عنهم ، لإظهار كرامتهم ، فضلا منه ، وإحسانا إليهم ، وبهذا يعلم أهمية المحافظة على هاتين الصلاتين في الجماعة .

قوله : « ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم ، وهم يصلون »

تقدم معنى العروج ، وأنه الصعود ، والارتفاع ، والذهاب إلى العلو ، وهذا هو محل الشاهد ، من الحديث ، لأن السؤال حصل بعد صعودهم ، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم ، والله تعالى فوقهم ، وهو تعالى يخاطبهم بذلك ، بدون واسطة ، كما هو ظاهر النص ، ولو كان ذلك بوحي لم يكن هناك فرق بين كونهم في السماء ، أو في الأرض .

وهذا الحديث يتفق في المعنى مع قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه » وكأن البخارى يشير بذلك إلى تفسيرها ، وأن عروج الملائكة المذكور في هذا الحديث ، داخل في مدلولها .

ودل قوله : « وهو أعلم بهم » أن المقصود من السؤال ، إظهار كرامة المؤمنين من بنى آدم ، بطاعتهم لربهم ، وعبادتهم إياه ، والتنويه بفضلهم ، عند الملائكة الذين في السماء ، والملائكة المسئولون ، فهموا من الله تعالى ماأراده . ولهذا قالوا في الجواب : « تركناهم ، وهم يصلون ، وأتيناهم ، وهو يصلون »

وفي هذا دليل على أن من جلس في مصلاه ، يذكر الله ويدعوه أنه في صلاة لأن الملائكة يحضرون الصلاة معهم ، وبعد الفراغ منها يصعدون .

قال الحافظ : « ويستفاد منه أن الصلاة أعلى العبادات ، لأنه عنها وقع السؤال والجواب ، وفيه الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين ، لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان ، وفي غيرهما طائفة واحدة .

والإشارة إلى شرف الوقتين المذكورين ، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح ، وأن الأعمال ترفع آخر النهار ، فمن كان حينئذ في طاعة ، بورك في رزقه ، وفي عمله .

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما ، والاهتمام بهما .

وفيه تشریف هذه الأمة ، على غيرهما ، ويستلزم تشریف نبيها على غيره .

وفيه الإخبار بالغيوب ، ويترتب عليه زيادة الإيمان .

وفيه الإخبار بما نحن فيه ، من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ، ونتحفظ في الأوامر والنواهي ، ونفرح في هذه الأوقات بقدم رسل ربنا ، وسؤال ربنا عنا .
وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا ، لنزداد فيهم حباً ، ونتقرب إلى الله - تعالى - بذلك .

وفيه كلام الله تعالى مع الملائكة ، وغير ذلك من الفوائد « (١) .

وفيه كثرة الملائكة ، وأن لكل منهم وظائف مكلفون بها ، وبيان نصحهم لبنى آدم ، وحبهم الخير لهم ، وأن استقرارهم في السماء ، وإنما ينزلون إلى الأرض حسب أوامر الله لهم .

★ ★ ★

٥٨ - قال : « وقال خالد بن مخلد : حدثنا سليمان ، حدثني عبد الله ابن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ - من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها ؛ بيمينه ، ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فله ، حتى تكون مثل الجبل »

* * *

« الصدقة : ما يخرج الإنسان من ماله ، على وجه القرية ، كالزكاة ، لكن الصدقة في الأصل ، تقال : للمتطوع به ، والزكاة ، للواجب ، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها ، الصدق في فعلها » (١) .

وسميت صدقة ، من الصدق ، لأنها تدل على صدق إيمان المتصدق غالبا .

قوله : « بعدل تمرة » بفتح العين ، قال القاضي عياض : « العدل بالفتح المثل وما عادل الشيء ، وكافأه ، من غير جنسه ، وبالكسر ، ما عادله ، من جنسه وكان نظيره ، وقيل : الفتح ، والكسر لغتان فيها ، وهو قول البصريين » (٢) . والمعنى : من تصدق بقدر تمرة ، أو بقيمتها .

قوله : « من كسب طيب » أى تصدق بمال حلال ، جيد ، وإن كان قليلا .

« ولا يصعد إلى الله إلا الطيب » . تقدم هذا الحديث في الزكاة بسند

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٨ .

(٢) المشارق ج ٢ ص ٦٩ .

متصل غير هذا وفيه « ولا يقبل الله إلا الطيب » (١) .

فالذى يقبله الله - تعالى - يصعد إليه ، فيبارك به لصاحبه ، وينميّه .

وهذه الجملة من الحديث هي المقصود منه هنا ، حيث دل على علو الله - تعالى - وأنه فوق ، وماقبله الله من الأعمال ، فإنه يصعد إليه ، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله - تعالى - وتعرج إليه ، والصعود ، والعروج سواء في المعنى ، كما تقدم في كلام ابن جرير .

وقد اختار البخارى بعض النصوص في هذا الباب ، التي فيها ذكر الصعود والعروج ونحوهما لوضوح الدلالة في ذلك على علو الله - تعالى - كما أنه نوع الأدلة في ذلك كما تقدم للإيضاح ، وأدلة علو الله تعالى كثيرة جداً ، ومتنوعة كما ستأتى الإشارة إلى ذلك .

« قوله : « فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربّيها لصاحبها ، كما يرى أحدكم فلوه » أى أن الله - تعالى - يقبلها من صاحبها ، فيأخذها بيده اليمنى ، وكلتا يديه يمين ، فينميها لصاحبها ، ويبارك فيها ، ويعتنى بها عناية بالغة ، كما يعتنى أحدنا بأعلى ماله من المال ، وأنفسه ، وهو ولد الفرس ، الذى يعد لمدافعة الأعداء وقتالهم ، وحماية الأعراض ، والنفوس ، والأموال ، حتى يصير ماهو بقدر الثمرة - لشدة عناية الله - تعالى - به مثل الجبل .

وقد تحبب شرح الحديث ممن سلك طريق الأشاعرة ، في شرح هذه الجملة ، وجاءوا بما ليس له وجه ، مع أن المتكلم به قد أعطى من الفصاحة والبيان والنصح للسامع ، والحرص على وصول الخير إليه ما ليس عليه مزيد ، فيجب أخذ كلامه على ظاهره ، والإيمان به ، وإحسان الظن به ، فهو صلوات الله وسلامه عليه أقدر على إيضاح ما يريد من هؤلاء ، كما أنه صلى الله عليه وسلم أعلم بالله منهم ، فليس

(١) انظر الفتح ج ٣ ص ٢٧٨ .

كلامه بحاجة إلى تلك التأويلات الباردة (١) ، والتمحلات المتكلفة ، كالتى ذكر
ابن حجر ، - عفا الله عنا وعنه - .

★ ★ ★

(١) انظر بعض مقاله هؤلاء المؤولة فى فتح البارى ج ٣ ص ٢٨٠ .

٥٩ - ثم ذكر حديث ابن عباس : في دعاء الكرب ، وقد تقدم في الباب قبل هذا ، وفيه اختلاف في سنده ومنتنه ، كما هي عادته .

* * *

والمقصود منه هنا قول : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش الكريم » وقد تقدم أن العرش هو سقف المخلوقات كلها ، وليس فوقه مخلوق . وقد وصفه - تعالى - بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، وأضافه - تعالى - إليه مما يدل على أن له خصوصية دون غيره ، من السماوات والأرض كما تقدم .
وقد أخبرنا - تعالى - بأنه استوى عليه ، فهو من دلائل علوه تعالى فوق خلقه .

★ ★ ★

٦٠ - قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبي نعم ، أو أبي نعم - شك قبيصة - ، عن أبي سعيد ، قال بعث إلى النبي ﷺ بذهبية ، فقسمها بين أربعة » .

وحدثني إسحاق بن نصر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبي نعم ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : « بعث علي ، وهو في اليمن إلى النبي ﷺ - بذهبية في تربتها ، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بنى مجاشع ، وبين عيينة بن بدر ، الفزاري ، وبين علقمة بن علاقة العامري ، ثم أحد بنى كلاب ، وبين زيد الخيل ، الطائي ، ثم أحد بنى نبهان . فتغيظت قريش ، والأنصار ، فقالوا : يعطيه صنادر أهل نجد ، ويدعنا - ؟ قال : إنما أتألفهم ، فأقبل رجل ، غائر العينين ، ناقيء الجبين ، كث اللحية ، مشرق الوجنتين ، محلوق الرأس ، فقال : يا محمد : اتق الله ، فقال النبي ﷺ - : فمن يطيع الله إذا عصيته ؟ ، فيأمنني على أهل الأرض ، ولاتأمنوني . فسأل رجل ، من القوم قتله - أراه خالد بن الوليد - فمنعه النبي ﷺ - فلما ولي ، قال النبي ﷺ - : إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لكن أدركتهم لأقتلنهم ، قتل عاد » .

* * *

أرسل النبي ﷺ - علي بن طالب إلى اليمن ، يدعو إلى الله تعالى - ويقبض الزكاة من أصحابها ، ويقضى في المنازعات ، وكان ذلك قبل حجة الوداع ، كما ذكره البخاري في آخر المغازي ، ثم إن علياً وافى رسول الله ﷺ - بمكة ، في حجة الوداع راجعاً من اليمن ، وكان قد أرسل إليه ، بذهبية ، تصغير

ذهبة ، أى قطعة من الذهب ، فقسمها رسول الله - ﷺ - بين هؤلاء الأربعة المذكورين ، رجاء إسلامهم ، وكانوا رؤساء قبائلهم ، فإذا أسلموا ، أسلم تبعاهم خلق كثير ، ولهذا أعطاهم النبي - ﷺ - المال ترغيباً لهم فى الإسلام ، وتأليفاً لقلوبهم عليه ، كما بينه - ﷺ - فى جوابه للصحابة ، الذين قالوا : « يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » .

وقوله : « فى ترتيبها » أى أنها لم تخلص من ترابها ، فليست ذهباً خالصاً ، لأنها مختلطة بالتراب .

قيل : إنها من الخمس ، واستبعد ابن حجر أن تكون من أصل الغنيمة ، ويمكن أن تكون زكاة .

قوله : « فتغيظت قريش ، والأنصار » من الغيظ ، أى غاظها ذلك ، حيث لم يعطهم منها ، وفى رواية « فغضبت » من الغضب .

« فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » الصناديد ، جمع صناديد ، وهو الرئيس ، وفى القاموس : الصندد [بفتح الصاد ، وإسكان النون ، وكسر الدال الأولى] (١) السيد ، الشجاع ، أو الحلیم ، أو الجواد ، أو الكريم « ا هـ .

قوله : « إنما أتألفهم » أى أعطاهم ليألفوا الدين ، ويجتمعوا على حبه ، والرغبة فيه ، فأرغبهم فيه على طريق الإحسان إليهم ، بالدنيا حتى يصل إلى قلوبهم ، فيحبوه ويرغبوا فيه ، أو لأجل مايتحصلون عليه من الدنيا ثم بعد ذلك لما يرجونه من جزاء الله وثوابه فى الآخرة .

والتأليف من الألف ، وهو الاجتماع ، والالتام مع الحب .

والمعنى : أنى أعطاهم ليكون ذلك داعياً لهم إلى حب الإسلام ، والرغبة فيه والاجتماع عليه ، حتى يكونوا من أنصاره ، ويتبعهم على ذلك أقوامهم وعشائهم ،

(١) ما بين المعقوفين من حاشية القاموس ج ١ ص ٣٠٩ .

فيحصل بذلك عز الإسلام ، ونصره ، فهذا العطاء مما يجبه الله ويشيب عليه ، وهو من الإنفاق في سبيل الله - تعالى - ، بل من أفضله .

ووصفه الرجل المعترض على رسول الله - ﷺ - هي أمور اتفقت فيه ، وليست هذه الأوصاف الظاهرة في هذا الهالك مذمومة لذاتها .

وقوله : « فمن يطيع الله ، إذا عصيته » يعنى أنه - ﷺ - هو أحق الناس وأولاهم بطاعة الله - تعالى - وتقواه .

وهذا هو الضلال أن يتصور الإنسان الطاعة ، معصية ، فهذا الرجل المعترض تصور أن فعل رسول الله - ﷺ - معصية ، وأنه من الجور ، فنصب نفسه أمرا يتقوى الله ، فقال للرسول - ﷺ - : اتق الله ، مع أن فعل رسول الله - ﷺ - هو تقوى ، ومن أعظم الطاعات له ، فهو يعطى الله ، ولنصر دينه ، وهداية عباداه .

قوله : « فيأمننى على أهل الأرض ، ولا تأمنونى » أى يأمننى الله - تعالى - على الرسالة التى أرسلنى بها إلى أهل الأرض ، ولا تأمننى أنت أيها المعترض ، ومن على شاكلتك ممن ضل طريق الرشد ، لا تأمنونى على حطام الدنيا أن أضعه حيث يجب أن يوضع ، على وفق أمر الله تعالى .

والرواية التى ذكرها فى المغازى : « فقال : ألا تأمنونى ، وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء » (١)

وهذا اللفظ أظهر ، وأوضح فى المقصود ، من الرواية المذكورة هنا .

قال الحافظ : « وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة ، لكنه جرى على عادته فى إدخال الحديث فى الباب ، للفظة تكون فى بعض طرقه هى المناسبة

(١) انظر الفتح ج ٨ ص ٦٧ .

لذلك الباب ، يشير إليها ، ويريد بذلك شحذ الأذهان ، والبعث على كثرة الاستحضار» (١)

قلت : ولا يخلو اللفظ المذكور من الدليل على المقصود الذى هو علو الله - تعالى - لأن قوله : « فيأمننى على أهل الأرض » يدل على أن الآمن الذى هو الله - تعالى - فى السماء .

ومعنى قوله : « من فى السماء » أى الله الذى فى السماء ، و « فى » هنا بمعنى « على » كما ذكر البيهقى ، عن أبى بكر ، أحمد بن إسحاق الضبيعى : « أن العرب قد تضع « فى » بموضع « على » ، قال الله - تعالى - : (فسيحوا فى الأرض) (٢) ، وقال : (لأصلبنكم فى جنوع النخل) (٣) ومعناه : على الأرض ، وعلى جنوع النخل .

فكذلك قوله : (فى السماء) أى على العرش ، فوق السماء ، كما صحت الأخبار عن النبى - ﷺ - « (٤) .

وهذا الحديث مثل قول الله تعالى - : (أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) (٥) .

فإما أن تكون « فى » بمعنى « على » كما تقدم ؛ أو يقصد بالسماء العلو أى أمنتم من فى العلو ، وكلاهما صحيح سائغ فى اللغة والمعنى .

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٨ .

(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٧١ من سورة طه .

(٤) الأسماء والصفات ص ٤٢١ .

(٥) الآيتان ١٦ و ١٧ فى سورة الملك .

قوله : « فسأله رجل من القوم قتله ، أراه خالد بن الوليد ، فمنعه النبي ﷺ » أى استأذن الرسول فى ذلك ، وقد تقدم فى المناقب أن السائل هو عمر ابن الخطاب (١) .

قال الحافظ : « لاتنافية بين الروایتين ، إذ يجوز أن يكون كل واحد منهما طلب ذلك » (٢) .

وقد جاء أن سبب منعه من قتله ، خوف أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه ، فيصير بذلك تنفيراً عن الدخول فى الإسلام .

قوله : « إن من ضئضىء هذا ، قوم يقرؤون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم » قال فى النهاية : « الضئضىء : الأصل ، يقال : ضئضىء صدق ، وضوضؤ صدق ، يريد أنه يخرج من نسله ، وعقبه » (٣) .

وفى اللسان : « الضئضىء ، والضوضؤ : الأصل ، والمعدن » (٤) .

والمقصود ، الإخبار بأنه يأتى من جنس هذا الرجل ، الضال ، قوم يسلكون مسلكه يقرأون القرآن ، ولكن لا يصل إلى قلوبهم ، فهم لا يفهمونه ، على ما أريد ، بل يضعونه فى غير موضعه ، لأنهم ضالون ، وجاهلون ، ولهذا يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، أى يخرجون من الإسلام ، بسرعة ، وسهولة ، غير متأثرين به ، كأنهم لم يدخلوه ، وهذا يدل على أنهم دخلوا فى الإسلام ، ولكن لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، ولم يفهموه على وجهه ، ولهذا صار من أوصافهم ، أنهم يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون الكفار عباد الأوثان ، ومن أجل ذلك قال - ﷺ - لئن أدركتهم ، لأقتلنهم ، قتل عاد - أى لا أبقى منهم

(١) انظر الفتح ج ٦ ص ٦١٨ .

(٢) المرجع المذكور ج ٦ ص ٦١٨ .

(٣) النهاية ج ٣ ص ٦٩ .

(٤) لسان العرب ج ٢ ص ٥٠٣ المرتب .

أحدا يشير بذلك إلى قوله : في وصف هلاك عاد (فهل ترى لهم من باقيه) (١) ولم يرد أنه يقتلهم بالشيء الذي قتلت به عاد بعينه .

ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ، ويراد به القتل الشديد القوي ، ويكون في ذلك إشارة إلى وصفهم بالشدة ، والقوة ، ويؤيده أنه وقع في طريق أخرى « قتل ثمود » (٢) .

★ ★ ★

(١) الآية ٨ من سورة الحاقة .

(٢) قاله الحافظ في الفتح ج ٦ ص ٣٧٧ .

٦١ - ثم ذكر حديث أبي ذر الذى تقدم فى الباب قبل هذا فقال :
 « حدثنا عياش بن الوليد ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن
 إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : سألت النبى - ﷺ -
 عن قوله : (والشمس تجري لمستقر لها) ؟ قال : « مستقرها تحت
 العرش » . قد تقدم شرحه ، والشاهد منه هنا . أن الشمس فى ارتفاعها ، وأبعد
 ماتكون عن الأرض التى عليها المخاطبين آن ذاك تكون تحت العرش ، فالخلوقات
 كلها تحته ، والله - تعالى - فوق العرش ، فهو عال على خلقه كلهم وفوقهم .

* * *

فى هذا الباب ، والذى قبله قصد البخارى - رحمه تعالى - إثبات علو
 الله ، واستواءه على العرش ، كما هو ثابت فى نفس الأمر ، وتضافرت عليه أدلة
 الوحى ، والعقول والفطر ، وكما هو مذهب السلف من الصحابة ، وأتباعهم إلى
 اليوم .

والنصوص التى ذكرها البخارى ظاهرة الدلالة على ذلك ، وهى نزر يسير
 جدا من النصوص الكثيرة ، المتنوعة فى ذلك .

قال ابن أبى العز : « ومن سمع أحاديث الرسول - ﷺ - ، وكلام
 السلف وجد منه فى إثبات الفوقية ما لا ينحصر .

ولارىب أن الله - سبحانه - لما خلق الخلق ، لم يخلقهم فى ذاته المقدسة ،
 فإنه الأحد ، الصمد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته .

ولو لم يتصف - سبحانه - بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه ، غير
 مخالط للخلق لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من
 ضده ، وضد الفوقية ، السفول ، وهو مذموم على الإطلاق .

فإن قيل : لانسلم أنه قابل للفوقية ، حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها .
 قيل : لو لم يكن قابلاً للعلو ، والفوقية ، لم يكن له حقيقة ، قائمة بنفسها
 فمتى أقررتم ، أنه موجود ، قائم بنفسه ، ليس وجوده ذهنياً ، بل وجوده خارج
 الأذهان قطعاً .

تعين أن يكون متميزاً عن خلقه ، عالياً عليهم .

وقد علم العقلاء كلهم ، بالضرورة ، أن ما كان وجوده ، خارج الأذهان ،
 فهو إما أن يكون داخلاً في الخلق ، أو بائناً منهم ، خارجاً عنهم .
 وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات ، الضرورية ،
 بلا ريب ، فلا يستدل بدليل على وجوده ، إلا كان العلم بالمبانيّة أظهر منه ،
 وأوضح وأبين .

وإذا كانت صفة العلو ، والفوقية صفة كمال ، لانقص ، ولاتستلزم نقصاً
 ولامحذور فيها ، ولاتخالف كتاباً ، ولا سنة ، ولا إجماعاً ، فنفي حقيقتها يكون عين
 الباطل ، والحال ، الذي لاتأتى به شريعة أصلاً ، فكيف إذا كان لايمكن الإقرار
 بوجوده - تعالى - ، وتصديق رسله ، والإيمان بكتابه ، وما جاء به رسوله إلا
 بذلك ؟ .

فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر المستقيمة .
 والنصوص الواردة ، المتنوعة في الدلالة ، على علو الله - تعالى - على خلقه وكونه
 فوق عباده ، التي تقرب من عشرين نوعاً .

أحدها : التصريح بالفوقية ، مقروناً بأداة « من » المعينة للفوقية بالذات
 كقوله - تعالى - : (يخافون ربهم من فوقهم) (١) .

(١) الآية ٥٠ من سورة النحل .

الثاني : ذكر الفوقية ، مجردة عن الأداة ، كقوله - تعالى - : (وهو القاهر فوق عباده) (١)

الثالث : التصريح بالعروج إليه ، كقوله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) (٢) وقوله - ﷺ - « فيعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم » كما تقدم .

الرابع : التصريح بالصعود إليه ، كقوله - تعالى - : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٣)

الخامس : التصريح برفعه - تعالى - بعض خلقه إليه ، كقوله : - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) (٤) وقوله : (إني متوفيك ، ورافعك إلي) (٥) .

السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرا وشرفا ، كقوله - تعالى - : (وهو العلي ، العظيم) (٦) وقوله - تعالى - : (وهو العلي الكبير) (٧) وقوله - تعالى - : (إنه عليّ حكيم) (٨) .

(١) الآية ١٨ و ٦١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٣) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٤) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٨) الآية ٥١ من سورة الشورى .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله - تعالى - : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (١) وقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (٢) وهو كثير .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات ، بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله - تعالى - : (إن الذين عند ربك) (٣) وقوله - تعالى - : (وله من في السموات والأرض . ومن عنده) (٤) ففرق تعالى بين من له عموماً وبين من عنده من الملائكة . وقد تقدم قوله - ﷺ - : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق عرشه » .

التاسع : التصريح بأنه - تعالى - في السماء ، كقوله . - تعالى - : (أأنتم من في السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور) (٥) ، وتقدم أن ذلك ، على وجهين ، إما أن تكون « في » بمعنى « على » ، أو يراد بالسماء العلو ، لا يجوز غير ذلك .

العاشر : التصريح : برفع الأيدي إلى الله - تعالى - : كقوله - ﷺ - : (إن الله يستحي من عبده ، إذا رفع إليه يديه ، أن يردهما صفراً) (٦)

الحادى عشر : التصريح بالاستواء ، مقروناً بأداة « على » مخصوصاً بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات .

(١) الآية الأولى من سورة الزمر .

(٢) الآية ٢ من سورة غافر الذنب .

(٣) آخر آية من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن ج ٢ ص ١٦٥ رقم ١٤٨٨ ، والترمذى في

الدعوات ج ٥ ص ٢١٧ ، وابن ماجه في السنن ج ٢ ص ١٢٧١ الحديث رقم

الثاني عشر : التصريح بنزوله - تعالى - كل ليلة إلى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل .

الثالث عشر : الإشارة الحسية إليه في العلو ، كما فعل ذلك رسول الله - ﷺ - في خطبته في حجة الوداع ، حيث قال : « إنكم مسئولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فرفع إصبعه إلى السماء ، وقال : اللهم اشهد » (١)

الرابع عشر : سؤال الرسول - ﷺ - بلفظ « أين الله » وإخباره عن قال : « الله في السماء » بأنه مؤمن (٢)

الخامس عشر : اتفاق الكتب المنزلة من الله والرسول على أن الله فوق عباده عال عليهم ، كما قال - تعالى - عن فرعون : (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ، لعلی أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً » (٣) لأن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله في السماء ، فقال هذا القول ليموه على السذج أتباع كل ناعق بدون بصيرة .

السادس عشر : عروج النبي - ﷺ - إليه - تعالى - ، وإخباره ، أنه تردد نبيه - تعالى - وبين موسى ، يطلب التخفيف من عدد الصلوات » (٤)

وقد غلط أكثر المتكلمين في مسمى السماء ، حيث ظنوا أن السماء يقصد به مكان معين محاط ، فتوهموا أن من قال : إن الله في السماء أن مكاناً يحيط به أو يحويه - تعالى - وتقدس .

(١) رواه مسلم في صحيحه وغيره ، انظر مسلم ج ٢ ص ٨٩٠ الحديث رقم ١٢١٨ ، وهو حديث جابر الطويل في صفة الحج .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٢ الحديث رقم ٥٣٧ .

(٣) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة غافر الذنب .

(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ٢٥٦ - ٢٦٠ الطبعة الثالثة .

قال شيخ الإسلام : « من توهم أن كون الله في السماء أن السماء تحيط به ، أو تحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده في ربه .

ومافهم هذا أحد من النصوص ، ولم ينقل عن أحد ، ولو سئل سائر المسلمين ، هل تفهمون من قول الله ، ورسوله : أن الله في السماء ، أن السماء تحويه ؟ لبادروا إلى القول : بأن هذا شيء ماخطر بالبال .

فمن الضلال أن يجعل ظاهر نصوص الكتاب والسنة في ذلك دالة على الباطل والتشبيه .

بل عند الناس قولك : إن الله في السماء ، وقولك : الله فوق العرش ، سواء إذ السماء إنما يراد به العلو ، فالمعنى : أن الله في العلو . لافي السفلى . وقد علم المسلمون أن كرسية ، سبحانه - وتعالى - وسع السموات ، والأرض ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش ، خلق من مخلوقات الله ، لانسبة له إلى عظمة الله تعالى .

فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقا يحصره أو يحويه ؟ وقد قال - تعالى - :
(ولأصلبكنم في جذوع النخل) (١) وقال - تعالى - : (فسيروا في الأرض) (٢) . بمعنى على الأرض ، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً ، وهذا يعلمه من عرف حقائق الحروف » (٣)

وعلو الله - تعالى - ظاهر جداً ، وقد تقدم أن البخاري - رحمه الله - أشار بما ذكره في هذا الباب ، إلى أن علو الله - تعالى - وفوقيته ثابت بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطر ، أما ثبوته بالكتاب والسنة فواضح .

(١) الآية ٧١ من سورة طه .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ، والآية ٣٦ من سورة النحل .

(٣) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٠٦ .

وأما الإجماع فأشار إليه بقصة زينب ، أنها كانت تفتخر ، على أزواج النبي - ﷺ - تقول : زوّجكن أهاليكن ، وزوّجنى الله ، من فوق سبع سماوات . فهذا يدل على الإجماع ، لأن ذلك متقرر عندهم ، ولم ينكر ذلك أحد ، بل يذكر في كل مناسبة ، ومن ذلك هذا الذى قالته زينب ، فالإجماع عليه ظاهر ، والإجماع لا يكون على خلاف المعقول .

وأما الفطرة ، فأشار إليها بما ذكره ، عن أبى ذر أنه قال لأخيه . قبل أن يسلم : « اعلم لى علم هذا الرجل ، الذى يأتيه الخير من السماء » أى يأتيه الخير من الله الذى فى السماء ، لأنه يقول . للناس : أنا رسول الله إليكم .

قال شيخ الإسلام : « تبين وجوب إثبات العلو لله - تعالى - من وجوه .

أحدها : أن القرآن ، والسنن المستفيضة ، المتواترة ، وغير المتواترة ، وكلام السابقين والتابعين ، وأهل القرون الثلاثة ، مملوء بما فيه إثبات العلو لله ، وأنه مستوي على عرشه ، بأنواع من الدلالات .

فالله - تعالى - يخبرنا تارة ، أنه خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ثم استوى على العرش .

وتارة يخبر بعروج الأشياء ، وصعودها ، وارتفاعها إليه ، كقوله - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) (١) (إني متوفيك ورافعك إلیّ) (٢) (تعرج الملائكة والروح إليه) (٣) (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٤) .

(١) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

وتارة يجبر بنزولها منه ، أو من عنده ، كقوله - تعالى - : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) (١) (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) (٢) (حمّ تنزيل من الرحمن الرحيم) (٣) (حمّ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (٤) .

وتارة يجبر بأنه العلى الأعلى ، كقوله - تعالى - : (سبح اسم ربك الأعلى) (٥) وقوله - تعالى - : (وهو العلى العظيم) (٦) .

وتارة يجبر بأنه في السماء ، كقوله - تعالى - : (أأمنتم من في السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) (٧) فذكر السماء دون الأرض ، وكقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا تأمنوني ، وأنا أمين من في السماء » وقوله للجارية : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : اعتقها ، فإنها مؤمنة « ولم يعلق ألوهية أو غيرها كما في قوله - تعالى - : (وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله) (٨) وقوله : (وهو الله فى السموات والأرض) (٩) أى هو المألوه المعبود فى السموات والأرض .

وتارة يجعل بعض الخلق عنده ، دون بعض ، كقوله : (وله من فى

(١) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة النحل .

(٣) فاتحة سورة فصلت .

(٤) فاتحة سورة الجاثية والأحفاف .

(٥) فاتحة سورة الأعلى .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

(٧) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة الملك .

(٨) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٩) الآية ٣ من سورة الأنعام .

السموات ، والأرض ومن عنده ، لا يستكبرون عن عبادته) (١)
فلو كان موجب العندية ، معنى عاما كدخولهم تحت قدرته ، ومشيتته ،
ونحو ذلك لكان كل مخلوق عنده ، ولم يكن أحد مستكبرا ، عن عبادته .
وأما الأحاديث ، والآثار عن الصحابة ، والتابعين ، فلا يحصيها إلا
الله - تعالى - .

فلا يخلو أن يكون ما اتفقت عليه هذه النصوص ، من إثبات علو الله
تعالى . على خلقه هو الحق ، أو الحق ، نقيضه ، إذ الحق لا يخلو عن النقيضين .
فإن كان نفى العلو هو الحق ، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا ، لانصاً ،
ولامفهوماً . وكذلك الرسول - ﷺ - ولا أحد من الصحابة ، وأتباعهم ، ولا
أحد من أئمة المسلمين ، ولا يمكن أحد أن ينقل عن واحد منهم شيئاً من ذلك ،
بل نقيضه هو المستفيض عنهم ، كما هو الموافق للكتاب ، والسنة .

ويلزم على ذلك أن يكون الله ورسوله ، والمؤمنون ، لم ينطقوا بالحق في هذا
الباب ، بل تكلموا بما يدل على الضلال ، إما نصاً ، أو ظاهراً .

فإن قيل : هذه النصوص ما أريد بها إثبات علو الله على خلقه ، وإنما أريد
بها علو المكانة ، والقدر .

قيل : فكان يجب على المتكلم بها أن يبين للناس الحق ، الذي يجب أن
يؤمن به ويعتقد ، ظاهراً وباطناً ، وأنه لم يرد بهذا الكلام مفهومه ، ومقتضاه .

فإن قيل : إنه تكلم بالمجاز ، المخالف للحقيقة .

قيل : من المعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز ، فلا
بد أن يقرن بمخاطبه ما يدل على إرادة المعنى المجازي ، فإذا كان الرسول - ﷺ -

(١) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .

الذى بين للناس ما نُزِّل إليهم ، يعلم أن المراد بالكلام خلاف مقتضاه وظاهره ، وجب عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرده ، ولا سيما إذا كان ذلك المعنى باطلا ، ولا يجوز اعتقاده فى الله - تعالى - . وهذا يجب ولو لم يخاطبهم بما يفهم منه خلاف الحق ، الذى يجب اعتقاده ، إذا كان مخوفا عليهم ، فكيف إذا كان فى كلامه ما يفهم منه خلاف الحق » (١)

فلا عذر لمن أنكر علو الله ، ونفاة العلو ، والصفات ، يقولون : إن هذه النصوص لم يرد بها الحقيقة . والظاهر المفهوم منها ، والقرينة الصارفة عن ذلك هى دلالة العقل ، فاكتفى المتكلم بهذه القرينة ، لأنها عقلية ، عند كل عاقل .

فيقال لهم : إذا كان ماتكلم به الله ورسوله ، إنما يفيد مجرد الضلال ، الهدى إنما يستفاد من العقول ، فلماذا ينزل الله الكتاب ، ويرسل الرسول ؟ للعناء والشقاء ؟ فإن تركهم على جاهليتهم خير لهم من أن ينزل عليهم الكتاب ، ويرسل إليهم الرسول ، هذا هو لازم هذا القول الباطل .

ويقال أيضاً : الرسول جاء بإثبات العلو ، والصفات ، وذلك أظهر فى العقل من قولكم .

ثم الرسول - ﷺ - إما أن يتكلم بالهدى ، أو بالضلال ، أو يسكت عنهما .

ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بالضلال .

وبذلك يعلم بالعقل ، أنه لم يسكت عن بيان الحق ، والهدى ، والتحذير من اعتقاد الباطل ، وبذلك يتفق ما جاء به الرسول - ﷺ - مع العقل الصحيح ، الذى لم تفسده الشياطين ، والهوى المضل .

فالعقل يوافق ما جاء به الرسول - ﷺ - لا ما يقوله نفاة الصفات ،

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٦٤ - ١٦٨ ملخصاً .

وليس بين العقل الصريح ، والنقل الصحيح تناقض أصلاً ، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل وغيره .

فقولهم : إن القرينة الصارفة عن الظاهر ، هي العقل ، خطأ محض ، إذ العقل يوافقها لا يخالفها كما توهموه ، كما أن إثبات الصفات ليس فيه تشبيه كما زعموا ولكن الأوهام ، وسوء الظن بالله ، ورسوله أرادهم .

ومن حججهم الباطلة التي حملتهم على صرف النصوص ، عن ظاهرها ، ورأوا وجوب تأويلها لذلك ، هي قاعدتهم ، في أن جميع الأجسام حادثة لملازمتها للأعراض التي هي الصفات ، فوجب تنزيه الرب - تعالى - عن كل صفة تستلزم التركيب ، أو الجسمية . لأن الأعراض لا تكون إلا في جسم ، والجسم لا بد أن يكون مركباً من الجواهر - كما زعموا - ولهذا قالوا : إن الاستواء ، والعلو يلزم منهما النقلة ، والمكان والحركة ، وهذه من صفات الأجسام .

فيقال لهم : الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، مما جوزتم لأنفسكم أن تصفوه به ، لا يعقل أن تقوم إلا بجسم مع أنكم تسمون ، الصفات أعراضاً ، ولا فرق بين ما أثبتتموه ، وما نفيتتموه في المعنى ألا يجوز لغيركم أن يصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله بأنه - تعالى - مستوي على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، وبأن له وجهاً ويدين حقيقة . ونحو ذلك مما تسمونه أبعاضاً ، تستلزم التركيب ، والجسمية ، كما افترتتموه ، على رب العالمين ، ورميت من وصف الله - تعالى - بما وصف به نفسه بالتشبيه ، والتجسيم ، مع أنهم أقرب إلى المعقول منكم ، وقد سلم لهم المنقول بدون تحريف .

قال شيخ الإسلام : « ولا ريب أن الله موجود ، قائم بنفسه ، وترفع إليه الأيدي عند الدعاء ، كما فطر على ذلك جميع عباده ، ولا ريب أنه تجوز رؤيته في الآخرة كما أخبر بذلك في كتابه ، فإذا سمو هذه المعاني تجسيمياً ، فلا ينبغي لنا أن نترك ما أخبر الله به عن نفسه ، في كتابه ، ونذهب إلى تأويلها ، لمجرد هذه

التسميات الحادثة المبتدعة» (١) .

وقال أيضا : « ولفظ الظاهر فيه إجمال ، واشترك ، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين ، أو ما هو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد .

والسلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ، ولا يترضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً ، وباطلاً .

والله سبحانه - وتعالى - أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه ، لا يظهر منه الا ما هو كفر ، أو ضلال .

والذين يجعلون ظاهرها ذلك ، يغلطون من وجين :

أحدهما : أنهم جعلوا المعنى الفاسد ، هو ظاهر نص كلام الله وكلام رسوله ، ولذلك أوجبوا تأويله ، ليخالف الظاهر الذى زعموا ، وليس الأمر كذلك .

الثانى أنهم ردوا المعنى الصحيح الذى هو ظاهر اللفظ ، لاعتقادهم أنه باطل كقولهم فى الحديث : « قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن » . قالوا : لا يجوز أن يراد به الظاهر ، فليس فى قلوبنا أصابع .

ومعلوم أنه ليس ظاهره أن القلوب متصلة بالأصابع ، ولا ماسة لها ، ولا أن أصابع الرحمن فى جوف العبد ، ولا يفهم من قول القائل : هذا بين يدي ، ما يقتضى مباشرته ليديه .

وإذا قيل : إن السحاب بين السماء والأرض ، لم يقتضى أن يكون مماساً للسماء ، أو الأرض ونظائر ذلك كثيرة» (٢)

(١) مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٤٣ - ٤٥ ملخصاً .

(٢) المصدر المشار إليه .

وقال أبو نصر السجزي في الإبانة : وأئمتنا كسفيان ، ومالك ،
والحمادين ، وابن عينية ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ،
متفقون على أن الله فوق العرش ، وعلمه في كل مكان ، وأنه ينزل إلى السماء
الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ، ويتكلم بما يشاء » (١)

وقال ابن عبد البر في شرحه لحديث النزول : « وفيه دليل على أن الله - عز
وجل - في السماء على العرش ، من فوق سبع سماوات ، كما قالت الجماعة ، وهو
من حجبتهم على المعتزلة والجهمية ، في قولهم : إن الله - عز وجل - في كل
مكان ، وليس على العرش . والدليل على صحة ما قال أهل الحق : قوله -
تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (٢) وقوله - تعالى - : (ثم استوى على
العرش ، مالكم من دونه من ولي ، ولا شفيع) (٣) وقوله - تعالى - : (ثم استوى
إلى السماء وهي دخان) (٤) وقوله - تعالى - : (إذا لا تبغوا إلى ذي العرش
سبيلا) (٥) وقوله - تعالى - : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٦) وقوله -
تعالى - : (فلما تجلى ربه للجبل) (٧) وقوله - تعالى - : (أأمنتم من في
السماء أن يخسف بكم الأرض) (٨) وقوله - تعالى - : (سبح اسم ربك
الأعلى) ، وهذا من العلو ، وكذلك قوله - تعالى - : (العلى العظيم) (٩)

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١٧ ص ٦٥٦ .

(٢) الآية ٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٤ من سورة الم سجدة .

(٤) الآية ١١ من سورة حم فصلت .

(٥) الآية ٤٢ من سورة الإسراء .

(٦) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٧) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٨) الآية ١٦ من سورة الملك .

(٩) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

وقوله - تعالى - : (الكبير المتعال) ^(١) ، وقوله - تعالى - : (رفيع الدرجات ذو العرش) ^(٢) وقوله - تعالى - : (يخافون ربكم من فوقهم) ^(٣) ، والجهمى يزعم أنه أسفل .

وقال جل ذكره : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) ^(٤) وقال - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) ^(٥) وقال - تعالى - لعيسى : (إني متوفيك ورافعك إليّ) ^(٦) وقال - تعالى - : (بل رفعه الله إليه) ^(٧) وقال - تعالى - : (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار) ^(٨) وقال - تعالى - (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) ^(٩) وقال - تعالى - : (ليس له دافع . من الله ذى المعارج) ^(١٠) والعروج الصعود . وأما قوله - تعالى - : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم) فمعناه : من على السماء ، يعنى على العرش ، وقد يكون « فى » بمعنى « على » ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) ^(١١) وقوله - تعالى - : (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) ^(١٢) أى على الأرض وهذا كله يعضده قوله - تعالى - : (تعرج الملائكة والروح إليه) ^(٥) وما كان مثله مما تلونا من الآيات فى هذا الباب ^(١٣) ا هـ

-
- (١) الآية ٩ من سورة الرعد .
 - (٢) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .
 - (٣) الآية ٥٠ من سورة النحل .
 - (٤) الآية ٥ من سورة الم سجدة .
 - (٥) الآية ٤ من سورة المعارج .
 - (٦) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
 - (٧) الآية ١٥٨ من سورة النساء .
 - (٨) الآية ٣٨ من سورة فصلت .
 - (٩) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .
 - (١٠) الآيتان ٢ و ٣ من سورة المعارج .
 - (١١) الآية ٧١ من سورة طه .
 - (١٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
 - (١٣) التمهيد ج ٧ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

وقال أيضا : « وما روى عن ابن عباس في قوله - تعالى - : (الرحمن على العرش استوى) (١) أنه قال : على جميع برئته ، فلا يخلو منه مكان » .
 فالجواب : أنه منكر ، ونقلته مجهولون ، وضعفاء . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول ، فكيف يحتاجون بمثل هذا الأثر الساقط . وأما تعلقهم بقوله - تعالى - : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) (٢) وقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الآية (٣) وزعمهم أن الله - تبارك وتعالى - فى كل مكان بنفسه وذاته .

فيقال لهم : أنتم لاتخالفون بأنه ليس فى الأرض دون السماء ، بذاته ، فيجب حمل هذه النصوص على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وهو أنه فى السماء إله معبود ، من أهل السماء ، وفى الأرض ، إله معبود ، من أهل الأرض ، وهو الذى قاله أهل العلم بالتفسير .

وقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) (٣) الآية ليس فيها حجة لهم ، لأن علماء الصحابة ، والتابعين ، الذين روى عنهم التفسير ، قالوا فى هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، ولم يخالفهم فى ذلك من يعتد به .

ثم ذكر عن ابن مسعود : قال : « الله فوق العرش ، لا يخفى عليه شئ من أعمالكم . وذكر عن الضحاك ، وسفيان الثورى مثله » (٤) .

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٤) التمهيد ج ٧ ص ١٣٣ - ١٣٩ ملخصا .

فتبين بما ذكره أن هذه الآيات التي تعلق بها نفاة العلو ، تدل على عكس قولهم ، فهي متفقة مع النصوص الصريحة في الدلالة على علو الله تعالى .
ومن الحجج القاطعة أن الله تعالى فوق السماوات على عرشه ، أن كل داع يدع الله - تعالى - يجد في نفسه دافعا يدفعه إلى الاتجاه إلى الله فوقه ، وهو أمر ضرورى وقطعى ، فلا يمكن لأى سائل يسأل الله ويطلب منه إلا رفع يديه ، واتجه بقلبه ، ونظره إلى من يستغيث به الذى هو عال فوق جميع مخلوقاته مستوي على عرشه ، فالعلم بذلك فطرى ضرورى عقلى ، ونصوص الشرع جاءت مؤيدة ذلك مقررة له .

قال شيخ الإسلام : « ذكر محمد بن طاهر المقدسى ، عن الشيخ الجليل أبى جعفر الهمداني ، أنه حضر مجلس أبى المعالى الجوينى ، وهو يقول : كان الله ، ولاعرش [ولامكان] وهو على ما [كان] عليه [قبل خلق المكان] أو كلام من هذا المعنى ، فقال : ياشيخ ، دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط : ياالله إلا وجد من قلبه ضرورة ، بطلب العلو ، ولا يلتفت يمينه ، ولايسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ .
فصرخ أبو المعالى ، ولطم رأسه ، وقال : « حيرنى الهمداني ، حيرنى الهمداني » (١)

وقد تعلق نفاة العلو أيضا : بأن الله - تعالى - لوكان في مكان ، لأشبهه المخلوقات لأن ماأحاطت به الأمكنة ، فهو مخلوق .
فيقال : هذا نشأ عن القياس الفاسد ، والتشبيه المستكن في نفوس هؤلاء إذ لو آمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، وأنه ليس كمثل شيء ، ماانطلت هذه الشبه وهذا الهراء على نفوسهم .
ويقال أيضا : أستم تقرون بأن الله - تعالى - موجود قبل خلق الكون ،

(١) الاستقامة ج ١ ص ١٦٧ .

فهو تعالى كما قال رسول الله - ﷺ -: « كان الله ، ولم يكن شيء معه » (١)
 ونحن وأنتم وكل العقلاء ، لا نعقل وجود أحد منا ، إلا في مكان ، وماليس
 في مكان ، فهو عدم ، والله بخلاف ذلك ، فلا يجوز أن يقاس بخلقه كما فعلتم
 قلمت : لو كان في مكان ، لأشبهه خلقه .

فإن زعموا أنه يلزم من كونه تعالى في العلو ، التغير ، والانتقال ، لأنه تعالى
 كان ، ولا مكان ، فلما خلق المكان ، صار في العلو ، فزال عن صفته في الأزل
 وصار في مكان .

قيل : وأنتم يلزمكم أقبح من ذلك ، وهو زعمكم أنه - تعالى - كان ،
 لافي مكان ، ثم صار في كل مكان ، فقد تغير عندكم معبودكم ، وانتقل من
 لامكان ، إلى كل مكان . وهذا لازم لكم ، لانفكاك لكم منه .

وقولهم : كان الله ، ولا مكان ، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق
 المكان . كلام فاسد ، متناقض ، وذلك أن النفاة للاستواء والعلو ، وغيرهما ، على
 قسمين :

قسم يقول : إن الله لا فوق ، ولا تحت ، ولا يمين ، ولا شمال ، ولا أمام ،
 ولا خلف ولا داخل العالم ، ولا خارجه ، وهذا لا يفهم منه إلا العدم المحض ،
 فليس له وجود فعلي على هذا الوصف ، فهو إذاً ليس له مكان أصلاً ، إذ لا
 وجود له .

وقسم يقول : إنه في كل مكان ، فيلزم أنه كان في كل مكان ، قبل خلق
 المكان ، فهو إذاً في هذا الكون كله ، قبل خلقه له ، وهذا قول ظاهر الفساد ،
 إذ معناه : كان في الأمكنة ، قبل خلقها .

فالحق « أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في نفسه ، ولا في فعله ، وفي

(١) تقدم هذا الحديث مشروحا ، وبين أن هذا اللفظ مروى بالمعنى ، وأن

الصواب « ولم يكن شيء قبله » .

صفاته ، ولا في مفعولاته فإذا رام الإنسان أن ينفي شيئاً مما يستحقه ، لعدم نظيره في الشاهد المحسوس ، صار ما يثبتته بدل نفيه أبعد عن المعقول ، والمشهود « (١) .
ومن الحجج المشهورة على وجوب علو الله تعالى : ماتقدم في كلام ابن أبي العز : وهو أن يقال : لما خلق الله الخلق ، لا بد أن يكون خلقه بائناً منه ، فلا يجوز أن يكون الخالق - جل وعلا - في المخلوق ، وأن يكون المخلوق حاوياً له ، - تعالى عن ذلك ، فلا بد أن يكون بائناً عنه ، ولا يجوز أن يكون المخلوق فوق الخالق - تعالى - وتقدس ، فلا بد أن يكون عالياً فوق خلقه .

قال شيخ الإسلام : « معرفة القلوب ، وإقرارها بفطرة الله التي فطرها عليها ، أن ربهما فوق العالم ، ودلالة الكتاب والسنة على ذلك ، وظهور ذلك في خاصة الأمة وعامتها ، وكلام السلف في ذلك ، أعظم من كونه - تعالى - يرى بالأبصار يوم القيامة ، أو أن رؤيته بالأبصار جائزة .

ويشهد لهذا أن الجهمية ، أول ما ظهروا في الإسلام ، في أوائل المائة الثانية . وكان حقيقة قولهم في الباطن ، تعطيل الرب - تعالى - من الصفات كلها ، ولا يصفونه - تعالى - إلا بالسلب المحضة ، التي لا تنطبق إلا على المعدوم ، وكانوا في الباطن ينكرون أن يرى ، أو يتكلم ، أو أنه فوق العرش ، أو أن يكون موصوفاً بالصفات التي جاءت بها كتب الله ، أو دلت عليها مع ذلك الدلائل العقلية ، لكن ما كانوا يظهرون من قولهم للناس ، ما هو ظاهر البطلان ، وما ليس فيه شبهة مثل نفى العلو المعروف ، المتيقن من الدين بالضرورة عند العامة ، والخاصة ، وإنما يظهرون ما فيه شبهة ، وهم عليه حجة ، ويكونون فيه أقل مخالفة لما يعلمه الناس من الحجج القطرية ، الشرعية . وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ما عليه أمة من الأمم من الحق ، فإنهم لا ينقضون الأصول العظيمة ، الظاهرة ابتداءً « (٢) .

ومن المؤسف أن بعض ضلالات الذين ذكرهم الشيخ ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين كالأشعرية ، الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم ، مع أنهم

(١) بيان تلبس الجهمية ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) بيان تلبس الجهمية ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ بتصرف .

يتفوقون معهم على إنكار علو الله تعالى ، واستوائه على عرشه ، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده ، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، كما أخبر به رسول الله - ﷺ .

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلا ، تأويلا يؤول إلى الإنكار ، مثل اليدين ، والرجلين ، والوجه ، والرحمة ، والمحبة ، والضحك ، والرضا ، والغضب ، والسخط ، والمقت . وغير ذلك .

ويوافقون الجهمية في كون القرآن مخلوقا ، فإنهم يجعلون الكلام قسمين : نفسى ، وهو المعنى القائم بالنفس ، وهذا هو الذى يصفون الله به ، ولفظى حرفى وهو المكتوب فى المصاحف ، وهو ليس كلاما لله عندهم ، بل هو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق ، وهذا قول الجهمية ، الذين كفرهم السلف من أجله .

والمقصود أن علو الله - تعالى - واستواءه على عرشه ثابت بنصوص الكتب المنزلة على رسل الله ، وبالفطر ، التى عليها عباده ، وبالعقول التى لم تنتكس بفعل الشياطين ، وبإجماع أهل العلم والإيمان ، من جميع الأمم ، كما تقدمت الإشارة إليه . ولم يعرف خلاف فى هذه المسألة ، ونحوها إلا بعد ما دخل كثير من الزنادقة فى الإسلام نفاقا ، وقصدوا لإفساد الدين ، بعد المائة الأولى للهجرة ، وإن كان قد وجد قبل ذلك بعض المفسدين ، المتطرفين ، الذين كان لهم الأثر السئ فى الأمة .

قال شيخ الإسلام : « افترق الناس ، فى علو الله ، واستوائه ، أربع فرق :

الأولى : الجهمية ، النفاة ، يقولون : ليس داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا فوق ، ولا تحت ، وجميع الطوائف من أهل البدع يتمسكون بنصوص ، إلا الجهمية .

وقسم ثان منهم يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، ويدخل فيهم الأشاعرة ، وهؤلاء هم الفرقة الثانية .

الثالثة : من يقول : إنه فوق العرش ، وهو في كل مكان ، ويزعم أنه بذلك يجمع بين النصوص .

الرابعة : المتبعون للكتاب ، والسنة ، الذين أثبتوا ما أثبتته الله ، ورسوله ، من غير تحريف ، فأمنوا بأن الله فوق سماواته ، مستوٍ على عرشه « (١) »

وقد تقدم ذكر بعض الآيات الدالة على علو الله تعالى صراحة ، وبعض الأحاديث مما ذكره البخارى ، وغيره .

ومما لم يذكره ، قصة معراج الرسول - ﷺ - إلى ربه فوق السماوات كلها ، وهى ثابتة ثبوتاً قطعياً بدون ريب .

وفى حديث الرقية : « ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك » (٢)

وفى حديث الأوعال : « والعرش فوق ذلك ، والله فوق عرشه ، وهو يعلم ما أنتم عليه » (٣)

وفى سنن أبى داود ، عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله - ﷺ - أعرابى فقال : يارسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله ﷺ . حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، وقال : ويحك أتندرى ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا ، وقال بأصابعه ، مثل القبة « (٤) »

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ ملخصاً .

(٢) رواه أبو داود فى السنن ج ٤ ص ٢١٨ رقم ٣٨٩٢ ، وأحمد فى المسند ج ٦ ص ٢١ .

(٣) رواه أبو داود ج ٥ ص ٩٣ والترمذى وقال : حسن غريب ج ٥ ص ٤٢٤ رقم ٣٣٢٠ وبين ماجه ج ١ ص ٦٩ وأحمد فى المسند ج ١ ص ٢٠٦ و ٢٠٧ وغيرهم .

(٤) أخرجه أبو داود فى السنن ج ٥ ص ٩٤ ، وأبو سعيد الدارمى فى الرد على الجهمية ص ٢٧٢ ، وفى الرد على المريسي ص ٤٤٧ .

وفي خطبته صلى الله عليه وسلم - في عرفة ، في أعظم جمع اجتمع له صلى الله عليه وسلم بعدما أمر ، ونهى ، جعل يقول : « ألا هل بلغت » ؟ فيقولون : نعم . عند ذلك يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكها إليهم ، ويقول : اللهم أشهد غير مرة (١) .

والنصوص في ذلك كثيرة جدا ، والحق في هذه المسألة واضح جلي ، بل وفي كل ما يجب لله تعالى ، وما يمتنع عليه ، ومعلوم أن الله - تعالى - قد أكمل لهذه الأمة دينها على لسان رسوله ، وأتم عليها النعمة بذلك ، وأنزل كتابه فيه تبيان كل شيء ، ومعرفته تعالى بما له من الأوصاف ، ومعرفة ما يمتنع عليه هي أجل أمور الدين وأعظم أصوله ، فلا بد أن يكون هذا قد بين غاية البيان .

ثم إنه ليس بين علو الله تعالى على جميع خلقه ، ومعيته لخلقه ، وقربه من عباده ، منافاة فعلوه - تعالى - واستواؤه على عرشه ، ثابت ثبوتا قطعياً ، كما وضح ذلك تعالى في كتابه ، وبينه رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكذلك معيته تعالى لخلقه ، قد وضحها وبينها رسوله ، فوجب الإيمان بذلك ، فكما أنه تعالى مستوٍ على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، حقيقة ، فهو كذلك موصوف بالقرب ، والمعية على الحقيقة .

قال شيخ الإسلام : « لا يخالف ما ثبت من علو الله ، وأنه فوق العرش ، معيته لخلقه ، الثابتة بمثل قوله : (وهو معكم أينما كنتم) (٢) .

وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة ، فإن الله قبّل وجهه » (٣) ونحو ذلك .

وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة ، كما جمع الله بينهما في

(١) تقدم أنه أخرجه مسلم .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) رواه البخارى في الصلاة باب ٣٣ ص ٧٥ وفي أماكن متعددة ، ومسلم ج

قوله - تعالى - : (هو الذى خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعلمون بصير) (١) فأخير - تعالى - أنه فوق العرش ، يعلم كل شئ ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبى - ﷺ - فى حديث الأوعال « والله فوق العرش ، وهو يعلم ماأنتم عليه » (٢) .

وذلك أن كلمة مع فى اللغة ، إذا أطلقت ، لم يكن ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة ، أو محاذاة ، عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعانى ، دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى ، لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله - تعالى - : (وهو معكم أينما كنتم) (٣) دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ، ومقتضاها : أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ، ومهين ، عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف : إنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب ، وحقيقته .

وقوله : (لاتخزن ، إن الله معنا) (٤) حق على ظاهره ، ودلت الحال ، على أن حكم هذه المعية : الاطلاع ، والنصر ، والتأييد ، ومثلها قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) (٥) وقوله - تعالى - : (إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٢) تقدم ذكر من خرجه ص ٤٧٦ .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) الآية ٤٦ من سورة طه .

محسنون (١) حق ، وحكمها النصر ، والتأييد « (٢) .

والمعية نوعان : عامة ، وخاصة .

فالأولى ، هي المذكورة في مثل قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) (٣) ،

والثانية هي المذكورة في مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) (٤) ، فهذه خاصة بأنبيائه وأوليائه ، وعباده المؤمنين ، فهو - تعالى - معهم دون أعدائهم ، معهم بسمعه ، ورؤيته ونصره ، وتأيدته ، كما أنه - تعالى - معهم بإحاطته وقبضته .

والمعية لاتدل على المخالطة ، والممازجة ، وإنما تدل على المصاحبة ، كما قال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل » (٥) .

فهو - سبحانه - مع المسافر في سفره ، ومع أهله في وطنه ، وهو فوق عرشه ، وكل ذلك على ظاهره ، غير محتاج إلى تأويل ، ولا يلزم منه أن تكون ذاته مختلطة بذوات خلقه تعالى الله وتقدس عن ذلك ، وذلك لأن المفهوم من المعية في اللغة العربية المصاحبة والمقارنة ، حكمها حسب مورد الخطاب ، فقوله - تعالى - (محمد رسول الله والذين معه) (٦) أى على الإيمان ، لا أن ذواتهم حالة في ذاته ، بل هم مصاحبون له ، ومتبعون له على الإيمان ، وقوله : « فأولئك مع المؤمنين » يدل على موافقتهم ، في الإيمان ، وموالاتهم .

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٥) رواه مسلم في الصحيح ج ٢ ص ٩٧٨ الحديث رقم ١٣٤٢ ورواه غيره .

(٦) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

فإنه - تعالى - مع عباده ، يراهم ، ويسمع كلامهم ، وهو محيط بهم ، وعلمه بهم من لوازم معيته لهم ، وليست المعية هي العلم كما يتوهمه بعض الناس ، فعلمه تعالى محيط بكل شيء ولا يختلف أو يتغير ، ولذلك صارت المعية إلى خاصة ، وعامة ، وكل واحدة لها مقتضاها وحكمها ، فمن مقتضى العامة : المراقبة ، والتخويف ، والاطلاع على جميع التصرفات ، وماتكنه الصدور .
ومن مقتضى الخاصة : النصر ، والتأييد ، والحفظ .

وتفسير من فسرها بالعلم من السلف ، يقصد بيان أن الله ليس مختلطاً بخلقه أو حالاً فيهم ، أو أن شيئاً من مخلوقاته تحويه ، أو تظله ، أو تقله - تعالى - وتقدس .

وأما القرب ، فقد جاء على صيغتين : الإفراد نحو قوله تعالى - : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا لى لعلمهم يرشدون) (١) وكما فى حديث أبى موسى المتقدم : « إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وهو تعالى فوق عرشه ، ويقرب ممن يشاء من خلقه ، كيف يشاء ، كما قرب من موسى - عليه السلام - حين كلمه ، وهو فوق عرشه ، فوق السماوات كلها فلا تنافى بين علوه ، وقربه ومعيته ، لأنه تعالى أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير . - تعالى - الله عن ظنون السوء الكاذبة .

فعلو الله العلى العظيم ، واستوائه على عرشه ، ومعيته وقربه كل ذلك ثابت له حق على ظاهره ، كما أخبر به تعالى عن نفسه ، وأخبرت به رسله فالكل ثابت لله تعالى فى الكتب الإلهية ، وفى نصوص الأنبياء .

وأهل الفطرة العقلية السليمة ، من الأولين والآخرين ، يقولون : إنه تعالى فوق عرشه ، عالٍ على خلقه ، وهو معهم ، بعلمه ورؤيته ، وسمعه وإحاطته ، وقبضته وهيمته عليهم .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

ومع أنبياءه ، وأوليائه بذلك وينصره ، وتأيدته ، وحفظه .

ومعيته تعالى من صفاته الخاصة به .

وأما الصيغة الأخرى للقرب : صيغة الجمع كقوله تعالى : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (١) وهذا يقصد به في لغة العرب ، الواحد العظيم ، الذى له عبيد يطيعونه ، ويسارعون في أمره وإذا وقع الفعل منهم عن أمره قال : نحن فعلنا ، كما يقول الرئيس نحن أمرنا بكذا . والله تعالى رب الملائكة ، وخالقهم ، وخالق أفعالهم ، وهم يمثلون لأمره ، (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) (٢) ، (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (٣) مع أنه تعالى غنى بذاته عن ملائكته ، وجميع خلقه ، وهو الذى أقدر خلقه على ما يفعلون ، وأعطاهم القدرة على ذلك ، وإذا شاء سلهم ذلك ، فإذا قال تعالى - : (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) (٤) إذا كان المراد الملائكة كان من هذا الباب .

والمقصود أن علو الله - تعالى - ثابت له بالعقل ، وأدلة الكتاب ، وما بلغه الرسول - ﷺ - أمته ، وثابت بالضرورة الفطرية ، والأدلة عليه لا تحصى ومنكره ، منكر للمعلوم بالضرورة من الدين ، والمعلوم بالضرورة العقلية الفطرية وليس بين علو الله واستواءه على عرشه ، وبين معيته لخلقه ، ولأوليائه وأنبياءه ، وقربه منهم تعارض .

★ ★ ★

تم الجزء الأول من الشرح ويليه الجزء الثانى وأوله :

باب قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة » .

(١) الآية ١٦ من سورة ق .

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .

(٣) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

١ - فهرس الآيات التي استدل بها البخارى

- ١ - (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) الآية
٧٥ من سورة الإسراء
- ٢ - (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الآية ٥٨ من سورة الذاريات ٩٢
- ٣ - (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية ٢٦ من سورة الجن ١٠٣
- ٤ - (إن الله عنده علم الساعة) الآية ٣٤ من سورة لقمان . ١٠٣
- ٥ - (أنزله يعلمه) الآية ١٦٦ من سورة النساء . ١٠٣
- ٦ - (وما تحمل من أثنى ولا تضع إلا يعلمه) الآية ١١ من سورة فاطر ،
والآية ٤٧ من سورة حم فصلت . ١٠٣
- ٧ - (إليه يرد علم الساعة) الآية ٤٧ من سورة فصلت . ١٠٣
- ٨ - (السلام المؤمن) الآية ٢٣ من سورة الحشر . ١٢١
- ٩ - (ملك الناس) الآية ٢ من سورة الناس . ١٣٧
- ١٠ - (وهو العزيز الحكيم) أول سورة الحديد وفي مواضع كثيرة من القرآن ١٤٥
- ١١ - (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) الآية ١٨٠ من سورة الصافات ١٤٥
- ١٢ - (والله العزة ولرسوله) الآية ٨ من سورة المنافقون . ١٤٥
- ١٣ - (وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق) الآية ٧٣ من سورة الأنعام . ١٦٣
- ١٤ - (وكان الله سميعا بصيرا) الآية ٥٨ و ١٣٤ من سورة النساء . ١٨٣
- ١٥ - (قل هو القادر) الآية ٦٥ من سورة الأنعام . ٢٠١
- ١٦ - (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) الآية ١١٠ من سورة الأنعام . ٢١١
- ١٧ - (ويحذركم الله نفسه) الآية ٢٨ و ٣٠ من سورة آل عمران . ٢٤٩
- ١٨ - (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) الآية ١١٦ من سورة المائدة ٢٤٩
- ١٩ - (كل شئ هالك إلا وجهه) الآية ٨٨ من سورة القصص . ٢٧٣
- ٢٠ - (ولتصنع على عينى) الآية ٣٩ من سورة طه . ٢٨١
- ٢١ - (تجرى بأعيننا) الآية ١٤ من سورة القمر . ٢٨١
- ٢٢ - (هو الله الخالق البارئ المصور) الآية ٢٤ من سورة الحشر . ٢٩١
- ٢٣ - (لما خلقت بيدي) الآية ٧٥ من سورة ص . ٢٩٧

- ٢٤ - (وكان عرشه على الماء) الآية ٧ من سورة هود . ٣٤٩
- ٢٥ - (وهو رب العرش العظيم) الآية ١٢٩ من سورة التوبة . ٣٤٥
- ٢٦ - (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) الآية ١٩ من سورة الأنعام . ٣٤٣
- ٢٧ - (تعرج الملائكة والروح إليه) الآية ٤ من سورة المعارج . ٤٣٩
- ٢٨ - (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) الآية ١٠ من سورة فاطر . ٤٣٩

٢ - الأحاديث المشروحة ، التي استدلت بها البخارى على ترتيب الكتاب

- ١ - حديث معاذ : « إنك تقدم على قوم ، من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه ، إلى أن يوحدوا الله » . ٣٢
- ٢ - حديثه أيضا : « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » . ٤٤
- ٣ - حديث أبى سعيد الخدرى : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد يريدها » ٥١
- ٤ - حديث عائشة : « أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد » . ٥٩
- ٥ - حديث جرير بن عبد الله : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » . ٧٧
- ٦ - حديث أسامة بن زيد : « كنا عند النبي ﷺ . إذ جاء رسول إحدى بناته » . ٨٠
- ٧ - حديث أبى موسى : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » . ٩١
- ٨ - حديث عبد الله بن عمر : « مفاتيح الغيب خمس » . ١١٠
- ٩ - حديث عائشة : « من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب » . ١١٥
- ١٠ - حديث ابن مسعود : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا التحيات لله » ١٣٠
- ١١ - حديث أبى هريرة : « إن الله يقبض الأرض يوم القيامة » . ١٣٩
- ١٢ - حديث أنس : « تقول جهنم قط قط وعزتك » ١٥٠
- ١٣ - حديث أبى هريرة : « يبقى رجل بين الجنة والنار » . ١٥٠
- ١٤ - حديث ابن عباس : « أن النبي ﷺ - كان يقول : أعوذ بعزة الذى لا إله إلا أنت » . ١٥٢
- ١٥ - حديث أنس مكرر : « لا يزال يلقي فيها وتقول : هل من مزيد » ١٥٤
- ١٦ - حديث ابن عباس : « كان النبي ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد » ١٦٩
- ١٧ - حديث عائشة موقوفا : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » . ١٨٨
- ١٨ - حديث أبى موسى : « أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا » ١٩٠
- ١٩ - حديث أبى بكر : « علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال : قل : اللهم إنى ظلمت نفسى » . ١٩٣
- ٢٠ - حديث عائشة : « أن جبريل نادانى ، قال : إن الله قد سمع قول قومك لك » ١٩٨
- ٢١ - حديث جابر : « كان يعلم أصحابه الاستخارة » . ٢٠٤
- ٢٢ - حديث ابن عمر : « أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف : لاومقلب القلوب » . ٢١٣
- ٢٣ - حديث أبى هريرة : « إن لله تسعة وتسعين اسما » . ٢١٨

- ٢٢٩ - حديث أبى هريرة : « إذا جاء أحدكم فراشه فلينبضه » .
- ٢٥ - حديث حذيفة : « كان النبي ﷺ - إذا آوى إلى فراشه قال : اللهم باسمك أحيأ وأموت » .
- ٢٦ - حديث أبى ذر : « كان النبي ﷺ - إذا أخذ مضجعه من الليل قال : اللهم باسمك نموت ونحيا » .
- ٢٧ - حديث ابن عباس : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله » .
- ٢٨ - حديث عدى بن حاتم : « قلت : أرسل كلابى المعلمة » .
- ٢٩ - حديث عائشة : « قالوا : يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك . قال : اذكروا اسم الله وكلوا » .
- ٣٠ - حديث أنس : « ضحى النبي ﷺ بكيشين » .
- ٣١ - حديث جندب : « من ذبح قبل أن يصل ، فليذبح مكانها أخرى » .
- ٣٢ - حديث ابن عمر : « لاتحلفوا بأبائكم » .
- ٣٣ - حديث أبى هريرة : فى قصة قتل حبيب .
- ٣٤ - حديث عبد الله بن مسعود « ما من أحد أغير من الله » .
- ٣٥ - حديث أبى هريرة : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه » .
- ٣٦ - حديثه أيضا : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى » .
- ٣٧ - « حديث جابر : « لما نزلت : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال النبي ﷺ : أعود بوجهك » .
- ٣٨ - حديث ابن مسعود : « إن الله لا يخفى عليكم ، أن الله ليس بأعور » .
- ٣٩ - حديث أنس « ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب » .
- ٤٠ - حديث أبى سعيد فى العزل : « ما عليكم أن لاتفعلوا » .
- ٤١ - حديث أنس فى الشفاعة : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا » .
- ٤٢ - حديث أبى هريرة : « يد الله ملى لأبغض نفقة » .
- ٤٣ - حديث ابن عمر مكرر : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض » .
- ٤٤ - حديث أبى هريرة : « يقبض الله الأرض » .
- ٤٥ - حديث ابن مسعود « أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله يمسك السماوات على إصبع » .

- ٤٦ - حديث المغيرة : « قال سعد : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربتته بالسيف ، فقال رسول الله ﷺ : تعجبون من غيرة سعد » الخ . ٣٤٠
- ٤٧ - حديث سهل بن سعد : « قال لرجل : أمعك شيء من القرآن ؟ » . ٣٤٦
- ٤٨ - حديث عمران بن حصين : « كان الله ولم يكن شيء قبله » . ٣٧٥
- ٤٩ - حديث أبي هريرة : « إن يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة » . ٣٨٨
- ٥٠ - حديث أنس : « جاء زيد يشكو ، فجعل النبي ﷺ - يقول : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » . ٣٨٩
- ٥١ - حديثه أيضا « نزلت آية الحجاب في زينب ، وأطعم عليها » ٣٩٣
- ٥٢ - حديث أبي هريرة : « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه » . ٣٩٦
- ٥٣ - حديث أبي هريرة : « من آمن بالله ، ورسوله ، وأقام الصلاة » الخ . ٣٩٨
- ٥٤ - حديث أبي ذر : « يا أباذر ، هل تدري أين تذهب هذه » يعنى الشمس ٤٠٨
- ٥٥ - حديث زيد بن ثابت : « أرسل إلى أبو بكر ، فتبعت القرآن » . ٤١٤
- ٥٦ - حديث ابن عباس : « كان النبي ﷺ - يقول : عند الكرب : لا إله إلا الله العليم الخليم » . ٤١٨
- ٥٧ - حديث أبي سعيد : « يصعقون يوم القيامة ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش » . ٤٢٧
- ٥٨ - حديث ابن عباس : « بلغ أباذر مبعث النبي ﷺ - فقال لأخيه : اعلم لى علم هذا الرجل » . ٤٤٢
- ٥٩ - حديث أبي هريرة : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار » . ٤٤٤
- ٦٠ - حديثه أيضا : « من تصدق بعدل ثمرة ، من كسب طيب » . ٤٤٧
- ٦١ - حديث ابن عباس : في دعاء الكرب المتقدم . ٤٥٠
- ٦٢ - حديث أبي سعيد : « بعث إلى النبي ﷺ بذهبية قسمها بين أربعة - وفيه فقال له رجل : يا محمد اتق الله » . ٤٥١
- ٦٣ - حديث أبي ذر مكرر : « سألت النبي ﷺ - عن قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها) » . ٤٥٧

٣ - فهرس الأبواب : حسب ترتيب البخارى رحمه الله

- ١ - باب ماجاء فى دعاء النبى ﷺ - أمتة إلى توحيد الله - تبارك وتعالى . ٣١
- ٢ - باب قول الله تبارك وتعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا
فله الأسماء الحسنى) ٧٥
- ٣ - باب قول الله تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . ٩١
- ٤ - باب قول الله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد) . ١٠٣
- ٥ - باب قول الله تعالى : (السلام المؤمن) . ١٢١
- ٦ - باب قول الله تعالى : (ملك الناس) . ١٣٧
- ٧ - باب قول الله تعالى : (وهو العزيز الحكيم) . ١٤٥
- ٨ - باب قول الله تعالى : (وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق) . ١٦٣
- ٩ - باب : (وكان الله سميعا بصيرا) . ١٨٣
- ١٠ - باب قول الله تعالى : (قل هو القادر) . ٢٠١
- ١١ - باب : مقلب القلوب . ٢١١
- ١٢ - باب : إن لله مائة اسم إلا واحدة . ٢١٥
- ١٣ - باب : السؤال بأسماء الله تعالى ، والاستعاذة بها . ٢٢٣
- ١٤ - باب : ما يذكر فى الذات ، والنعوت ، وأسامى الله عز وجل . ٢٤١
- ١٥ - باب قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) . ٢٤٩
- ١٦ - باب قول الله - عز وجل : (كل شىء هالك إلا وجهه) . ٢٧٣
- ١٧ - باب قول الله تعالى : (ولتصنع على عيني) . ٢٨١
- ١٨ - باب قول الله تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور) . ٢٩١
- ١٩ - باب قول الله تعالى : (لما خلقت بيدي) . ٢٩٧
- ٢٠ - باب قول النبى ﷺ : « لاشخص أغير من الله » . ٣٣٥
- ٢١ - باب : (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله) . ٣٤٣
- ٢٢ - « وكان عرشه على الماء » . ٣٤٩
- ٢٣ - باب قول الله تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه) . ٤٣٩

٤ - فهرس بأهم المراجع للشرح

- ١ - اجتماع الخيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، للإمام ابن قيم الجوزية ، المطبعة المنيرية بتصحيح الشيخ عبد الله بن حسن وإبراهيم الشورى عام ١٣٥١ هـ .
- ٢ - إرشاد السارى ، المجلد العاشر منه - وهو شرح القسطلانى على البخارى ، صورته دار الفكر فى بيروت عن الطبعة السادسة مطبعة بولاق عام ١٣٠٦ هـ
- ٣ - الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .
- ٤ - إثثار الحق على الخلق ، لأبى عبد الله محمد بن المرتضى اليماني ، صورته دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة الأولى .
- ٥ - الاستيعاب لأبى عمر ابن عبد البر ، تحقيق البجاوى .
- ٦ - الإصابة للحافظ ابن حجر ، تحقيق البجاوى .
- ٧ - بدائع الفوائد لابن القيم ، الطبعة المنيرية .
- ٨ - بيان تليس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة المكرمة عام ١٣٩١ هـ
- ٩ - التمهيد شرح الموطأ - لابن عبد البر ، المجلد السابع طبعة المغرب
- ١٠ - التمهيد فى علم الكلام ، للباقلانى .
- ١١ - تفسير البغوى « معالم التنزيل » على هامش تفسير الخازن ، مطبعة مصطفى البانى الحلبي عام ١٣٧٥ هـ
- ١٢ - تفسير ابن كثير ، تحقيق عبد العزيز غنيم ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا ، مطبعة الشعب بمصر .
- ١٣ - تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المعارف بمصر .
- ١٤ - تفسير الطبرى ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثالثة عام ١٣٨٨ هـ
- ١٥ - تفسير أسماء الله الحسنى ، للزجاج .
- ١٦ - تهذيب الأسماء واللغات للنوى ، تصوير دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة المنيرية .
- ١٧ - تهذيب اللغة ، للأزهري ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .
- ١٨ - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، نشرته المكتبة العلمية بالمدينة عن المطبعة المنيرية .

- ١٩ - جلاء الأفهام لابن القيم ، المطبعة المنيرية عام ١٣٥٧ هـ .
- ٢٠ - حادى الأرواح لابن القيم .
- ٢١ - الحيدة فى الرد على المعتزلة ، لعبد العزيز الكنانى ، مطابع القصيم فى الرياض .
- ٢٢ - خلق أفعال العباد ، للبخارى ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشره على سامى النشار ، وعمار جمعى الطالبى .
- ٢٣ - درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .
- ٢٤ - الأذكار للنووى ، تحقيق محمد رضا خورشيد .
- ٢٥ - الروح لابن القيم ، مطبعة محمد صبيح ، الطبعة الثانية عام ١٣٧٦ هـ .
- ٢٦ - رد الإمام أحمد على الزنادقة والجهمية . ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشر على سامى النشار وزميله .
- ٢٧ - زاد المسير لابن الجوزى ، طبعة المكتب الإسلامى .
- ٢٨ - الأسماء والصفات لليهقى .
- ٢٩ - السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة .
- ٣٠ - السنة لابن أنى عاصم . تحقيق وتخرىج الألبانى .
- ٣١ - سنن أبى داود ، إعداد عزت عبيد الدعاس .
- ٣٢ - سنن الترمذى ، نشر المكتبة السلفية فى المدينة .
- ٣٣ - سنن النسائى « المجتبى » الطبعة الأولى ، المطبعة المصرية فى الأزهر .
- ٣٤ - سنن ابن ماجه ، رقم أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى .
- ٣٥ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للالكائى ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان .
- ٣٦ - شرح الطحاوية ، لابن أبى العز ، الطبعة الثالثة .
- ٣٧ - شرح الكرماتى على البخارى ، صورة عن الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث ببيروت .
- ٣٨ - شرح مسلم للنووى ، المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ .
- ٣٩ - شرح العمدة [أحكام الأحكام] لابن دقيق العبد ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة أنصار السنة .
- ٤٠ - شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى للنووى .
- ٤١ - الصحاح للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية .
- ٤٢ - صحيح مسلم ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

- ٤٣ - طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ، مطبعة أنصار السنة .
- ٤٤ - عدة الصابرين لابن قيم الجوزية .
- ٤٥ - غريب الحديث ، لأبى عبيد ، طبعة حيدر آباد .
- ٤٦ - غريب الحديث للخطابى ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغزناوى ، من منشورات مركز البحث العلمى فى جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢ هـ .
- ٤٧ - فتح البارى ، للحافظ ابن حجر العسقلانى . المطبعة السلفية .
- ٤٨ - القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزابادى . مطبعة السعادة بمصر .
- ٤٩ - كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة . تحقيق الهراس .
- ٥٠ - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة الرياض .
- ٥١ - مسند الإمام أحمد ، صورة المكتب الاسلامى عن الطبعة الأولى فى مصر .
- ٥٢ - مسند الإمام أحمد ، تحقيق وشرح أحمد شاکر ١٦ جزءاً ولم يكمل ، مطبعة المعارف بمصر .
- ٥٣ - مشارق الأنوار ، للقاضى عياض ، صورته دار الجيل عن الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٣ هـ .
- ٥٤ - المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى مطبعة مصطفى البابى .
- ٥٥ - منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة بولاق .
- ٥٦ - منهاج السنة ، الجزء الأول والثانى ، تحقيق محمد رشاد سالم .
- ٥٧ - منهاج فى شعب الإيمان للحلبى ، مصور عن ثلاث نسخ مخطوطة ومطبوع فى بيروت .
- ٥٨ - موطأ الإمام مالك ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٥٩ - نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ، ضمن مجموعة عقائد السلف سابقة الذكر .
- ٦٠ - النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة المنيرية عام ١٣٤٦ هـ .

٥ - فهرس الموضوعات

- مقدمة ، فيها بيان أن الله تعالى أتم على هذه الأمة نعمته ، وأن رسوله بين للناس الدين أتم بيان .
- ٣ - ٥
- ٥ ذكر بعض أسباب اختلاف الأمة ، في أصول الدين .
- ٦ أوضح الله تعالى ورسوله مسائل العقيدة أتم إيضاح .
- ٩ بدء الانحرافات عن النهج السوى .
- ١٢ أصابع يهودية ، ومجوسية تحطت لهدم الإسلام بالخفاء .
- ١٧ وصف المقرئى اختلاف الأمة ، متبعاً ذلك من مبدأ الإسلام إلى زمنه
- ٢٠ أكبر الفرق التي تنتسب إلى الإسلام ، وقد فارقت الحق في الجملة ، وهي أربع
- ٢٤ الأشعرية ، ومبدأ وجودها —
- ٢٦ مقاومة أهل البدع ، من قبل علماء السنة .
- ٢٧ الإمام البخارى ، وكتابه الجامع الصحيح .
- شروح الصحيح الموجودة بأيدى الناس اليوم غالبها على غير منهج البخارى
- ٢٨ خصوصاً في العقيدة
- ٢٩ المنهج المتبع في هذا الشرح
- ٣١ الرسول ﷺ بلغ أمته أنواع التوحيد ، وبينها لهم غاية البيان
- ٣٢ ترجمة معاذ بن جبل ، وعبد الله بن عباس
- ٣٤ اليمن ، لماذا سمي باليمن
- ٣٥ من هم أهل الكتاب الذين كانوا باليمن ؟ وما سبب مجيئهم إليه .
- ٣٧ معنى شهادة ألا إله إلا الله
- ٣٨ معنى شهادة أن محمداً رسول الله
- ٤٠ مبدأ العلم الإلهى وأصله
- ٤٠ أول ما يجب على العبد
- ٤١ انحراف المتكلمين في جعلهم أول واجب الشك أو النظر ، أو القصد إليه
- ٤٤ حق الله على العباد ، وحقهم عليه ، ومعنى العبادة
- ٤٧ معنى الإيجاب على الله تعالى - عند من يقول به
- ٤٩ الفروق بين الخالق ، والمخلوق
- ٥٣ قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، ومعنى ذلك

- ٥٥ تفاضل كلام الله - تعالى - وصفاته
- ٥٩ معنى كون « قل هو الله أحد » صفة الرحمن
- ٦١ ثبوت الصفات لله تعالى ، والرد على منكرها
- ٦٤ الفرق بين الأسماء ، والصفات .
- ٦٤ ثبوت صفة المحبة لله - تعالى - ووجوبه على عباده ، والرد على من أنكر ذلك
- ٦٩ الكلام على معنى الصمد ، والأحد
- ٧٥ أسماء الله تعالى كلها حسنى ، ومعنى ذلك
- ٧٨ صفة الرحمة ، وأدلة ثبوتها ، والرد على من أنكرها أو أولها
- ٩١ صفة القوة ، والمتانة .
- ٩٣ صفة الصبر ، والفرق بين الصبر ، والحلم
- ٩٥ ضلال الذين يسبون الدهر
- ١٠٠ الله تعالى يتأذى بفعل العبد ، ولكن لا يضره شيء
- ١٠٣ صفة العلم ، بيان أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى
- ١٠٥ معنى قوله : (أنزله بعلمه)
- ١١٠ مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، وبيان معنى تسميتها بذلك
- ١١٢ كذب الخراصين الدجاجلة ، الذين يلبيسون على الناس
- ١١٥ الرسول ﷺ - لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله
- ١١٦ لم ير النبي ﷺ ربه ليلة المعراج
- ١١٩ ضلال مدعى علم الغيب للرسول ﷺ
- ١٢١ معنى وصف الله تعالى بأنه السلام المؤمن
- ١٣٠ معنى قوله : « التحيات لله »
- ١٣٢ ذكر القول الصواب في معنى (السلام)
- ١٣٣ لا يلزم فيمن يخاطب أن يكون سامعا
- ١٣٤ الصواب : أن صيغة السلام على النبي ﷺ في الصلاة كما في حديث عبد الله
- ١٣٧ معنى الملك ، والفرق بينه وبين المالك
- ١٤٠ ثبوت الأفعال الاختيارية لله تعالى مثل القبض ، والبسط ، والنزول ، والمجيء
- ١٤١ خطأ من توهم في صفات الله تعالى ما في المخلوق
- ١٤٢ من هم المشبهة ، وهل تكلم بلفظ الجسم أحد من السلف

- ١٤٥ صفة العزة ، ومعناها . ومعنى قوله (رب العزة)
- ١٤٩ لا يخلف إلا بالله أو صفاته
- ١٥٢ التعوذ بصفات الله تعالى .
- ١٥٦ ثبوت القدمين لله تعالى ، والرد على من أنكرهما
- ١٦١ كلام جهنم ، وأدلة ذلك
- ١٦٥ كلام الله حق ، وهو من صفاته ، ويقوله أوجد الأشياء المخلوقة
- ١٦٦ الحق يطلق على عدة أمور
- ١٦٩ معنى الحمد ، والفرق بينه وبين المدح ، والشكر
- ١٧١ وصف الله تعالى بالنور ، وأدلة ذلك والرد على من أنكره
- ١٧٣ أنواع المضاف إلى الله تعالى
- ١٧٨ الرد على من أنكر أن الله تعالى يتكلم
- ١٨١ شرح حديث ابن عباس : « اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض » الخ .
- ١٨٢ صفة السمع والبصر وأدلة ذلك
- ١٩٠ شرح حديث أبي موسى : « أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم » الخ .
- ١٩٣ شرح حديث أبي بكر : « قلت علمني دعاء أدعو به في صلاتي » الخ
- ١٩٨ شرح حديث عائشة : « إن الله قد سمع قول قومك لك »
- ٢٠١ عموم قدرة الله - تعالى - وشموها لكل شيء
- خطأ الذين يدخلون المتضادات تحت قوله : (على كل شيء قدير) ثم يقولون إنه
- ٢٠٢ لا يقدر عليه ، وبيان أن المعلوم ليس شيئاً في الوجود
- حرص الرسول ﷺ على هداية أمته يمنعه أن يترك باب معرفة الله غير مبين
- ٢٠٥ موضح
- ٢٠٥ معنى الاستخارة ، وفيم تكون ، وأهميتها
- الله تعالى قادر على كل شيء ممكن ، الممتنع لنفسه ، والمعلوم ليس بشيء وبطلان
- تلييس الملاحظة في قولهم : « هل يقدر على خلق مثل نفسه » ، والفرق بين الممتنع
- ٢٠٧ لنفسه ، والممتنع لغيره

- ٢١١ لا يقدر العبد على الاهتداء حتى يجعله الله قادرا
- ٢١٥ معنى كون أسماء الله تعالى حسنى ✓
- ٢٢١ معنى قوله من أحصاها دخل الجنة ، وبيان أنها غير محصورة بهذا العدد
السؤال والاستعاذة بأسماء الله تعالى ، مراد البخارى ، وذكر الخلاف فى الاسم
والمسمى .
- ٢٢٣
- ٢٢٦ هل يقال : الصفات زائدة على الذات
- ٢٢٩ ذكر الله عند النوم ، واليقظة ، وسر ذلك
- ذكر الله تعالى عند الاتصال بالزوجة ، وبيان دخول ذلك فى قوله تعالى (والله
- الأسماء الحسنى فادعوه بها)
- ٢٣٤
- ٢٣٥ من عبادة الله تعالى ذكر اسمه على الصيد ، والذبح ، والأكل
- ٢٤٠ من عبادة الله تعالى الحلف باسمه صادقا ، خائفا من عقابه لو كذب
- ٢٤١ الكلام على لفظ ذات ، وهل تطلق على الله ، وبيان الصواب
- ٢٤٩ وصف الله تعالى بأن له نفسا ، وأدلة ذلك
- ٢٥٧ كلمة أحد لا يوصف بها إلا الله تعالى فى الإثبات .
- ٢٥٨ مدح الإنسان نفسه نقص ، نهى عنه الشرع
- ٢٦٠ معنى « قضى » ، ومعنى كتابة الله على نفسه
- ٢٦٢ صفة الرحمة ، والرد على منكرها
- ٢٦٣ معنى قوله : « أنا عند ظن عبدى لى »
- ٢٦٥ معية الله تعالى لخلقه ، ومعناها ، وأقسامها
- ٢٦٧ معنى « الملاء » وقرب الله تعالى من عبده ، معناه ، وأقسامه
- ٢٧٣ صفة الوجه ، وأدلة ذلك
- ٢٧٦ بيان بطلان تأويل الوجه بالملك
- ٢٨١ لله تعالى عينان ، وبيان وجه ورود العين مفردة ، ومجموعة
- ٢٨٤ الدجال أعور ، وهذا نقص ظاهر ، ومع ذلك يدعى الربوبية
- ٢٨٨ المتكلمون يرمون من أثبت الصفات بالتشبيه ، وهذا علامة أهل البدع
- ٢٩١ وصف الله تعالى بأنه الخالق البارئ المصور
- ٢٩٢ الفرق بين هذه الأوصاف الثلاثة
- ٢٩٥ كل ماهو كائن فقد سبق علم الله به ، وكتابته له ، وولاد من وجوده

- ٢٩٦ الخلق غير المخلوق ، أدلة ذلك
- ٢٩٧ أدلة ثبوت اليمين ، وبطلان قول المؤولين .
- ٢٩٨ حديث الشفاعة ، والكلام عليه
- ٣٠٤ يد الله ملامى لا يغيضها نفقة
- ٣٠٧ إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، ويطوى السماوات يمينه
- ٣١٠ ثبوت أصابع الرحمن ، وإبطال قول أهل التأويل
- ٣١٤ ذكر بعض النصوص في اليمين
- ٣١٨ الرد على الخطائي ، ومن سلك طريقه فلا إنكار أصابع الله ، وماتهم به
- ٣١٨ عبد الله بن مسعود من عدم الفهم عن رسول الله ﷺ
- ٣٣٥ وصف الله تعالى بالغيرة ، ومعناها
- ٣٣٨ خطأ ابن بطال في زعمه إجماع الأمة على أن الله لا يوصف بأنه شخص
- ٣٤٣ يخبر عن الله تعالى بأنه شيء ، وموجود ، ولكن لا يوصف بذلك
- ٣٤٦ يطلق على صفات الله تعالى - أنها شيء ، دليل ذلك
- ٣٤٩ معنى العرش وذكر بعض أقوال السلف فيه
- ٣٥٥ صفة الاستواء ، وأقوال السلف فيه ، وأدلته ✓
- ٣٥٧ بطلان تأويل الاستواء بالاستيلاء ، ونحوه ✓
- ٣٦٢ نفى كيفية الاستواء ✓
- ٣٦٩ بعض السلف كفر من أنكر الاستواء ✓
- ٣٧٢ معنى الودود ، والمجيد
- ٣٧٥ شرح حديث عمران بن حصين : « كان الله ولم يكن شيء قبله »
- ٣٧٨ روى الحديث بثلاثة ألفاظ : قبله ، ومعه ، وغيره ، وذكر الراجح
- ٣٨٩ كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ : تقول : زوجني الله في السماء
- ٣٩٤ معنى أن الله في السماء
- ٣٩٦ معنى قوله : عنده فوق عرشه
- ٣٩٨ معنى الإيمان بالله تعالى
- ٤٠٠ معنى الهجرة ، وأقسامها
- ٤٠٠ أقسام الجهاد
- ٤٠٥ معنى الفردوس

- ٤٠٨ الكلام على حديث أبي ذر ، فى سجود الشمس تحت العرش كل ليلة
 معنى قول زيد بن ثابت فى الآية آخر سورة التوبة : لم أجد لها إلا مع أبى خزيمَةَ ٤١٦
 ٤١٨ دعاء الكرب ، ودلالته على علو الله تعالى
 ٤٢٧ ذكر صعق الناس يوم القيامة ، والإشكال فيه وبيان الصواب
 ٤٣٩ معنى العروج
 ٤٤٢ علو الله تعالى على جميع خلقه ، ثبوت ذلك بالشرع والعقل والفترة
 ٤٥٣ مبدأ ضلال الخوارج ، بضلال أولهم الذى اعترض على قسمة الرسول ﷺ
 ٤٥٨ أنواع الأدلة على علو الله تعالى
 ٤٦٢ الرد على من نفى علو الله حقيقة وجعله معنى
 ٤٦٤ بعض النصوص على علو الله تعالى
 ٤٧٤ ضلال الأشعرية فى علو الله تعالى
 ٤٧٧ ليس بين علو الله تعالى وبين معيته لخلق ، وقربه منهم منافاة
 ٤٧٩ المعية نوعان
 ٤٨٠ قربه تعالى إلى بعض خلقه لا ينافى علوه على عرشه

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجي

مطبعة المدنى - القاهرة

دار المدنى للنشر والتوزيع

جدة : ص ب ١٨٤٨٥ - ت : ٦٤٣٢٣٦٢

تصويبات « شرح كتاب التوحيد »

صوابه	الخطأ	س	ص	صوابه	الخطأ	س	ص
غر	غير	١٠	١١٦	أرسله	الأسله	٦	٣
مطلوب	مطلوب من	١٥	١٢٤	وتمام النعمة	وتمام على النعمة	١٥	،،
الجامعة وحقيقته	الجامعه وحقيقته	٩	١٢٥	أنا خلقت	أنا خلقت	١٩	١١
ما بين	ما بين	١	١٢٨	ثم يرميهم	ثم يرميهم	١٦	١٧
وصفاته والأول	وصفاته الأول	٨	،،	في ذكر الخبر	في ذكر الخبر	٢	٢٩
وقفهاهم	وقفهاهم	١٧	١٣٠	سأله	سأله	،،	،،
أيا النبي	أيا النبي	٣	١٣٣	آمله	أمله	١٣	،،
القبض	المقبض	٣	١٤٠	الإيجاز	الإيجار	١١	٣٠
باختياره	باختيارية	٢١	،،	حنيفاً	حنيفيا	٦	٣٣
أرض عزاز	أرض غزاز	٥	١٤٧	الفتح	الفتح البخارى	٢٠	٣٨
بنى ثعلبة	بن ثعلبة	١٣	،،	إبلاغ العباد	إبلاغه العباد	١٧	،،
واستارهم	واستنارهم	١٥	١٥٣	تيسير العزيز	يثير العزيز	٢٢	٤٢
امتألت	امتكت	٣	١٦١	وكذا من	وكذا ومن	٩	٥٣
امتألت	امتكت	٥	،،	اللهم	واللهم	٣	٦٣
ملؤها	ملتها	٦	١٦٢	المازرى	المازنى	٩	٦٦
ما خلقت	ما خلقنا	٧	١٦٣	شراحيل	سراحيل	١٠	٨٠
فيها	فيها	١	١٧١	المنهى	المنهى	١٠	٨٤
وعلا	وعلى	١٦	،،	بالتواب	بالتواب	١٦	٨٥
بفتح السين	بضم الميم	١٩	١٧٥	هذا مع	زعموا مع	١٦	٨٦
ينور	ينور	٨	١٧٧	ويسكتون	ويسكتون	١٣	٨٨
هذه الأخبار	هذه الأخبار	٢	١٨٠	فوجه	فوجب	١٢	٩٧
الإخبار	الأخبار	،،	،،	القوت	القوت	١	١٠٢
ووبال	وبال	١٦	١٨١	إعلامهم	وأعلامهم	٤	١٠٤
بأتم	يأتم	٩	١٨٨	وما يكرهه	وما يكره	١٥	١٠٦
سمع	سمه	١	١٨٩	شاء	يشاء	١٨	،،
إلا الصلاة	إلا الصلاة	٣	،،	حقيقية	حقيقية	١٩	١٠٧
خفيت	خفيه	١٣	١٩١	لا يكون إلا إضافة	لا يكون الاضافة	٤	١٠٨
وقد قال	قد قال	١٢	١٩٦	إيراده	إرادة	٦	،،
وسمع القبول	وسمع القبول	١٢	١٩٧	بأنه كان متدينا	بأنه متدينا	١٤	،،
يتعدى	بنعدى	،،	،،	النضرة	النظرة	٢٠	١١٠
ونحول	ونحول	٧	٢١١	السميفع	السميفع	١	١١١
مشيئته	مشيئة	٥	٢١٢	الإخبار	الأخبار	١٤	،،

صوابه	الخطأ	س	ص	صوابه	الخطأ	س	ص
ينشق	ينشف	١٢	٣٥١	اشتق	اشتقت	١٣	٢١٥
سالكم	سألکم	١٤	٣٥٣	وتوعد	ونوعد	٣	٢١٦
فإذا اتقى	إذا التقى	١٥	٣٥٦	من حيث لا	من حيث	١	٢١٧
موارده	مواره	١٨	٣٦٠	إلا بذكر	إلا ذكر	٢١	٢٢٦
بسند عن أبي	بسنده أبي	٥	٣٦١	صفحة ٢٢٤	صفحة ١٦١	٦	٢٢٨
استولى فلان على	استولى فلان على	١	٣٦٥	اللهم	واللهم	٣٤	٢٣٤
مصر استولى	مصر استولى			شبية	شبة	١٩	٢٤٦
من التبشير	من التبشير	١٧	٣٧٦	أبو	ابن	١٢	“
لم يزل فعلا	لم يزل فعال	٥	٣٧٩	واختيارا	واختبارا	٢	٢٥٣
بعيران بعد أن	بعيران	١٤	٣٨٦	المرء	المرأ	١٧	٢٦٤
رحمه الله	رحمه	٩	٣٨٨	صالحا	صالح	٢٤	“
يوجب	بوجب	١٤	٣٩٦	نبي	بنأ	٧	٢٦٥
أخير	أحب	٩	٤٠٠	واستواءه	واستواه	٦	٢٦٦
دينا	دنيا	١٣	٤٠١	عابده	عابد	٣	٢٧٠
تنبئ	تنبيء	٩	٤٠٢	وأنه إذا أقبل	وأنه أقبل	١١	٢٧١
وبالآخر	وبالأخذ	٣	٤٠٦	فاكتفى بذلك	فاكتفى تعالى بذلك	٩	٢٧٣
أنها دائما يبحث فيها	أنها دائم	٧	٤١٠	بقائها	مع بقاءها	١٢	٢٧٦
واستوائه	واستواؤه	٥	٤٢٥	هذا	وهذا	١٢	٢٧٧
موتا	موت	١٧	٤٣٠	اثنتين	اثنين	١٦	٢٧٧
التيان	اتيان		٤٤٤	غيره	وغيره	١٣	٢٩٠
“	“	٨	“	نسأل الله العافية	نسأله العافية	١٩	“
بينه	نيه	١٥	٤٦١	قرعة	فرعة	٦	٢٩٤
والهدى	الهدى	١٠	٤٦٦	رواية	رؤية	١٢	“
أللعناء	للنعاء	١١	“	الخلف	الحلق	٦	٢٩٦
وجهين	وجين	٩	٤٦٨	الوقوف	الموقوف	١٣	٣٠١
ربكم	ربكم	٢	٤٧٠	ولو شاء تعالى لوضع	تعالى - لوضع	١٠	٣١٠
واستواؤه	واستوائه	١٩	٤٨٠	مستند السلف	مستندالسلف	١٩	٣١٣
يردها	بردها	٥	٤٨٤	الحذرى	الحذرى	٤	٣١٦
بعزتك الذى	بعزة الذى	١٧	“	هما مملوءان	مملوءان	٢	٣٣٠
فى إنكار	فلا إنكاره	٨	٤٩٥	العين	العين	٧	٣٣٥
				ولكن بخير	ولكن بخير	٥	٣٤٣
				سعد	سعيد	٤	٣٤٦